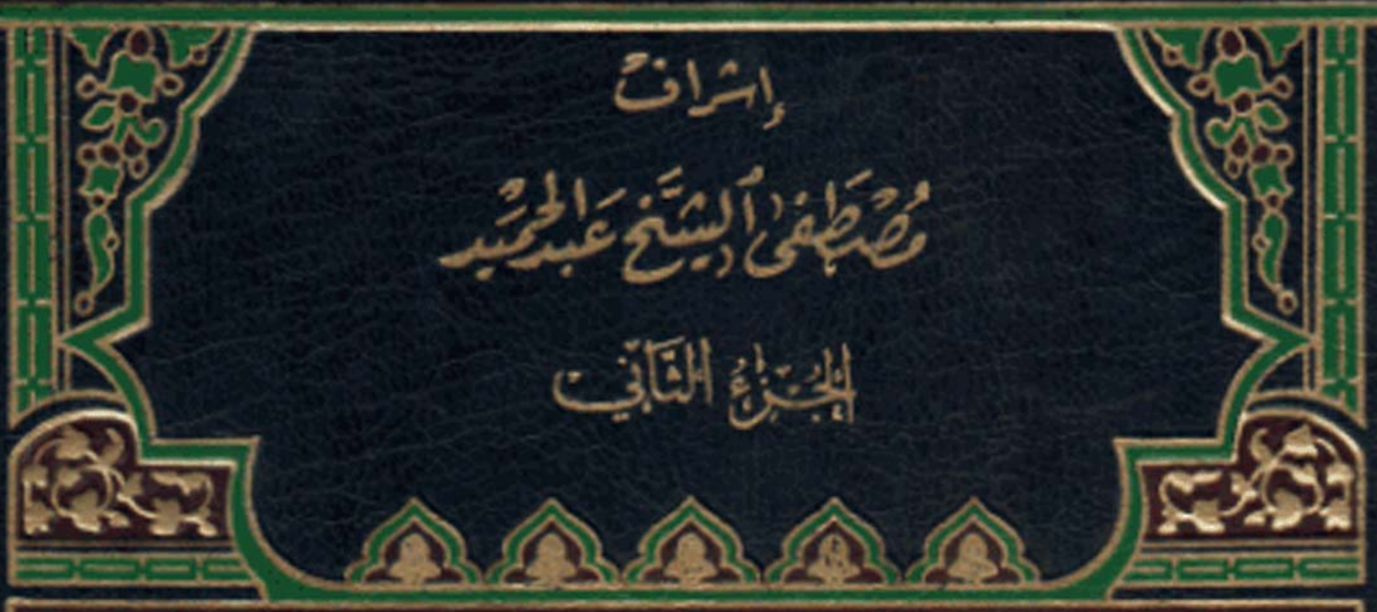
محاضرات الوائلي



منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث
مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

محاضرات الوائلي

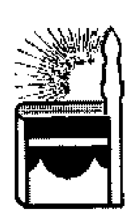
رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الثاني

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر



مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: .... محاضرات الوائلي (رحمه الله)/الجزء الثاني

إشراف: .... مصطفى الشيخ عبد الحميد

الناشر: .... مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

المطبعة: .... شريعت

عدد النسخ: .... (١٠٠٠) نسخة

الطبعة الأولى: .... ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

لبنان / بيروت / الغبيري ص.ب ٢٧٨ / ٢٥

قم/إيران/ ٥٩٨- ٣٧١٨٥ ـ هاتف: ٧٧٣٥٦٤٦ - ٧٧٤٦٥٤٦

info@Omalqora.net

﴿٢٥﴾

الخطيئة والانحراف في المجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الاعتبار بقصص القرآن

هذه الآية الكريمة من قصص القرآن، وأوّل هدف يريده القرآن منا أن نستفيده من القصص هو أن نستنتج العبرة والعظة؛ لأن البشريّة مرّت قبلنا بتجارب ينبغي أن نستفيد منها نحن، فإن كان في التجربة ما هو ناجح فينبغي أن نعمل مثله ونستفيد منه، وإن كان فيها المخطوء فالواجب تجنّبه. وهذا هو معنى العقل التجريبي؛ فللإنسان عقل غريزي، وآخر تجريبي. فالعقل الغريزيّ هو القدرة على الفهم والاستعداد له، وهذا العقل يتميّز به الإنسان، فهو الحيوان العاقل الذي يتصرّف تصرّفاً عقلانيّاً، أمّا الحيوانات الأُخرى فلا تستفيد من التجربة. ولو كان الحيوان يستفيد من التجربة لما صلحت الدنيا، فالبقرة التي ترى غيرها يُذبح مثلاً،

---

(١) القصص: ٨.

لا يمكن لنا أن نستفيد منها بعد ذلك لو أمكن لها أن تستفيد من هذه التجربة، وكذلك الحيوانات الأُخرى. أمّا الإنسان فله قابليّة الاسترجاع، فالتجربة التي يمرّ بها يسترجعها فينتفع بها مرّة أخرى. والذي لا ينتفع بالتجربة فهو كما يقول المثل: «قربة مقطوعة»، يمرّ منها الماء من هنا ويذهب من هناك.

فالهدف من قصص القرآن إذن أن يستخلص الإنسان من كلّ قصّة عظة وعبرة، وإلّا فإن القرآن لا يريد أن يسوّد لنا صفحات لنقضّي بها الوقت فقط دون أن نستفيد منها.

وهنا نقطة لابدّ من الإشارة إليها، وهي أن المجتمع غالباً إذا ارتكب جريمة فإنه لا يعترف بها، بل يُلقي بها على عاتق الضحيّة. فمثلاً هذه القصّة التي تتعلّق بنبي الله موسى ﷺ، فقد أمر فرعون بذبح كلّ من حملت به النساء الإسرائيليّات ـ وذلك لمّا أخبره المنجّمون أن أحد بني إسرائيل سيولد ويتولّى إزالة ملكه وقتله ـ ووزّع القوابل للقيام بمسح كامل لكلّ النساء الإسرائيليّات الحوامل. فكانت المرأة بمجرّد أن تلد تُنظر؛ فإن كان مولودها أُنثى تركوه وإن كان ذكراً قتلوه. وأخفى الله حمل أُمّ موسى فلم تَبن عليها آثار الحمل، ولم يتغيّر لونها ولا بطنها، ولم يدرّ ثديها. وفي يوم الولادة ولدت موسى ﷺ، فذهبت إلى من يصنع لها تابوتاً صغيراً لا ينفذ إليه الماء، ووضعت ابنها في التابوت وقذفته في البحر. وهذه القصّة حدثت في أيام أحد فراعنة مصر وهو ما تسميه تواريخ المسلمين الرّيان بن الوليد[1]، أمّا

---

(١) اعلم أنه قد اختلف المؤرّخون والمفسرون والمحقّقون في حقيقة اسم فرعون موسىٰ ﷺ، وهم في ذلك علىٰ أراء منها:
الأوّل: أنه الريان بن الوليد، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٩: ١٥٨.
الثاني: أنه الوليد بن الريان، وذكره كلّ من ابن عربي في الكامل في ضعفاء الرجال ٤: ٩٦، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١٠: ٩٤.
الثالث: أنه الوليد بن مصعب، وذكره كلّ من الدينوري في الأخبار الطوال: ٤، ١١، وابن أبي

التواريخ الغربيّة والتوراة والإنجيل فتقول: إنها حدثت سنة (١٤٣٥) ق.م أيّام «آمون»، وهو أحد فراعنة مصر. وهناك رأي يقول: إنها حدثت أيّام رعمسيس. وهذا لا يهمّنا بقدر ما يهمّنا الهدف من القصّة.

ويستفيد الفقهاء من هذه القصّة وجوب الالتقاط، فالإنسان يلتقط الأموال التي يجدها، وأحياناً يلتقط حيواناً ضالاً، والآية تتحدّث عن التقاط الإنسان، فبعض الأهالي يرمون أطفالهم لأسباب مختلفة منها أن يكون الأب ملكاً أو رئيساً أو حاكماً قارف مع إحدى جواريه شيئاً حتى لو كان حلالاً، لكنه لا يريد أن يعتبر الجنين ابنه لأنه ابن جارية، وهو إنما أراد أن يقضي شهوته فقط، فيكون الضحية هو الطفل. أو أن يرتكب أبوان منحرفان الزنا فتكون ثمرة الزنا هذا الطفل، فيعرضا عنه ويرمياه، وأحياناً يكون هناك سبب آخر. والمجتمع كما قلنا يخلق الضحية ثم يلقي اللوم على عاتقها. فما السبب الذي جعل المجتمع يصل إلى هذا المستوى؟

لا نريد أن نقول: إن البشرية يجب أن تتحوّل إلى ملائكة، لكن الأعمّ الأغلب أن هذه القضايا تحدث لأننا لم ننظّم وضع العلاقة الجنسيّة. وتنظيم هذه العلاقة يحتاج إلى مؤسّسات تسهّل أمر الزواج وتحثّ عليه، وتزيل العقبات عن طريقه، وتضع ضماناً اجتماعيّاً وغذائيّاً للأب والأسرة. فإن عرف الأب أن عنده تكافلاً

☚ الحديد في شرح نهج البلاغة ١٠: ٩٤، والطبري في جامع البيان، المجلد: ١، ج ١: ٣٨٥ وفي تاريخه ١: ٢٧١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٨٣، واليعقوبي في تاريخه ١: ١٨٦، والمسعودي في أخبار الزمان: ٢٦٩.

الرابع: أنه مصعب بن الريان، وذكره البيضاوي في أنوار التنزيل ١: ٥٥.

الخامس: أنه نابوس، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٨٣.

السادس: أنه طلما بن تومس، وذكره المسعودي في أخبار الزمان: ٢٦٩.

وذكر عبد المنعم بار محقّق كتاب الأخبار الطوال: ١٢ / الهامش: ٢، أنه منفتاح الثاني كما دلّت عليه الكشوفات الفرعونية.

اجتماعياً ومعيشياً فإنه سيقدم على الزواج حتماً.

والأسباب المعرقلة للزواج هي أسباب غير طبيعيّة، ولو كانت طبيعيّة لكان فيها حكمة من السماء. فمن المستحيل أن يخلق الله تعالى نسمة ـ ولو كانت من طريق غير مشروع ـ ولا يتكفل بها. فعدم التكفلّ آتٍ من الفساد الاجتماعي، فلو كانت الأُمور منظّمة لما حدث هذا كلّه ولا يمكن أن يحدث، فالمجتمع هو الذي يوصل المرء للخطيئة. وأنت أحياناً تضحك من التناقض، فتجد في صحيفة واحدة عموداً يحثّ على الأخلاق والقيم والحشمة، وفي الوقت نفسه يصور امرأة عارية ويعطيها ألقاباً عالية مثل كونها نجمة من نجوم الفن، فكيف يمكن الجمع بين هذا وذاك؟ فهذا يحثّ الآخرين على الاقتداء بهذه المرأة المبتذلة وفي الوقت نفسه يتحدّث عن الأخلاق والقيم. وهو يتحدث أحياناً فيقول:

بيضٌ صنائعنا سودٌ وقائعنا خضرٌ مرابعنا حمرٌ مواضينا

فهلّا قدرت هذه المرابع الخضراء على إشباع جائع بدلاً من أن ينحرف ويبيع نفسه للرذيلة؟ فهذا تناقض، ونحن كلّنا نعيش التناقض، وهذا التناقض يؤدّي بالنهاية إلى حصول الضحيّة في المجتمع، حيث يُنشئها هو ثم يلقي التبعة واللوم على عاتقها.

المبحث الثاني: حول اللقيط وابن الزنا

وقد يقول قائل: هذا المعنى موجود في دينكم، فأنتم لا تسمحون لابن الزنا أن يكون إمام جماعة، فما المانع من أن يكون كذلك إذا كان تقيّاً؟ ولماذا لا تُقبل شهادته؟ ولماذا يشار إليه بالأنامل؟

والجواب هو أن الإسلام لا يريد أن يحمّله تبعة الأبوين وإنما يريد أن تبقى مشاعر الناس نظيفة، فإذا عرفوا أن من يصلّون وراءه ابن زنا فإن نفوسهم لا تقبله.

فهذا لون من ألوان معالجة الواقع، وإلّا فإن المشرّع حاشا له أنْ ينبذه. فـالقرآن يقول: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]، وهذا ليس له ذنب، وإن كان والداه قد جنيا عليه فإنه لا ذنب له ولا يتحمّل الجناية. فمعالجة الشريعة للموضوع تختلف عن معالجة المجتمع، فالمجتمع ينعته بنعوت قاسية، وإذا نعته بذلك فـإنه يـحاول أن ينتقم من المجتمع انتقاماً مروّعاً هائلاً، فإن لم يكن له أب معيّن وأصبحت بـيده طاقات وإمكانات فإنه يحرق الدنيا. انظر إلى زياد لمّا وصل إلى الحكم، ماالذي صنع؟ وانظر إلى أمثال زياد ممّن لا آباء لهم كيف أنهم ينتقمون من المجتمع الذي أنشأهم وأوصلهم إلى هذا الحدّ، فإنهم يتلذذون بسفك الدماء والقتل.

ولهذا فإن علماء التربية حينما يعالجون مسألة الإصـلاح فـإنهم يـقولون: إن الإصلاح يبدأ بتغيير الأُطر الاجتماعية لا بتغيير الفرد، فمثلاً لو أن أحداً يسكـن قرب مستنقع، ويحيط به البعوض الذي ينقل الملاريا أو الأمراض الأُخرىٰ، فإنه في مرحلة العلاج تارة يُعطى دواء ضدّ الملاريا، مع أن هذا العلاج قصير الأمـد، فسرعان مايزول مفعوله وعندما تلسعه بعوضة أُخرى فإنها تسبب له المرض مرّة أُخرىٰ، وتارة نجفّف ما حوله من المستنقعات فنهيّئ له بيئة صحيّة؛ وبذلك نكون قد قضينا على المـرض. فـالإنسان يـعيش ضـمن أُطـر اقـتصاديةّ واجـتماعيّة وأخلاقيّة، فلابدّ من إصلاحها حتى يمكن للفرد أن يتعايش معها؛ فإنه إن تعايش معها فسوف يكون مهذباً، أما إذا كان الإطار الاجتماعي والنظام فـاسدين فـلا يمكن إصلاح هذا الفرد.

إذن، فالمشرع الإسلامي يعالج زاوية من زوايا المشكلة وذلك بالالتقاط، فمن وجد طفلاً مرميّاً في الطريق، فالواجب عليه أن يلتقطه. وهنا أمران:

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

الأوّل: أن اللقيط لا يصحّ أن يسمى بهذا الاسم إلّا إذا تركه أهله.

الثاني: أنه لا يسمى بذلك الاسم إذا كان له كافل يُجبَر على إعالته، فإن كان لديه هذا الكافل كجدّته مثلاً أو جدّه أو عمّه أو غيرهم، فإنهم يُجبرون على كفالته، وهو هنا لا يسمى لقيطاً.

فهو إنما يسمي لقيطاً إذا تركه أهله، ولم يوجد من يكفله.

الشروط الواجب توفرها في الملتقِط

والذي يلتقطه، ويعطيه المشرّع ولاية عليه هو البالغ العاقل؛ لأنه إنْ لم يكن بالغاً عاقلاً فليس له اللياقة على الولاية. والالتقاط فيه نوع من الولاية. مع ملاحظة أن الإنسان في الأصل حرّ لا ولاية لأحد عليه، لكن هذه الولاية التي يعطيها المشرع للملتقِط لا بدّ أن تكون أهليّتها موجودة. وأهليّتها البلوغ والعقل.

ومن شروط من يلتقط أيضاً أن يكون مسلماً؛ لأنه لما كان الالتقاط فيه نوع من أنواع الولاية ـ كما قلنا ـ وإذا كان اللقيط في بلد من بلدان الإسلام، أو في بلد يحتمل فيه أن يكون أبوه مسلماً، فلا يكون في مثل هذه الحالة ولياً عليه إلّا المسلم. والسبب هو قوله تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾[1]، فالكافر لا يكون له سبيل على المسلم. فمن تتوفّر فيه هذه الشروط

---

(١) النساء: ١٤١، ومن هذه الآية يُستدلّ ـ كما صرّح المحاضر في إحدىٰ محاضراته ـ علىٰ إيمان أبي طالب﵁ ؛ إذ لو كان مشركاً لما جاز للرسول ﷺ أن يبقى تحت كفالته طيلة فترة حياته؛ قبل وبعد البعثة المقدّسة. فالآية تنفي السبيل للكافر علىٰ المسلم ولو كان مجرّد مسلم، فما بالك بنبي من أنبياء الله؟

ولو احتُجّ بموسىٰ﵇ وفرعون لقلنا: إن ذلك كان قبل البعثة لا بعدها والرسول ﷺ بقي في كفالة عمّه﵁ حتىٰ بعد البعثة والتشريع.

وقد سئل الإمام السجّاد﵇ عن إيمان أبي طالب، فقال: «واعجبا، إن الله نهى رسوله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت

وجب عليه أن يلتقط من يجده؛ لأنه إنسان، وهو ضحيّة ووليد جريمة ارتكبها المجتمع كما قلنا. فالمجتمع أفسد من جانب فعليه أن يصلح من الجانب الآخر، وهو جانب التقاطه وحضانته. كما أن اللقيط إنسان، والإنسان مكرّم، فإن عاش الإنسان لحظة من لحظات الضعف، وكانت عنده رغبة منحطّة تنتهي به إلى الانحراف والزنا، فما ذنب الجنين؟

وأُلفت النظر هنا إلى أن هناك فرقاً بين الزنا والبغاء؛ فالبغاء عادة يكون غايته والداعي إليه هو الأجر، كما أن الرجل والمرأة اللذين يبغيان يكون كلّ منها قد أخذ الاحتياط لنفسه، فلا يسمحان بتكوّن الجنين أو خروجه، أما الزنا فهو مقارفة الجنس لا بالأجر وإنما هو انحراف بلا مقابل. فإن ولد الجنين فإن التقاطه حينئذٍ يكون تصحيحاً لخطأ ارتكبه المجتمع.

فالفقهاء يضعون هذه الشروط في طريق الالتقاط من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ يؤكّدون على تصحيح المسيرة الاجتماعيّة؛ لأن اللقيط إذا كبر وشعر أن أُمه وأباه سببوا خروجه إلى الوجود بصورة منحرفة، فإنه سيحقد على الدنيا.

ويقول علماء الاجتماع: إن الأُمّ والأبَ نموذج ممثّل للمجتمع، وابن الزنا يحكم على المجتمع عن طريق الأبوين. فلو أن ولداً نشأ بين أُمّ وأب كذّابَين غير مستقيمين، فإنه سيتأثّر بهما ويقيس عليهما المجتمع كلّه. وهناك تجارب يسجّلها بعض العلماء أو الشعراء، فمثلاً تجد أحد الشعراء يقول:

جميعُ النّاسِ خَدَّاعٌ ... إلىٰ جانبِ خَدَّاعِ
يَعيشُون مَعَ الذِّئبِ ... ويَبكونَ مع الرّاعي

فهذا يبدو عليه أنه متأثّر بتجربة شديدة، فيحتمل أنه عاش مع المخادعين

☚ أبي طالب حتى مات». شرح نهج البلاغة ١٤: ٦٨.

ورآهم، وإلّا فإن المسألة ليست كذلك؛ فالناس منهم المستقيم ومنهم خلافه، ومنهم من هو على خلق رفيع ومنهم غير ذلك، فلا يمكن أن نقيس كلّ المجتمع على الأُنموذج الذي رأيناه في تجاربنا.

فالولد غير الشرعي عندما يفتح عينه ويعرف أن أبويه قد نبذاه، وأنهما تسبّبا في إخراجه إلى الوجود بطريق غير مشروع، فإنه سيحقد وسيحاول أن ينتقم من المجتمع، بعملية التعويض[1].

نعود إلى الآية فهي تقول: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ ويعني بآل فرعون «سارة» وهي زوجته المؤمنة. وكانت تعطف على المؤمنين. ولم يكن عندهما ولد، وكانا يخرجان للنزهة على النيل عصراً، فجاء التابوت تتقاذفه الأمواج فالتقطته زوجته التي قيل: إن اسمها سارة، وقيل: آسية، وقيل غير ذلك. وهذا غير مهمّ، ولا داعي لإشغال الذهن به كما فعل أحد المفسّرين الذي قرأت له بحثاً طويلاً من ثلاث صحائف عن اسم كلب أهل الكهف. المهمّ أن القرآن عبّر عن الزوجة بقوله ﴿آل﴾ أي أهل، فهل تصدق كلمة (أهل) على الزوجة أم لا؟ هذه النقطة تعتبر من الفقه السياسي؛ إذ هل إن المقصود بـ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ في آية التطهير ـ وهي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[2] ـ اللحمة التي ترتبط معه باللحم والدم، أم هي العلاقة التي تتمّ عن طريق العقد فتعتبر الزوجة بناء عليه من الآل؟ هذه النقطة موضع صراع بين المسلمين، وقد نتحدّث عنه في موضع آخر إن شاء الله.

المبحث الثالث: حول لام العاقبة

ثم قالت الآية: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً﴾. وتسمى هذه اللام (لام العاقبة)[3]، أي أن

---

(١) أو عملية إيجاد المعادل الموضوعي. (٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) وهي اللام التي في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ﴾. وتسمى لام الصيرورة ولام المآل، فهي الداخلة على الأفعال، والتي يشبّه أن تكون للتعليل غير أن التعليل فيها وارد على طريق

هذا الذي التقطوه ستكون العاقبة أن موتهم يتمّ على يديه. وهنا كلمة للإمام أمير المؤمنين‌ عليه السلام يقول فيها: «تذلّ الأمور للمقادير حتى يكون الحتف في التدبير»[1]. فالإنسان أحياناً يقدّر أن شيئاً ما تكون فيه نجاته، لكنه يكون سبب موته. وعندنا الكثير من المصاديق لهذا المفهوم النظري الذي ورد في كلمة أمير المؤمنين‌ عليه السلام، فمثلاً حينما خرج مروان (آخر خلفاء بني أُمية) بجيشه لقتال جيش العبّاسيّين، وتقابل الجيشان، راح يفكّر بطريقة يتغلّب بها على جيوش العبّاسيّين، فانقدح في ذهنه أن يُخرج ما عنده من أموال في الخزينة فيضعها وسط المعركة، ويخصّص لكلّ من يأتي برأس جندي من جيش العدوّ مبلغ مئة درهم من المال، ولمن يأتي برأس قائد مبلغ ألف درهم متصوّراً أنه بهذه الطريقة سوف يشحذ همم الجنود المقاتلين، ويحرز النصر.

فلما اُلقيت الأموال إلى جنب الجند ورأوها مالوا عليها ينتهبونها، فرآهم معسكر العباسيّين فتصوّروا أنهم انهزموا، فكرّوا عليهم بسيوفهم كرّة عنيفة فانهزموا وقتلوا منهم مقتلة كبيرة؛ فكان حتفهم في تدبيرهم.

وهناك الكثير من الأحداث كان الإنسان يتصوّر بها أنه ينجو، فكانت سبب حتفه؛ ولذا فإن على الإنسان أن يستعين بالسماء لتسدّده؛ لأن نظرياته معرّضة للخطأ. ويعلّمنا الإسلام أن ندعو يومياً خمس مرات[2] بهذا الدعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3]. فالإنسان على الرغم من غروره يبقىٰ عرضة للخطأ والانحراف، وإذا لم تسدّده السماء فسينحرف حتماً. وهذا أحد الأمور التي

☚ المجاز دون الحقيقة: حيث إنهم لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّاً وحزناً، بل المحبّة والتبنّي، لكن حدث أن كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ذلك فشبّه بالداعي الذي يُفعل الفعل لأجله. انظر مغني اللبيب ١: ٢١٤.

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٦.

(٢) على أقلّ تقدير.

(٣) الحمد: ٦.

يتنازع فيها علماء الشريعة وعلماء القانون، فعلماء القانون يقولون: لمَ تطلبون أن يحكمنا الدين؟ إن العقل البشري اهتدى إلى قوانين صائبة يمكن أن توجّهنا وتربّينا. ويقول علماء الشريعة: إن القوانين من صنع الإنسان، وهو عرضة للخطأ. وما أكثر الأخطاء التي وقعت للعظماء. أما التشريعات فمصدرها السماء والكمال المطلق، وهو الله تعالى: فلا يمكن أن يكون في الشريعة خطأ، وإن رأيت الخطأ فإنه حتماً يأتي من شرح القوانين الدينية؛ فالنصّ السماوي لا خطأ فيه وإنما المصيبة والخطأ يأتيان من التفسير.

وهذه مشكلة خطرة جداً، مع أن القرآن حصر أخذ التفسير عن أهل الذكر: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[1]، وأهل الذكر آل محمد ﷺ، يقول الإمام الباقر ﷺ لأبي زرعة: «نحن أهل الذكر»[2].

ولذا نحن نشترط في الإمام العصمة لكي نأخذ منه ما ليس فيه خطأ. صحيح أن الله تعبّدنا بالظاهر وما جرت به ألسنة العرب، لكن هذا الأخذ بالظاهر يكون فيما له ظاهر، أما الأشياء التي لا ظاهر لها، فنأخذها من المعصوم، ولا نُعمل بها آراءنا. هذه ناحية، ومن ناحية ثانية فإنني عندما أُريد أن أشرح النصّ وأتصرّف به فلابدّ أن يكون لديّ المؤهّل لشرحه.

المبحث الرابع: الفرق بين الخاطئ والمخطئ

ثم قالت الآية: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾. هناك فرق بين الخاطئ والمخطئ، فالمخطئ هو من ينشد الحقّ لكنه أخطأ، فهذا قد تجد له لوناً

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) روضة الواعظين: ٢٠٣، جامع البيان، المجلد: ٨ / ج ١٤: ١٤٥، رواه عن جابر، ورواه عن أمير المؤمنين ﷺ في المجلد: ١٠ / الجزء ١٧: ٨، ومثله في الجامع لأحكام القرآن ١١: ٢٧٢، شواهد التنزيل ١: ٤٣٦.

من العذر، أمّا الخاطئ فلا ينشد الحقّ وإنما يرتكب الخطأ وهو مصرّ عليه. ولذا تجد بعض التعابير من هذا القبيل في تأريخنا، فيقولون فيها: إن فلاناً اجتهد فأخطأ. فلمّا قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة وبات بزوجته عروساً، وحدثت تلك المذبحة ورجع، لقيه الخليفة الثاني فقال له: قتلت امرأ مسلماً ونزوت على زوجته! لأرجمنك بأحجارك. فردّ عليه الخليفة الأول: لا أُشيم سيفاً سلّه الله على أعدائه. إنه اجتهد فأخطأ[1].

فالآية تقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾؛ لأنهم كانوا يتصوّرون أنهم سيسلمون بذبح الناس، وهم جاؤوا ليحكموا الناس، فلو ذبحوهم فمن يحكمون؟ ولكن الله لمّا أراد شيئاً هيّأ أسبابه، وكان ذلك سبباً لنجاة نبيه موسى عليه السلام. والذي حصل أن فرعون لما جيء إليه بالطفل أراد أن يقتله، فقالت له زوجته: إن هذا الطفل يبدو أن عمره أكثر من سنة، وقد صدر أمرك بذبح الأطفال من سنة، ثم إننا لا ولد لنا فدعنا نربّيه يكن قرّة عين لنا نأنس به. فأقنعته ثم جاؤوا به، فراحوا يبحثون له عن مرضعة فلم يجدوا له، وكان يأبى كلّ مرضعة، وكانت أُخته تتابع أمره بأمر أُمّها، فقالت لهم: أنا أدلّكم على من يرضعه ويكفله. فقال أحد جلساء فرعون: كيف عرفت؟ لا بد أنك تعرفين البيت الذي خرج منه. فقالت: لا، وإنما أنا أعرف أهل بيت مخلصين لفرعون، وأفضّل أن هؤلاء هم الذين يتكفّلون بتربيته.

فضحك فرعون واستصوب رأيها. وفعلاً أتت بأُمّه، فلمّا عرضوه على أُمّه التقم ثديها، فكان يقال لها: لمَ يأبى المراضع إلّا إيّاك؟ فكانت تقول: إني طاهرة وريحي طيب، وكلّ طفل أحتضنه يقبل على ثديي.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٠٢ ـ ٢٠٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥.

إن الصورة التي يرسمها لنا القرآن عن أُمّ موسى صورة محزنة: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾[١] وهي صورة معبّرة، فهذه المرأة عندما ألقت طفلها في البحر أخذت تتابعه حتى بعد عن عينيها، فأصبح فؤادها فارغاً كما يصفه القرآن، فالطفل يملأ قلب الأُمّ عنفواناً ورحمة ومودّة وحبّاً، فلما ألقته في البحر أصبح فؤادها فارغاً. وقد كانت حقاً مأساة عظيمة.

فالآية تقرّر خطأ هؤلاء في تصوّرهم أنهم سوف يقتلون الناس ويتركون بيوتهم خالية، فيسلمون من الموت والقتل، وأن الله جعل حتفهم فيما أرادوا.

وقد استعمل الأُمويّون النظرية ذاتها مع بيوت النبي، يقول الإمام زين العابدين: «أصبحنا مثل بني إسرائيل عند آل فرعون، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم»[٢]. فقد كان في يوم الطفّ إصرار على جعل بيوت آل محمد خالية، ورحم الله السيد حيدراً الحلي حيث يخبر الرسول ﷺ أن هؤلاء قد طحنوا آله، ولم يُبقوا منهم شيئاً، فتركوا بيوتهم خالية ليس فيها إلّا الأرامل واليتامى، يقول:

وإذا أنديةُ الحي بدت ... تُشعر الهيبةَ حشداً واحتفالاً

قِفْ على البطحاء واهتفْ ببني ... شيبةِ الحمدِ وقُل قُوموا عُجالى

طَحَنَت أبناءُ حربٍ هامَكم ... بِرحىً حربٌ لها كانُوا الثفالى[٣]

كم رضاع الضيم لا شَبَّ لكم ... ناشئٌ أو تجعلُوا الموتَ فِصالا[٤]

---

(١) القصص: ١٠.

(٢) تفسير القمي ٢: ١٣٤، الاحتجاج ٢: ٣٩، وفيه: أمسينا، ورواه عن ابن الحنفية﵁ في الطبقات الكبرىٰ ٥: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ٣٤٨.

(٣) الثفال ـ بالكسر ـ: جلدة تبسط تحت رحى اليد ليقع عليها الدقيق، ويسمى الحجر الأسفل ثفالاً بها. يريد: أن حرباً دقّتهم دقّ الرحا للحبّ إذا كانت مثقلة. النهاية في غريب الحديث ١: ٢١٠ ـ ثفل، لسان العرب ١١: ٨٥ ـ ثفل.

(٤) ديوان السيّد حيدر الحلي ٢: ١٠٠.

هذا وأُخت الحسين عليه السلام تطيل النظر حينما وصلت بالسبايا إلى مدينة جدّها صلى الله عليه وآله، وكأني بها تقول:

خرجنا منك بالأهلين جمعاً   رجعنا لا رجالَ ولا بنينا[1]

* * *

وحقّك لو چهبت الدار   أناجيها بدمع سچّابْ
أشوف ارسومكم بيها   واشتَم ريحة الأحبابْ
واتذكّر ثناياكم   واتكوّم كبال البابْ

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا   وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا
نذر عليّ لئن عادوا وإن رجعوا   لأملأن طريقَ الطفّ ريحانا[2]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.

(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿٢٦﴾

كيف نستوعب اتّهامات الآخرين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: تركيبة المجتمع المكّي

القرآن الكريم عادة يراعي الأُسلوب النفسي في التعامل، فبعض الآيات يصطلح عليها المفسّرون المحدثون أن فيها جوانب نفسية، أي أنها تأخذ بعين الاعتبار نفسيّة من تتعامل معهم. فمجتمع مكّة مجتمع تجاريّ يقوم على الأموال والتجارة، وعنده رحلة الشتاء والصيف، وتوجد فيه طبقة ثرية تمول الجزيرة العربيّة تقريباً. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فهم يرون أنفسهم أنهم أهل بيت الله، وأن عندهم ميزات حضارية. فلما دخل الإسلام مكّة في بدء الدعوة، ودخل فيه منهم من دخل كان معظم هؤلاء فقراء ومن الطبقة المسحوقة، مثل خباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب الرومي وبلال الحبشي. وهذا النمط الضعيف من

---

(١) القصص: ٥٥.

الناس رفعه الإسلام ونهض به، وهيّأ له كياناً، خصوصاً لمّا انتقل النبي ﷺ إلى المدينة وأسّس المجتمع المدني.

ولاحظ المشركون أن هؤلاء أصبحوا شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكونوا شيئاً، فكان ذلك صعباً عليهم، فراحوا يُسمعون المسلمين كلمات نابية. وكذلك كان الأمر في المدينة حيث كانوا يفعلون ذلك أحياناً مع النبي ﷺ، خصوصاً الطبقة المنافقة في المدينة، فكان النبي ﷺ يمرّ فيسمع كلمات من مثل «آذيتنا بنتن حمارك». ويسمع كلمات بحقّ المسلمين مثل «لو طردت عنا هؤلاء الأعبد وأرواح جِبابهم». فأمر الله نبيه ﷺ أن يبلّغ المسلمين بأن يأخذوا بعين الاعتبار الجانب النفسي لهؤلاء وألّا يعاملوهم بالمثل، وأن يرتفعوا عن مستوى المقابلة، وأن يسمعوا الكلمة فيسكتوا ولا يرتّبوا عليها أثراً.

كيف نردّ على من يتوجّه إلينا بالسباب؟

فالآية نزلت في هذا الجوّ المحموم بالكلام والتراشق، تقول الآية: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**﴾، واللغو هنا هو كلّ ما يُكره من القول ويُتفاحَش من الكلام، كاللفظة النابية التي تؤذي الآخرين. فلماذا عبر القرآن عن هذا الكلام بأنه لغو؟ نحن نعرف أن أحد معاني اللغو هو الكلام الذي لا فائدة منه، فلماذا يعبر القرآن عن هذا اللون من الكلام بأنه لغو ولا معنى له؟ الجواب هو أن الكلام لا بد أن يكون له مردود، فإذا لم يكن له مردود صار لغواً، والشتم لا مردود له أبداً، بل بالعكس، يكون له مردود عكسي. فالإنسان عنده طاقة كامنة فإن فرّغها بالشتائم ذهبت هذه الطاقة، ولا نتيجة من وراء الشتائم، لكنها إذا بقيت مخزونة فيمكن توظيفها في يوم من الأيام لهدف كبير.

ثم إن الشتم يجعل من المجتمع مجتمع سباب، ومن ناحية أُخرى يكون أحياناً

تعدّياً إذا كان بلا موجب؛ لأن عِرض المؤمن وكرامته كبيرة جداً بحيث إن الدنيا لا تعادل الإنسان المؤمن. فهؤلاء كانوا يعرضون عن اللغو لأنه لا جدوى من ورائه، والإنسان المحترم يرتفع بلسانه عن اللغو. وقد كان الاحنف بن قيس صاحب قبيلة من مئة ألف شخص، وكان إذا قال لهم: تقدّموا. تقدّموا لأي عمل ولو كان فيه الموت، ولا يسألونه عن السبب، فشتمه أحد الناس يوماً وراح يسمعه ألفاظاً نابية، فلم يلتفت إليه الأحنف، فقال للأحنف: أأنت حجر؟ إياك أعني. فقال له الأحنف: وعنك أُعرض.

وهذا من الخلق الرفيع، خصوصاً إذا كان التوازن مفقوداً بين الشاتم والمشتوم، فمثلاً صعد مروان المنبر في المدينة فراح يشتم الإمام علياً عليه السلام بحضور الإمام الحسن عليه السلام، فلم يجبه الإمام الحسن عليه السلام أبداً. وحتى الإمام علي عليه السلام لو كان موجوداً لما ردّ عليه، فمن هو مروان حتى يردّ عليه؟ وهل يكون الإمام علي عليه السلام طرفاً مع هذا؟ يقول الشاعر:

بلاء ليس يشبهه بلاءُ عداوة غير ذي حسب ودينِ
يبيحك منه عِرضاً لم يصنه ويرتع منك في عِرض مصونِ[1]

فمن غير الممكن أن يكون علي عليه السلام طرفاً مع مروان، فإن اعتدى حيوان فلا يقابل بالمثل. والقرآن يريد الارتفاع بمستوى الفرد المسلم إلى مستوى أخلاقي محترم، فلا يقابل اللغو بالمثل؛ لأن مقابلة اللغو بالمثل تهبط بالانسان عن مستواه، بل بالعكس، فمع كثرة من شتموا الإمام علياً عليه السلام لم ينزلوا من قدره[2]؛ لأنه لم يرد

---

(١) البيتان لعلي بن الجهم، الغدير ٣: ٣٠٢، طبقات الشعراء: ٣٩٢، الأغاني ١٢: ١٠٢، جمهرة الأمثال ٢: ٥٥.

(٢) قال الرياشي: انتقص ابن حمزة بن عبد الله بن الزبير علياً عليه السلام فقال له أبوه: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا. أما ترى علياً وما يُظهر

ولم يُجب مع أنه كان يسمع الشتم بأذنيه ولا يرتّب على ذلك شيئاً من الأثر.

كان أحدهم يناديه وهو يخطب على منبر الكوفة: «لله أبوك، ما أفصحك كاذباً». وإلى جانبه من يناديه: «أشهد أنك أنت الله»[1] والعياذ بالله. فلم يكن الإمام علي عليه السلام يرتّب أثراً على شتم هذا، لكنه ينهى ذلك المغالي، حتى إنه أحرق المغالين بالنار[2].

فهدف الآية ألّا ينزل المسلم إلى مستوى اللغو، فإن نزوله لا يليق بكرامة الإنسان أبداً. ومن هنا نلاحظ أن الإسلام لا زال يُشتَم، لكن قادة الإسلام لم يشتموا من شتَمهم، فلو اطّلعت على الفكر الأوروبي لرأيت أنه يعتبر المسلمين من سقط المتاع، يقول أحدهم: كلّ الشعوب كلاب عدا إسرائيل، هذا هو الغرب المسيحي. ولا ننسَ صيحات الكرادلة والبابوات التي انتهت إلى الحروب الصليبية، والشتم المروّع الذي كان يشتم به الإسلام بأنه هجمة بدوية خرجت من قلب الصحراء وأحرقت الحضارة. بل حتى قادة الفكر الأوروبي إذا جاؤوا على ذكر الإسلام فإنهم يشبعونه شتماً.

وماركس حينما ينقد فلسفة هيگل يعبر عن الإسلام بأنه «صرخة الألم المكبوت» عند الفرد، وهو أفيون الشعوب. ومعنى «صرخة الألم المكبوت» أن الإنسان الذي سحقته النظم يخلق في داخله شيئاً يسميه (الله)، ويتصوّر أن هذا سيخلّصه، فهو بذلك يخدّر نفسه، فهو مثل شارب الأفيون. وهذا من الكلام الهراء

☚ بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩.

وقريب منه ما في المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

(١) بحار الأنوار ٥٢: ٢٨٥، ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه.

الذي لا يستحقّ الردّ؛ فإنّك لو سألته: من خلق هذا العالم الذي تعيش فيه أنت؟ وهل ولد هذا النظام الدقيق المتناهي في الدقّة من فراغ؟ فلو أمسكت بنبتة بسيطة وشرّحتها ودرستها لعرفت أن من ورائها قدرة لا حدّ لها. يقول «ميتز» المتخصّص بدراسة الغدد: «إن غدّة من الغدد بحجم الحِمَّصة لو أردنا أن نبدلها بمعمل فإننا نحتاج إلى مساحة تعادل المدينة التي نعيش فيها». فهل حصلت هذه صدفة ودون تخطيط؟ كلّ شيء يدلّ بإبداعه على وجود الله عز وجل.

إن كلام ماركس وأمثاله هراء لا يستحقّ الردّ، ولكن أردت هنا أن أبيّن لك مقدار الحقد على الإسلام، ومع ذلك فالإسلام لم يردّ عليهم. تعال إلى القرآن الذي هو مصدر حضارتنا تجده يقول: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[1]، فكم هو الفرق بين هذا الخُلق وبين من يقول: إن محمداً جالس متمدّد مترهّل يأكل من أموال السلب والنهب؟ وهذا ليس شتماً نظيفاً يستحقّ المقابلة، فهناك من يأتيك بدليل علمي فيمكنك أن تقول له: إن دليلك هذا خطأ وتناقشه، أمّا إذا كان لا يملك غير السباب؛ فهذا كافر وذاك مشرك، فماذا تصنع معه؟ وكلّ دليله الواهي حول هذا الكفر المزعوم أن هذا يأكل طعام الحسين عليه السلام يوم العاشر، فلو أكل طعام مروان لصار مؤمناً.

وأنا أُريد أن أُلفت النظر فقط، فإني أرى بعض الشباب يتحمّس ويتألّم من بعض الشعارات، فأدعوهم إلى عدم التأثّر وعدم ترتيب الأثر؛ لأننا نعرف مصادر هذه الشعارات ومن يقف وراءها. فعلينا ألّا نحقّق غرض من يحاول شقّ وحدة المسلمين، وأن نكون واعين، وأن نعرف مصادر هذا اللغو. وعلى الإنسان أن يتّبع

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

ما أنزل الله، ويجتهد قدر الإمكان ألّا يتعدّى ما رسمته له الشريعة، ثم لا عليه إن نقده من ينقده.

رد المأمون على عمّه المهدي

تقول الآية: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، أذكر بالمناسبة أن إبراهيم بن شَكلة ـ ابن المهدي، وهو أخو الرشيد ـ كان مغنّياً معروفاً، يعيش في بيئة معروفة من الخمرة والجواري والمفاسد. فلمّا بايعوا الإمام الرضا بولاية العهد حدث انقلاب في بغداد؛ إذ كان هناك جماعة أرادوا ألّا يُخرجوا الخلافة من البيت العباسي، فجاؤوا بإبراهيم هذا باعتباره من الأُسرة الحاكمة فبايعوه واعتبروه خليفة، فوقف له دعبل بن عليّ الخزاعي الشاعر الرساليّ الذي وظّف فكره وقافيته لنصرة الحقّ ودحض الباطل، وقف بأكثر من قصيدة وقصيدة فجعله مهزلة من المهازل.

فلما دخل المأمون واستعاد السلطة، هرب إبراهيم واختفى عن الأنظار، فقيل له: اذهب إلى ابن أخيك وألقِ بنفسك عليه؛ عسى أن يرأف بك. فجاء ودخل المجلس، فصفح عنه المأمون.

وفي يوم من الأيّام دخل على المأمون ـ وكان إبراهيم هذا حاقداً بشكل عجيب على الإمام الرضا وذرّيّته، حتى وُجد في وصيّته: «إن أموالي توزّع على جميع أولاد الصحابة إلّا أولاد علي»[1] ـ نعم، دخل على المأمون فقال له: أُريد أن أقول لك شيئاً. قال: قل. قال: أنتم تقولون: إن علياً سيد الفصحاء والبلغاء. قال: نعم هو كذلك. قال: لقد رأيته في المنام فحاولت أن أُحاجّه، فكلّما حاولت ذلك فإنه لم يجبني إلّا بقوله: سلاماً. فقال المأمون: والله لقد أجابك بأبلغ الجواب.

---

(١) نزهة الجليس ٢: ٤٠٤.

قال: كيف؟ قال: أما تقرأ قوله تعالى: **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾**[١]، فهذا أبلغ جواب[٢]، فقد اعتبرك تافهاً لا تستحقّ أن يجيبك.

المبحث الثاني: معنى ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾

ثم قالت الآية: **﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾**، وفي هذا المقطع ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنكم لا تتحمّلون وزرنا

أي أنتم تشتموننا بشيء، فهل أنتم تتحمّلون وزر هذا الشيء أو الشتم يوم القيامة، أم نحن؟ فالقرآن يقول: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾**[٣]، فأنتم لا تتحمّلون عنّا هذا، بل نحن نتحمّل وزر أعمالنا وأنتم تتحمّلون وزر أعمالكم. فإن كان الأمر كذلك فلمَ لا تكون عندكم روح موضوعيّة؟ فنحن نرتكب ما نتحمّل تبعته ولا شأن لكم بنا.

ولذلك فإن أية مسؤوليّة على الفرد لا يُحمِّلُها الإسلام لغيره، فمثلاً يقول الفقهاء: لو أن زوجين كافرين عندهما طفل عمره سبع سنوات أو ثمانٍ ومات، فأبواه ليسا مسلمين حتى يلحق بهما، وهو لم يرتكب عملاً بإرادة حتى يحاسب عليه، فهو ليس مصرّاً على الكفر، ومن المحتمل أن يصبح مسلماً إذا كبر، فما هو حكمه؟ يقول المفسّرون: إن الله يضعه على الأعراف ثم تشمله رحمة الله؛ لأنه لم يرتكب عملاً، ولا يتحمّل وزر أُمّه وأبيه[٤].

وهذه هي القاعدة الشرعيّة والعقليّة أيضاً. وعلى هذا الرأي تكون لنا أعمالنا

---

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) بحار الأنوار ٣٩: ٨٦ ـ ٨٧، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٧١، وهو ما يدلّ على جهل إبراهيم هذا ـ وهو المنغمس في بيئة الخمرة والجواري والمفاسد ـ بكتاب الله.

(٣) المدّثر: ٣٨.

(٤) فتح الوهاب ٢: ٢٧٠.

التي نحاسب عليها وأنتم لكم أعمالكم. ففي الآية لون من النَّصَف، فأنت عندما تنقدني بعمل، فهل أنت ناصح فيه؟ إن كنت ناقداً ناصحاً مشفقاً فعليك أن تستخدم أُسلوب الناصح لا هذا الأُسلوب من الشتم، فأُسلوب الناصح هو أُسلوب القرآن: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1]، أما من يشتم وينعت بأقذر النعوت، فهو لا يتحمّل وزر عملي، فعملي لي وعمله له.

الرأي الثاني: لنا ديننا ولكم دينكم

فنحن لنا دين وأنتم لكم دين، وقد أدّبنا الله ألّا نشتم حتى الصنم؛ لأن بعض الناس أشبه بالصنم وهو يعبد الصنم، فإن شتمته شتمك. فالقرآن الكريم يقول: إن مثل هؤلاء لا تجعلوا لهم حجّة عليكم وطريقاً لشتمكم، فإن شتمت إلهه فإلهه مجرّد خشبة أو حجر لا يضرّ ولا ينفع، لكنه سوف يشتم الله رب العالمين. قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «من الكبائر شتم الرجل منكم والديه». فقالوا: أويشتم الرجل أباه؟ قال ﷺ: «نعم، يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه»[2].

فعندما يريد الإنسان أن يشتم فعليه أن يأخذ بعين الاعتبار أن هذا الشتم هل يأتي بنتيجة أم لا؟ ثم إننا نعرف عبر التاريخ وعبر الرسالات أن العقيدة إذا تعرّضت للشتم ترسّخت أكثر وأكثر، وهي أشبه شيء بالمسمار كما يقول أحد المفكّرين الأجانب، فكلما زدت في ضربه ازداد ثباتاً ورسوخاً في الحائط. فالفكر هو الذي يصارع الفكر أما الشتم فلا يأتي إلّا بالنتائج العكسيّة. فالقرآن يريد الطريق الأمثل، فيقول: إن لنا ديناً وأنتم لكم دين، فكما أننا نحترم دينكم فأنتم عليكم أن تحترموا ديننا وعقيدتنا. وهذه هي أُسس التعايش الحضاري، وهي أُسس سليمة.

---

(١) سبأ: ٢٤.

(٢) مسند أحمد ٢: ١٦٤، صحيح مسلم ١: ٦٥، الجامع الصحيح ٣: ٢٠٨.

وهناك نقطة مهمة أُخرىٰ، وهي أننا عندما نريد أن ننتقد أحداً فينبغي ألّا يكون هذا الشيء الذي ننتقده فيه عندنا، فإن كان موجوداً عندنا فلمَ ننتقده إذن؟ فعندما نقول للأحدب: أنت أحدب، فينبغي ألّا نكون مثله؛ لأنه سيقول حينئذ لنا: ولم لا تعيبون أنفسكم أنتم؟

ولقد رأيت أحد الكتاب يحمل حملة شديدة علينا فيقول: إن الشيعة عندهم نمط من الغلوّ بأيمّتهم لا حدود له، فهم يقولون: إن علي بن أبي طالب كان إلى جنب رسول الله ﷺ في غار حراء لمّا نزل عليه الوحي[1]، وسمعه. وكأن هذا الكاتب لم يقرأ ما يروونه عند قوله تعالي: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[2] من أن النبي ﷺ لما وصل إلى هذا المكان أصابته وحشة، وفي هذه الأثناء سمع صوت الخليفة أبي بكر[3]. وهذا ما يرويه الكثير من المفسّرين كالرازي والقرطبي. فلمَ تكون هذه المنقبة لأبي بكر حلالاً ولعلي عليه السلام حراماً؟

فالآية على هذا الرأي أن لنا عقيدتنا وديننا ولكم عقيدتكم ودينكم، فإن أردنا التعايش الحضاري فعلينا أن يحترم بعضنا دين الآخر.

ثم إن هذه الأُمور ينبغي ألّا تطرح بين العوامّ، فهذا الكاسب الذي يذهب منذ الصباح لعمله لا وقت عنده للقضايا الفكريّة، فيجب أن تكون هذه القضايا الفكريّة بين العلماء، تتصارع فيها أفكارهم ونظريّاتهم. والقرآن الكريم أعطانا قاعدة مرنة هي: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلا وُسْعَهَا﴾[4]، فما يكلّف به العلماء لا يكلّف به الجهّال.

---

(١) بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. العلق: ١.

(٢) النجم: ٨ ـ ٩.

(٣) لم نعثر عليه، لكن رووا أن ابن عباس رأى جبريل وسمعه. سير أعلام النبلاء ٣: ٣٣٩.

(٤) البقرة: ٢٨٦.

الرأي الثالث: لنا أخلاقنا ولكم أخلاقكم

فكلٌّ يعمل وفق خلقه، فمثلاً كتب ابن سعد إلى ابن زياد أنه سألت الحسين عمّا أقدمه فأجاب: «كتب إلي أهل هذه البلاد، وأتتني رسلهم يسألونني القدوم ففعلت، فأما إذ كرهوني وبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم، فأنا منصرف عنهم».

قال حسان العبسي: كنت عند ابن زياد حين أتاه هذا الكتاب، فلمّا قرأه قال:

الآن إذ علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص[1]

انظر إلى هذا المعدن وانظر إلى معدن علي بن أبي طالب ﷺ، فقد دخل عليه أصحابه في صفّين فقالوا له: لقد كفاك الله مؤونة القتال، فالفرات تحت أيدينا والجيش كلّه على الفرات، والحرّ يكاد يميت الإنسان. فالتفت الإمام إلى مالك الأشتر وقال له: «افسح لهم عن صدر الفرات». فقال مالك: لقد راموا أن يميتونا عطشاً يوم أمس. فأجابه أمير المؤمنين ﷺ بأنه لا يفعل ما يفعلون[2].

فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فهذا له أخلاق وذاك له أخلاق، فالآية تريد أن تقول: إن لنا أخلاقنا ولكم أخلاقكم، فإن أردتم أن تكونوا شتّامين فهذا شأنكم، أمّا نحن فلا نكون كذلك.

ثم قالت الآية: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾، ومعنى السلام: ترك الحرب، فهم يقولون لهم: نحن لا نقاتلكم من أجل سبابكم. وهذا هو أُسلوب القرآن، قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3].

---

(١) الإرشاد ٢: ٨٦، تاريخ الطبري ٤: ٣١١، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ٣: ٣١٧ ـ ٣٢١، وقعة صفين: ١٥٩ ـ ١٦٢، تاريخ مدينة دمشق ٩: ١٣٧، الإمامة والسياسة ١: ١٢٥ ـ ١٢٦، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٥١.

(٣) فصّلت: ٣٤.

فإن سأل سائل: لو تمادى صاحب هذا الأسلوب وانتهى الأمر إلى تعدٍّ لا حدود له، فما العمل؟ فالجواب: إنْ انتهى الأمر إلى مثل هذا الحدّ فلا سكوت بعد ذلك، ويدخل في باب الدفاع عن النفس. يقول الفند الزماني:

فلمّا صرّح الشرّ ... وأمسىٰ وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دِنّاهم كما دانوا
وبالشرّ نجاةُ حيـ ... ـن لا ينجيك إحسانُ
وبعض الحلم عند الشـ ... ـرّ للذلّة إذعانُ[1]

فالآية جاءت لتحدّد مرتبة من مراتب الخُلق، وهو أن الموقف مع هؤلاء لا ينتهي إلى المجالدة من أجل سماع الكلمة النابية، ومعنى ﴿لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾: نترفّع عما يقوم به الجهلاء. وهذا هو الذي حدث بالفعل، فلم يقابل رسول الله ﷺ جهل قومه بالمقابل أبداً، بل بالعكس، فإن المقابلة بالمثل كانت شعار الجاهلية، ففي الجاهلية يقابلون الجهل بأربعة أضعاف، يقول شاعرهم:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا[2]

أما الإسلام فليس كذلك، فالنبي ﷺ يقول لقومه عند الفتح: «ماذا ترون أني صانع بكم؟». قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، ملكت فاصفح، وظفرت فأسجِح[3]. فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[4].

---

(١) أمثال الحديث (ابن خلّاد): ٢٤، شرح نهج البلاغة ١٧: ٤٠، ١٩: ٢٢١.
(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته. آمالي السيد المرتضىٰ ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٣٥٦.
(٣) أسجِح: أحسِن العفو وتكرّمْ به وترفّقْ وتساهلْ. المعجم الأوسط ٢: ٤١٦ ـ سجح.
(٤) بحار الأنوار ٤٤: ٥، تاريخ الطبري ٢: ٣٣٧، إعجاز القرآن: ١٣٢، فتح القدير ٢: ٦٠.

لكن تعال معي إلى المعادن والعناصر التي هي عند الناس، فمثلاً عندما دخل بسر بن أرطاة مندوب معاوية إلى اليمن هرب واليها عبيد الله بن العباس، فأمسك بولديه الصغيرين قثم وعبد الرحمن بعد أن لاذا ببيت من البيوت، وهذا البيت بدلاً من أن يحميهما عرضهما إلى القتل، فجاء بسر وذبحهما على درج صنعاء، وكان أحدهما ابن ست والآخر ابن سبع. في حين أن أقطاب قريش كانوا تحت قبضة النبيّ ﷺ يوم الفتح، وكان بوسعه أن ينتقم منهم أبشع انتقام، لكنه أمر أصحابه ألّا يُتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، ولا يهيجوا النساء بأذىً، ونادىٰ مناديه: «**من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**». وعفا عنهم، ولم يصنع معهم سوى أنه بكّتهم ووبّخهم ببضع كلمات[1].

ولأمير المؤمنين﵇ مواقف كثيرة من هذا النوع مع ألدّ أعدائه، وقد كانت قمّة في العطف والصفح[2]. وكذلك الإمام الحسن﵇ الذي يعرف من هو مروان، ومع

---

(١) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٠٣، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٦: ٣٨٣، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٥٧، ٢٦٩، ٢٧٣.

(٢) ومنها:

١ ـ صفحه﵇ عن عائشة وعن جيش البصرة، فبعد أن انتصر أرسلت عائشة إليه قائلة: يا أبا الحسن، فإذا ملكت فاصفح. فقال﵇: «نعم أصفح وأعفو». ثم أمر﵇ أن يجهّزوا لها في رجوعها. انظر شجرة طوبى ٢: ٣٢٤.

٢ ـ قوله﵇ بعد دحر جيش البصرة: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة». بعد أن قالت له صفيّة بنت الحرث الثقفيّة امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي: يا قاتل الأحبّة. انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥.

٣ ـ ما مرّ قبل قليل من فسحه﵇ المجال أمام جيش معاوية إلى الماء بعد منع معاوية إياهم عنه.

وكذلك فعل الحسين﵇ مع جيش الحرّ﵁ ودوابّهم لمّا جاء ليجعجع به. وسيأتي المحاضر على ذكره بعد قليل.

ذلك حينما يقف له مروان بباب المسجد ويقول له: أُريد أن تتنازل لي عن هذه البغلة وعن... وعن...، يقابله الإمام بكلّ خلق رفيع[١].

ولا نذهب بعيداً، ففي واقعة الطفّ يلتقي الحسين عليه السلام ألف فارس مع الحرّ، فيلتفت إلى أصحابه فيقول لهم: «املؤوا القصاع والطساس، واسقوا القوم واسقوا الخيل ورشّفوها ترشيفاً». ويبدأ هو بسقيهم، فيسقي علي بن الطعان المحاربي بيده الشريفة[٢]. فكانت النتيجة أن علي بن الطعان المحاربي هذا يقذف الحسين عليه السلام بالحجارة التي كان يحملها بكمّه، وذلك لما سقط عليه السلام على الأرض، وكان مسجّىً على التراب وقد أخذ منه العطش مأخذاً عظيماً.

يقول مؤرّخو الطف: أثرّ العطش بمواضع متعدّدة من الحسين، فأثّر في عينيه حتى حال بينه وبين السماء كالدخان[٣]، وأثّر في لسانه، وذلك لما وضع علي الأكبر لسانه على لسانه فوجد لسانه كالخشبة اليابسة، وأثر في قلبه وذلك لما قال: «والله لقد تفتّت قلبي من الظمأ»[٤]. ولذلك تجد لشعراء الطف حساباً وعتاباً مع الفرات، يقول أحدهم:

بعداً لشطّك يا فرات فمرّ لا ... تحلُ فماؤك لا هنيءَ ولا مريْ

أيسوغ لي منك الورود وعنك قد ... صدرَ الإمام سليل ساقي الكوثرِ

والإمام زين العابدين عليه السلام أيضاً كان له مع الفرات عتاب، فقد وقف طويلاً ينظر إليه لمّا مرّ به، فراح يقول: «إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟».

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٤، باختلاف.

(٢) انظر: الإرشاد ٢: ٧٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٠٢، البداية والنهاية ٨: ١٨٦.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٢٤٥.

(٤) المنتخب (الطريحي) ٤٣٩.

وهذا المعنى حمله لسان أهل البيت عليهم السلام دعبل بن علي الخزاعي ﷺ في تائيته، وتوجّه به إلى فاطمة الزهراء:

أفاطمُ لو خلت الحسينَ مجدّلاً ... وقد مات عطشاناً بشطّ فراتِ

إذن للطمت الخدّ فاطمُ عنده ... وأجريت دمعَ العين بالوجناتِ

أفاطمُ قومي يابنة العزّ واندبي ... نجومَ سماوات بأرض فلاةِ[1]

* * *

خويه ما بعيني دمع واسجيك ... بنفسي يبو السجاد اداويك

يا نور عيني اتمرمرت بيك ... طلّعت متني وكمت اراويك

ولم يأخذ العطش من قلب الحسين فقط، فالحسين عليه السلام يمكن أن يحتمل ذلك لكن الطفل ذا الستة أشهر كيف يحتمل؟ يقول لهم الحسين عليه السلام: «لقد جفّ ثدي أُمّه من اللبن، فإن خفتم أن أشرب من الماء فخذوه بأيديكم واسقوه جرعة من الماء»[2]. فكان الجواب أن رموه بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد:

ولو تراه حاملاً طفله ... رأيت بدراً يحمل الفرقدا

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٧٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٧، ٤٩: ٢٤٨.

(٢) شجرة طوبى ١: ٣٠.

﴿ ٢٧ ﴾

الصيام تربية روحيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: نظرة حول التركيبة النفسيّة للإنسان

إن الله عزّ وجلّ فيما وضع من مناهج التربية وضع منهجاً لتربية الجسد ومنهجاً لتربية الروح، وبحكم كون الإنسان كياناً مزدوجاً من غرائز ومن روح فلا بد من إيجاد موازنة بين الغرائز والروح حتى لا تطغى الغرائز على الروح، وكذلك لا يصل الأمر بالروح إلى درجة الجور على الغرائز. وهذا المنهج واضح في الإسلام، فهو يتّخذ طريق الموازنة، فلا يترك الغرائز تطغى على الروح، ولا يترك الروح تجور على الغرائز؛ لأن المفروض أن الغرائز وضعت لأغراض أساسيّة أيضاً. ونحن نعرف أن كلّ غريزة في جسم الإنسان لها وظيفة اجتماعيّة حياتيّة تقوم بها،

---

(١) البقرة: ١٨٧.

فالله جلّ وعلا لم يضع الغرائز عبثاً عند الإنسان، فهو تعالىٰ وضع غريزة الجنس لحفظ النوع؛ لأن النوع لا يستمرّ إلا عن طريقها، ووضع غريزة الأنانية لحفظ النفس؛ فلولاها لنسي الإنسان كرامته، ولكن علىٰ ألّا تصل إلى درجة مفرطة بأن تصل الأنانية بالإنسان إلى أن يكون متكبرّاً متعجرفاً، وإنما يجب أن يكون حجم الإنانية بالقدر الذي يجعل الإنسان يشعر بالعزّة، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين[1]. وكذلك وضع غريزة الأكل والشرب لإدامة الحياة؛ فالإنسان يحتاج إلىٰ أن يستهلك طاقة، والطاقة تتولّد من هذين المصدرين. فلا توجد إذن غريزة موضوعة عبثاً.

وهذه الغرائز لها نمط واحد معين، فإن تعدّت هذا الحدّ تحوّلت من كونها غريزة إلى كونها كياناً يستبدّ بالإنسان، وهذا هو الذي نراه، فلو رجعنا إلى سجّل الجرائم الموجودة في الأرض لوجدناها مرتبطةً جميعها بالغرائز، فليس هناك جريمة ترتبط بالروح، فالروح ليس من شأنها الجريمة. والجريمة كما يعرّفها فقهاء القانون أو الشريعة: هي مخالفة بند من بنود القانون أو بند من بنود الشريعة. فجذور الجريمة ليست مرتبطة بالروح أبداً، وإنما هي ترتبط بالجسم، فتجد من يرتكب جريمة أنه ارتكبها لأن غريزة الجنس استبدّت به فاعتدى على أعراض الناس، أو أن غريزة الأنانية استبدّت به فجعلته يبطش بالناس ويتحوّل إلى إنسان يرى لنفسه نوعاً من الرفعة والعلوّ والتكبّر والعجرفة، أو استبدّت به غريزة الطعام فجعلته يتمدّد على حساب غيره فيسرق حقّ غيره في الوجود، وهكذا.

فكل الجرائم إذن ترتبط بالغرائز، وإذا لم تتصدَّ الروح إلى تربية الغرائز ولم يتصدّ الضمير إلى تربيتها تحوّلت إلى كيان مستبدّ عند الإنسان، وبالمقابل فإن الروح إذا لم تعطِ الغرائز حقّها يتحوّل الإنسان عن كونه إنساناً له وظائف حياتيّة

---

(١) تضمين لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. المنافقون: ٨.

إلى كيان مُترهّب. وهذا هو حال بعض الناس حيث يتصوّر أن أفضل طريق يوصله إلى الله أن يبتعد عن الطعام والشراب والجنس ولذائذ الحياة، وهذا خطأ؛ لأن الله لم يخلق ذلك عند الإنسان عبثاً. فينبغي أن تعطى الغرائز حقّها، لكن ضمن المقدار الذي رسمه الشارع المقدّس؛ ولذا فإنه «لا رهبانية في الإسلام»[1]، والكسب الحلال لون من ألوان العبادة. فمن الخطأ أن يقال: إن الدنيا ما هي إلّا يومان وتنتهي، فلم لا نكون زاهدين فيها ونترك العمل وكلّ شيء وننتظر أن يرسل الله إلينا أرزاقنا؟ فهذا لون من الاتكاليّة التي يحاربها الإسلام، فالله استعمرنا في الأرض وأمر أن نعمرها بكل صنوف العمارة[2].

فلابدّ إذن من وجود موازنة بين الروح والغرائز، فلا تطغى الروح على الغرائز ولا تطغى الغرائز على الروح. ومن جملة وسائل الموازنة فريضة الصيام، فهذه الفريضة جاءت لتحقيق هذه الموازنة عند الإنسان.

أقسام الصوم عند العرفاء

يقول العارفون: الصوم ثلاثة أقسام:

الأوّل: صوم العامة

وهو الامتناع عن الطعام والشراب. وهذا الصائم لا يعمل سوى الامتناع عن ملء معدته، وربما يعوّض في الليل ما لم يأكله في النهار.

الثاني: صوم الخاصّة

وهو صوم الجوارح، أي أن الإنسان إذا صام حكّم روحه بغرائزه، فأوقف غريزة الغضب عند حدّها، وغريزة الأنانية عند حدّها بألّا يشتم ولا يعتدي ولا يغتاب ولا يثأر لنفسه، وأوقف يده عن أن تمتدّ إلى ما لا يُرضي الله، وسيطر على

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٣ / ٧٠١، فتح الباري ٩: ٩١.

(٢) قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود: ٦١.

عيونه ألّا تمتد إلى النظر الحرام. فالصوم عند الخواصّ هو صوم الجوارح عمّا لا يُرضي الله عزّ وجلّ.

الثالث: صوم خواصّ الخواصّ

وهو صوم العارفين، وهو كفّ القلب عن الهموم الدنيّة، والتعلّق بالله عزّ وجلّ. ولا تتصوّر أن هذا شيء خيالي، فهو موجود عند صنف من الناس، وهم قلّة.

المبحث الثاني: حول تحقيق الفجر

فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ فالفجر الذي يكون ـ حسب تعبير النبي ﷺ ـ كذنب السِّرحان[١] هو الفجر الصغير أو الكاذب، وهناك الفجر المعترض في الأُفق بين المشرق والمغرب وهو الفجر الصادق. وهذا هو الذي يحرّم الطعام ويحلّ الصلاة. وحدّ الأكل والشرب إلى هذا الوقت، بشرط أن يُبيّت الإنسان نيّة الصيام من الليل؛ باعتبار أن الصيام عبادة. ويمكن أن تكون النيّة لكلّ ليلة كما يمكن أن تكون من أوّل الشهر إجمالاً.

والصوم باعتباره موازنة بين الروح والجسد هو محاولة لتطهير الجسد وتطهير الروح، فهو يطهّر الجسد من الحرام، فيذيب ما عند الإنسان من اللحم الذي يكون من الحرام، ويطهّر الروح من الرذائل. وإذا كان الصوم من أول أهدافه أن يطهّر الروح والجسم، فليس من المعقول أن يكون جسم الإنسان نجساً ومع ذلك يصحّ صومه. والغريب أن ترى في بعض المذاهب الإسلامية أن الصوم يصحّ من الجنب[٢]، والأغرب أن رأي أبي هريرة خلاف هذا؛ فرأيه أن الذي يصبح جنباً لا

(١) ذنب السِّرحان: الفجر الأوّل، وهو الفجر الكاذب. لسان العرب ٦: ٢٣٢ ـ سرح، المعجم الأوسط ١: ٤٢٤ ـ سرح.

(٢) انظر: الموطّأ ١: ٢٨٨ ـ ٢٩١ / ب ٤، الأم ٢: ١٠٧، ١١٧، الإقناع (الحجاوي) ١: ٩٤.

صوم له، ومع ذلك ينسبون إليه أنه رجع عن هذا الرأي[١]، والحال أنه بقي عليه كما يروي ذلك الإمام مالك في (الموطأ)[٢]، والنسائي في سننه[٣]. وهناك رأي آخر أنه لا يصحّ إذا أصبح جنباً وهو عامد غير ناسٍ ولا محتلم[٤]، وهو رأي ثالث في مقابل الرأيين اللذين ذكرناهما آنفاً. ولكن من الأوّليات أن الإنسان الذي يريد تطهير جسمه وروحه عليه أن يواجه الله وهو على طهارة، فإن تعمّد البقاء على الجنابة فرأي أهل البيت[٥] وفقهاء الإمامية[٦] أنه لا صوم له. ويشاركهم هذا الرأي بعض الصحابة[٧] وبعض الفقهاء[٨].

فالقرآن يقول: إن كلّ المفطرات مباحة لكم حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الأسود من الفجر، والأكل والشرب أُنموذج من هذه المفطرات.

☚ مغني المحتاج ١: ١١٠، ٤٣٦، حواشي الشيرواني علىٰ تحفة المحتاج ٣: ٤٢٥، مختصر المزني: ٥٦.

(١) كما نصّ عليه ابن حجر في تلخيص الحبير ٦: ٤٢٤، حيث قال: وفيه ـ أي في حديث: من أصبح جنباً... ـ قصّة رجوعه عن ذلك.

(٢) الموطّأ ١: ٢٩٠ ـ ٢٩١ / ١١، وانظر الأُم ٢: ١١٧، وفيهما قال أبو هريرة: لا علم لي بذلك، إنما أخبر فيه مخبر.

(٣) لم نعثر عليه عند النسائي، وفي سنن ابن ماجة ١: ٥٤٣/١٧٠٢ إشارة إلىٰ ذلك.

(٤) الخلاف (الطوسي) ٢: ١٧٤ / المسألة: ١٣، جامع الخلاف والوفاق (القمي): ١٦٢، تذكرة الفقهاء ٦: ٢٦.

(٥) انظر وسائل الشيعة ١٠: ٦٣ ـ ٦٥ / ب١٦، وانظر أيضاً الأبواب: ١٣ ـ ١٥، ١٧.

(٦) المار في الهامش قبل السابق.

(٧) كما مرّ من حديث أبي هريرة في الهامش السابق، وسيأتي في الهامش اللاحق.

(٨) قال النووي: قال ابن المنذر: وقال سالم بن عبد الله: لا يصحّ صومه، يعني من جامع في الليل وأصبح وهو جنب. قال: وهو الأشهر عن أبي هريرة والحسن البصري. وعن طاووس وعروة بن الزبير روايةً عن أبي هريرة أنه إن علم جنابته قبل الفجر ثم نام حتى أصبح لم يصحّ وإلّا فيصحّ. وقال النخعي: يصحّ النفل دون الفرض. المجموع شرح المهذّب ٦: ٣٠٧ـ٣٠٨.

ولابد ألّا ينسى الإنسان الحكمة الأساسَ من الصوم، فعليه أن يتناول في هذه الفترة من الطعام ما يقوّم به صلبه، فالحكمة الأساسُ من الصوم أن الإنسان لا يُفرط في تناول الطعام، لأنه سيتعب المعدة خلال السنة فليعطِها راحة خلال هذا الشهر كي يقوى هذا الجهاز على الدوام أكثر.

المبحث الثالث: حول تحديد الليل والنهار

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فالليل هو وقت الإفطار الشرعي. وأُلفت النظر إلى أن الكثير من المذاهب الإسلامية يذهب إلى أن الفجر الذي يسبق الصبح يسمى فجراً أيضاً، ويروون عن حذيفة أنه قيل له: متى تسحّرت مع النبي ﷺ؟ فقال: تسحّرت معه في الفجر الذي ملأ البيوت، إنه النهار لكن الشمس لم تطلع[١]. ولنقف عند هذه النقطة، فالبعض يقول: النهار محلّ الصوم، والليل محلّ الفطر، فالله أوجب الصوم من أول النهار إلى نهايته، وأباح الفطر من أول الليل إلى نهايته. فالنهار يبدأ بطلوع الشمس، ولا يسمي ما قبل طلوع الشمس نهاراً، وهذا هو مستندهم[٢]. وهذا الرأي مدفوع بالنصوص[٣] الخاصّة التي تعتبر

---

(١) مسند أحمد ٥: ٣٩٦، جامع البيان، المجلد: ٢، ج ٢: ٢٣٨، ٢٤٠، المحلّى ٦: ٢٣٢، تحفة الأحوذي ٣: ٣١٧، وبمعناه في فتح الباري ٤: ١١٦.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب ٣: ٤٥ ـ ٤٦، وقد صحّح فيه القول بأن أوّل النهار طلوع الفجر، قال: «هذا مذهبنا، وبه قال العلماء كافة إلّا ما حكاه الشيخ أبو حامد عن قوم»، مغني المحتاج ٢: ٣٥١.

(٣) كنصوص أهل اللغة، قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: وقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾[1]، أي بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس. العين ٣: ١٢٦.
وقال: والنهار ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. العين ٤: ٤٤.

---

1 ـ الحجر: ٨٣.

قرينة على عدم إرادة هذا المعنىٰ، فيكون محلّ الصيام النهار الذي يبدأ من الفجر الصادق إلى ابتداء دخول الليل.

وهنا نزاع عند الفقهاء يتناول وجوهاً، منها أن الليل متى يبدأ؟ فالقرآن يقول: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ وكلمة (إلىٰ) حرف غاية، وما بعد الغاية يسمى المغيّا، فهل الغاية داخلة في المغيّا أم لا؟ فالغاية إن كانت من جنس المغيّا فهي تدخل فيه، فإن قلت لك: إمشِ إلى حدّ هذه الأرض، فلابد من دخول ما بعد الحدّ بقليل؛ لأنه من جنسها، وأما إذا قلت لك: اذهب إلى الباب، فما بعد الباب لا يدخل فيه؛ لأنه ليس من جنس الباب[1]. فحينما يقول القرآن: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فهل يدخل قليل من الليل مع النهار أم لا؟

ليس هناك من يقول بدخول شيء من الليل في النهار، وإنما هذا التأخير لبعض الدقائق من باب الاحتياط حتى تذهب الحمرة المشرقيّة؛ لأن المشرق يقابل المغرب، فإذا انعكست عليه الأشعة فهذا يعني أن الشمس لا زالت موجودة، فنحن ننتظر قليلاً حتى تذهب هذه الحمرة، فيتأكّد الإنسان من دخول الليل. وهذا المعنى يؤكّده ما جاء في آخر الآية ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾. أما الرواية التي يروونها عن الشيعة أنهم لا يفطرون ولا يصلون الغروب حتى تشتبك النجوم[2]،

---

(١) انظر الوافية: ٢٣١ ـ ٢٣٣، الإحكام في أُصول الأحكام (الآمدي) ٣: ٧٠، ١٧٦.

(٢) قال ابن تيمية: محنة الرافضة محنة اليهود؛ قالت اليهود: لا يصلح الملك إلّا في آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلّا في ولد علي. وقال: اليهود يؤخّرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الرافضة. المنهاج ١: ٧.

قال الأميني: اليهود هل يعرفون شيئاً من هذه المسألة ومن بقيّة المسائل المعزوّة إليهم؟ وليت شعري هل كتب الرجل هذه الكلمة بعد مراجعته لفقه الشيعة وأحاديث أئمتهم عليهم السلام؟ الغدير ٣: ٨٢.

ولمعرفة أحاديث أئمتنا عليهم السلام انظر الهامش التالي.

فهذه فرية تضاف إلى قائمة المفترَيات على الشيعة، وإلّا فليس عندنا منها شيء[١]. وآراء فقهائنا صريحة بأن وقت الصوم هو النهار، ووقت الفطر هو الليل. فمتى ينتهِ النهار يجب الإفطار قهراً؛ أي أنه تُجرى أحكام المفطر على الإنسان وإن لم يأكل.

ونفهم من هذا أنه لو أراد أن يوصل صومه بوقت بعد غروب الشمس ودخول الليل فلا يقال عنه: إنه صائم، بل إنه لو قيل له: اشرب الماء، وشربه فإن صومه لا يفسد؛ لأنه لم يشرب في الوقت المخصّص للصوم، وإنما شرب في الوقت المخصّص للفطر. فمن هنا نفهم أن صوم الوصال محرّم، وهو أن يوصل صوم اليوم بصوم يوم الغد دون إفطار. والغريب أنهم يروون روايات عجيبة في هذا النوع من الصوم، منها أن عبد الله بن الزبير كان يصوم سبعة أيام ليلاً ونهاراً، فاذا أفطر كان يشرب السمن كي تتفتّق أمعاؤه[٢]. وأظن أن هذه الرواية اختُرعت أيام حكمه، وإلّا فصيام سبعة أيام بلياليها بلا طعام ولا شراب، ومع ذلك يقوى الصائم معها على الحركة شيء غير ممكن، وحتى المضربون عن الطعام يتناولون بعض الغذاء والشراب[٣].

فهذا النوع من الصوم محرّم، وإن كان يذهب إليه جماعة، كعبد الله بن الزبير

---

(١) قال رجل لأبي عبد الله ﴿ع﴾: أُوَخّر المغرب حتى تستبين النجوم؟ فقال ﴿ع﴾: «خطّابية، إن جبرئيل ﴿ع﴾ نزل بها على محمد ﴿ص﴾ حين سقط القرص». الاستبصار ١: ٢٦٢ / ٩٤٣، تهذيب الأحكام ٢: ٣٢ / ٩٨، وسائل الشيعة ٤: ١٩٠ / ٤٨٨٦.
وسئل الإمام الصادق ﴿ع﴾ عن وقت المغرب، فقال: «إذا تغيّرت الحمرة في الأفق، وذهبت الصفرة، وقبل أن تشتبك النجوم». تهذيب الأحكام ٢: ٢٥٤ / ١٠٢٤، وسائل الشيعة ٤: ١٧٦ / ٤٨٣٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٢٩، كنز العمال ١٢: ٤٧١ / ٣٧٢٣٠.

(٣) ومنها بعض الحبوب المغذّية.

وآخرون[١]، ويقولون: إنه كان يصوم اليومين والثلاثة والستة. ولكن الذي عليه جمهور المسلمين أن صوم الوصال حرام[٢].

نعم، هناك طبقة خاصّة ترى جواز امتداد الصوم إلى الفجر الثاني، وشُبهتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فيقولون: إن هذا الليل يجوز أن يستغرق الليل كلّه، باعتبار أن الليل غاية، وهي داخلة في المُغيّا. وهذا الرأي ينسب إلى الأئمة الثلاثة: مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، ولم يقل به الشافعي حسب ما نقله القرطبي عنهم في تفسير الآية الكريمة، لكن هذه شبهة. وهناك نصوص صريحة في تحريم صوم الوصال[٣].

وقال جماعة من العارفين: إن الله إنما حرّم صوم الوصال؛ لأن المسلمين كانوا في بدء الدعوة ضعفاء الإيمان، ولا يكلّف أحدهم بتكليف شاقّ؛ لأنه إن كلّف بذلك فقد يترك الدين ويبتعد عنه، فلما قوي دينهم، وتعمّق الإيمان في نفوسهم واصلوا الصوم وصحّ صومهم[٤]. وهذه تشنّجات صوفية لا سبيل إلى الأخذ بها، إذ أن الواضح من الشريعة أن صوم الوصال محرّم. فللإنسان قابلية محدّدة خلقها الله، وهو أعرف بها، والله لا يكلّف تكليفاً فيه حرج أو عسر أو مشقّة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٥]. فالله لا يكلّف بتكليف أكبر من الإمكانات[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٢٩، كنز العمال ١٢: ٤٧١ / ٣٧٢٣٠، وهم: إبراهيم التيمي وأبو الجوزاء وأبو الحسن الدينوري وغيرهم.

(٢) انظر: تحفة الفقهاء (السمرقندي) ١: ٣٤٤، بدائع الصنائع ٢: ٧٩، حاشية ردّ المحتار ٢: ٤٤٩، عون المعبود ٩: ٩، مسند أبي حنيفة: ١٩٢، وغيرها كثير.

(٣) كما مرّ.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٣٠.

(٥) الحجّ: ٧٨.

(٦) قال تعالى: ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾. البقرة: ٢٣٣.
وقال: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.
وقال: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الأنعام: ١٥٢، الأعراف: ٤٢، المؤمنون: ٦٢.

فالباري تعالى أمرنا أن نجعل فترة الصيام فرصة لتجربة السيطرة على الغرائز، فمن يقدر على السيطرة على غرائزه يوماً يستطعْ أن يسيطر يومين، ومن يقدر على اليومين يقدر على الشهر؛ وبالتالي يقدر أن يسيطر عليها العمر كلّه. فالإنسان يملك القابلية على السيطرة على الغرائز، والله تعالىٰ لما كلّفنا بذلك أراد منا أن نهيّئ العقل للسيطرة على الغرائز ليتسنّىٰ للإنسان السيطرة على غرائزه دوماً، ويبقى هو أكبر من الغريزة لا أن تستبدّ به الغريزة. وإذا صار الإنسان أكبر من الغريزة كملت إنسانيّته.

انظر إلى التاريخ، فانه لا يخلّد إلّا ذوي المواقف، وكلّ موقف من المواقف هو عبارة عن تجربة لمحاربة الغريزة وإثبات الذات. انظر إلى الذين وقفوا مواقف كبيرة، فبعضهم وقف مواقف لم يعبأ معها بغريزة حبّ الحياة، فمثلاً جيء بامرأة إلى الحجاج، فلما أُدخلت عليه كانت مطرقة، فقال لها: ارفعي رأسك. قالت: إني أكره أن انظر إلى وجه يكره الله النظر إليه. فقال: يا عدوّة الله، ألي تقولين هذا؟! قالت: والله لست عدوّة لله، والله لقد خفت الله خوفاً صيّرك في عيني أحقر من ذبابة.

فهذه المرأة بلا شكّ عندها غريزة حبّ الحياة، وكان من الممكن أن تنساق وراء هذه الغريزة، وأن تذلّ وتخضع للجبروت والقوّة، فلما سحقت الغريزة، وجرّبت انتصار الإرادة على الغريزة ألجمت هذا الطاغية وأسكتته. وكلّ موقف من المواقف هو تجربة لانتصار الإرادة على الغريزة، فإن انتصرت إرادة الإنسان على غرائزه كان من أصحاب المواقف، وإذا كان من أصحاب المواقف خلّدته الدنيا. أما الإنسان الذي تصرعه غرائزه فلا يتعدّى أن يكون في هذه الحياة في حكم الحيوان الذي يتكوّن من مجموعة من الغرائز، يمرّ عليه التراب فيأكله، ويمرّ عليه التاريخ فينساه، أمّا المواقف فلا يأكلها التراب:

لأنَّ الموتَ أقصرُ قيد باعٍ　　　بأنْ يغتالَ فِكراً واعـتِقَادا

المبحث الرابع: أحكام الاعتكاف وآراء فقهاء المسلمين فيه

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، فكأن أقوى الغرائز عند الإنسان هي غريزة الجنس، فأراد القرآن أن يشحذ همّة الإنسان للانتصار عليها، فيقول له: لا تصرعك هذه الغريزة وقت العبادة. فأحياناً يريد الإنسان أن يعتكف في المسجد، فأراد القرآن ألّا تؤثّر هذه الغريزة على الجوّ العبادي.

وعلى ذكر الاعتكاف، فإن فقهاء المسلمين لهم فيه ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنه لا يكون إلّا في مسجد بناه نبي

وذلك كالمسجد النبوي الشريف، أو مسجد إيليا، أو البيت الحرام، وهو المسجد الذي بناه إبراهيم. أما المسجد الذي لم يبنِه نبي فلا يصح الاعتكاف فيه[1].

الرأي الثاني: أنه يصحّ في كلّ مسجد جامع

وهو كلّ مسجد تقام فيه صلاة الجمعة والجماعة. وهذا الرأي ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام[2]، ولجملة من فقهاء المذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ[3].

الرأي الثالث: أنه يصحّ في أي مسجد

فإنه يجوز الإتيان به في كلّ مسجد سواء كان جامعاً أو غير جامع، تقام فيه

---

(١) المقنعة: ٣٦٣، المبسوط (الطوسي) ١: ٢٨٩، مغني المحتاج ٣: ١٢٤، الشرح الكبير ٣: ١٢٤.

(٢) الكافي ٤: ١٧٦ / ٢، الاستبصار ٢: ١٢٧ / ٤١١، ورواه في الفقيه ٢: ١٨٥ / ٢٠٩١، والاستبصار ٢: ١٢٨ / ٤١٢ عن الصادق عليه السلام.

(٣) انظر المحلّىٰ ٥: ١٨٥، نيل الأوطار ٤: ٣٥٩.

الجمعة والجماعة أو لا تقام[١]؛ أخذاً من إطلاق الآية. فالألف واللام في ﴿الْمَسَاجِدِ﴾ للجنس، واسم الجنس المحلّى بالألف واللام يفيد العموم[٢]؛ فالآية عامّة في كلّ مسجد.

أما مدّة الاعتكاف فهي عند بعض المذاهب الإسلامية تصحّ ولو كانت لحظة[٣]، وعند بعضهم ولو ساعة[٤]، ولكن عند الأغلب والرأي المعتمد عند المذاهب الإسلامية أن أقلّه أربع وعشرون ساعة، لأنه مشروط بالصوم، والصوم لا يصحّ في أقل من يوم[٥]. أمّا عند الامامية فإنه لا يصحّ بأقل من ثلاثة أيام وليلتين، بشرط أن يكون صائماً وفي مسجد جامع[٦].

فنحن نلاحظ إذن أن الآية تشحذ الهمّة للانتصار على الغريزة، فالمعتكف قد تضعف نفسه عندما تكون زوجته إلى جنبه وقد يباشرها.

في حدّ المباشرة في الآية

أما حدّ المباشرة فيقول بعض الفقهاء: إن المباشرة تشمل حتّى اللمس، وهو مسّ البشرة للبشرة. وهذا معنىً صحيح عند النظر إلى اللفظ، فالمباشرة مشتقّة من مسّ البشرة للبشرة، فهو صحيح لغةً[٧].

---

(١) المدوّنة الكبرى ١: ٢٢٥، اللباب ١: ١٧٦، الهداية ١: ٣٢، المبسوط (السرخسي) ٣: ١١٥.

(٢) إيضاح الفوائد ١: ٥٠٢، نضد القواعد الفقهية: ١٦٥، جامع المقاصد ٩: ٢٦٨، المحصول في علم الأصول ٢: ٣١٢، نيل الأوطار ١: ٢.

(٣) فتح العزيز ٦: ٤٥٨، المجموع شرح المهذب ٦: ٣٧٢، ٤٨٩.

(٤) انظر: المجموع شرح المهذب ٦: ٤٨٩، نيل الأوطار ٤: ٤٥٩.

(٥) انظر المجموع شرح المهذب ٦: ٤٩٠.

(٦) الانتصار: ٢٠٢، الكافي في الفقه: ١٨٦، النهاية: ١٦٨، وغيرها.

(٧) معجم لغة الفقهاء: ٣٩٩.

فالهدف من الصوم إذن هو الانتصار على الغريزة، فإن لم يحقّق الصوم هدفه وتحول إلى مجرد امتناع عن الأكل والشرب فلا جدوى منه ولا فائدة، يقول الرسول الأكرمﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في ترك طعامه وشرابه»[1]. فالله تعالى ينهاك عن المباشرة لئلّا تصرعك الغريزة ويفقد الصوم هدفه الذي وضع من أجله.

وهنا إشارة لطيفة في قوله: ﴿تُبَاشِرُوهُنَّ﴾، هي أن نعوّد ألسنتنا على اللفظ المهذب دائماً. لأن الإنسان فكر ولفظ، يقول أمير المؤمنين: «المرء مخبوء تحت طيِّ لِسانِه»[2] لا تحت طَيلَسانه. فالكلمة المهذّبة التي تربّي عند الإنسان مَلَكة التهذيب هي المقصودة، لا أن يعتاد الإنسان اللفظة النابية والكلمة الفاحشة. فالله تعالى في الوقت الذي يريد فيه تطهير مشاعرنا فإنه كذلك يريد تطهير ألسنتنا. فحتى اللفظ المباح مع الأهل ينبغي ألّا يكون عادة جارية على لسانه، فيصبح لسانه أقرب إلى البذاء؛ ولذا عبر القرآن عن الجماع بالمباشرة. ففي قوله تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أن الهدف من الاعتكاف والصوم هو تحشيد وشحذ همّة الإرادة للوقوف بوجه الغريزة، فلا ينبغي أن تصرعك الغريزة في اللحظة التي تريد أن تصرعها بها.

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾، والحقّ أن هذا المقطع يبعث على الرهبة؛ لأن الله حدّ لنا حدوداً وأمرنا أن نقف عندها[3]، فيقول: لا تصل

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٥٢، ٥٠٥، صحيح البخاري ٢: ٢٢٨، ٧: ٨٧، سنن ابن ماجة ١: ٥٣٩/ ١٦٨٩.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٨، ٣٩٢، عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٢٠١.

(٣) قال رسول اللهﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها».

إلى الحدّ الذي رسمته لك السماء؛ لأنك لا تعرف ماذا هناك وراء تلك الحدود؛ فإن في تجاوز الحدود تحدّياً لإرادة الله تعالىٰ. ومن هو الإنسان حتى يتحدّى إرادة خالقه؟ فهو في أمسّ الحاجة إلى كلّ لحظة من لحظات الرحمة؛ ولذا ندبنا الله عزّ وجلّ إلى أن ندعوه لطلب رحمته. اشتدّ بالزهراء عليها السلام الجوع يوماً فلم تجد بالبيت طعاماً، فقال لها أمير المومنين عليه السلام: «اذهبي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسليه شيئاً من الطعام لأنني بلغني أنه جيء له بسهمه من الغنيمة، وأنت عزيزته ولا يمنعك».

فذهبت الزهراء عليها السلام إلى أبيها صلى الله عليه وآله، فلما نظر إليها وإلى ما بوجهها من أثر الجوع قال صلى الله عليه وآله: «ما وراءك يا فاطمة؟». قالت: «يا أبة قد ألح عليّ الجوع». فقال صلى الله عليه وآله لها: «إن شئت أعطيتك أعنزاً أو أُعلمك خمس كلمات علمنيها جبرئيل آنفاً، أيهما أحبّ إليك؟». قالت: «لا والله يا أبه، أحبّ إليّ أن تعلمني هذه الكلمات». قال صلى الله عليه وآله: «قولي: اللهم يا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، أسألك رحمتك». فخرجت ووجهها يتهلّل بشراً[1].

وكأنه صلى الله عليه وآله أراد بهذا أن يضرب مثلاً يعلّم به الناس أن يطلبوا الرحمة من الله،

☚ سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلّفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

ورواه الصدوق رحمه الله وزاد عليه: ثم قال عليه السلام: «حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان أترك. والمعاصي حمى الله عزّ وجلّ، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٣ / ١٩٣.

(١) كتاب الدعاء (الطبراني) ٣١٩، وقريب منه في الدعوات (الراوندي): ٤٨، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٣ / ١٠، ٩٠: ٢٧٢ / ٣.

ففرقٌ بين أن يقف الإنسان ضارعاً يستمدّ من رحمة الله، وبين أن يقف يتحدّى الله. فكلّ عمل يعمله الإنسان فإنما يجب أن يعمله ابتغاء رحمة الله وثوابه، لا أن يقف يتحدّى به الله؛ ولذا نرى أن أعظم التضحيات قُرنت بطلب الرحمة.

يقول المؤرخون: مرّ الحسين عليه السلام على مصارع أحبّته وأعزّته يوم ذهب عنه أهله ولم يبقَ عنده من الأحبّة أحد.. مرّ يستقرئ الضحايا وينظر إليهم واحداً واحداً، وفي تلك اللحظات تمتمت شفتاه، وشخص ببصره إلى السماء قائلاً: «اللهم إن كنت حبست عنا النصر عاجلاً، فاجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّك»[1]:

يا أبا الطفّ واهتززتُ لمَرآ	ك وقد أطبقتْ عليك الذُّحولُ
وتمشّيتَ تستبينُ الضّحايا	وزواكي الدماءِ منها تَسيلُ
ومشتْ في شفاهِك الغرّ نَجوى	نَمَّ عنها التسبيحُ والتّهليلُ
لك عُتبى يا رب إن كان يُرضيـ	ـك فهذا إلى رضاك قليلُ
وسجى الليلُ والرِّجالُ ضَحايا	والنِّساءُ المخدراتُ ذهولُ
وبقايا مُخيّمٍ من رَمادٍ	وعليلٌ مُصَفَّدٌ وكُبولُ
ودمٌ شاطيء الفرات سيبقى الـ	ـدهرَ يرويه والرُّبَى والنَّخيلُ

نعم، مرّ على تلك الأضاحي، ومرّت عليها أُخته ليلاً، فأطالت النظر إليها حتّى انتهى بها المطاف إلى الجسد الصريع وحولها لُمّة من أخواتها من بنات رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

حَـنَّتْ فَـلم تَـرَ مـثلَهُنَّ نَـوائـحاً   إذْ ليسَ مـثلُ فـقيدِهِنَّ فـقيدا

نادَت فَقطعت القلوبَ بشجوِها   لكـنَّما انـتظَمَ البـيانُ فـريدا

إنسانَ عيني يا حسينُ أُخَيَّ يـا   أملي وعِـقدَ جُـماني المَـنضودا

ما لي دعوتُ فلا تجيبُ ولم تَكنْ   عَوَّدتَني مـن قـبلِ ذاكَ صُـدودا

أَلِـمِحنَةٍ شـغَلتكَ عـنِّيَ أم قِـلىً   حـاشاك إنك مـا بَـرِحتَ وَدُودا

﴿٢٨﴾

عظات من الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: حول سبب نزول الآية وحول المعمّرين

قبل نزول هذه الآية الكريمة دار حديث عند شريحة كبيرة من الناس من أهل المدينة مفاده أن أعمارنا التي نعيشها قليلة، فلا تتوفر لنا مدّة كافية نرجع فيها إلى الله عز وجل، فلو طالت أعمارنا لكان أفضل. فالآية نزلت ولها ارتباط بما كان يدور، وهؤلاء ليس عندهم جديد في دعواهم، فمن أراد الرجوع إلى الله فيمكنه الرجوع إليه ولو عاش يوماً واحداً، أما دعوى أن هذه الأعمار صغيرة ولا مجال فيها للعودة إلى الله فهذا لون من ألوان إلقاء المسؤولية على عاتق القضاء والقدر.

هذه ناحية، أما الناحية الثانية فالآية تقول لهم: إنكم في الوقت الذي كان فيه عندكم قدرة على أداء واجباتكم لم تفعلوا شيئاً ولم تتقرّبوا إلى الله، فكيف تدّعون الآن أن أعماركم لو طالت لتقرّبتم؟ فأنتم قد مرّت بكم فرصة الشباب والطاقات

---

(1) يس: ٦٨.

ومع ذلك ضيّعتموها. فالإنسان منذ بلوغه وحتى الخمسين تقريباً قادر علىٰ فعل كثير من الأشياء، فهو في هذه الفترة يمتلك طاقة عالية وإن كانت على تفاوت، فيستطيع أن يصل بها إلى أداء عمله وواجبه والسعي والحركة والنشاط. فكيف يترك الإنسان هذه الفترة تضيع ثم يقول بعد ذلك: لم لا يطول عمري؟ ولذا يقول أمير المؤمنين في خطبته: «ليغتنم كلّ مغتنم منكم صحّته قبل سقمه، وشبيبته قبل هرمه، وسعته قبل فقره، وفرغته قبل شغله، قبل تكبّر وتهرّم وتسقّم، يملّه طبيبه ويعرض عنه حبيبه»[1].

فهو‌ﷺ يقول: إنكم في هذه الفترات من الطاقة التي تمرّ عليكم لا تضمنون أنها ستبقى، فلم لا تغتنمون الفرصة في استثمار هذه الطاقات؟ دعوا هذه التعليلات من أننا لو قُدّر لنا أن يطول بنا العمر لرجعنا إلى الله.

هذا هو الجوّ العامّ للآية، التي تقول: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾، فالزمن الذي يبدأ به الانحدار الواضح بالنسبة إلى العمر، والتناقص في الطاقات عند الإنسان يكون بعد الخمسين. وهذا ما يقرّره علماء الصحّة، فتبدو مظاهر الهرم والكبر، فالجِلد تقلّ به الرطوبة، وتبدو عليه اليبوسة بسبب قلّة الخلايا الدهنية. والأعضاء يعتريها الانحلال، والعظام تصيبها الهشاشة، والكلى وباقي الأعضاء يحصل في أدائها قصور، بالإضافة إلى أعراض الشيخوخة التي يدرسها ويوضّحها ويشرحها الطبّ. ولذا فإن علماء الكيمياء الحيوية يضاعفون جهودهم حينما يبلغ الإنسان الخمسين للتعرف على ما يقيه من أمراض الشيخوخة. وكذلك يفعل علماء الغدد الصمّ والخمائر، وفعلاً ألقوا أضواء كبيرة على هذا الدور الذي يمرّ به

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين‌ﷺ خالية من الألف. انظر شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمّال ١٦: ٢١٠ ـ ٢١١.

الإنسان؛ تحاشياً لما قد يصيبه من الهرم، وللتقليل من آثار الهرم.

فالآثار من الناحية الجسدية تكون واضحة، فحركة الإنسان تصبح ضعيفة، وطاقاته على السعي تضمر، واستقباله للحياة يقلّ ويتلاشىٰ. وهذه الصورة يسجّلها الشاعر عمرو بن قميئة بقوله:

كأني وقد جاوزْت تسعين حِجةً ... خلعت بها عني عِذار لِجامي

على الرّاحتين مرةً وعلى العَصا ... أنوءُ ثَلاثاً بَعدَهُنَّ قيامي

رمتني بناتُ الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرمى وليسَ بِرامِ[١]

وهذه صورة واضحة من صور الضعف التي يراها الإنسان في كبره، فحركته تكون ضعيفة، وهذا المعنى يأخذه شاعر آخر فيقول:

المـرء يأمـل أن يـعيـ ... ـشَ وطولُ عيش قد يضرُّهْ

تـفنى بشـاشتُه ويـبـ ... ـقى بعد طولِ العيش مرُّهْ[٢]

فحلاوة العيش في الشباب تذهب، ويبقى الإنسان يجترّ الآلام التي مرت به؛ لأن أيّام الرغد قد ذهبت عنه. ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

وتـداولُ الأيـامِ يُـبلينا كـما ... يُبلي الرِّشاءَ تطاولُ الأرحـاءِ[٣]

فالبئر كلّما كانت عميقة، وكان حبل الرشاء طويلاً، كلّما كان أسرع إلى البلى،

(١) أمالي المرتضىٰ ١: ٣٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ١٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٢٥: ٣٨٧، ٣٧: ١٥٩. تكمل

(٢) البيتان لأبي العتاهية، وتمامهما:

وتـخونه الأيّام حتـ ... ـى لا يرى شيئاً يسرّهْ

كم شامتٍ بي إن هلكـ ... ـت وقـائلٍ لله درهْ

شرح نهج البلاغة ٨: ٢٩٣.

(٣) ديوان الشريف الرضي ١: ٢٦.

ولتطاول الأيّام التأثيرُ عينُه علينا.

من مظاهر الهرم عند الإنسان

ولم أجد أروع من الصورة التي رويت لأحد الأعراب من كبار السنّ مع الحجّاج حينما دخل عليه، فقال له الحجاج: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت والله تقيّدني الشعرة، وتسقطني البعرة. فقال الحجاج: هذا أنت في مشيك، فكيف أنت في قيامك وقعودك؟ فقال: إذا قمت فكأنما لصقت بي الأرض، وإذا جلستُ فكأني أهوي في وادٍ سحيق. قال الحجاج: فكيف أنت في نَدَواتِك؟ قال: أنام بالمجمع، وأسهر بالمضجع. فقال الحجاج: ورغباتك الأُخرىٰ، كالطعام والفراش وغيرها؟ قال: إذا بُذلت لي عجزت، وإذا مُنعتُ عنها شرهت[1].

وهذا في الواقع هو الجانب الأخفّ من المصيبة، أو الوجه الأوّل من العملة، أما الوجه الثاني فهو أشدّ، وهو الآلام النفسيّة والتي منها أنه يشعر بوحشة، لأن لداتِه[2] الذين كانوا معه من رفاق الصبا وزملاء الدراسة ذهبوا جميعاً، فلا يجد من أحبائه أحداً، فتصبح الدنيا وحشة في عينيه، يقول الشاعر:

إذا ما انقضى الجيلُ الذي أنتَ فيهِمُ ... وخُلِّفتَ في جيلٍ فأنت غَريبُ[3]

فقد كان له أصحاب يسودهم جميعاً انسجام وترابط عاطفيّ وتجارب

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٣٧، وقال الشاعر:

وأصبحت كنتياً وأصبحت عاجناً ... وشرّ خصال المرء كنت وعاجن

والكنتي: الذي يقول: كنت كذا وكنت كذا، والعاجن: الذي ينهض معتمداً علىٰ الأرض بيديه من الكبر.

انظر الصحاح ٦: ٢١٦١، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٢٧٤.

(٢) اللِّدة: التِّرب. مختار الصحاح: ٤٧ ـ شرب، لسان العرب ٣: ٤٦٩ ـ ولد.

(٣) الأمالي (المفيد): ٣١٦، شرح نهج البلاغة ٧: ٦، ١٨: ٢١، الجامع لأحكام القران ٦: ٣١٩.

وصلات، لكنهم ذهبوا، فيبدأ يشعر بالفراغ الشديد. وقد كان أمير المؤمنين يشعر بالغربة، يقول حبة العرني: كنت أراقب أمير المومنين، فكان يـخرج إلى الجـبّانة (المقبرة)، فيقف عليها فترة ثم يجلس ينبش التراب بأنامله ويقرأ:

وبـــــالنفس لُـــباناتٌ	إذا ضَـــاق لهـا صــدري
نكتُ الأرض بـــــالكفِّ	وأبــديتُ لهـــا سِـــرّي
فــــمهما تُـــنبتُ الأرضُ	فـذاك النـبتُ مـن بَـذري[1]

فكان الذين يمرّون بهذه الظاهرة في حياته يرون أن الإمامعليه السلام لم يكن منسجماً مع مجتمعه كثيراً، وأنهعليه السلام كان ينطوي علىٰ آلام في نفسه لا يقدر على بثّها لكلّ أحد، فكان يتألّم ويخرج لينفّس عمّا يعتمل في نفسه. والأمر ليس كذلك؛ إذ أنهعليه السلام إنما كان ينبش الأرض لأن أحبّاءه كلّهم في التراب، فعمّار وسلمان وأبو ذرّ وابن بديل وصعصعة وغيرهم كلّهم في التراب، فكان ينشد السلوى في ذلك التراب؛ فهو يرىٰ أن بمروره على التراب ستتراءىٰ له تلك الوجوه وتلك الصور، وتلك الأوطار التي مرّت به.

ومن الآلام التي يشعر بها الرجل المسنّ أيضاً الإحباط الذي يصيبه، ومـعنى الإحباط أنه يرى أن وظيفته في الحياة قد شُلّت، فلا يستطيع أن يمارس حياته بالشكل الذي كان يمارسه سابقاً، فإذا كان كذلك فإنه يشعر بالاحباط، فهو مثلاً كان يقوى على أن يرد يد الضارب، فأصبح لا يقوى على ذلك. يقول الشاعر:

لئن أُرعِشت كفا أبيك وأصبحت	يـداك يـدا ليثٍ فـإنك جـاذبة[2]

---

(١) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢.
(٢) ديوان الفرزدق: ١٠٥.

ومن تلك الآلام أنه يشعر بالقرب من فراق الحياة، وهي نقطة مهمّة جدّاً، فهو قد غدا قريباً من الرحيل، ولديه ارتباطات في الدنيا، فعنده دار وأولاد وأشغال تجاريّة لم تنتهِ، وأعمال، فهو يدير وجهه إلى ما تركه وراءه.

فهذا الإحباط والألم والشعور بقرب الفراق والانتقال وترك ما جمع، كلّها أشياء تترك عنده ألماً نفسيّاً لا حدود له، فيجتمع الألم الجسدي مع الألم النفسيّ.

فالقرآن يقول لهم: إن الله أجرى في قوانينه التكوينيّة أن الإنسان تبدأ خلاياه بالهرَم والتلاشي ويؤول الأمر به إلى الضعف، فإن وصل إلى هذا الحدّ فماذا يستطيع أن يفعله لآخرته حتّىٰ يتمنى طول العمر؟

هذه ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الإنسان لا يكره الحياة، وهذه من الأسرار التي أودعها الله في خلقه؛ لأن الإنسان إذا كره الحياة شُلّت أعماله، فيتوقّف نموّ الحياة. وهذا خلاف الحكمة التي من أجلها استعمرنا الله تعالىٰ في الأرض[1]. ولذا تجد أمل الإنسان لا يقف عند حدّ، فمهما طال به العمر فلديه الأمل في أن يتجدّد. صحيح أنك قد تجده يتذمّر أحياناً من ثقل الحياة لكنه في الواقع لا يريد مفارقتها، ورحم الله أبا الطيب المتنبي إذ يقول:

ولذيذُ الحياةِ أنفس بالنفـ ـسِ وأشهى من أن يُمَلَّ وأحلىٰ
وإذا الشيخُ قال أُفٍّ فما مَـ ـلَّ حياةً لكنما الضعف ملّا[2]

فالحياة عزيزة على الإنسان، وما أكثر ما قرع القرآن الكريم أسماعنا: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[3]! فهو يقول: إن هذه العناية التي

---

(١) ولذا قال الإمام الكاظم عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» الفقيه ٣: ١٥٦. ونسب للرسول صلى الله عليه وآله بلفظ: «احرث لدنياك...». النهاية في غريب الحديث ١: ٣٤٦ ـ حرث.

(٢) ديوان المتنبي ٢: ٤٠٥.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

تولونها لشيء ستفارقونه ليتكم تعطونها لمستقبل حياتكم، وهي الدار الآخرة التي هي الحياة الحقيقية، والدنيا ما هي إلا محطّة للمرور، وسوف يُخلى المكان للآخرين. وهذا الأمر واضح جداً ولا يحتاج إلى مزيد من التوضيح والبرهنة.

ولدينا هنا نقطة مهمّة من المناسب الإشارة إليها، وهي أن معدّل الأعمار لا يبلغ أكثر من الثمانين، وقد يزيد العمر قليلاً أو ينقص، لكن المعدل التقريبي هو هذا فهل هناك ما يدعم الروايات والأخبار التي وردت بطول الأعمار لبعض الناس؟ فلدينا من الأنبياء من عاش عمراً طويلاً مثل نوحعليه السلام الذي يقول عنه القرآن: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً﴾[1]، وهذا زمن الدعوة لقومه فقط.

وتوجيه هذه المسألة أنها مسألة غير طبيعية، فالله تعالىٰ لابد أنه قد تدخّل في الموضوع، فيكون هذا إعجازاً وليس من الطريق الطبيعي. والمعجزات محيطة بنا، فأنت ترى مثلاً كرة تكبر الأرض آلاف المرات وهي معلقة في الهواء، فما هو الهواء؟ وما هي مادّته؟ إن قيل: ذلك بتأثير الجاذبيّة أو القوّة الطاردة، فما ماهيّة الجاذبيّة أو تلك القوّة؟ إن هذا هو عين الاعجاز، وعين أصابع الخالق التي هي من وراء هذا العمل.

نماذج من المعمرين

ابن بقيلة أدرك بحر النجف

يروى عن سلمان المحمدي أنه عاش (٣٥٠)، عاماً وهذا ما ترويه معظم الكتب التاريخيّة[2]، ويكاد يكون هناك تواتر معنوي[3] في هذه المسألة.

---

(١) العنكبوت: ١٤.

(٢) الفصول العشرة (المفيد): ١٠٢، تحفة الأحوذي ٥: ٢٤٩.

(٣) التواتر المعنوي هو: اتفاق الرواة علىٰ نقل مضمون واحد مع اختلاف الألفاظ؛ سواء كانت

ويروىٰ أن سعد بن أبي وقاص لمّا فتح الحيرة، فتح بـابه وسـمح للـناس أن يدخلوا عليه، فدخل عليه عبد المسيح بن بقيلة الغسّاني، وكان مسنّاً، فقال له سعد: ماذا تتذكّر من الأحداث والأشياء التي مرّت بك؟ قال: أذكر أن المرأة كانت تخرج من الحيرة تضع مِكتَلَها على رأسها، ولا تتزوّد بشيء حتى تصل الشام لأنها كلّها كانت قرىً معمورة، ثم عادت خراباً يباباً، وذلك دأب الله في العباد. فقال له سعد: وبعد؟ قال: أدركت سفن البحر تقف على هذا الجرف[1]. ويعني به: جرف البحيرة إلى جانب النجف. ويبدو أن هذه البحيرة استمرّت إلى أيّام العباسيّين؛ لأن فائيّة إسحاق بن إبراهيم الموصلي تذكر هذا؛ حيث يقول فيها:

ما إن رأى الناسُ في سهلٍ وفي جبلِ ... أصفى هواءً ولا أعذىٰ من النجفِ
كأن تُربَتَهُ مِسكٌ يفوحُ بـه ... أو عنبرٌ دافَهُ العطّارُ في صَدفِ
حُفَّت ببرٍّ وبحرٍ في جوانبها ... البحرُ في طَرفٍ والبرُّ في طرفِ[2]

فكانت النجف محاطة بالبحر، وكان هذا المعمَّر قد أدرك سفن البحر التي كانت تأتي إلى هنا، وراح يحدّث عن أشياء لها تأريخ طويل.

أروى بن سلم

وهناك روايات عن المعمَّرين كثيرة، منها أن سيلاً جاء أيام عبد الملك فكشف عن وادٍ من أودية اليمن كان فيه مغارة، فدخلوا إلى المغارة فوجدوا فيها سريراً عليه جثّة مسجّاة، وعند الرأس لوح مكتوب عليه: «أنا أروى بن سلم، عمّرت ألف

☚ دلالة الألفاظ علىٰ المضمون بالمطابقة، أو بالتضمّن، أو بالالتزام، أو بالاختلاف. مصباح الأُصول (الخوئي) ٢: ١٩٢.

(١) أمالي المرتضىٰ ١: ١٨٨، الغيبة (الطوسي): ١١٨، بحار الأنوار ٥١: ٢٨١.

(٢) معجم البلدان ٥: ٢٧١ ـ النجف.

سنة وملكت كذا مدينة، وتزوّجت كذا امرأة ثم صار آخر أمري أن التراب فراشي، والديدان جيراني، فمن رآني فلا يغترّ بالدنيا كما غرّتني»[1].

لكن هل تثبت هذه الروايات أمام النقد أم لا؟ إنها ليست من الكثرة التي تفيد الاطمئنان، فهي على كلّ حال محلّ تأمّل، ولكن يمكن أن يكون واحد أو اثنان من الناس قد شذّوا عن القاعدة الطبيعيّة في الأعمار.

ويقال الآن: إن معدل الأعمار أصبح أكبر ممّا كان عليه بسبب القضاء على الأمراض والأوبئة، وارتفاع مستوى المعيشة، ووجود الأدوية.

فإن وصل الإنسان إلى هذا الحدّ من العمر (٧٠ ـ ٨٠) عاماً، فهو سيشعر أنه لا بد أن يعطي هذا المكان لغيره شاء أو أبى، فإن لم يعطِ مكانه لغيره فلن يمكن للحياة أن تستقيم. والآن يعاني المختصّون من وجود ظاهرة التفجّر السكاني، وهي ظاهرة تخيف الأُمم المتّحدة؛ لأنه إن استمرّ هذا التفجّر فسيؤدّي إلى أننا سوف لن نجد شبر أرض للسكن بعد أيام.

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٥٢٤ ـ ٥٢٥، بحار الأنوار ١٤: ٢٢، باختلاف في مورد القصّة؛ إذ فيهما: عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال في حديث يذكر فيه قصّة داود عليه السلام: «إنه خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّا جاوبه، فانتهى إلى جبل فإذا على ذلك الجبل نبي عابد يقال له حزقيل، فلما سمع دويّ الجبال وأصوات السباع والطير علم أنه داود عليه السلام. فقال داود عليه السلام: يا حزقيل تأذن لي فأصعد إليك؟ قال: لا. فبكى داود، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا حزقيل لا تُعير داود، وسلني العافية. قال: فأخذ حزقيل بيد داود عليه السلام، فقال داود: يا حزقيل، هل هممت بخطيئة قط؟ قال: لا. قال: فهل دخلك العُجب بما أنت فيه من عبادة الله؟ قال: لا. قال: فهل ركنت إلى الدنيا، فأحببت أن تأخذ من شهواتها ولذّاتها؟ قال: بلى، ربما عرض ذلك بقلبي. قال: فما كنت تصنع إذا كان ذلك؟ قال: أدخل إلى هذا الشِّعب فأعتبر بما فيه. قال: فدخل داود عليه السلام الشِّعب فإذا سرير من حديد عليه جمجمة بالية وعظام فانية، وإذا لوح من حديد فيه كتابة، فقرأها داود عليه السلام فإذا فيها: أنا أروى بن سلم، ملكت ألف سنة، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، فكان آخر عمري أن صار التراب فراشي، والحجارة وسادتي، والديدان والحيّات جيراني، فمن رآني فلا يغترّ بالدنيا».

تروي الروايات أن النبي عيسى مرّ يوماً باثنين يتصارعان ويتنازعان، فسألهما عن السبب، فأجابا أنهما يتنازعان في قطعة من الأرض، فقال عيسى: **«لو أحييت لكم مَن مَلَك هذه الأرض، لما وجدتم فيها موطئ قدم»**.

فان استمرّ هذا التفجّر السكاني فإن الأمر يصل بالناس إلى أنهم سوف يتنازعون في الشبر من الأرض، ولكن الله شاء أن يخرج الإنسان من هذه الدنيا، وعندما يخرج فعليه أن يعرف أنه ذاهب إلى مصدر الكرم والعطاء، بل إلى مصدر الرحمة المطلقة. ولهذا تجد أن الواثقين بما عند الله وعطائه في لحظاتهم الأخيرة لا يبدو عليهم شيء من الانفعال أو التأثر؛ لأنهم يعرفون أنهم يخرجون من مكان هو مزبلة بالقياس إلى ما هم ذاهبون إليه. والذي يرعبهم فقط هو ذاك التراب الذي سينتقلون إليه بعد الفراش الوثير والوسادة الناعمة والقصر الفخم.

وفي الحقيقة إن الذي يذهب إلى التراب هو الجسد، أما الروح فتذهب إلى خالقها واهب الحياة، والجسد كان منتزعاً من التراب فيعود إلى التراب؛ فهو وديعة:

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ... ولابدّ يوماً أن تُردّ الودائعُ[1]

فالآية تقول: تنبّهوا إلى أن طول العمر ليس دائماً في مصلحتكم، فأنت ترى بنفسك اليوم من الناس من يكون الموت له زينة، فهو لا يسمع ولا يبصر ولا يتحرّك، فينتهي به الأمر إلى أن يصبح عالة يثقل على الناس من أهله وأعزّ أحبّائه. فالموت يكون لمثل هذا نعمة. والله يريد أن يضع أيدينا على هذه الحقيقة فيقول: **﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُـنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ﴾**؛ ولذا كان النبي يتعوّذ بالله من أن يرجع إلى أرذل العمر[2]. وكان العرب يتمدّحون بقصر الأعمار، فيتصوّرون أن الذي يطول

(١) مجمع البيان ٤: ١٢٠، لسان العرب ٤: ٦٠٢ ـ عمر.

(٢) مغني المحتاج ١: ٥٩٦، سبل السلام ١: ١٩٧، نيل الأوطار ٢: ٣٤٩.

عمره هو الجبان، فالشجاع عمره قصير. وهذه نزعة من النزعات التي كان يفرضها محيطهم، فهي إن كانت في طريق المجد فلا بأس بها، أما إذا كانت في طريق آخر فهي حتماً سُبّة.

المبحث الثاني: تعريف العقل وأقسامه

ثم قالت الآية: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾، فالله حرّك عقولنا بالتفكير، فالعقل: هو القوّة المدركة للأشياء. ويقسمونه إلى قسمين:

العقل الفطري

و هو الاستعداد، أو القوّة العاقلة التي يودعها الله عند الإنسان. ووظيفتها أن تميّز الخبيث من الطيّب، والضارّ من النافع، والصحيح من الفاسد.

العقل التجريبي

وهو ما يحصّله الإنسان عن طريق الاستعداد، أي التجارب التي يختزنها. والتجارب لا يستفيد منها إلّا العاقل، فالتجربة عقل إضافي. ولذا قُسّمت مدارس المعرفة إلى قسمين:

القسم الأول: المدرسة العقليّة

ومن أتباعها أفلاطون، وسبينوزا، وديكارت، وكانت، وآخرون. فهؤلاء يعتبرون أن مصدر العلم والمعرفة هو العقل.

القسم الثاني: المدرسة التجريبية

وهي المسمّاة بالمدرسة الحسّيّة التي تقول: إن الحواسّ هي مصدر المعرفة، فالإنسان يأخذ العلم عن طريق التجارب والحواسّ. وهذا فيه لون من المغالطة؛ لأن الحواسّ تنقل الإحساس إلى العقل، والعقل هو الذي يحكم. فالعضو أشبه

شيء بالسلك الذي ينقل الطاقة الكهربائية[1].

العقل مطبوع ومسموع

وفيما ينسب لأمير المؤمنين ﷺ أنه قسم العقل إلى قسمين، فقال:

«رأيت العقل عقلين ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفعُ مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعُ
كما لا تنفعُ الشمسُ ... وضوءُ العينِ ممنوعُ»[2]

فالعلم إما من التجارب أو من العقل، ومن المؤكّد أن العقل الفطري يفتقر إلى التجربة، وهو بأمسّ الحاجة إليها؛ ولذلك تجد أن ذوي الاستقامة الذين تنتفع بهم الحياة، والذين لهم بصمات عليها هم المستفيدون من التجارب، فقد تجد شابّاً عمره عشرون أو ثلاثون سنة، وفكره غنّي بالتجارب. وقد تجد من بلغ الثمانين لكنه أقرب إلى عقل الطفل؛ إذ لم يستفد ممّا مرّ به من تجارب، ولم تعطِه تلك التجارب حِنكة ودراية. فليس من شكّ أن التجارب نعمة كبيرة.

انظر إلى هذا الإنسان الذي سلبه الله نعمة العقل، وستعرف قيمة العقل، فالله أنعم على الناس بهذه القوّة المبدعة الموجّهة، وفي الوقت نفسه أعطاهم القدرة على الاستفادة من التجارب. فباقي الحيوانات لا قابليّة لها على اختزان التجربة، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستفيد من التجربة.

---

(١) ويستدل العقليون علىٰ خطئها بما لو أنك لو وضعت يدك اليمنىٰ في ماء حارّ واليسرىٰ في ماء بارد، ثمّ أخرجتهما ووضعتهما كلتيهما في ماء دافئ، فإن اليمنىٰ ستشعر بأن الماء بارد، أما اليسرىٰ فإنها ستشعر بأنه حارّ، وهو وهم الحواسّ. وعليه فلا يمكن الاعتماد علىٰ الحواسّ في كلّ شيء في عملية المعرفة أو الابستمولوجيا.

(٢) اللمعة البيضاء: ٣٨٤. وقال ﷺ: العلم علمان: مطبوع ومسموع؛ ولا ينفع المسموع إذ لم يكن المطبوع. نهج البلاغة / الحكمة: ٣٣٨، عيون الحكم والمواعظ (الليثي): ٦٤.

إشكال حول عدّ العقل من مصادر التشريع

وهنا نقطة لا بدّ من الوقوف عليها، وهي أن بعض الكتّاب يقول: كيف تعتبرون العقل من مصادر التشريع؟ فنقول: إن الله أمرنا أن نستثمر عقولنا فقال: ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾، فهذه القوّة لو لم يكن فيها قابلية الإدراك لما كلّفنا الله أن نستغلّها أو نُعملها. فقابليّة الإدراك هي التي أمرني الله معها أن أستثمر العقل، ولولا هذه القابلية لم يكلّفنا بذلك، فأنت تقول مثلاً: العقل ما عُبد به الله[1]، فلو لم يكن عند العقل القابليّة على إدراك مصدر العبادة، فكيف يمكن أن يُستعمل في هذا المجال؟

المستقلّات وغير المستقلّات العقلية

ولتقريب المعنى نقول: هناك ما يسمى بالمستقلّات العقلية، وهي ما يدركها العقل مباشرة، دون توسّط الشارع المقدّس مثل قبح الخيانة، فالعقلاء يتّفقون على قبحها. ودور العقل هنا أنه عندما يرى العقلاء قد تطابقوا على قبح الخيانة يستنتج أن الشارع أيضاً يقبّحها؛ لوجود الملازمة بين حكمه وحكم الشرع. فهو هنا لا يحتاج في حكمه هذا إلى أن يقول لنا الدين: إن الخيانة قبيحة، أو أن السرقة قبيحة، فالعقل يستقّل بتقبيحها، والشارع سيّد العقلاء. فالعقل لديه القابلية على إدراك الملازمة بين حكم الشرع وحكم العقل؛ لأن الشارع سيّد العقلاء.

وأحياناً يحكم العقل بتوسّط بيان الشارع، فمثلاً: يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[2]، فالله أمرنا بالحجّ، لكنه لم يقل لنا

---

(١) سئل الصادق عليه السلام: ما العقل؟ قال: «ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان». قال السائل: قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال عليه السلام: «تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل». الكافي ١: ١١ / ٣، معاني الأخبار: ٢٣٩ / ١، الفروق اللغوية (العسكري): ٥٢٠، شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٦، ولم ينقلا ذيله.

(٢) آل عمران: ٩٧.

كيف نذهب إلى البيت، بالطائرة أو بالسيّارة، وإنما نحن نعرف أننا لا يـمكن أن نصل إلّا عن هذه الطرق، فبدون قطع المسافة لا يمكن أن نصل إلى مكّة ونؤدي الواجب. فنحن ندرك من وجوب الحجّ وجوب مقدّمته، فالعقل يدرك هذا. وهذه فقط هي الوظيفة التي تعطىٰ للعقل، أمّا المشرّع فهو الله وحده، فـهو الذي يـبيح ويحرّم، ويأمر وينهى[1].

المبحث الثالث: بعض المظاهر اللّاإسلامية في البلاد الإسلامية

تنازع أبو الدرداء يوماً مع معاوية؛ لأنه كان يركب عـلى السـروج المـحلّاة بالذهب ويشرب بآنية الذهب ويبيع الذهب مصنوعاً بأكثر من ثمنه موزوناً، فقال له: إن الإسلام حرّم هذا. فقال معاوية: أنا لا أرى به بأساً. فقال أبـو الدرداء: الله يحرّمه وأنت لا ترى به بأساً! فهل أنت مشرّع؟ ثم تركه وخرج من الشام[2].

ويعزّ علينا أن نصرّح بحقيقة أن بلداننا الإسلاميّة في الوقت الحاضر هي هكذا، تضع التشريعات مقابل تشريع الله وتعمل بها، وتقول: إن هذه التشريعات أفضل. انظر إلى نشاطاتنا الاقتصاديّة، فهي لا تقوم على أساس الشريعة الإسـلامية؛ لا العمل ولا التجارة بل وحتىٰ ممارساتنا اليومية داخل الأُسرة. **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾**[3].

فالمسلم يقول: «لا إله إلّا الله»، لكنك تجد عنده ألف إله من عواطفه وغرائـزه وممارساته، يعبدها ولا يلتفت إلى أنه يعبد غير الله. فنحن نبتعد عمّا رسم الله لنا في ممارسات وجوانب كثيرة من حياتنا. وفي الوقت نفسه نطلب من الله الرحمة. انظر إلى القمّة في الوقاحة، نحن نعصيه بما مكّننا من الانتفاع به بدل أن يكون ذلك

---

(١) انظر مبحث المستقلّات وغير المستقلّات العقليّة في أُصول الفقه (المظفّر) ٢: ١٨٠ ـ ٣١٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢. (٣) يوسف: ١٠٦.

سبباً لطاعتنا له، فالله يمنحنا القدرة على الكسب وييسّر لنا سبله، ويـرزقنا مـن رزقه، ثم يشرب بعضنا به الخمرة.

أتاني سؤال غريب حول العلاقة بين الجنس الواحد، أي أن يتزوجّ الذكر من الذكر والانثىٰ من الانثىٰ، ويقول السؤال: إن هذه المسألة يـجب أن تُـعالج. أولا تستغرب معي أن يكون مثل هذا المعنى في بلد إسلامي؟ فإن كان البرلمان فـي انگلترا قد أباح هذا، فنحن لسنا في انگلترا، نحن أهل «لا إله إلّا الله»، ونحن أهل الفطرة، وهذا عمل ينافي الفطرة، ويعافه حتى الحيوان. فمن نزلت به فـطرته إلى هذا المستوى فالحيوان أفضل منه.

فالمهمّ عند الناس اليوم أن ينفذوا قواعد نظام اجتماعي وضعي بحجة أنهم لا يريدون العودة إلى أيّام الجاهليّة والتخلّف، وكأن تشريعات الباري كـلّها نـقص تعود بالإنسان إلى أيام الجاهليّة. ولذا يتساءل البعض مثل ابن العربي عن السبب الذي دفع الحسين للخروج، ويتساءل ابن العربي: أما كان بوسع الحسين أن يبقىٰ؟ إن الحسين قتله سيف جدّه، لأن جدّه أمره أن يطيع وليّ الأمر[1].

فوليّ الأمر هو يزيد، وعلى سيّد شباب أهل الجنة أن يطيع يزيد الذي يـقعد على كؤوس الخمر ويقول:

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، وفيه: «وقد غلب عـلى ابـن العـربي البغض من أهل البيت، حتى قال عن الإمام الحسينعليه‌السلام: قتله ـ يعني يزيد ـ بسيف جدّه». وقال: «ومن مجازفات ابن العربي أنه أفتى بقتل رجل عاب لبس الأحمر؛ لأنه عاب لبسة لبسها رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وقتله بفتياه كما ذكره في (المطامح). وهذا تهوّر غريب، وإقدام على سفك دماء المسلمين عجيب، وسيخاصمه هذا القتيل غداً، ويبوء بالخزي من اعتدى. وليس ذلك بأول عجرفة لهذا المفتي وجرأته وإقدامه؛ فقد ألّف كتاباً في شأن مولانا الحسين (رضي الله عنه، وكرم وجهه، وأخزى شانئه) زعم فيه أن يزيد قتله بحقّ بسيف جدّه نعوذ بالله من الخذلان». فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٣١٣.

أقول لصحبٍ ضمّت الكأسُ شملَهم وداعـي صَبابات الهوى يَترنَّمُ
خُذوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذّةٍ فكلٌّ وإن طال المَدى يَتصرّمُ[1]

فمثل هذا الفاجر يرى ابن العربي وأمثاله أن على الإمام الحسين ﷺ أن يطيعه على هذا الرأي. ولنا أن نسأل: لمَ يطيعه؟ ليعيش أياماً قلائلَ؟ أيطيعه على حساب دينه ليعيش بعض الوقت؟ انظر إلى الحسين ﷺ وكم عاش بعد نهضته! فكم من الوقت الآن بيننا وبين واقعة الطفّ؟ الحسين ﷺ اليوم أمام بصائرنا وأبصارنا، وهو يعيش في أفكارنا أُمثولة وأُنشودة يردّدها فم الأحرار:

كذب الموت فالحسينُ مخلّدْ كلّما اخلولق الزمان تجدّدْ

لأنه رأى أن نحره إذا نُحر سينقذ الدين من القتل، وبالفعل وقف يقدّم تلك الأضاحي، ويا لها من أضاحٍ عزيزة على رسول الله ﷺ! تلك البراعم من آل عبد المطّلب، هؤلاء الذين يذكّر بهم زين العابدين أبا حمزة، فقد دخل أبو حمزة على الإمام فقال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من الله الشهادة، إن جدّك ﷺ قتل وأباك ﷺ قتل، فقال: «شكر الله سعيك يا أبا حمزة، ولكن والله ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها رُعباً غَداةَ عَليها خِدرَها هَجموا
عجَّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختَلَفَت أيدي العدوِّ ولكن من لها بِهِمُ[2]

* * *

نايم يخو زينب يواعي ما هيّجنك هالنواعي

---

(١) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٢٠١. (٢) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.

﴿٢٩﴾

من مسائل فقه الحجّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: حول حرمات الله وكيفيّة تعظيمها

الآية الكريمة من فقه الحجّ، ونظراً لأهمية فقه الحجّ فقد أخذ مساحة واسعة في الشريعة الإسلاميّة؛ لأن أساس فكرة الحجّ تقوم على تجسيد الوحدة بين المسلمين عمليّاً، وهذا هو الهدف الأساس من تشريع الحجّ. والنظر الميداني غير النظر النظري، فالمرء تارة يقرأ عن أمّة من الأمم استعراضاً نظرياً مسطوراً في كتاب، وأخرىٰ يعيش بين ظهراني هذه الأمّة ميدانيّاً، ويطّلع عن قرب على أحوالها وتصرّفاتها وواقعها، فهذا يكون أبلغ في التأثير. والذي يأتي إلى الحجّ يأتي من مختلف الأقطار والأصقاع الإسلاميّة، فمن كان قد أخذ فكرة مغلوطة

(١) الحجّ: ٣٠.

عن مسلم من مذهب ما فإنه سيغيّر الكثير من سوء الفهم عنه عندما يراه في مكّة.

وقد يقول قائل: إن ما تقولونه لم نرَ منه شيئاً، فنحن نذهب كلّ سنة إلى مكّة فنسمع الشتائم، وتوزيع الشرك، فلمَ لم يأخذ الحجّ أثره؟

والجواب هو أننا لا يعنينا من يكون موظّفاً بالشتم، بل الذي يهمّنا هو المسلم الذي يتصرّف تصرّفاً عفوياً منطلقاً من إسلامه وإيمانه، أما الموظّف بالشتم فلا علاقة لنا به.

فالهدف الأساس من الحجّ أن يلتقي المسلمون ميدانيّاً ليأخذ بعضهم عن البعض الآخر صورة صحيحة. وبناء على هذا فقد عالجت الآية مجموعة من القضايا، فقالت: ﴿ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ﴾ وتسمى لفظة ﴿ذٰلِكَ﴾ في الآية بـ«فصل الخطاب» وهي أشبه شيء بعلامةٍ تقطع الكلام السابق عن اللاحق، فكأن الكلام الذي بعدها مستأنف لا صلة له بما قبله.

معنى تعظيم حرمات الله

أما تعظيم حرمات الله ففيه رأيان:

الأوّل: أنه تعظيم المناسك والإيمان بحكمتها

فتعظيم المناسك هو الإيمان بالحكمة الكامنة وراءها، وهذا ما ينصّ عليه بعض الفقهاء[1] والمفسّرين[2]؛ لأن الإنسان الذي يحمل الوعي والثقافة ويتفاعل مع العالم الخارجي كالمسلم الأوروبي الذي يعيش ضمن مؤسّسات تقوم على العقل والمعادلات الرياضيّة، هذا الإنسان حينما يأتي إلى مكّة المكرّمة ويرى أن المشرّع يقول له: اذهب إلى المزدلفة، وخذ بعض حصيّات صفاتها كذا وكذا، وحارب بها الشيطان، فإنه يفكر: ما هو الشيطان؟ وأين هو؟ وما تأثير الحصى؟

---

(١) زبدة البيان: ٢٢٨. (٢) فقه القرآن ١: ٢٩٣.

فيحدث عنده لون من التساؤل والاستفسار عن الحكمة من هذا العمل، ومدى صلته بالعقل.

ومثل هذا المتسائل ينبغي ألّا ينساق وراء تساؤلاته وعواطفه، بل عليه أن يسأل الاختصاصيّين.

ومشكلتنا أننا نسأل من الاختصاصيّين حول كلّ القضايا إلّا قضايا الشريعة، والمفروض أننا يجب أن نسأل الاختصاصيّ حول قضايا الشريعة قبل كلّ شيء، فنسأل المتمرّس في علم الكلام والعرفانيّات وأُصول الشرائع حول فلسفة ما نرى. وما من شكّ أن الله تعالى يتعبّد عقولنا أحياناً، فمثلاً في الحشر يُبعث الإنسان بعد أن يموت، وهذه ليست فكرة سهلة، وإنما تحتاج إلى برهنة وأدلّة، لأنه ليس من السهل الإيمان بأن الإنسان بعد أن يتحوّل إلى تراب يرجع كما كان.

كيف يتعامل القرآن مع طروحاته

فالقرآن استعمل في هذه المسألة أُسلوبين: الأول قدّم فيه البراهين، والثاني تعبّد به العقل. فممّا تعبّد به العقل قوله: **﴿إنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأتُونَ أفْوَاجاً﴾**[1]، فساق ذلك دون برهان. وما قدم به البرهان مثل قوله: **﴿أفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**[2]، فنحن خلقناكم أوّل مرّة من التراب ولم يكن صعباً علينا، فالذي قدر أن يكوّنكم في المبدأ قدر أن يكوّنكم مرّة أُخرى. وقدّم دليلاً آخر فقال: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أنشَأهَا أوَّلَ مَرَّةٍ﴾**[3]، وقدّم أدلّة أُخرى مثل قوله: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ نَاراً فَإذَا أنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾**[4]. فمن يستطع أن

---

(١) النبأ: ١٧ ـ ١٨.

(٢) ق: ١٥.

(٣) يس: ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) يس: ٨٠.

يخلق الضدّ من الضدّ يستطِع أن يعيد الميت إلى الحياة، فالشجر الأخضر رطِب، والنار ضدّ الرطوبة، والله جعل النار قابلية في جوف الخشبة. فمن استطاع أن يخلق الضدّ من الضدّ يستطيع أن يحيي الموتى.

فالقرآن أحياناً يقدّم الدليل، وأحياناً يتعبّد العقل، فيقول لك: طالما أنك آمنت بحكمة الله فعليك أن تجمّد عقلك أمامه، وتتّبع ما أوحت به السماء؛ لأن عقلك محدود، ولا تتصوّر أنك تستطيع فهم كلّ شيء. فبعد أن آمنت بأن الله حكيم عليك أن تتعبّد بما أمرك به.

فعندما نتساءل عن الحكمة من رمي الجمرات فمن الممكن أن يكون الجواب أن لها تأثيراً نفسياً أو أن لها تأثيراً في شحذ العزم والإرادة على محاربة المعصية؛ لأن محاربة الشيطان تعني الامتناع عن المعصية. وحتى العقلاء أنفسهم يستعملون يومياً في معاملاتهم ويجسّدون في سلوكهم مثل هذا المعنى.

الحكمة من الحجّ

ويقال هذا المعنى أيضاً في علّة الذهاب إلى مكّة والطواف حول أحجارها، فما هي الحكمة من الطواف حول تلك الأحجار؟ فمن الممكن أن أطوف في مكاني وبلدي طالما أن الطواف لله. وهذه الحجّة استعملها عبد الملك بن مروان لما أراد أن يمنع الناس من الذهاب إلى الحجّ لئلّا يؤثّر عليهم عبد الله بن الزبير ويفسدهم عليه، فقال لأهل الشام: ما الداعي في الذهاب إلى مكّة وهذه قبّة الصخرة عندكم؟ واستحدث هذه الرواية: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاث...»[1].

---

(١) قريب منه ما في كتاب أضواء على السنة المحمدية (أبو ريّة): ١٦٩، قال: «كانت الأحاديث الصحيحة أوّل الأمر في فضل المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ ولكن بعد بناء قبّة الصخرة ظهرت أحاديث في فضلها وفضل المسجد الأقصى».

والجواب عن هذه الشبهة أن الوقوف ميدانياً على مهد الإسلام الأول أمر يريده الله؛ لنتمثّل في وقوفنا على الكعبة صوت بلال وهو يصيح: «**أشهد ألّا إله إلّا الله**». فإذا وقفنا واستشعرنا هذا المعنى فإنه يأخذ من أنفسنا، فأنت تقول في نفسك وأنت في الكعبة: هنا وقف بلال يؤذّن، وهنا صعد رسول الله ﷺ يخطب الناس، وهنا جلس الصحابة الكرام يستمعون خطبته، وهنا كان تجمّع المسلمين بعد رجوعهم من الغزوات. وهذا كلّه يلعب دوره في شحذ مشاعرك وتهيئتك نفسياً؛ ولذلك أراد الله شدّنا إلى هذا المكان.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى أراد الله لك أن تلتقي بإخوانك الذين أخذوا عنك صورة مخطوءة؛ ليروا أنك متوجّه إلى الكعبة، وتراهم أنت متوجّهين إليها، ويرونك تقول: «لا إله إلّا الله» وتراهم يقولون: «لا إله إلّا الله». ويرون أنك تقرأ القرآن نفسه الذي يقرؤونه، ولا قرآن لك غيره كما يصوّرونه يوميّاً للناس. فإن كان هذا المسلم واقعيّاً ونظيفاً فسيقول في نفسه: إنني كنت مخدوعاً، ومن اتّهم هؤلاء فإن له مصلحة. فالصورة الميدانيّة تبدّد عشرات الشكوك بلا شكّ.

فمعنى التعظيم إذن هو الإيمان بحكمة المناسك، فليس عبثاً أن يأمرني الله أن أُنفق الأموال وأُحرم، وأن أتجرّد من ملابسي لألبس ملابس أُخرى ليس فيها خيط من الحرام، أو أنني عندما ألبسها أكون مهيّأً نفسيّاً. فأقول: إنني خلعت ما فيه شبهة إلى ما ليس فيه شبهة. فالإيمان بحكمة المناسك هو التعظيم على هذا الرأي.

الثاني: أنه الحرمات التي أحاط الله بها الكعبة الشريفة

فمعلوم أن الكعبة الشريفة أحاطها الله بجملة من الحرمات؛ والغرض من ذلك تبيان أهمّيّتها وعظمتها. وهذه الحرمات خمسة:

١ - البيت الحرام.

٢ - المسجد الحرام.

٣ - البلد الحرام.

٤ - الحرم المحيط بالبلد.

٥ - الزمن الحرام، وهو الشهر الذي يقام فيه الحجّ.

فقد اجتمعت الحرمات في الزمان والمكان لتنسج سياجاً حول الكعبة يعطيها حرمة ومكانة في نفوس المسلمين حتى يعرفوا أهمّيّتها.

ومن المؤسف أن الذي يمرّ بتأريخنا يرى أن هذه الكعبة التي لها هذه الحرمات لم يصُنها المسلمون، ولو كان جبل «أبو قبيس» يتكلّم لشهد يوم أنهم قد وضعوا عليه المنجنيقات، وهيّؤوا لفائف النفط وأوقدوها بالنار، ثم وجّهوها إلى الكعبة فأحرقوا أستارها، ووجهوا الحجارة صوبها، فراحت الصواعق تنزل من السماء، فرأىٰ الحجّاج جنده وقد اضطربوا، فقال لهم: ما لي أراكم تضطربون؟ أنا ابن تهامة، وهذه صواعق تهامة ولا تضرّ شيئاً، ارموا. فرمى الكعبة حتى هدم جدرانها[1]. وهناك أكثر من واقعة وواقعة استبيحت بها حرمات الكعبة[2] التي رسمها الله حولها وأراد منا أن نعظّمها؛ لأن هذا البيت هو مهد انطلاقتنا، وقد جعله

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

(٢) وذلك حين مات معاوية وامتنع ابن الزبير من البيعة ليزيد وأصرّ على ذلك، فأغرى يزيد مسرف بن عقبة بالمدينة، فكانت وقعة الحرّة ثم توجّه الجيش إلى مكّة فمات مسرف وقام بأمر الجيش الشامي حصين بن نمير، فحصر ابن الزبير بمكّة ورموا الكعبة بالمنجنيق حتى احترقت، ففجأهم الخبر بموت يزيد بن معاوية، فرجعوا إلى الشام. انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

الله مركز هدايتنا، وهو المكان الذي انطلق منه صوت التوحيد، والذي انبعث منه الإشعاع. يقول أحد الأُدباء:

غــمر الأرض بأنــوار النـبوة	كوكبٌ لم تُدرك الأرضُ عـلوّة
لم يكَد يطلعُ حـتى أصـبحت	ترقبُ الدنيا بمن فـيها دُنـوّه
بـينما الكـونُ ظـلامٌ دامسٌ	فُـتحت فـي مكـةٍ للـنور كـوّة

والواقع هو هذا، فالعالم كان يغطّ بالجهل، ويغرق بالتخلّف، فانبعثت أصوات الهداية والنظام والنور من هاهنا. فحرمات الله على هذا الرأي هي هذه الخـمسة التي سُيّجت بها الكعبة؛ لأن الله أراد أن يشعرنا بأن هذا البيت يـجب أن يـحظىٰ باهتمامنا وتعظيمنا وتكريمنا، وألّا نستهين به؛ ولذلك أعطاه الله ألواناً من الحرمة، منها هذه الخمسة. وحرّم كذلك ما يجري بداخله، فهناك أشياء يعملها الإنسان في الخارج وقت الإحرام، لكنه لا حقّ له أن يمارسها داخله؛ وذلك ليشعر بأن هـذا المكان له لون من القداسة، فينبغي أن يتقيّد الإنسان إزاءه. فحينما تكون في وضع لا يمكنك فيه أن تقتل برغوثاً داخله، فإنك تستشعر السلام وعدم إراقة الدمـاء، فترى فيه قاتل أبيك ولا ترفع يدك ولا تتكلّم؛ لأن هذا المكان يجب أن ينطلق منه الشعور بالأمن والأمان والسلام، وكان دعاء إبراهيم **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَـلَدَ آمِـناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْـنَامَ﴾**[1]. فهذا المكـان لا يـوحّد فـيه إلّا الله، وليس للأصنام فيه مكان، والأصنام ليست أصنام الحجر والخشب فـقط، وإنـما يـعبد الإنسان أحياناً صنماً من العصبيّة في داخله، فهو يرى الواقع أمام عينه غـير مـا يعتقد، ومع ذلك يظلّ علىٰ اعتقاده فينسب للآخرين ما تحقّق من عـدم وجـوده

---

(١) إبراهيم: ٣٥.

عندهم. وهذه عبادة لصنم العصبيّة والهوى[١].

فالآية أرادت تعظيم الحرمات، فقالت: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فمن عظّم هذه المناسك واستشعر أهمّيّة البيت وآمن بحكمة مناسكه فلا شكّ أن الله سوف يعطيه جزاءه. فالله لم يكلّفنا بعمل إلّا ووضع لنا مقابله جزاءً، ففائدة العمل هي للإنسان، ولكن مع ذلك يعطينا الجزاء، فهو يعلّمنا أن نعطي كلّ عامل جزاءه، وألّا نسرق عاملاً؛ بأن يعمل ثمّ لا يأخذ أجره.

جاءتني رسالة من إحدى الأخوات تقول فيها: أنا زوجة صالحة وتقيّة، وعندي أطفال من زوجي، لكنه لا يعطينا نفقة لا لي ولا لأطفاله. فماذا أعمل؟ هل أبيع كرامتي؟

انظر إلى هذا، أما يدري أن معظم عذاب القبر من سوء الخلق مع العيال؟ وأن الروايات منصبّة على أن من يسيء إلى أهله لا يترك الله له هذه الإساءة، وسوف يعطيه جزاء عمله السيّئ[٢]؟ فالله علّمنا أن لكلّ عمل جزاءً، فمن يأخذ ولا يعطِ فهو الظالم المبتزّ.

المبحث الثاني: الطعام الحلال

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ﴾، فإن بعض الناس لا زال متأثّراً بالعقائد السابقة، فانتقال المجتمع من حضارة إلى حضارة لا يكون بفترة قصيرة، فالفرق بين الجاهلية والإسلام هو بعثة النبي ﷺ، فما قبله جاهلية، ولما بعث انتهى عهد الجاهليّة، فهل يمكن لهذه الفترة القصيرة أن تغيّر هذا الإنسان والمجتمع؟ إن هذا الإنسان كان يمارس طقوساً معيّنة، فكان يعبد الأصنام مثلاً خمسين سنة من

(١) قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾، الفرقان: ٤٣.
(٢) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

عمره، وفجأة صار مسلماً، فهل يترك وينسى أوّلياته وارتباطاته؟ وهل غُسل صدره فجأة من بقايا هذه الأوّليات؟ بالتأكيد لا، وهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن هناك عملية هضم وتمثيل اجتماعي، وهذه العملية كما ينصّ عليها علماء الاجتماع والنفس تحتاج إلى أجيال.

فهؤلاء بقيت عندهم بقايا من العقائد السابقة. فمثلاً كان العرب يتصوّرون في أيّام الجاهليّة أنهم إذا أتوا إلى مكّة فلا ينبغي أن يأكلوا دسماً كاللحم، أو الطعام الدسم، ولا ينبغي أن يلبسوا الملابس التي فيها خيط حرام، فكانوا يخلعون الملابس ويطوفون بالبيت عراة، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل؛ ظنّاً منهم أنهم يتقرّبون إلى الله بهذا. فالعاري يطوف وليس على بدنه ثوب فيه شبهة، والممتنع عن الدسم ممتنع عن التنعّم والترف[1]، فقال لهم القرآن: إن هذا وهم وخطأ، فالله لم يخلق الطيّبات ويُبِحها ليمنعكم عنها، فالله خلق الطيّبات للإنسان بشرط أن يأخذها من الحلال، أما أن تحرم نفسك فهذا ليس من الدين في شيء، وقد قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: **«إن لنفسك عليك حقاً»**[2]، و**«إن لبدنك عليك حقاً ...»**[3].

فقد كان عند هؤلاء بقية في نفوسهم ممّا درجوا عليه أيّام الجاهليّة، فيقول بعضهم: إنني أمتنع عن أكل اللحم أيّام الحجّ، فالقرآن يقول لهم: لا، هذا ليس

---

(١) قال القرطبي: وفي (صحيح مسلم) عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، وتقول: من يعيرني تطوافاً؟ وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه   وما بدا منه فلا أحلّه

فنزلت هذه الآية: ﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾. الأعراف: ٣١. وهذه المرأة هي ضباعة بنت عامر بن قرط، كما عن القاضي عياض. الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٨٩.

(٢) مجمع الزوائد ٧: ٢٣٩، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ٤٤٠.

(٣) مسند أحمد ٦: ٢٦٨، سنن أبي داود ١: ٣٠٨ / ١٣٦٩.

كالصيد الذي حرّمه الله، فإن الله حرم الصيد؛ لأن إباحته فيها قدْح بفكرة السلام، أما الطعام فلا ينافي الحجّ ولا ينافي مناسكه؛ لذا أُحلت لكم بهيمة الأنعام فكلوا منها ما تريدون ﴿إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وهذا ما تناولته الآيات الأُخر مثل المتردّية والنطيحة والموقوذة وما ذبح على النصب وما أُهلّ لغير الله به، ممّا نصّ الله على حرمته[1]. أما إذا استكملت الذبيحة الشروط كما رسم الشرع[2] فهي مباحة في الحجّ وغير الحجّ، وشروطها هي: استقبال القبلة، والتسمية، والتذكية، أي القطع من المكان المعروف.

هل تحرم ذبيحةٌ أُهدي ثوابها للحسين ﵇

فإن اجتمعت هذه الشروط في ذبيحة فما الداعي لأن يكون الأكل منها حراماً؟ فهل يستطيع أحد أن يقول: إن هذه الذبيحة التي تذبح للحسين ﵇ هي ممّا أُهلّ به لغير الله؟ إنها ثغرات عجيبة تدفعك إلى التساؤل: ما هو موقفنا من أهل البيت ﵇؟ وهل نحن نتعامل مع أهل البيت ﵇ أم مع مشركين من الجاهليّة؟ هؤلاء أهل البيت حملة الإسلام وعِدل القرآن[3] الذين يجعلهم النبي ﷺ أماناً للأُمة: «**أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون**»[4]. فإذا استكمل المسلم شرائط الذبيحة وذبحها ووزّع الطعام ليهدي ثوابه إلى روح

---

(١) قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ... فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. المائدة: ٣.

(٢) انظر الدروس الشرعيّة ٢: ٤٠٥ ـ ٤١٦.

(٣) مسند أحمد ٣: ١٤، ١٧، ٢٦، ٤: ٣٧١، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الصغير ١: ٢٥٥، وغيرها كثير.

(٤) المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣،٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤.

الحسين عليه السلام أو لأحد أفراد أهل البيت عليهم السلام، فما وجه الاشكال؟ وأين هو الإهلال لغير الله؟ وما هو دليل من ينطلق إلى هذه الفتوى؟ هل هو الحبّ في التشفّي أم الحبّ في المخالفة؟ حتماً إن الدليل هو الهوى والبعد عن سبيل الله.

فالآية الكريمة تقول: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، فالله تعالىٰ لم يمنع عنا من اللحوم إلا ما اشتمل منها على ضرر في ذاته كالميتة، أو ما به ضرر على نزاهة العقيدة كالذي يذبح لغير الله. ولكلّ ذبيحة من المحرّمات حساب نأتي عليه في وقت آخر إن شاء الله تعالى.

المبحث الثالث: معنى ﴿الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأَوثانِ واجتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ﴾**، فما هو المراد من ﴿الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ هنا؟ هناك آراء عدّة حول المعنى المراد منه:

الرأي الأوّل: إفراغ العواطف والأمنيات باللمس عندها

فالبعض يفرغ شحنة عواطفه وأُمنياته باللمس، فالله ينهاهم عن فعل هذا، وهو ما يعبّر عنه أحد المفسّرين بقوله: الامتناع عن ملامستها، فأنت ذاهب إلى الله، فانقطع إلى الله، ولا تتمسّح بالحجر والشبّاك، وما الداعي إلى التمسّح بالشبّاك؟ ليكن الله في مشاعرك، وليكن الحسين في مشاعرك، وأنت قادم إلى الكعبة أو إلى كربلاء، فارفع يديك إلى الله وابتهل إليه ولتكن مشاعرك في نفسك، وليس هناك مبرّر لأن تعطي الآخرين حجّة لشتمنا بأننا عبّاد حجر وخشب، فنحن لسنا عبّاد حجر ولا خشب.

والحال أني عندما أقف على الحسين عليه السلام لا أقف على عظام، وإنما أقف على موقف، وعلى صوت أسمعه يدوّي في أعماق التأريخ مردّداً قول أمير

المؤمنين عليه السلام: «ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكّر معروفها»[1]، وعندما أقف على قبر الرسول صلى الله عليه وآله لا أقف على قطعة من الخشب أو الفضّة أو على عظام. هذا مع العلم أن غيرنا قد يتمسّكون بهذه الظاهريّات، لكنهم لا ينقدون أنفسهم، أليس شاعرهم يقول:

إذا ما وصلتَ القبرَ قبرَ محمدٍ وقبّلتَ مثوى الأعظُمِ العَطِرَاتِ

هذا شوقي في تائيّته، وهذا المعنى سائد عند المسلمين، وهو تعبير عن الودّ، لكن الآية مع ذلك تريد منا ألّا نفرغ مشاعرنا كلّها على الحجر أو على سياج حول القبر، وإنما ينبغي أن تنصبّ المشاعر على اللباب وهو الانقطاع إلى الله، وتكريم صاحب القبر، وحمل أخلاقه وآدابه. ولا نستعمل طريقة أولئك الذين يأتون إلى الصنم ويتمسّحون به. فكأن الآية تقول: تنبّهوا إلى المعنى ولا تلتفتوا إلى القشور.

الرأي الثاني: تلطيخ أحجار الكعبة بدم الذبيحة

فالمقصود بالرجس من الأوثان هو ما كان يصنعه العرب إذا ذبحوا الذبيحة، فكانوا إذا ذبحوها أخذوا الدم ليلطّخوا به أحجار الكعبة. فالآية الكريمة تقول: اجتنبوا هذا الرجس من الأوثان الذي أتاكم من التراث الاجتماعي. فتكون ﴿مِن﴾ هنا للتبيين. فهذا الدم الذي تلطّخ به الكعبة أو بعض الأماكن ليس له أيّ تأثير لا على الكعبة ولا على غيرها، فالله يعرف أنك تذبح لوجهه، وأنك قدّمت القربان الذي أمر به، ولا حاجة لأن تقوم بأعمال متوارثة من الجاهليّين الذين كانوا يذبحون الذبيحة في قلب الكعبة ثم يتركون الفرث والدم.

وكان أبو جهل يقف هناك وينتظر حتى يأتي النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الصلاة فيقول لجاريته: خذي هذا الفرث والدم فألقيه على ظهر محمد إذا صلّى. فكانت تفعل

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٥٢.

ذلك، وكانت فاطمة الزهراء (صلوات الله وسلامه على أبيها وعليها) تأتي فتمسح ما على ظهره ورقبته ﷺ وتقول: «ما أفلح قوم آذَوا نبيّهم».

الرأي الثالث: لعب القمار حول الكعبة

فهؤلاء كانوا إذا أتوا إلى الكعبة جلسوا في أطرافها ولعبوا القمار، وقد خرّب هذا القمار بيوتاً، فأراد الله غلق هذه الذريعة للفساد، فحُرّمت هذه العادة المتوارثة من أيّام الأصنام، فهي رجس. فهذا الرجس لا يلتقي مع الطهارة التي أرادها الله تعالى لدخول البيت الطاهر الكريم.

المبحث الرابع: معنى الزور من القول

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿واجتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ﴾، وللمفسّرين في قول الزور آراء:

الرأي الأول: أنه الغناء

فقد كان بعضهم يخرج وهو يحمل في نفسه هذا الضرب من بقايا الجاهليّة وهو الغناء. ولو رجعت إلى دواوين الشعر وكتب الأدب لوجدت فصولاً كاملة في أدب الحجّ، يقول شاعرهم:

ولم أرَ كالتجميرِ منظر ناظر ... ولا كليالي الحجّ أفتنَ ذا هَوى

وكم مالئٌ عينيه من شيء غيره ... إذا راحَ نحوَ الجمرةِ البيض كالدُّمَى[1]

ويقول آخر:

يا حبذا مكة من موطنٍ ... وحبذا الكعبة من مسجدِ

وحبذا اللائي يزاحمننا ... عند استلام الحجر الأسودِ

وكانت هناك ندوات تعقد في أيّام الحجّ مع الندمان والمغنّين والشعراء، وهذا

---

(١) أمالي المرتضى ٢: ١٤٧، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٤٩.

هو الذي جرّأ بعضهم أن ينقل هذه الفكرة من بعض العوائل إلى العوائل الأُخر، فراح ينسب لسكينة بنت الحسين﵉ أنها كانت تجتمع أيام الحجّ مع الشعراء وتسمع منهم قطع الشعر الغنائي[١]. وليس هذا غريباً، فالذي يقول: إن عليّاً شرب الخمرة[٢] ليس غريباً منه أن يقول: إن بنت علي هكذا. وعلى كلّ حال سيبقى هذا

---

(١) لقد بثّ بعضهم أمثال هذه السموم في كتبه عن قصد أو عن دونه، كأبي الفرج الذي ملأ موسوعته الأدبية القيّمة بأمثال هذه السموم الفتّاكة. وقد بثّها علىٰ مساحة واسعة من كتابه شملت كل أجزائه الأربعة والعشرين تقريباً، وكمثال علىٰ ذلك انظر: الأغاني ١: ١١٣، ١٧١ـ ١٧٢، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢: ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٩، ٣٦٩، ٣٧٠، وكذا في أغلب بقية أجزاء هذا الكتاب.

(٢) وهي روايات آحاد تزعم أنه﵇ شرب الخمر، ثم صلّى فيمن معه وقرأ خلاف ما هو في القرآن كما سنمرّ به. وقد وردت هذه الرواية بأشكال مختلفة أثارت الشكّ حتى عند بعض علماء أهل السنّة، وهم المنصفون منهم طبعاً. انظر: سنن الترمذي ٤: ٣٠٥/٥٠١٦، المستدرك على الصحيحين ٤: ١٤٢، وليس فيه تصريح بأن عليّاً﵇ قد شربها معهم، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٠٠، وغيرها.

قال العظيم آبادي: «قال المنذري: وأخرجه البخاري والترمذي والنسائي، وذكر الترمذي أنه مرسل أصحّه «دعاه وعبد الرحمن» ـ بالنصب ـ أي دعا علياً وعبد الرحمن، «فسقاهما» أي الخمر. «فخلط» أي فالتبس عليه. ولفظ الترمذي: وحضرت الصلاة فقدّموني فقرأت: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ونحن نعبد ما تعبدون....

وفي الحديث أن المصلّي بهم هو علي بن أبي طالب. وأخرجه الحاكم عن علي﵁ بلفظ: دعانا رجل من الأنصار قبل تحريم الخمر فحضرت صلاة المغرب فتقدّم رجل فقرأ... الحديث، ثم قال: صحيح. قال: وفي هذا الحديث فائدة كبيرة وهي أن الخوارج تنسب هذا السكر وهذه القراءة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب دون غيره، وقد برّأه الله منها فإنه راوي الحديث.

قال المنذري: وقال الترمذي: حسن غريب صحيح. هذا آخر كلامه. وفي إسناده عطاء بن السائب لا يعرف إلّا من حديثه، وقد قال يحيى بن معين: لا يحتجّ بحديثه. وفرّق مرّة بين حديثه القديم وحديثه الحديث، ووافقه على التفرقة الإمام أحمد.

وقال أبو بكر البزّار: وهذا الحديث لا نعلمه، يروى عن علي (رضي الله تعالى عنه)، متّصل الإسناد إلّا من حديث عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن ـ يعني السلمي ـ وإنما كان ذلك

الرجل العظيم وأبناؤه عرضة للرمي بالنبال، ولكن كلّما رمته النبال انحسرت عنه وتألّق وارتفع؛ لأن لله عناية خاصّة بهذا الرجل الذي وهب كلّ ذرّة من كيانه لله، وضحّىٰ بها هي في سبيله.

فقول الزور على هذا الرأي هو الغناء، فالآية تقول لهم: أنتم ذاهبون إلى الحجّ فكونوا منقطعين إلى الله. فقد كانت عندهم أنماط من الممارسات أيام الحجّ، منها أن بعضهم بعد أن ينتهي من الحجّ يأتي الوادي فيفتخر بآبائه وأجداده، ويعقدون الندوات لذلك، ولهذا قال لهم القرآن: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾[1]، فبعضهم كان بدل أن يشغل وظائف الحجّ التي ينبغي أن تُشغل بالذكر والعبادة بما هي أهل له من ذلك الذكر كان يشغلها بالغناء. وعليه فيقول بعض

☚ قبل أن يحرّم الخمر، فحرّمت من أجل ذلك. هذا آخر كلامه، وقد اختلف في إسناده ومتنه فأما الاختلاف في إسناده فرواه سفيان الثوري وأبو جعفر الرازي عن عطاء بن السائب فأرسلوه وأما الاختلاف في متنه ففي كتاب أبي داود والترمذي ما قدّمناه وفي كتاب النسائي وأبو جعفر النحّاس أن المصلّي بهم عبد الرحمن بن عوف وفي كتاب أبي بكر البزّار: أمروا رجلاً فصلّى بهم، ولم يسمه، وفي حديث غيره: فتقدّم بعض القوم. انتهى كلام المنذري».
عون المعبود ١٠: ٧٧ ـ ٧٨.

وقد روى القطّان في تفسيره عن الحسن البصري أنه قال: إن عليّاً لم يقبل أن يشرب معهم في دار أبي طلحة، بل خرج من بينهم ساخطاً على ما يفعلون. قال الحسن: والله الذي لا إله إلّا هو، ما شربها قبل تحريمها، ولا ساعة قط. عنه في مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٦ ـ ٢٧.
وعليه فإن هذه الروايات لا تصمد أمام ما أثبتنا من ردود سيّما إذا علمنا أنه قد روى الطبري وابن كثير والشوكاني والسيوطي عن الضحّاك في الآية أنه قال: لم يعنِ بها الخمر، وإنما عنى بها سكر النوم. ونقله بعضهم عن عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس: ﴿سُكَارَىٰ﴾، قال: النعاس. ـ جامع البيان، المجلد: ٤، ج٥: ١٣٥، تفسير القرآن العظيم ١: ٥١٢، فتح القدير ١: ٤٧٢، الدر المنثور ٢: ١٥٦.

(١) البقرة: ٢٠٠.

المفسرين: إن المراد بقول الزور هو الغناء(١).

الرأي الثاني: أنه أُنشودة الطواف

وهذه الأُنشودة بقيت عند بعضهم حتى ما بعد الجاهليّة. وأُنشودة الطواف هي:

لبيك لا شريكَ لكْ   إلّا شريكاً هو لكْ

تملِكُه وما مَلَكْ (٢)

ويعنون بذلك: الصنم، فهم يعدّون الأصنام شركاء لله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٣)، فالآية تقول لهم: إن هذا زورٌ وإن كنتم تنسبونه بأنه مخلوق لله، فأنتم تجعلون لله شريكاً. وهذا من الرواسب التي بقيت في نفوسهم، بل وحتى في نفوس بعض القمم منهم، وإلّا فما معنى أن يصعد يزيد المنبر ويتمثّل بأبيات عبد الله ابن الزبعرى التي تعكس التوجّه الجاهلي:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسلْ

لاستهلّوا وأهلّوا فرحاً   ثم قالوا يا يزيد لا تُشلْ

قد قتلنا القرم من ساداتهم   وعدلنا ميل بدر فاعتدلْ

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزلْ(٤)

---

(١) مجمع البيان ٧: ١٤٨، جامع البيان، المجلد: ١١، ج ١٩: ٦٢.

(٢) مجمع البيان ٥: ٢٥، ٤٦٢، ٦: ٣٠٥، ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١: ١١٩، الجامع لأحكام القران ٢: ٣٦٦، ٩: ٢٧٢، ١٤: ٢٣.

(٣) الزمر: ٣.

(٤) انظر: شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧، وذكرها الطبري في تاريخه ٨: ١٩٣ في أحداث سنة (٢٨٤)هـ ضمن الكتاب الذي أخرجه المعتضد في لعن معاوية والذي لم يُعمل به بعد أن عمل القاضي يوسف بن يعقوب حيلة على المعتضد بأمر عبيد الله بن سليمان كي يمنع نشره كما يقول الطبري. وقد نسب فيه أن يزيد تمثّل بها بعد وقعة الحرّة. وفي هذا الكتاب من الحقائق في حقّ معاوية وأبيه ما يقطع لسان كلّ معاند، ومن أراد الاستزادة فليرجع إليه.

فإذا كان من يقف على قمّة الهرم يتصرّف بهذا الشكل فهل تتصوّر أن الممارسات الأُخر لا تكون عند الآخرين؟ نعم، نهضت له عقيلة الطالبيّين، فجسدت أهداف ثورة الحسينعليه السلام هنا، فقد أراد الحسين أن يفضح نوايا هؤلاء، وأن يشرح أسرار النهضة على لسان أُخته العقيلة، فقالت له: «أظننت يا زيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق بين يديك كما تساق الأُسارى أن بنا على الله هواناً، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لك متّسقة؟ فمهلاً مهلاً، لا تطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[1]؟ أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا قد هتكت ستورهن...»[2] إلى أن فرغت من الخطبة فكان ردّ الفعل عنده أن قال:

يا صيحةً تحمد من صوائحِ ما أهون الموتَ على النوائحِ[3]

وهذه المقارعة التي حدثت بينها وبينه يرسمها أحد فقهائنا في أرجوزته فيقول:

وإنّ من أدهى الرزايا السودِ وقوفها بين يدي يزيدِ

أتوقَفُ الحرّةُ من آل العَبا بين يدي طليقِها وا عجبا

حنّت بقلبٍ والهٍ محترقِ على أخيها فأزالها الشقيْ

(يا صيحةً تُحمَدُ من صوائحِ ما أهونَ الموتَ على النوائحِ)

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

(٣) مثير الأحزان: ٨١، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٥، ١٦٠، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٨.

وبعد هذه المطارحة قال يزيد: أخرجوهم من المجلس إلى الخربة. فأخرجوهن إلى خربة يصفها الإمام السجّاد بأنها لا تقيهم من الحرّ ولا من البرد[1]. ومبالغة في النكاية نصبوا الرؤوس أمام أعين السبايا، ووقفت عقيلة الطالبيّين لما جنّها الليل واتّجهت إلى رأس أبي عبد الله:

أأخي ما عوّدتني منك الجفا فعلامَ تجفوني وتجفو من معي

أأخي أين أبي عليّ المرتضى ليرى انكساري للعدى وتخضعي

منهوبةٌ مشتومةٌ مسبيةٌ مسلوبةٌ حتى الخمارَ وبرقعي

وفي هذه الأثناء تطلب منها إحدى يتيمات الحسين أن ترى أباها، فيكثر الضجيج، ويسأل يزيد عن الخبر فيقال له: يتيمة تريد أباها. فيقول: أنزلوا لها الرأس. فلما أنزلوا لها الرأس وقعت عليه فاحتضنته، وصاحت: أبه يا أبه، من للأرامل واليتامى؟ أبه يا أبه من للشعور المنشورات وللنساء الضائعات؟ وبقيت تحكي معه إلى أن هدأت، فقال الإمام السجاد: «**عمّة حركيها فقد فارقت روحها الدنيا**». فأقبلت إليها، حرّكتها وإذا بها ميّتة، فوقفت على مصرع اليتيمة وتوجّهت إلى رأس أبي عبد الله:

اتسعرمرت والله بيتاماك يحسين ما لي حيل فرگاك

عدنا اشبعد ظل لو فگدناك

(١) انظر شجرة طوبى ١: ١١، ولم ينسبه للإمام.

﴿٣٠﴾

تأبين الإمام الحسين عليه السلام

كذب الموت فالحسينُ مخلّدْ　　　كلّما أخلق الزمان تجدّدْ

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: العمر قسمان: زمني وعمر مَجْدٍ

للعظماء عمران، عمر زمني وعمر مَجْدٍ، فرسول الله صلى الله عليه وآله عُمّر في الحياة (٦٣) سنة، لكنّه حمل رسالة هي أكبر من الحياة؛ فالمسألة ليست مسألة عمر زمني. وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام عُمّر (٦٣) سنة، لكنّه حمل ما هو أكبر من الحياة أيضاً.

إذن لو قدّر أن الحسين عليه السلام لم يمت في صبيحة هذه الليلة، فما مقدار المدّة التي يمكن أن يبقىٰ فيها علىٰ قيد الحياة؟ لنفترض أنه عليه السلام سيبقى عشرة أعوام أو عشرين عاماً بعدها، لكنّه سوف يموت موتاً صامتاً. فإذا كانت المسألة مسألة موت فإنّ الحسين عليه السلام سيموت حينئذٍ بصمت، ويمرّ في هذه الدنيا مروراً هادئاً وصامتاً، لكن مصرعه عليه السلام قدّم دويّاً لا يتوقّف إلىٰ يوم القيامة. وقد أوجد عليه السلام هذا الدويّ بسبب الشهادة، وبموته بشكل طبيعي لن يحدث مثل هذا الدويّ. ولا شكّ أن هناك فارقاً كبيراً بين من يموت عن سبعين عاماً بهدوء، وبين مَن يموت مبكّراً علىٰ درب الشهادة، يقول الشاعر:

قد تطول الأعمار لا خير فيها　　　ويومُ الأمجادِ يومٌ قصير

وبهذا يبقىٰ يوم الطفّ يتوالد علىٰ امتداد السنين، وينتزع المجد انتزاعاً، وسيبقىٰ يزّود الأقلام بمداد حرّ كلّما عاودته وجدت فيه عطاءً جديداً؛ لأن عطاء يوم الطفّ مستمرّ لا يتوقّف، فهو عطاء قُصد منه وجه الله تعالى، وسيبقىٰ بذلك خالداً علىٰ مرّ الدنيا.

فالحسين ﷺ كان ينظر إلى التاريخ وإلى الدنيا، وقد تجلّىٰ له ما وراء الحجب، فأدرك أنه يستمدّ امتداد الدهر، وأدرك أن تضحيته لن تنتهي في ليلتها، خلاف الأُمويّين الذين كانوا يعتقدون أن صوته سوف يُقتل مع مقتله، لكنه ﷺ كان عكس ذلك، فسال دمه على التراب، فانبعث تارة خطبة على الألسن، وتارة فكرة في رؤوس الأحرار، وتارة سيفاً مجرّداً لمقارعة الظلم بأيدي المناضلين من أجل حريتهم، وسيبقىٰ يتبرعم كلّما امتدّت الدنيا. وسنبقىٰ نسمع الحسين ﷺ صوتاً في كلّ بُعد من أبعاد هذه الحياة وفي كلّ خطوة من خطاها. وهذا أحد أبعاد نهضته ﷺ، وفي ذلك يقول أحد الأُدباء:

ورأيتك الفكر الحصيف يشقّ أسـ	ـتار الغيوب ويستفيق بعيدا
فإذا أراق اليوم زاكية الدما	فغداً سترفعها الشعوب هنودا

وفعلاً تمرّ الدنيا ولا تستطيع أن تجتاز هذا الدم.

وقد يتساءل أحد ما: لماذا هذا الاهتمام بهذا الرجل، وهناك غيره ممّن قدّم ما يستطيع أيضاً؟

والجواب: أن الحسين ﷺ قدّم عطاءه لوجه الله تعالىٰ ولم يُشبه بشائبة أو بشيء، ولم نسمع من الحسين ﷺ ولو إيماءة واحدة ارتبطت بهذا العطاء تشير إلى أنه ﷺ أشرك به أحداً غير وجه الله تعالىٰ. وهذا هو ما بشّرت به أُخت الحسين ﷺ وشريكته زينب (سلام الله عليها) يوم وقفت تقارع الظلم والطّغيان، وهي تقول في

مجلس الطاغية: «كِد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهدك، والله لا تميت وحينا. وهل رأيك إلّا فند، وجمعك إلّا فدد، وأيامك إلّا عدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين؟»[1].

وبشيء من الانتباه ندرك أن نهضة الحسين عليه السلام هي امتداد لنهضة الإسلام؛ لأن المبادئ التي حملها الإسلام، هي نفسها التي حملها الحسين عليه السلام. وبكلام آخر إن البذرة التي بذرها الإسلام وسقاها الرسول صلى الله عليه وآله وآل بيته عليهم السلام وصحابته (رضوان الله عليهم) من دمهم الطاهر هي البذرة عينها التي سقاها الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان الله عليهم) بعد ذلك من دمه الزاكي ودمائهم الطاهرة.

المبحث الثاني: الوقوف على ضريح الحسين عليه السلام استيحاء للحقّ

وقف الحسين عليه السلام في هذه الليلة وهو يرمق السماء من بعيد، فهو يعرف أن الأُمويّين سوف يكمّون الأفواه الباكية، لكنه عليه السلام كان يدرك أن دمه حين يراق على التراب فسوف تنطق الأفواه وتنطلق الأصوات وتنهض الحمم. وفعلاً سمعنا أصوات الأُدباء والمفكّرين وهي تتناول واقعة الطفّ بالتحليل والإكبار والإجلال حتىٰ وصلت درجة حاول الظالمون معها أن يطمسوا معالم واقعة الطفّ من التراث الإنساني، لكنهم انهزموا أمامها وخلدت. فمثلاً، في القرن الرابع الهجري، كانت القاهرة تتجلّل بالسواد في اليوم العاشر من المحرم، من الصباح إلى المساء، وكذلك في ديار بكر وربيعة وقسم من الموصل وقسم من تركيا، وكان العراق في أيام البويهيّين كذلك، وايران، إضافة إلىٰ باقي البلاد الإسلاميّة.

وقد وصل الأمر إلىٰ أن قبر الحسين عليه السلام أخذ يرعب الظالمين، فمن المعروف أن الناس تخاف من الأحياء، لكنّ الأُمويّين والعبّاسيّين كانوا يخافون من قبره، فكم

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٣٥، بلاغات النساء: ٢٣ (باختلاف).

حاولوا أن يحولوا بين الناس وبين وقوفهم علىٰ قبره؛ لأن الوقوف علىٰ قبره بنظرهم استيحاء، غير أن الناس كانوا يقطعون آلاف الأميال من أجل الوقوف ولو للحظات علىٰ قبره الشريف، فما هو السبب؟

إن الوقوف علىٰ قبره الشريف، هو وقوف تعظيم للقيم وليس للتراب، فقد أعطى الحسين﵇ أمثلة رائعة في النبل والشجاعة والصبر، وإلّا قل لي بربك: أي فمٍ يدعو لقاتله غير فم الحسين﵇، ومن قبله أفواه الأنبياء﵈؟ فقد وقف الحسين﵇ ودموعه تتقاطر علىٰ خدّيه، ممّا حدا بأُخته﵍ أن تسأله: «لم تبكي؟». قال: «أبكي لهذا الجيش الذي سيدخل النار من أجلي».

نعم، هذه النفس المقدّسة التي تتعالىٰ على الحقد، وهو نمط من أنماط المُثل التي جسّدها الحسين﵇ علىٰ صعيد كربلاء.

وقد جسّد الصبر أيضاً؛ إذ لم نسمع عن أحد يقف علىٰ مصرع عزيز له إلّا وينهار، ومن ذلك ما روي من أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي ـ وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف علىٰ ثلاثة من أولاده قد فقدهم في أحد المعارك، فقال قصيدته:

أمن المنون وريبه تتوجّع	والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ
أودىٰ بنيّ فأعقبوني حسرة	عند الرقاد وعبرة لا تقطع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهُمُ	وتخرّموا ولكل جنب مصرعُ
فالعين بعدهُمُ كأن جفونها	كُحلت بشوكٍ فهي عورا تدمعُ

إلىٰ أن قال :

وتجلّدي للشامتين أُريهُمُ	أني لريب الدهر لا أتضعضعُ [1]

(١) الكنىٰ والألقاب ١: ٧٦.

ولكنه في الأخير سقط متهالكاً على التراب لا يقوىٰ على القيام، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كلّ حيوان عنده في الحظيرة، ليوجد مشهداً من الألم، ويتسنّىٰ له أن يوجد من يتألّم معه في ذلك المشهد. لكن الحسين عليه السلام وقف صبوراً في محنته، ولله درّ السيد حيدر الحلّي إذ يقول:

له الله مفطوراً من الصبر قلبه ... ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا

ومنعطفاً أهوىٰ لتقبيل طفله ... فقبّل منه قبله السهمُ منحرا[1]

نعم، لقد راح يقدّم الضحايا من أجل مبدئه، لكن هل بدرت منه بادرة تنمُّ عن الألم؟ وإن كان فليس إلّا بضع قطرات من الدمع قد غُلب بها في مصرع أو مصرعين، لكن أكثر من هذا لا شيء، وظلّ عليه السلام يقدّم الضحيّة تلو الضحيّة، ويذهب إلى الخيمة، ثم يرمق السماء بنظره ويقول: «لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»[2].

إذن، الحسين عليه السلام قدّم دروساً في الصبر في واقعة الطفّ، كما قدّم تلك الروح الحريصة علىٰ ألّا يدخل أحد ما بسببها النار، فالدارسون لتاريخ هذه الواقعة يقولون: إنه عليه السلام استدعىٰ عمر بن سعد في مثل هذه الليلة، ووقف إلىٰ جانبه قائلاً: «أتزعم أنك تقتلني ويولّيك الدعيّ ابن الدعيّ ملك الريّ؟ والله لا تتمتّع بعدي ببرّ العراق إلّا قليلاً». فقال له عمر: أخشىٰ أن يأخذ ابن زياد أموالي. فقال له الحسين عليه السلام: «أنا أعوّضك عنها». قال ابن سعد: أخشىٰ أن يهدم داري. فقال له عليه السلام: «أنا أبني لك خيراً منها»[3].

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي ١: ٧٨.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ١٠، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام): ٤٢٥، مقتل الحسين (الخوارزمي): ٦٠٢.

وعرف الحسين﵇ أن نفس هذا الرجل منحدرة إلى الهاوية؛ لأنها نفس تخرج من أجل أن تكسب سخط الله.

ودعونا الآن نسأل عمر بن سعد: لمن أصبح ملك الري أخيراً، لك أم للحسين﵇؟ والجواب: أن ملك الري صار للحسين﵇، فالري يحمل الليلة راية الحسين﵇، وتنطلق منه أصوات تمجّده (سلام الله عليه). أمّا القلوب القاسية عن ذكر الحسين﵇ فهي قلوب محرومة من هذا العطاء. وعلىٰ ذلك لا يتصوّر أحد أن الحسين﵇ هو للشيعة فقط، بل هو للإنسانيّة جميعاً، فقد قاتل من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، فهو مفخرة لكلّ مسلم. وهكذا يجب أن يحمل الحسينَ﵇ قلبُ كلّ مسلم؛ إجلالاً لهذا الدم الطاهر الذي سُفك في واقعة الطفّ، وإلّا ما الذي يدفع الحسين﵇ لأن يقدّم تلك التضحية؟ هل كان يريد أموالاً؟ لا، فعنده من أموال أبيه ما يكفيه حيث ترك﵇ له عينين واردهما السنوي أكثر من نصف مليون دينار، وإذا كان يريد أموالاً فهي تأتيه من الشرق والغرب.

هل كان يطلب كرسيّاً؟ الحسين﵇ أكبر من أن يطلب كرسيّاً لا يلبث أن يتلاشىٰ بعد أيام قليلة، وإلّا فإلىٰ أين انتهىٰ كرسي يزيد، هل له من أثر؟ لكن الآن للحسين﵇ عرش في النفوس والقلوب والضمائر.

وهذا هل كان من أجل المنزلة؟ لا، فالرسول ﷺ أصّل منزلته في النفوس حينما اعتبره جزءاً منه: «حسين منّي وأنا من حسين»[1]، وكلّ مسلم يسمع قولة رسول الله ﷺ ويتراءىٰ له شبحه، وهو يحمل الحسين﵇ علىٰ صدره لا بدّ أن يعي هذا. فالعرش الذي احتلّه الحسين﵇ هو صدر النبي ﷺ، ومشاعره ﷺ هي مكان الحسين﵇. فحريّ بكلّ مسلم أن يحمل الحسين﵇ بين حناياه.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

في مثل هذه الليلة طلب الحسينعليه السلام من المعسكر الأُموي أن يؤجّلوا المعركة لكي يؤكّد خطّه الذي خطّه له القرآن، إذ كان قد زحف إليه عصر اليـوم التـاسع، وأمامهم منادٍ ينادي: ياخيل الله اركبي، وبالجنّة أبشري. وهرع الجـيش يـحيط بالحسينعليه السلام وهو محتدم، ورأته زينب يحيط بأخيهاعليه السلام، وكان محتبياً بسيفه، وقد خفق برأسه على ركبتيه، فجاءته وربتت علىٰ كتفه، فأحسّ بهذه اليد الحانية ، فقال: «أُخيّة زينب!». فقالت له: «فداؤك زينب يابن أُمّي، جاءك القوم وأنت تسبت نعاساً أما تسمع الاصوات قد اقتربت؟». فرفع الحسينعليه السلام رأسه فقال: «إني رأيت رسول اللهصلى الله عليه وآله الساعة في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا». ثم قال له العباسعليه السلام: يا أخي أتاك القوم. فنهض ثم قال: «يا عباس، اركب - بنفسي أنت يا أخي - حتى تلقاهم وتقول لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عمّا جاء بهم».

فأتاهم العباسعليه السلام وقال لهم: ما بدا لكم وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم. قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد اللهعليه السلام فأعرض عليه ما ذكرتم. فوقفوا وقالوا: القَه فأعلمه، ثم القَنا بما يقول لك. فانصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسينعليه السلام يخبره الخبر، فقالعليه السلام: «ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى الغدوة وتدفعهم عـنّا العشـيّة، لعـلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني أُحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه والدعاء والاستغفار». فمضى العباس إلى القوم ورجع من عندهم ومعه رسول من قبل عمر بن سعد يقول: إنا قد أجّلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرّحناكم إلى أميرنا عبيد الله بن زياد، وان أبيتم فلسنا تاركيكم[1].

فوضّح الحسينعليه السلام في تلك الليلة من قـوله: «أُحبّ الصـلاة له وتـلاوة كـتابه

(١) ستأتي مصادره في الصفحة: ٩١، الهامش: ١.

والدعاء والاستغفار» أنه في خطّ الصلاة وخطّ القرآن، وأن الطرف المقابل جاء ليذبح الصلاة والقرآن بذبحه هو، وإلّا فالعترة والقرآن لن يفترقا، والاعتداء علىٰ أحدهما اعتداء علىٰ الآخر، أليس قولة الرسول ﷺ: «**إنّي مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»[1] تتردّد على كلّ الأفواه؟

بات الحسين ﵇ وأصحابه ولهم دوي كدويّ النحل، بين قائم وقاعد وراكع وساجد، يقول السيد حيدر الحلّي:

سمةُ العبيد من الخشوع عليهمُ ... لله إنْ ضمّتهم الأسحارُ

فإذا ترجلت الضحىٰ شهدت لهم ... بيض الصوارم أنهم أحرارُ[2]

وإلىٰ جانب ذلك كانت هناك اهتمامات أعطىٰ لها الحسين ﵇ من وقته هذه الليلة، ولعلّ من أهمّها هو ألّا يخمد صوت الثورة بعد قتله، وتعيين الصوت الذي يقوم بهذه المهمّة، وهي اُخته زينب (سلام الله عليها)، يقول السجّاد ﵇[3]: «**إنّي لجالس في تلك العشيّة التي قتل أبي في صبيحتها، وعندي عمّتي زينب تمرّضني، إذ اعتزل أبي في خباء له، وعنده جوين مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول:**

يادهر اُفٍّ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الأمر إلى الجليل ... وكلّ حيّ سالك سبيلي

فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة فردّدتها

---

(١) ورد هذا الحديث بصيغ كثيرة وطرق أكثر، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٢) ديوان السيّد حيدر الحلّي ١: ٨٢.

(٣) الكلام السابق أيضاً ورد على لسانه ﵇ كما في الإرشاد.

ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأمّا عمّتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أُخية، لايذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا لناما.

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصابا؟ فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي. ثم خرّت مغشيّاً عليها، فقام إليها الحسين عليه السلام فصبّ على وجهها الماء وقال لها: يا أُختاه، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كلّ شيء هالك إلّا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون، وهو فرد وحده. أبي خير منّي، وأُمّي خير منّي، وأخي خير منّي، ولي ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أُسوة. فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أُخيّة إني أقسمت فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت»[1].

أي لا تنسي رسالتك الأساسيّة.

وفعلاً قامت (سلام الله عليها) بذلك الدور الخطير، مرّت بالكوفة ورفعت صوتها، وفي السبي رفعت صوتها، ودخلت مجلس عبيد الله ورفعت صوتها، ودخلت مجلس يزيد ورفعت صوتها، وناهيك به من صوت: «أظننت يا يزيد،

---

(١) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الأمالي (الصدوق): ٢٢١، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

حين أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأُسارىٰ، أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلانَ مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأُمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا؟ فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالىٰ: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[1]»[2].

لقد خُلّد هذا الصوت ـ صوت زينب عليها السلام ـ وانطفأ صوت الأُمويّين، وقد لعبت عليها السلام الدور نفسه لدىٰ خروجها إلى المدينة؛ ولذلك أبعدوها ثانية إلى الشّام، وقد بقيت علىٰ مرّ التاريخ الصوت الذي يعرف بتلك النهضة، وهو ما أراده الحسين عليه السلام منها تلك الليلة، كما نقله الإمام زين العابدين عليه السلام فيما مرّ بنا قبل قليل من أنه عليه السلام اختلى بها وحدّثها. يقول أحد الشعراء:

وضعناك في الأعناق حرزاً وإنّما ... خلقت لتمضي كالحسام فتشرعُ

وصغناك من دمعٍ وتلك نفوسنا ... نصوّرها لا أنت إنك أرفعُ

المبحث الثالث: صراحة الحسين عليه السلام مع أصحابه ومواقفهم المشرّفة

كما أنه عليه السلام أكّد في تلك الليلة أمراً آخر، هو الصراحة بالرأي وعدم الالتواء الفكري؛ لئلّا يتصوّر أحد أنه خرج بجماعة مخدوعين توهّموا أنهم سيحصلون علىٰ مكاسب وإنجازات، فوضعهم الحسين عليه السلام أمام الصورة الواقعيّة للأمر. يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**أمّا بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي؛ فجزاكم الله عنّي خيراً، ألا وإني**

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

لأظن أنه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً».

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً. واتبعتهم جماعة فتكلّموا بمثل ما قالوا، فقال الحسين عليه السلام: «يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، فاذهبوا أنتم فقد اذنت لكم». قالوا: سبحان الله، فما يقول الناس؟ يقولون: إنا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله ما نفعل ذلك، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

وقام إليه مسلم بن عوسجة رضي الله عنه فقال: أنخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة. والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق ثم أحيا ثم أُذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟

وقام زهير بن القين رضي الله عنه فقال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرّة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وقام إليه محمد بن بشير الحضرمي رضي الله عنه فقال له: أُسر ابني بثغر الري فما أُحبُّ أن أبقىٰ بعده حيّاً. فقال له الحسين عليه السلام: «أنت في حلّ من بيعتي». ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: «اعمل علىٰ فكاك ابنك». فقال له: أكلتني

السّباع حيّاً إن فارقتك يابن رسول الله[1].

وتكلّم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فجزاهم الحسين‌ﷺ خيراً وانصرف إلى مضربه.

يقول هلال بن نافع‌ﷺ: كنت أتولّى حراسة خباء الحسين‌ﷺ، وكنت أُمسك مقبض سيفي عندما رأيته (سلام الله عليه) قد تخلّل من خباء أُخته زينب، فتبعته وهو يدور حول المخيّم، فلمّا سمع وقع أقدامي التفت وقال: «مَنْ؟». قلت: هلال. قال: **«ما الذي أخرجك في جوف هذا الليل؟»**. قال: خفت أن يتبعك أحد من أفراد الطاغية. فحمدني، وقال: **«خرجت أتفقّد هذه التلال والتلاع مخافة أن تكون مكفّاً لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون»**.

ثم أخذ يطوف في المخيّم، ولمّا صار بباب الخيمة أخذ بيدي، وقال: **«يا هلال، هذا الليل سفير، والوقت غير أثير، والطريق غير خطير، وأنت في حل من بيعتي فانصرف، وخذ بيد من أحببت»**. فقال هلال: سيدي، إن سيفي بألف، وفرسي بألف، والذي منّ عليك بهذا الموقف لا أتركك حتىٰ يكلّا عن جرْي وفرْي. فقال لي: **«جزاك الله خيراً»**. وفارقني ودخل خيمة أُخته زينب، فسمعتها تقول له: «أخي هل استعلمت من أصحابك نيّاتهم؟ إنّي أخاف أن يسلموك عند الوثبة واصطكاك الأسنّة». فقال: **«أُخيّة، والله، لقد بلوتهم فما وجدت فيهم إلّا الأشوس الأقعس[2]، يستأنسون بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلىٰ محالب أُمّه»**[3].

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

(٢) الأقعس: الثابت العزيز المنيع، وتقاعس العزّ أي ثبت وامتنع ولم يطأطئ رأسه. وتقعّست الدابّة: ثبتت فلم تبرح مكانها. لسان العرب ٦: ١٧٧ ـ قعس.

(٣) الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين‌ﷺ (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

فلمّا سمعتُ ذلك حبستُ سيفي وقلت: أي والله. وذهبت إلىٰ مخيّم الهاشميّين، فسمعت همهمة، وإذا بالعبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام يكلّم إخوته من بني هاشم وهو يقول: «إخوتي وأهل بيتي، لم يبقَ علىٰ لقاء القوم إلّا سواد هذه الليلة، والحمل لا ينهض به إلّا أهله، فإذا أصبح الصباح أتبدؤون أنتم بالقتال، أم تدعون أصحابكم يبتدئونه؟». فانتفضوا وحملوا سيوفهم بين أيديهم، وقالوا: «إنك تعلم أنا ما خرجنا مع سيّدنا الحسين عليه السلام إلّا لنقاتل دونه حتىٰ نقتل، ونحن أهل الحمل الثقيل ولا ينهض بالحمل إلّا أهله». فاطمأنّ قلبي لذلك.

﴿٣١﴾

الإخاء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أقسام الأسماء عند العلماء

هذه الآية من كنوز القرآن وكلّ آيات القرآن كنوز، وهي تبحث في موضوع (الإخاء)، ونحن سننتقل إلىٰ المقاطع التالية ثم نعود إلىٰ المقطع الأوّل:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ لفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ من أسماء الذات، حيث إن الأسماء ثلاثة أقسام عند العلماء: أسماء الذات، وأسماء الصفات، وأسماء الأفعال، وهم يعدّون أسماء الذات خمسة عشر اسماً منها الله والربّ، وأسماء الصفات (١٨) اسماً، منها الحي والقيّوم، وأسماء الأفعال (٣٧) اسماً، منها الخالق والرازق.

عبادة غير الله أساس الانحراف في المجتمعات

فكلمة ﴿اللَّهَ﴾ هي اسم للذات مضافاً إليها معنىٰ استحقاق العبادة، فنحن عندما

---

(١) هود: ٦١.

نتوجّه إلىٰ العبادة نتوجّه لعبادة الله دون غيره، لماذا؟ لأنه هو الخالق والرازق والمنعم وكلّ شيء خلافه فهو باطل، يقول الشاعر:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلُ(١)

فغيره لا يستحقّ العبادة إطلاقاً، فـ﴿اعْبُدُوا اللّهَ﴾ هو الشعار الذي يحمله الأنبياء. وإذا نرجع لسلوك الشعوب فسنجد أن أساس الانحرافات آتية من عبادة غير الله، فكلّ ذنب يرتبط بعبادة غير الله، فمثلاً إذا اعتدىٰ رجل علىٰ آخر وقتله فهذا بدافع الأنانيّة وبدافع حبّ الذات، فإذا تخلّىٰ عن حبّ الذات فإنه لا يعتدي علىٰ غيره. وهذا لون من العبوديّة للذات والأنانيّة. وأيضاً تركك لحقّ من حقوق الله عزّ وجلّ يرجع لعبادة غريزة من الغرائز، يقول الله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ﴾(٢).

فالله يأمرنا بالإنفاق، فإذا امتنعنا عنه فمعناه أننا نحبّ غريزة الجمع وحبّ المال، فالعبادة إطاعة الأوامر والانتهاء عن النواهي، وهذا روح العبادة. والبعض يعبد قيماً اجتماعيّة من دون الله فمثلاً عندنا ميراث اجتماعي انحدر إلينا من الجاهليّة كأن نجد زوجة غير منسجمة مع زوجها الذي هو ابن عمّها؛ والسبب في ذلك أنه أُجبر علىٰ الزواج بها؛ لتلك النسبة. وهذا الإجبار خطأ وعبادة لغير الله؛ فإنه تعالى قد أمرنا بأن نترك للمرأة حرّيّة اختيار شريك حياتها، وما هو خلاف هذا سيؤدّي حتماً إلىٰ الانحراف وتلويث عائلة بأكملها.

---

(١) صدر بيت للبيد بن ربيعة، وتمامه:

وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

انظر: الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٤١، ٤: ٣١٥، ٨: ٣٣٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤١٤، مغني اللبيب ١: ١٣٣ / ٢٠٥، ١٩٦ / ٣٢١.

(٢) الحديد: ٧.

وعليه فكلّ عبادة لغير الله هي نتيجة عبادة لغريزة من الغرائز. فالله أمر الأنبياء بالدعوة إلىٰ عبادته: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي أنه تعالى هو الذي يستحقّ العبادة لا غيره، فاتركوا العبادات الأُخرىٰ.

وفي المقابل توجد ممارسات ليست من العبادة ولكننا نبالغ فيها ونعتبرها عبادة، فمثلاً إذا سمّيت ابني «عبد الرضا» يعترض أحدهم ويقول: ما هذا الكفر والشرك؟ فهل معنىٰ هذا أن الرضا يخلقه ويملكه؟ لا، وإنّما من الآداب السلوكيّة، ففي عرفنا أننا إذا أحببنا أحداً فإننا نقول: هذا عبدك، وهذا غلامك، وأنت تعتقد صدق قول الرسول ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيّات»[1]، بل أكثر من هذا تخصّص حكماً عامّاً في القرآن بالنيّة، فإذا وجد لفظ عامّ ووجد خاصّ فإن العامّ يخصّص بهذا الخاصّ. فلماذا إذن تسميه مشركاً بمجرّد أنه سمّىٰ ابنه «عبد الرضا»؟ فأنا نيّتي أن أتأدّب بذكر أيمّتي الذين أواليهم وأقول: هذا عبدك. وعندما أُريد زيارة الرسول ﷺ ومن شدّة حبّي له استخدم الأُسلوب الحسّي، فكما أُصافح أحداً فإني أُصافح الشبّاك. فهذا تعبير عفوي، فلماذا تسميه شركاً؟ فلا تخلط بين العبادة وغيرها.

فالقرآن يقول: اجعلوا عبادتكم محضة لله، وأهم ما يصرف العبادة عن عبادة الله هو الرياء، وهو أن يعمل أحدنا عملاً كي يراه الناس متلبّساً به ويسِموه بسمة المؤمن العابد. وهذه من ألعن ما تكون، حيث ينادىٰ على المرائي يوم القيامة «ياكافر يا فاجر يا غادر ياخاسر حبط عملك وبطل أجرك ولا خلاق لك فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له»[2].

(١) تهذيب الأحكام ١: ٨٣ / ٢١٨، ٤: ١٨٦ / ٥١٨ ـ ٥١٩، صحيح البخاري ١: ٢.
(٢) الأمالي (الصدوق): ٦٧٧ ـ ٦٧٨ / ٩٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠.

المبحث الثاني: لماذا هذا الطريق الطويل في الخلق؟

ثم انتقلت الآية ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ وهذه إجابة عن سؤال وهو: لماذا خلقنا الله من تراب، وحوّلنا إلىٰ قوّة ثم تصير في جوف النبات ثم تتحوّل هذه القوّة إلىٰ أصلاب الرجال ثم إلىٰ مادة منويّة ثم تنتقل إلىٰ أرحام النساء؟ فلماذا هذا الطريق الطويل؟ ولماذا هذا الأذىٰ للنساء وطلقها ووضعها وحملها وما تمرّ به من مشاكل؟ فالله تعالىٰ قادر علىٰ أن يخلق الإنسان مباشرة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

والجواب: أن الباري جلّ وعلا رتّب الكون علىٰ هذا أي بشكل ترتبط أجزاؤه؛ كلّ جزء بالجزء الآخر، ولكننا نحن نلاحظ في بعض البلدان أن الولد عندما يولد تأخذه الخادمة ثم المؤسّسات الاجتماعيّة الأُخرىٰ فلا يحسّ بحرارة الحنان ولا يحسّ بحالة التناغم مع أُمّه، فيفقد التلاؤم العاطفي والحنان معها، فإذا مرض الأب أو الأُمّ فإنه يلقيه في دار العجزة، في حين أن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٢].

و ﴿أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾، فالأُمّ الأرض، ومنها يُخلق الإنسان وفيها يأكل وتحتها يدفن وعليها يستقرّ. فالأرض يجب أن تكون أعزّ على الإنسان من أي شيء آخر، وهذا ما نلاحظه إذ نرىٰ أن شبراً من الأرض يستلب تقوم لأجله معارك طاحنة، حيث إن الأرض محدودة ويتأثّر لأجلها البشر، وهي ليست حجراً وتراباً وإنّما هي موضع تأثير علىٰ أخلاقنا وسلوكنا؛ ولذلك يعتبر الدفاع عنها واجباً مقدّساً.

---

(١) يس: ٨٢. (٢) الإسراء: ٢٤.

وهناك إشكال هو: لماذا لا تعطىٰ الزوجة حقّها من الأرض بعد موت زوجها ولا ترثه منها؟

ونقول: إذا كان الوارث بنتاً أو أمّاً فإنها تأخذ حقّها منها، أمّا الزوجة فلا يعطيها الشرع هنا حقّ الوراثة؛ إذ أنها ربما مات زوجها عنها وهي شابة، فربّما تتزوّج بعده؛ فتصير الأرض بهذا لرجل آخر هو زوجها الثاني، فتنشأ مشاكل بين أبناء زوجها الأوّل وبين زوجها الثاني. ولهذا حظر الشارع عليها الورث في مسألة الأرض التي هي أعزّ علىٰ الإنسان من نفسه كما هو الملاحظ في مجتمعاتنا. لكن جعل لها ميراثاً فيما هو عدا الأرض.

فالأرض لها حكم خاصّ، فهي أمّنا فمنها بُدئنا وإليها نعود. ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

ومسندين على الجنوب كأنهم	**سرب تخاذل بالطلا أعضاؤهُ**
تحت التراب بغير ميعاد إلىٰ	**يوم المعاد تضمّهم أحشاؤهُ**
أكلتهمُ الأرض التي ولدتهمُ	**أكْل الضروس حلَت له أكلاؤهُ**

يقول تعالى: ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[1]، فهو تعالى ينبّهنا إلىٰ ضرورة الاعتزاز بالأرض وعدم الاعتداء عليها فإذا غصب أحد غيره شبراً من الأرض فإنه **«يطوق بها يوم القيامة من قعر الأرض إلىٰ وجهها إلىٰ عنان السماء»** كما ورد في الرواية؛ كيلا يحصل اعتداء على الحقوق، فكلّ منا لا يسمح لأرضه أن يعتدىٰ عليها. وعلى الأرض جيران أعتزّ بهم، فأعتزّ بالأرض وأرعاها، وبالتالي أُعطيها الآثار نفسها التي هي للأمّ؛ فهي الأم الرئيسة.

---

(١) الأنبياء: ١٠٤.

المبحث الثالث: معنى ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

هنالك مشكلة يثيرها علماء البيئة الآن، وهي مشكلة تلويث الجوّ والبرّ والبحر، فالغازات في الجوّ تحدث مضاعفات عند التنفّس، والتربة قد تلوّثت وخاصّة بعد هذا التقدّم في الزراعة وما يستعملونه من مخصّبات ومواد كيمياويّة، إضافة إلى المخلّفات الإشعاعيّة الأُخرى، وهو ما ينعكس على الصحّة العامّة.

ونحن لكثرة السكّان أصبحنا نزحف على المساحات الخضراء؛ فتقلّصت مساحاتها، وأخذت مشكلة التصحّر تهدّدنا، وذلك ما دعا علماء البيئة لأن يفكّروا بحل لهذه المشكلة، فعقدوا مؤتمراً سنة (١٩٧٢)م في «استوكهولم» حضره آلاف العلماء، وقسّموا الأرض إلى الأنساق الأكيولوجيّة، وبحثوا كيفيّة تعامل الإنسان مع الأرض الصحراويّة، والخضراء وأرض السكنىٰ. وقد رأوا أن المشكلة تكمن في أن كلّ تقدّم في وسائل المعيشة يعطي ضرراً أكيولوجياً، فمثلاً عندنا مصانع حديثة لكن نفاياتها لوّثت البيئة ومجاري المياه، وكثير من الأراضي قد اعتدىٰ الإنسان عليها، فالقرآن وضع قاعدة ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، فأمرنا بعمارتها بالزرع والسكنىٰ دون التسبّب بضرر لها كما يقول المفسّرون[١]، ولم يقل: لوّثوها.

ولكن هذه صرخة في وادٍ؛ إذ كل همّ المنتج أن ينتج أكثر، فلا يهمّه التلوّث. والذي يهمّنا أن المشرّع الإسلامي أخذ حماية البيئة بكلّ أقسامها بنظر الاعتبار، وأمرنا بأن نتعامل مع الماء معاملة صحيحة، فسلب الملكيّة الخاصّة عن الماء، ونهى عن التبوّل فيه جارياً وراكداً[٢]. ووضع القرآن أُسساً لحماية البيئة وتوزيعها وتقسيمها، وكله مذكور في كتب الفقه، فليست هذه المسألة جديدة على الإسلام.

---

(١) التبيان ٦: ١٦، الجامع لأحكام القرآن ٩: ٥٦.
(٢) الطهارة (الأنصاري) ١: ٤٨١.

فـ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أمركم بعمارتها، والأنبياءعليهم السلام قـد جسّـدوا ذلك؛ فـقد اشتغلوا بالزراعة والرعي وكذلك الأيمّةعليهم السلام، يقول رجل: خرجت ظهر أحد الأيّام الحارّة فرأيت الإمام الصادقعليه السلام حاملاً مسحاة، فقلت له: إلىٰ أين يا سيدي؟ فقال له: «عندي بستان، وأردّت أن أسقيه وأُصلحه». فقلت له: إذا متّ ماذا تـقول لله؟ فأجابهعليه السلام بأنه سيقول حينها بأنه قد خرج إلى حيث وجّهه وأمره من أين يكتسب، فقد قال تعالىٰ: ﴿فَامْشُوا فِي مَـنَاكِبِهَا وَكُـلُوا مِـنْ رِزْقِـهِ﴾[١]؛ لأن الله يـحبّ العـبد المحترف، وما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده[٢].

المبحث الرابع: أقسام الإخاء

نرجع للجانب المهمّ من الآية: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾، هنا نسأل: من هم ثمود؟ ثمود وعاد كانوا يعيشون بوادي القرىٰ، وهو ما بين الشام والمدينة، وكانوا كفاراً مشركين، فما معنىٰ أن يقول: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾؟ أي كيف آخاهم وهوعليه السلام نبي وهؤلاء مشركون؟

الإخاء الإنساني

الإخاء أقسام، فقسم من الإخاء هو إخاء المسـاكـنة والعشـرة، أي الإخـاء الإنساني العامّ. فبغضّ النظر عن المكانة الاجتماعيّة فإنّ الإنسان أخو الإنسان، فهنا قدر مشترك هو الإنسانيّة، ونحن كلّنا مـن التـراب، والنـتيجة واحـدة هـي رجوعنا إلى التراب.

فالمتعجرفون الذين يتصوّرون أنهم خلقوا من عنصر مميّز ولهم مكانة خاصّة إنما يدلّ كلامهم هذا علىٰ تفاهة أفكارهم وتصوّراتهم؛ فكلّنا عباد الله بغضّ النظر عن جميع الاعتبارات. وهذا التمايز في الحياة إنما هو تمايز صناعي، وعند فرويد

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

فرويد نظريّة تقول: (إن ٩٠٪ من سلوكنا هو سلوك صناعي وليس طبيعياً)، فمثلاً هذا يسكن في قصر معيّن حتىٰ ينتزع إعجاب الناس أو يلبس ملابس معيّنة حتىٰ يحترموه؛ فهذا وضع صناعي.

فسلوكنا غالباً مصطنع وليس عفويّاً، وهذا ناشئ من كون بعض الناس ينظر إلىٰ أنه يجب أن يتميّز عن غيره. وهذا مرفوض؛ فعندنا إخاء إنساني، والإمام الصادقﷺ كان يحمل قربة الماء ويسقي غلمانه، فقال أحدهم: ما تصنع يابن رسول الله؟ مرنا ونحن بخدمتك. فقال: «**الأب واحد وهو آدم، والأُم واحدة وهي حوّاء، ويجمعنا دين الإسلام**»[1]. فتأمّل هذا الخلق الإنساني الرفيع.

وكذلك دخل رجل من أهل الشام علىٰ علي بن الحسينﷺ فقال: أنت علي ابن الحسين؟ قال: «نعم». قال: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكىﷺ ثم مسح عينيه فقال: «**ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟**». قال: قوله: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فقالﷺ: «**ويلك أما تقرأ القرآن؟**». قال: بلى. قال: «**فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا إخوانه في دينهم أو في عشيرتهم؟**». قال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ قال: «**فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم وليسوا إخوانهم، في دينهم**». قال: فرجت عني فرج الله عنك[2].

فهوﷺ يفهمه بأن هذا الإخاء إنساني، وأنهم إخوة له في الجنس البشري لا في الدين. فإذا خرج الإنسان عن ربقة الإسلام أصبح معتدياً. فأمير المؤمنينﷺ لم يقاتلهم وإنما هم الذين قاتلوه وخلعوا بيعته، بل وحتى الرباط الإنساني، وجاؤوا

---

(١) مثله في الكافي عن الإمام الرضاﷺ. انظر الكافي ٨: ٢٣٠ / ٢٩٦.
(٢) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

ليقاتلوه فقاتلهم. فهذا قسم من أقسام الأُخوّة.

الإخاء الإسلامي

وهو إخاء الدين والعقيدة. والأُخوّة الإسلاميّة يحدّدها القرآن: ﴿**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾[١]، أي إذا قطعوا صِلاتهم بالأعمال غير الإسلاميّة المتحدّرة من الجاهليّة وعملوا هذه الأعمال كالصلاة، والزكاة، فإنهم إخوانكم. يقول الحسن عليه السلام: «**حرّمت هذه الآية دماء أهل القبلة**»[٢]. فأنت عندما تأتي لشخص وتسأله: من تعبد؟ فيقول: أعبد الله عزّ وجلّ. وتسأله: هل تؤمن بالمعاد؟ فيقول: نعم، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد بنبوّة النبي وأُومن بالمعاد. فهذا مسلم حقن دمه، وصان عرضه وماله، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم[٣]. فإذا أنكر ضرورة من ضرورات الدين كأن يقول: إن الصلاة خرافة، فإنه يخرج من ربقة الإسلام.

مفارقات في دعوى شتم الصحابة وحقيقة عصمتهم

أما كيف نحكم علىٰ أنه غير مسلم؟ فالبعض يقولون: إن من يشتم الصحابة لا يكون مسلماً. لكن هذا الذي ترميه بشتم الصحابة ارجع إلىٰ كتبه في الفقه والعقائد فهل تجد كتاباً يأمر بشتم الصحابة؟ فهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وموضع اعتزازنا، يقول شاعرنا الكميت:

أهوىٰ عليأ أمير المؤمنين ولا　　　أرضىٰ بسبّ أبي بكر ولا عمرا

---

(١) التوبة: ١١.　　　(٢) الدر المنثور ٣: ٢١٣.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

ولا أقــول وإن لم يــعطيا فــدكاً بنت النـبيّ لقـد جـارا وقـد كـفرا

الله أعــــلم مــــاذا يأتــيان بــه يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا[1]

فهذا هو هدفنا، ولكننا عندما نمرّ بالصحابة فإننا لا ننزّه منهم إلّا من هو أهـل لذلك، كما لا نشتم إلّا من كان مستحقّاً للشتم، وكان الشارع يشتمه. نقول: إذا شتم مسلمٌ غيره ما حكمه؟ طبعاً سباب المسلم معصية ونعتبره فاسقاً وعـاصياً، فـما الذي سبّب له الفسق؟ الذي سبّب له هذا هو أنه موضوع يمسّ وحدة المسلمين، وعدد المسلمين حاليّاً مليار وربع المليار نسمة، وهؤلاء يعيشون الجحيم بسبب حفنة من الناس تدعو إلى التفرقة، ومن ورائهم أيادٍ خطرة.

هل تعصم صحبة النبي ﷺ عن الوقوع في الخطأ؟

وهنا ثلاث مقدمات:

المقدّمة الأولى: ليس عندنا دليل على الشتم؛ فلا نقوم بشتمهم.

المقدّمة الثانية: أن شرف صحبة النبي ﷺ لا يساويه شرف.

المقدّمة الثالثة: أن صحبة النبي ﷺ ليست هي العاصمة للصحابي من الوقوع في الخطأ. فنحن نحترمه لأنه حظي بهذه الصحبة الكريمة، ولكن لا نحوّله إلىٰ معصوم، فالصحبة ليست عاصمة، بـدليل أن القـرآن تـعرض لجـماعة مـنهم عـبّر عـنهم بالمنافقين وتوعّدهم بالعذاب، والنبي كما في الصـحاح يـخبر أن جـماعة مـن أصحابه يحشرون يوم القيامة يختلجون دونه ـ يعني تأخذهم الملائكة ـ فيقول: «أصحابي». فيقال له: «إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك»[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦: ٢٣٢، الروضة المختارة: ٨١ ـ ٨٢.

(٢) مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، فتح الباري ١١: ٣٣٣ وغيرها، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥، الجامع الصحيح ٥: ٤ / ٣٢١٥.

ولكن يجب ألّا يحملنا هذا علىٰ أن نقلّل من شرف الصحبة، ولا علىٰ أن نعتبر الصحابي معصوماً. فالصحابي يخضع للمقاييس؛ إن أحسن أو أساء. فمن أين جاء الانحراف والخروج عن الدين بسبِّ من يستحقّ السبّ؟

أمران يستحقّان الوقوف عندهما

إن من المعلوم أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام شُتم على المنابر ثمانين سنة ، بل إن معاوية كان حتى في القنوت يقف ويشتم علي بن أبي طالب[1]، وعمرو بن العاص

---

(١) وقد كتب المعتضد بالله كتاباً في لعن معاوية بن أبي سفيان كما رواه الطبري، إليك مقتطفات منه، علماً أن الطبري لم ينفِ صحة ما جاء فيه:

قال الطبري في تاريخه ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣: «وفي هذه السنة ـ يعني (٢٨٤) هـ ـ عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب بذلك يُقرأ على الناس».

إلى أن قال: «وكان أشدّهم في ذلك عداوة وأعظمهم له ـ أي للرسول صلى الله عليه وآله ـ مخالفة وأوّلهم في كلّ حرب ومناصبة لا يُرفع على الاسلام راية إلّا كان صاحبَها وقائدَها ورئيسَها في كلّ مواطن الحرب من بدر وأُحد والخندق والفتح أبو سفيان بن حرب وأشياعُه من بني أُميّة الملعونين في كتاب الله ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله في عدّة مواطن وعدّة مواضع؛ لماضي علم الله فيهم وفي أمرهم ونفاقهم وكفر أحلامهم ... ».

«فممّا لعنهم الله به على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله وأنزل به كتابا قوله: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾، ولا اختلاف بين أحد أنه أراد بها بني أُميّة. ومنه قول الرسول صلى الله عليه وآله ـ وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به ـ: «لعن الله القائد والراكب والسائق». ومنه ما يرويه الرواة من قوله ـ يعني أبا سفيان ـ: يا بني عبد مناف تلقّفوها تلقّف الكرة، فما هناك جنّة ولا نار. وهذا كفر صراح يلحقه به اللعنة من الله ... ».

«ومنه وقوفه على ثنية أُحد بعد ذهاب بصره وقوله لقائده: هاهنا ذببنا محمداً وأصحابه».

«ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا بمعاوية ليكتب بأمره بين يديه، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «لا أشبع الله بطنه». فبقي لا يشبع ويقول: والله ما أُنزل الطعام شبعاً، ولكن أعيا. ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يطلع من هذا الفجّ رجل من أُمتي، يحشر على غير ملّتي». فطلع معاوية. ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه». ومنه الحديث المرفوع المشهور أنه صلى الله عليه وآله قال: «إن معاوية في تابوت من نار في أسفل درك منها ينادي: يا حنّان يا منّان. ـ فيجاب ـ: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من

كان يقول: بل أزيدكم الحسن والحسين وأمّهما فاطمة، فيشتمون أصحاب الكساء[1] وعدل القرآن[2]. وهؤلاء خلقوا ردة الفعل لدى الآخرين فشتموهم، وقد وضع القرآن قاعدة: **﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**[3]. وكلّ المفسّرين يقولون: لا تسبوا آلهة المشركين حتىٰ لا يشتموا إلٰهكم[4].

فأنت إذن تشتم إمام المتّقين، فمن الطبيعي جدّاً أن يأتي أحد شيعته بدافع ردّة الفعل فيشتم؛ لأنك قد أوجدت عنده الدافع إلىٰ الشتم. وهنا أمران أود أن أشير إليهما:

الأوّل: إيمان من شتم أمير المؤمنين عند البعض

فهؤلاء الذين شتموا أمير المؤمنين ثمانين سنة مؤمنون في نظر البعض إلىٰ الآن حيث يقولون عن أحدهم: (رضوان الله عليه) علىٰ الرغم من أنه شتم الإمام عليّاً والحسن والحسين وفاطمة، ومزّق شمل المسلمين، مبرّرين ذلك بالقول: إنه يمكن أن يكون قد تاب.

فهل مثل هذا يوصف بالإيمان؟ كما فعل ابن حزم إذ قال: إن الذين قتلوا الإمام عليّاً أُناس مجتهدون، حيث إن منفذ جريمة قتله اجتهد فأخطأ، فيحصل على ثواب أجر واحد، أمّا من قتل عثمان فكافر ملعون، فلماذا مع أنهما كليهما خليفة وقائد للمسلمين؟ فلنعالج وضع المسلمين معالجة جدّيّة؛ فإنهم أمانة في أعناقنا، فما ذنب القاعدة الإسلاميّة التي تبتلي بخمس أو ست من المنتفعين؟ الله

☚ المفسدين ﴾»...». وهو كتاب طويل ذكر فيه كلّ مثالبه، وقد مرّت الإشارة إليه قبل قليل.

(١) المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع القدير ١: ٢١٧ / ٢٠٤.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٤، ١٧، ٢٦، ٤: ٣٧١، وغيره كثير.

(٣) الأنعام: ١٠٨.

(٤) مجمع البيان ٤: ١٣٢، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٥٨.

الله في وحدة المسلمين.

إن موضوع الشتم ليس من شيم الرجال ولا يوصل إلىٰ نتيجة ولا يرجّع حقّاً ولا يردّ مكانة، وليس من آداب الإسلام.

الثاني: ادّعاؤهم أن الشيعة يتصدّقون بفروج نسائهم

حينما نمرّ بكتب إخواننا من المذاهب الإسلاميّة نجد من يقول: «إن الشيعة يتصدّقون بفروج نسائهم»[١]. والمسألة عندنا في باب الإماء: فلو ملك أمة فإنه يتصرّف بها كما يتصرّف المالك بملكه، فلو وهب انتفاع مملوكته لشخص للشخص وطؤها بالهبة، ولا يحق للمالك وطؤها بعدُ إلّا بعد أن تستبرئ فرجها[٢]. هذا كل ما في المسألة.

وهذه ليست عندنا فلو رجعنا إلى المعاجم في باب (رق) (سبىٰ) (إما) لرأينا ء مماثلة لفقهاء المسلمين، فهل يصحّ التعبير بأن هؤلاء «يتصدّقون بفروج سائهم»؟ فهل هذا تعبير مهذّب من فقيه؟ فلماذا تقحم الفقهاء وتقول: هذا رأي فقاء؟ فجنّبوا المسلمين الويلات. فهذا المسلم قد ولد على الفطرة يشهد «أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله»، ويرىٰ إخوانه يصلّون لقبلة واحدة ويعبدون إلهاً واحداً، فلماذا هذه التفرقة؟

وهناك فقيه آخر يقول: «إن الشيعة يأكلون في شهر رمضان إلىٰ أن تطلع الشمس» في حين أننا إذا جاء الفجر الصادق بل وقبله نمتنع عن الطعام. وليراجع

(١) ورد هذا المعنى في جملة أسئلة للمفضّل كان قد سمعها من أعداء أهل البيت عليهم السلام وبعث بها إلى الإمام الصادق عليه السلام، قال عليه السلام: «وأمّا ما ذكرت أن الشيعة يترادفون المرأة الواحدة، فأعوذ بالله أن يكون ذلك من دين الله ورسوله، إنما دينه أن يُحلّ ما أحل الله ويُحرّم ما حرمّ الله». بصائر الدرجات: ٥٥٣، بحار الأنوار ٢٤: ٢٩٤ / ١.

(٢) شرائع الإسلام ٢: ٥٣٨.

هذا المدّعي التفاسير في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[1]، كـ(تفسير القرطبي) و(الرازي)، و(روح المعاني) حيث إن إخواننا يروون عن حذيفة أنه قيل له: أنت تسحّرت مع النبي ﷺ، فمتى كان السحور؟ فقال: هو النهار إلّا أن الشمس لم تطلع[2]. وتوجد عدّة آراء للمفسّرين عندنا عن الفجر الصادق المعترض في الأُفق؛ ونحن قبله نمتنع عن الطعام، فلماذا هذا التهريج والشتم؟ فهذا ما نأباه، وينبغي أن يكون الدليل موضوعيّاً كما قلنا.

إذن المسلم أخو المسلم، والإسلام يجمعنا؛ فإن النبي ﷺ رحمة للعالمين.

الإخاء النفسي

وهو الاندماج النفسي، فأنت أحياناً تجد اثنين من المسلمين أو إخوة من الأُم والأب أنفسهما لكن تجدهما يكره أحدهما الآخر ولا يوجد بينهما انسجام نفسي، وقد تجد شخصاً يحبّ آخرَ ليس هناك علاقة تربطه به، بل قد يكون من دين آخر؛ وما ذلك إلّا لوجود تمازج نفسي بينهما وهذا ليس له علاقة بالعقيدة ولا المساكنة والمواطنة.

أُخوّة الحسين والعباس عليهما السلام من أي الأقسام هي

وفي يوم الطفّ أين مكان أُخوّة الحسين عليه السلام من هذه الأقسام؟ فالحسين عليه السلام قدّم تسعة من أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام، أربعة منهم أولاد أمّ البنين والباقون من أمّهات شتىٰ، فلماذا استأثر العبّاس بهذه المنزلة من دونهم، والعباس أخو الحسين

---

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، المجلّد: ٢، ج ٢: ٢٣٦، سنن ابن ماجة ١: ٥٤١ / ١٦٩٥، تفسير القرآن العظيم ١: ٢٢٨، تفسير الثعالبي ١: ٣٩٥.

من أبيه؟ الذي يظهر أن هذا الرجل يجمع كلّ صفات الإخاء مع الإمام الحسينؑ، فهو أخو الحسينؑ؛ لأنهما نزلا معاً من صلب واحد وربيا وعاشا في بيت واحد، ولأن العبّاس ـ وهو المهمّ ـ اندمج مع الحسينؑ نفسيّاً إلىٰ أن وصل إلىٰ درجة الفناء في حبّ الحسينؑ. يقول يوم الطفّ لمّا أرسله الحسينؑ للماء بعدما قطعت يده في تضحيته:

والله إن قطعتمُ يميني   إني أُحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين[1]

فهذا اللون من الفناء هو الذي جعل العبّاس يذوب في الإمام الحسينؑ، فكم مرّة حاول أن ينزل إلى المعركة والحسينؑ يمنعه! إلىٰ أن كانت المرّة الأخيرة حيث قال له: ايذن لي فإني لا أستطيع البقاء وأصوات النساء تتعالىٰ، فلأدافع عن ديني. فسمح له الحسينؑ، فنزل إلى المعركة وقاتل قتال الأبطال، وحمل لواء الإسلام إلىٰ أن صُرع، فأقبل إليه الحسينؑ، وقد صوّر لنا هذه الحالة أحد شعراء الطفّ وهو يقول:

وهوىٰ عليه ما هنالك طائلاً   اليوم بان عن اليمين حسامها

اليوم آل إلى التفرّق جمعنا   اليوم حلّ عن البنود نظامها

اليوم نامت أعين بك لم تنم   وتسهّدت أُخرىٰ فعزّ منامها

جلس الحسينؑ عنده يمسح التراب والدم عن وجهه، احتضنه فأحسّ العباسؑ بحركة رجل قال: من هذا الذي عندي؟ ثمّ قال: ياهذا أُقسم عليك بمن

---

(١) وتمام البيت الثاني:

نجل النبي الطاهر الأمين

شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودّة ٣: ٦٨.

تعبد إلّا ما أمهلتني فواق ناقة. قال: «ما تصنع بها؟» قال: حتىٰ يأتي إليّ أخي وابن والدي أُودّعه ويودّعني. قال له الحسين﵇: «أنا أخوك وابن والدك». قال: أبو عبد الله عند رأسي؟ قال: «بلىٰ»، قال: أبا عبد الله، ضع فمك علىٰ فمي، أخذ يقبله إلىٰ أن فاضت روحه الطاهرة، قام الحسين﵇ يكفكف دموعه بمنديل بيده وهو مختنق بعبرته فتلقّته أُخته الحوراء زينب﵍، وقالت: أبا عبد الله، أراك راجعاً لوحدك، اين ابن والدي؟ قال: «عظّم الله لك الأجر، لقد تركته على المشرعة دامي الوريدين». فأرادت أن تخرج، فوضع الحسين﵇ يده علىٰ صدرها وقال: «أُخيَّة لا تُشمتي بنا الأعداء». فأرجعها إلى المخيّم، بقي ذلك الأمر في نفسها إلىٰ أن جنّها الليل، فخرجت إليه وإلىٰ نهر العلقمي.

﴿٣٢﴾

المبادئ لا ترتبط بالقائمين عليها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: ربط وجود الحدث بالقائم عليه

فهذه الآية تفتح لنا آفاقاً لتقرير حقيقة معيّنة، فنحن غالباً نربط الأحداث بالأشخاص فنتصوّر أن أي إنجاز يرتبط بصاحب العمل، فإذا مات صاحب العمل مات العمل معه، ففي الفترة التي عاصرت الرسولﷺ لم يكونوا يعرفون التجريد ـأي لا يعرفون أن المبادئ ليس لها علاقة بالأشخاص، وأن المبدأ يبقىٰ حتىٰ لو ذهب الشخص ـففي واقعة أُحد نادىٰ إبليس: إن محمداً قتل. والقصد من النداء هو أن يثبّط العزائم، فإن النبيّ إذا كان معهم فمعناه أن النصر لهم. فالآية تقول لهم: إن النبي رجل من الرجال وحامل رسالة، فالخلود للرسالة، فإن مات الرجل فإن الرسالة تبقى، فلا تنقلبوا علىٰ أعقابكم إن كان قد مات: ﴿أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، حيث إن النبي ﷺ لم يتّبعه من اتّبعه بصفة الدم واللحم، وإنما بصفة أنه ﷺ حامل رسالة السماء، وهي تبقىٰ حتىٰ لو مات (صلوات الله عليه).

فمن هذا المنطلق ـ أن الرسالة تبقىٰ ولو مات النبي ـ نقول: إن النبي ﷺ إذا التحق بالرفيق الأعلىٰ، فكيف يعيش هذا المبدأ من بعده؟ فهل يعيش مجرّداً، أو أن له حماة منفّذين؟ إن المجتمع قد يصل إلىٰ مرحلة من الرقيّ بحيث يتحرّك من المبدأ ويصير علىٰ درجة من التهذيب والأخلاق، فلا يحتاج إلىٰ قوة تنفيذيّة، فيتحرك إلى العمل بمحض إرادته دون أن يدفعه دافع. وهذا يحتاج لفترة حتىٰ يمكنه أن يصل إلىٰ هذا المستوىٰ من الرقيّ. لكن خلال هذه الفترة هل يستغني المبدأ عن قوّة تنفيذيّة؟ كلا، لا يستغني عنها، فلو فرضنا أن المبادئ تستغني عن القوّة التنفيذيّة لما احتجنا إلىٰ مصلحين أبداً، وإننا نعرف أن كلّ الأُمم تعرّضت إلىٰ هزّات في تاريخها، فما لم ينهض مصلح يرجعها إلى الطريق الصحيح فإنها تحيد عن هذا الطريق.

وقد يقول قائل: تأمّل كلامك هذا، ألا تجد أنه يتناقض مع كلامك في صدر الحديث؟

ونقول: لا، المبدأ يفتقر في وجوده إلى الشخص، ففي الوقت الذي لا تموت المبادئ فيه بموت الأشخاص تبقىٰ هذه المبادئ محتاجة إلىٰ قوّة تنفيذيّة؛ ولذلك فإن النظريات الطوبائيّة لم تعِش، فمثلاً نظريّة أفلاطون (الأُوتوبيّة) ـ كما يعبّرون عنها ـ وكلّ النظريّات التي تتصوّر أن الإنسان في يوم من الأيّام سيتحرك في الدنيا كما تتحرّك الدورة الدمويّة بحيث يؤدّي عمله تلقائيّاً وطبيعيّاً كلّها قد فشلت؛ لأنها غير عمليّة وغير واقعيّة.

فلابدّ من وجود قوة تنفيذيّة ترعىٰ ذلك، وقد جاء في الحديث الشريف: «**إن الله**

لَيزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[١]، أي أن وجود القوّة التنفيذيّة أكثر تأثيراً من وجود النظريّة.

إذن فلابدّ أن تتجسّد المبادئ في شخص من يحملها، لكن من يحملها؟ نحن نطلب دائماً أن يكون الحاملون هم المأمونين علىٰ أداء الرسالة، حيث يوجد فرق بين الثاكل والمأجور، ولنقرب المعنىٰ بأن نضرب مثالاً: في أيام الخليفة الثاني جلبوا امرأتين ضرّتين (الضرّتان: زوجتان لزوج واحد)[٢]، إحداهما ولدت بنتاً والأُخرىٰ ولدت ولداً، فأُمّ البنت ادّعت أن الولد لها وأن البنت للأُخرىٰ، أمّا الأُخرىٰ فقالت: لا، هذا ابني. وطال النزاع، فدخل أمير المؤمنين عليه السلام فالتفت إليه الخليفة الثاني وقال: احكم بينهما. فكان عليه السلام كلّما حاول أن يجعل أُمّ البنت تعترف بأن البنت لها امتنعت، فوعظهما وخوّفهما فأقامتا على التنازع والاختلاف، فقال عليه السلام: «ايتوني بمنشار». فقالت المرأتان: ما تصنع؟ فقال عليه السلام: «أقدّه نصفين لكلّ واحدة منكما نصفه». فسكتت إحداهما وقالت الأُخرى: الله يا أمير المؤمنين، إن كان لابدّ من ذلك فقد سمحت به لها. فقال عليه السلام: «الله أكبر هذا ابنك دونها، ولو كان ابنها لرقّت وأشفقت». فاعترفت المرأة الأُخرى أن الحقّ مع صاحبتها وأن الولد لها، فسرّ عمر ودعا لأمير المؤمنين عليه السلام بما فرّج عنه في القضاء[٣].

حَمل المبدأ حَمل مأجور وحَمل ثاكل

ونحن نستفيد من هذه القصّة أنه يوجد من يحمل المبدأ وهو ليس مأجوراً وإنّما يحمله حمل ثاكل، أي أن البيت الذي حمل الرسالة هو أولىٰ بحمل الرسالة؛

---

(١) التبيان ٩: ٢٧٥، فتح القدير ٣: ٢٥٢، ٢٥٦.

(٢) لسان العرب ٤: ٤٨٦ ـ ضرر.

(٣) الإرشاد ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، شجرة طوبى ٢: ٤١٨، ونسبها في المصنف (الصنعاني) ٧: ٣٦٢، والسنن الكبرى (البيهقي) ٣: ٤٧٢ / ٥٩٥٧ لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام.

لأن القرآن نزل في بيوتهم وهم حماته وحملته. في أحد الأيّام كان الإمام الحسن﵇ يطوف فوقف رجل وشتمه، فقال له الإمام: «علىٰ رسلك: أنا آخذ بيدك إلىٰ بيتنا لأريك زغب جناح جبرئيل»[١].

فالإمام﵇ يقول له: نحن لسنا أهلاً لأن نشتم، وأنا بوسعي أن أقابلك بشدّة، لكنك امرؤ مغرّر به أو مخدوع ولا تعرف الواقع.

نرجع لصدر الحديث، فكما رأينا هناك نوعان من الحَمل: حمل مأجور، وحمل ثاكل يرىٰ أنه لابدّ من تجسيد المبدأ. فبعد أن ارتحل النبي ﷺ إلى المليك الأعلىٰ، كان أمر حفظ الرسالة يحتاج لحماة قائمين عليه، فكان دور الخلافة، ثم جاء دور الأُمويين في تولّي الحكم فانتعشت قيم الجاهليّة مرّة أُخرىٰ، ورجعت الأوضاع التي كانت سائدة قبل البعثة، حيث إن هذه القيم من التسلّط والاعتداء وقيم البداوة كلّها أرادت استعادة مكانتها مجدّداً؛ لأن الإسلام هزمها.

المبحث الثاني: مبررات نهضة الإمام الحسين﵇

ولنلتمس بعض الشواهد والمظاهر علىٰ ذلك؛ حتىٰ نرىٰ المبرّر الذي دفع بالحسين﵇ إلىٰ الخروج ليقاتل:

المظهر الأوّل: رقّ الإنسان أخاه الإنسان

فأول أهداف الرسالة الإسلاميّة أنها جاءت لتخلّص الإنسان من رقّ أخيه الإنسان، حيث إنهما كليهما سواء، فالناس سواسية يولدون أحراراً[٢]. فرقّ

---

(١) ورد أن للحسن والحسين﵉ تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن﵇ (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين﵇ (ابن عساكر): ١٩٢.

(٢) المبسوط (السرخسي) ٥: ٢٣.

الإنسان للإنسان خلاف الطبيعة والمبدأ الإنساني الذي حاربت الأديان لأجل إقراره. فالجاهليّة كانت تسترقّ الإنسان بصورة فظيعة، وتاريخ الرقّ يؤكد هذا المعنىٰ، وكان الإنسان في الجاهليّة يباع ويشترىٰ كالسلعة، ويعتدىٰ عليه، لكن ما الذي حدث بعد مجيء الإسلام؟ لقد احترم الإنسان وكرّمه، غير أنه بعد فترة من رحيل النبي ﷺ إلى المليك الأعلىٰ رأينا أن الحُجّاج حينما يدخلون جماعاتٍ في الإسلام يقال لهم: أنتم مَوالٍ ولستم عرباً أقحاحاً، لذلك يوضع وشم علىٰ أيديهم وتؤخذ منهم الجزيّة حيث يقال لهم: إنما أسلمتم للتخلّص من الجزيّة[1].

فهذا مظهر غير إسلامي، والإسلام يأباه ويرفضه؛ لأن هذا الذي يدّعى أنه مولى وليس عربيّاً قحّاً، يشهد بالشهادتين؛ فهو مسلم، فلماذا يوضع عليه الوشم الذي هو مظهر جاهلي؟

المظهر الثاني: التفريق بين المولىٰ وزوجه إذا تزّوج

كان المولىٰ إذا تزّوج فرّقوا بينه وبين زوجته، وضربوه بالسياط. وهذا مظهر غير إسلامي؛ لأنه «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزّوجوه»[2]. فالدماء سواءٌ أمّا أنه مولىً فيختلف، فهذا مظهر غير إسلامي وغير مقبول. نضرب لك مثلين من التيارين:

مثل التيار الأوّل: أن الإمام علياً عليه السلام لمّا حدثت واقعة الجمل ـ وكان أصحابها بغاة خرجوا على الإمام الشرعي فقاتلهم ـ وفرغ من القتال، نادىٰ مناديه عليه السلام: ألّا تأخذوا شيئاً من معسكرهم أبداً. فجاء إليه جماعة فقالوا: أتباح دماؤهم ولا تباح

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: ٩٤.

(٢) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

أموالهم؟ قال عليه السلام: «من منكم يأخذ زوجة رسول الله إلىٰ رحله؟ هؤلاء إخواننا بغوا علينا، فلا تتناولوا شيئاً من معسكرهم»[1]. هذا هو التيار الإسلامي.

ومثل التيار الثاني: ما حدث في واقعة الحرّة؛ حيث جلبوا لمسرف بن عقبة الناسَ حتىٰ يجدّدوا البيعة ليزيد، فقال رجل: أنا أُبايع كرعيّة (مواطن) ليزيد. قال: لا، وإنما تبايع علىٰ أساس أنك عبد قِنّ ليزيد[2]. فالعبد القنّ لا يملك شيئاً إطلاقاً (دمه، ماله، عرضه) كلّه تحت تصرف هؤلاء، فكيف تلتقي هذه المبادئ مع القيم الإسلاميّة؟

فهذه قيم جاهليّة ولابدّ من حملة للقضاء عليها، وإلّا ذهبت أتعاب النبي صلى الله عليه وآله أدراج الرياح، فقد أعطى النبي الجهاد والدماء والتضحيات، وما أعطاه الصحابة منها لا ينكر، فهل هذا كلّه يذهب سدًى؟ فلابدّ إذن من الوقوف ضد هذه الهجمة الهمجيّة لتخليص الإنسان من رقّ الإنسان. فحتى النبي صلى الله عليه وآله لا يملك هذا الحقّ (الرقّ)، مع أنه أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم لكن لتوجيههم نحو الخدمات العامّة وليس لأن يملكهم.

عن محمد بن زيد الطبري قال: كنت قائماً على رأس الرضا عليه السلام بخراسان، وعنده عدّة من بني هاشم، وفيهم إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي، فقال: «يا إسحاق بلغني أن الناس يقولون: إنا نزعم أن الناس عبيد لنا، لا وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله ما قلته قطّ ولا سمعته من آبائي ولا بلغني عن أحد من آبائي قاله، ولكني أقول: الناس عبيد لنا في الطاعة، موالٍ لنا في الدين، فليبلغ الشاهد الغائب»[3].

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣، وليس فيه قوله: من منكم يأخذ زوجة رسول الله إلىٰ رحله.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.
(٣) الكافي ١: ١٨٧ / ١٠، الأمالي (المفيد): ٢٥٣، الأمالي (الطوسي): ٢٢، بشارة المصطفى (الطبري): ١١٩.

بمعنى أن الناس إذا كانوا كلّهم عبيداً لنا فلمن نبيعهم؟ ومن يشتريهم؟ فلا تصدّقوا كلّ كلمة بمجرّد سماعها وفكّروا بها. والقرآن الكريم يقول للنبي: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[1].

فإذا كان النبيﷺ لا يملك هذه الصلاحيّة فكيف يأتي إنسان ويسترقّ إنساناً آخر بهذا اللون الصارخ الفظّ الغليظ الذي يبتعد عن روح الإسلام؟ فمن يقف بوجه هذا؟ في الدرجة الأُولىٰ إن بيت الرسالة الذي هبط فيه القرآن، والذي حمل المبادئ وانسكبت فيه المثل من وحي السماء هو الذي لابدّ أن يقف بوجه هذا التيّار الجاهلي العارم الذي حاول ويحاول أن يستعيد قوّته مرّة أُخرىٰ ويقضي على النبع الإسلامي. فرقّ الإنسان للإنسان من أول الأُمور التي كافحها الإسلام الذي أكّد علىٰ حرّيّة الفرد وعلىٰ أنه يتمتّع بحرّيّته كاملة ما دامت لا تعارض حرّيّة الآخرين ولا تنافيها.

المظهر الثالث: الاستغلال غير المشروع

وهو استغلال الإنسان غير المشروع للإنسان في الأُمور التي وقف الإسلام بوجهها. فالاستغلال نوعان: استغلال مشروع واستغلال غير مشروع، فمثال الاستغلال المشروع أجير يعمل في متجر مقابل ما يساوي عمله.

نظريّة الأُجور في الإسلام ووسائل حمايتها

وهذه تتبع نظريّة الأُجور، ونظريّة الأُجور في الإسلام تختلف عنها في المجتمعات المعاصرة، فالمجتمعات المعاصرة نظرتها في الأُجور مختلفة، فبعضها يقول: من كلٍّ حسْبَ قوّته ولكلٍّ حسب عمله، أمّا البعض الآخر فيقول: من كلّ حسب قوّته ولكلٍّ حسب حاجته. وهذه لم تطبّق حيث ادّعتها الشيوعيّة؛ إذ لم

---

(١) الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.

تتمكّن من تجسيدها على الواقع؛ لأن الإنسان إذا أخذ حسب حاجته فإنه لا يعمل، فيبعث ذلك على الكسل، وسيتدهور الاقتصاد، وهذا ما حصل بالفعل. كما أنه توجد نظريات ما بين هذا وذاك.

وقد أعلن الإسلام عدّة أشياء وأكّد عليها في هذا المجال:

الوسيلة الأولى: قانون حماية الأجير

فالإسلام وضع قانوناً لحماية الأجير وحقوقه، وقد ذكرنا بعض النظريّات في ذلك، أمّا نظريّة الإسلام فهي: من كلٍّ حسب عمله، أما كفايته فمسؤول عنها بيت المال، أي إذا لم يكفِه ما أخذه من العمل فإنه يرجع لبيت المال ويأخذ ما يتمّم حاجته، ويعطيه ما يسمىٰ بـ(الضمان). وقد أعلنت الآية عن أن استغلال الإنسان للإنسان بشكل غير مشروع جريمة: ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾[1] أي لا يبخس من حقّه شيئاً، ويكل ذلك إلىٰ أهل الخبرة. والرسول ﷺ طرح رواية في الساحة ترعب الإنسان رعباً شديداً: «**من ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله وحرّم عليه الجنة**»[2]. فهذا يبيّن حرص الإسلام علىٰ أن يأخذ العامل حقّه كاملاً ولا يُبخس منه شيئاً، وهو الذي أكّدت عليه الشريعة.

الأراضي المفتوحة عنوة

لكن لما جاء الأُمويون للحكم، صعد الوالي الأُموي في الكوفة ـ وهو سعيد بن العاص ـ وقال: أيها الناس السواد بستان لقريش ـ السواد أرض العراق لكثرة المزارع فيه ـ فالذي يريد أن يعمل عندنا فليفعل، والذي لا يريد فليدبّر معاشه من مكان آخر[3]. وهذا مبدأ صارخ، حيث إن المسلمين سُلبوا ملكيّة الأرض التي

(١) الأعراف: ٨٥.
(٢) الأمالي (الصدوق): ٥١٣.
(٣) تاريخ ابن خلدون ج٢، ق٢: ١٤٠.

يوجد نزاع حول ملكيّتها وهل إنها توزّع أم لا، فمثلاً إذا فتح المسلمون أرضاً من بلد ما، فهذه الأرض كيف يتم توزيعها؟ هل توزّع على الغانمين؟ وإن وزّعت فهل توزّع على شكل استغلال، أو تمليك؟ أي هل يستغلّها المسلم ويستثمرها ويعيش من ريعها وتبقى للأجيال الباقية، أم يملكها ويورّثها؟

معظم الفقهاء يذهبون لهذا الرأي، لماذا؟ لأن الإنسان لا يسلب قوته، فيأتي شخص يمثّل الدولة ويصعد على المنبر يقول: إن السواد بستان قريش، حيث تمتدّ اليد إلى رغيف صاحب الكدّ الذي يتحمّل العناء والتعب ثمّ يؤخذ منه، فماذا يبقى في الحياة؟ فالإنسان سيّد الكائنات يُجاع ويؤخذ منه قوته ويعامل معاملة خشنة، بعيدة عن قيم الإسلام، فلابدّ من الوقوف بوجهها.

بل إن فقهاء الإسلام يقولون: حتى أبعاض الأجر لا ينبغي أن تؤخذ من العامل، فمثلاً إذا نقلت بضاعة ولم تستطع أن تكمل المسافة لوجود عارض فيلزم أن تعطى من الأجر بمقدار المسافة. فالإسلام يحرص على ألّا يؤخذ من الأجير حقّه. وهذا ما نراه في أبواب المزارعة والمساقاة والعمل والإجارة، في حين أن هذا يأتي ليقول: السواد بستان لنا، أي أن عرق المسلمين يؤخذ ويدفع لأشخاص لا يساوون شيئاً.

الوسيلة الثانية: قانون ملكيّة الأرض

أو ما يسمى بمبدأ ملكيّة الأرض. وقد تطرّقنا للحديث عنه عند كلامنا حول الوسيلة الأُولى.

الوسيلة الثالثة: تسخير ما في الأرض والفلك

أعلن الإسلام أنه قد جعل الإنسان سيّد الموجودات، وجعل جميع الثروات

وسيلة لسعادته، قال تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ﴾[١]؛ ولذلك خطا الإسلام بالإنسان إلىٰ مستوىٰ يرتفع به عن المادّة، حيث إن الإنسان يحتاج للمادّة من مال وملابس وسكن وغذاء، لكنه ليس غريزة ومعدة وجسداً فقط. فالإنسان سيّد الموجودات، وعليه أن يطبّق ذلك عمليّاً لا نظريّاً فقط. ونحن نسمع في الفكر الاشتراكي أحياناً من يقول: «إن الإنسان أثمن ما في الوجود»، لكن تأتي فتجد امرأة عمرها (٧٠) سنة وقد أعطت للمجتمع من تعبها وعرقها، وتحمّلت آلام الحمل والولادة، وعملت في البيت وربّت، وبعد هذا كلّه وعندما تعجز عن العمل يقال لها: «من لا يعمل لا يأكل»[٢]. فأين مبدأ «الإنسان أثمن ما في الوجود»؟ فالأُم التي هي موضع القداسة تُعامل بهذا اللون من الازدراء، ويضنّ عليها بالرغيف حتىٰ تعمل تحت حرارة الشمس أو تحت برد الزمهرير، فهل هذا هو التكريم؟ بل هذا هدر وإضاعة للحقّ. في حين أن الإسلام يعطي للإنسان حقوقاً لا يحلم بها في مكان اجتماعي آخر حيث إنه يرعاه في كلّ المراحل، حتىٰ في دَور العجز والشيخوخة. فلكلّ دور معاملة، وطاقاته وقابلياته تراعىٰ، لكن بما يسمو به عن مستوى المادّة ويرسم له طريقاً شرعياً لإشباع الحاجات الجسديّة، لا عن طريق الربا والاستغلال والدجل، ثم يحدّد له المصادر، فلا يأكل حقوق الآخرين؛ فإن المصير ينتظرك لتحاسب عليه.

فإذن الإسلام يقول لابن آدم ـ الذي يقول: «مالي مالي ـ: وهل لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت، وما عدا ذلك فهو مال الوارث؟»[٣].

---

(١) الحج: ٦٥.
(٢) سيأتي الحديث حول هذا المبدأ في موضوع «أُميّة الرسول ﷺ».
(٣) الأمالي (الطوسي): ٥١٩ / ١١٤١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٤: ٦١.

فهذا حالك الواقعي، فأنت أكبر من المادّة، فإذا كانت قيمتك بالمادّة فقد نزعتها حين وصولك لحافّة القبر؛ لأن الشخص لا يأخذ مادّته معه، فقيمتك أكبر من المادّة. ولنرَ ما صنع الأُمويون فقد استخدموا الحسّ المادي الغليظ؛ وكم ترك هذا الشخص من ثروة، يقول عمر بن الخطاب: استأذنت على رسول الله ﷺ، فدخلت عليه في مشربة وإنه لمضطجع على خصفة (حصير) وإن بعضه لعلى التراب وتحت رأسه وسادة محشوّة ليفاً، وإن فوق رأسه لإهابَ عطينٍ[١]، وفي ناحية المشربة قرظ[٢]، فسلّمت عليه ثم جلست، فقلت: يا رسول الله، أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه، وكسرى وقيصر على معرّر الذهب وفرش الحرير والديباج؟ فقال ﷺ: **«يا عمر، إن اُولئك قد عجّلت لهم طيّباتهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنّا قوم قد اُخّرت لنا طيّباتنا في آخرتنا»**[٣].

وقال ﷺ: **«ماملأ آدمي وعاء شرّاً من بطنه، حسب ابن آدم ثلاث أكلات يُقمن صلبه»**[٤].

فلقمة تكفيه وثوب يلبسه يكفيه، والإمام علي عليه السلام يقول: **«المرء مخبوء تحت لسانه»**[٥] فالثوب لا يخلّد الإنسان، ولا الأكل، وإنما الذي يخلّده هو الخُلق والكرامة والعلم والموقف؛ لذلك اتّجه الإسلام بالإنسان إلى ماهو أسمى من

---

(١) من العطان، وهو فرث أو ملح يجعل في الإهاب كيلا ينتن. لسان العرب ٣١: ٢٨٨ ـ عظن.

(٢) القرظ : شجر يدبغ به. وقيل: هو ورق السلم يدبغ به الأدم، وهو من أجود ما تدبغ به الأُهب في أرض العرب وهي تدبغ بورقه وثمره ومنه أديم مقروظ. وشجره عظام لها سوق غلاظ أمثال شجر الجوز، وورقه أصغر من ورق التفّاح ، وله حبّ وهو ينبت في القيعان، واحدته قرظة، وبها سمي الرجل قرظة وقريظة. وتسمى اليمن بلاد القرظ؛ لأنها منابته. لسان العرب ٧: ٤٥٤ ـ قرظ .

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤: ١٠٤ .

(٤) المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٣١.

(٥) نهج البلاغة / الحكمة: ١٤٨ .

المادّة. لكن لمّا جاء الأُمويون حاولوا ليردّوه إلىٰ قيم الجاهليّة، حيث يروىٰ أن معاوية سمع شخصاً يغنّي عند ابنه يزيد، فقال: من هذا؟ فقال: هذا سائب خاثر[1]. فقال له: فاخثر له يا بنيّ من برّك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً[2].

ويصل الأمر بمعاوية إلىٰ أن يضعوا له طعام ستّ أو سبع وجبات، ويقول: احملوا الطعام فوالله ما شبعت ولكن تعبت ومللت[3]. أمّا الإمام علي فيمدّ يده إلىٰ رغيف الخبز ويمسح بيده علىٰ بطنه ويقول: «**من أدخله بطنه النار فأبعده الله**»[4]. ويجلب إلى البيت قوصرّة تمر ويرتجز:

«أفلح من كانت له قوصرّه يأكل منها كلّ يوم مرّه»[5]

فهذه هي القيم التي جاء بها الإسلام ليغرْسها ويجعلها وسيلة تسمو بالإنسان عن مستواه العادي إلىٰ ما هو أرفع، لكن جاء الأُمويون للقضاء عليها، فهل بعد هذا

---

(١) أحد المغنّين، وسمي كذلك لأنه غنىٰ صوتاً ثقيلاً، فقال من سمعه هذا غناء خاثر، انظر تاريخ مدينة دمشق ٢٠: ١٢٢، الأعلام ٣: ٦٨.

(٢) الأغاني ٨: ٣٢٤.

(٣) مرّ قبل قليل في الكتاب الذي كتبه المعتضد، والذي رواه الطبري في تاريخه ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣ وانظر: شجرة طوبىٰ ١: ٩٤، شرح النووي على صحيح مسلم ٦١: ١٥٢، البداية والنهاية ٦: ١٨٩، ٨: ١٢٧، سبل الهدى والرشاد (الصالحي الشامي) ١: ٢١٥، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ١٦٦، شرح نهج البلاغة ٤: ٥٥، النصائح الكافيّة: ٢٠٢.
ومعاوية هذا هو الذي أخرج ابن عساكر عن سفيان الثوري والقطّان أنه قال: ما قتلت أحداً إلّا وأعرف فيم قتلته ما خلا حجراً فإني لا أعرف فيم قتلته. تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٢٣١.

(٤) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ ـ قرر، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الوعاء الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

نطلب مبرّراً لنهضة الحسين عليه السلام؟ فالإمام ما كان ليترك هذا الأمر، بل حزم أمره ليقف بوجه يزيد وأزلامه الذين كانت بأيديهم أزمّة الأُمور، وهم يستطيعون إصلاح المجتمع أو إفساده، فلابدّ من الوقوف بوجههم حتىٰ يستعيد المجتمع توازنه، ويتمكّن من إعادة رسالة الإسلام ثانية. وهذا ما أثاره السيد جعفر بقوله:

لم ادرِ أين رجال المسلمين مضوا	وكيف صار يزيد بينهم ملكا
العاصر الخمرَ من لؤم بعنصره	ومن خساسة طبع يعصر الودكا
لئن جرت لفظة التوحيد في فمه	فسيفهُ بسوىٰ التوحيد ما فتكا

فثمرة التوحيد التقيّد بما جاءت به فكرة التوحيد، فالتوحيد على اللسان فقط ليس له معنىً أو قيمة، وهذا الذي دفع بالحسين عليه السلام لأن يعلن نهضته، حيث وقف لهذا النظام الطاغي الذي يريد أن يعيد الإنسان لرقّ الإنسان واستغلاله. والقرآن الكريم يقول لهم: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

فالنبي صلى الله عليه وآله رحل، لكن مبدأه سيبقىٰ، وسيجد هذا المبدأ من يتولّىٰ حمايته. وهذا المعنىٰ أثبته الإمام الحسين عليه السلام في وصيّته حينما دفعها إلىٰ أخيه محمد بن الحنفيّة، حيث سأله جماعة عن سرّ حركته فقطع الإمام الحسين تساؤلاتهم: «إني لم أخرج أشراً أو بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدي صلى الله عليه وآله،أريد أن آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر»[1].

خلاصة البحث

فهذا هو الهدف الذي خرج عليه السلام لأجله ودفع قباله ثمناً غالياً. وعندما جنّه الليل

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

دخل عليه محمد بن الحنفيّة وقال له: يابن رسول الله علىٰ ماذا عزمت؟ فأعد النظر. فقال الحسين: «أعدك بذلك».

فخرج، ثم جاء الرسول لمحمد الحنفيّة يقول له: إن الحسين علىٰ استعداد للخروج، فجاء إليه فوجده يتوضّأ فقال له: يابن رسول الله، ألم تعدني في أن تعيد النظر فيما سألتك؟ قال: «بلىٰ وعدتك، فأنت عندما فارقتني، فإن جدي رسول الله أمرني بأمر وأنا ماضٍ بأمره».

فهذا واضح، وأنه يريد أن يقول له: إن تكليفي متعيّن عليّ، فلا أجلس لأُشاهد وأتفرّج، والقرآن يأمرني بأن أقف بوجه الظلم، حيث يقول: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، والنبي ﷺ أمرنا بالجهاد إذ قال: «لا قدّس الله أمّة لا يأخذ المظلوم حقّه من الظالم غير متعتع»[2]، فأنا مأمور من قبل الرسول ﷺ. فانسحب محمد وقال: عند الله أحتسبك أبا عبد الله . فودّعه الحسين ﷺ وودّع أهل بيته وخرج.

ورجع محمد ينتظر ماذا تأتي به الأيّام، إلىٰ أن فوجئ بالناعي ينعى الحسين ﷺ عندما رجعت سبايا آل محمد ﷺ، فيسأل محمد: مالي أرىٰ المدينة تضجّ بأهلها؟ قالوا له: لقد قتل مسلم بن عقيل. فقال: أُريد أن أذهب للحسين ﷺ.

وكان مريضاً فلمّا أراد أن يقوم سقط إلى الأرض، ونهض ثانياً فسقط، وأمّا في

---

(١) التوبة: ٤١.

(٢) المعجم الوسيط ٦: ٣٣٥.

الثالثة فنهض وقال: أما والله إن فيها لمصائب آل يعقوب. ثمّ نشروا عليه رداء عن الشمس، فأقبل ولما توسّط المدينة فاجأته السبايا ومعها الأطفال وهم ينادون: والوعتاه واحسيناه. فقال: فعلتها بنو أُميّة؟ فسقط إلى الأرض مغمىً عليه، فهرول الرسول إلى الإمام السجادعليه السلام وقال: بادر إلىٰ عمّك قبل أن يموت. فأقبل إليه، وأخذ رأسه ووضعه في حجره ونضحه بدموعه، ففتح عينيّة وقال: علي هذا؟ قال: «بلىٰ». قال: بنيّ علي أين أبوك؟ قال: «ياعمّ لا تسأل لقد أتيتك وحيداً».

وتوزّعت النساء كل واحدة ذهبت إلىٰ جهة، أما الحوراء أُخت الحسين فأقبلت إلىٰ قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذت بعضادة القبر وأخذت تنعىٰ لرسول الله صلى الله عليه وآله ولده.

﴿٣٣﴾

العلم والجهل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معنى ﴿تَبَارَكَ﴾

إن هذه المفردة تعني: تمّت ودامت بركاته، فكلّ شيء ينتهي إلىٰ الله عزّ وجلّ، والشاعر الجاهلي قد أُلهم هذه المعنىٰ حيث يقول:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل[٢]

فلا يوجد شيء باقٍ، بل مصيره إلىٰ الفناء إلّا الله تبارك وتعالى؛ فهو دائم بلا أمد[٣]، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام. لكن نمو بركاته كيف يكون لعباده؟ إذا رمى أحدنا حبّة فإنها تنبت سبع سنابل أو أكثر، وفي كلّ سنبلة مئة حبّة أو أكثر، فهذا العطاء ليس من طبيعة الحبّة، وإنّما من طبيعة المهندس الزارع، وهو الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[٤].

---

(١) الفرقان: ١. (٢) ديوان لبيد بن ربيعة: ١٣٢.

(٣) قال عليه السلام: «لا أمد لكونه، ولا غاية لبقائه». الكافي ١: ١٣٩ / ٥.

(٤) الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤.

والله تعالىٰ نمّىٰ العقول في عطائها، فأنتجت الهندسة الوراثيّة والصعود إلى الكواكب التي تبعد عنّا ملايين الكيلومترات، فهذا عطاء الباري جلّ وعلا. فنحن نعرف نمو بركاته ونستدلّ عليه بما أعطاه لعباده ولمخلوقاته.. فقد أعطى الأرض قدرة على احتضان البذور ونموها، وكذلك العقول وغيرها. فكلّ عطاء في الدنيا إلى النهاية إلّا ما عند الله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[1].

المبحث الثاني: معنى التنزيل

﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، التنزيل هنا ليس من جهة عالية إلىٰ جهة دانية، فإذا قلنا بذلك فإننا نحصر الله بجهة العلوّ، ومعناه أن الجهة السفلىٰ خالية منه، أي أنه تعالى يعتبر جسماً. مع أن بعض المسلمين لا يضرّه أن يكون الله جسماً؛ حيث يقول: نحن نأخذ بظاهر القرآن، والحال أن ظاهر القرآن إنما يؤخذ به ما دام لم يصطدم بقاعدة عقليّة؛ لأن الذي نزّل القرآن هو الذي خلق العقل وتعبّدنا به، فالقرآن الكريم مثلاً يقول: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2]، فما ذنب الأعمىٰ في الدنيا حتى يلاقي في الآخرة المصير نفسه؟ هذا إذا حملناها علىٰ الظاهر، أما علىٰ التأويل، فالمقصود أعمى القلب. أو ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[3]. ونحن نعيش في محيط عربي، ونسمع: فلان يده أعلى الأيدي، فالمقصود بذلك أنه أغنىٰ من غيره، فليس كلّ لفظ يؤخذ علىٰ ظاهره، فظاهر القرآن حجّة ما لم يصطدم بما يوجب صرف الظاهر إلىٰ معنىٰ آخر.

المبحث الثالث: وجه تسمية القرآن بالفرقان

لكن لماذا سمّي القرآن بالفرقان؟ لأن الفرقان هو جماع المقاييس، فالفرقان

---

(١) النحل: ٩٦. (٢) الإسراء: ٧٢.

(٣) الفتح: ١٠.

هو الذي يفرق، فيفرق بين العلم والجهل، وبين الكفر والإيمان، وبين الحقّ والباطل، أي أن الدنيا ليست قائمة علىٰ فوضىٰ وإنما علىٰ مقاييس حيث يوجد فيها المجرم والمستقيم، ولكلٍّ منهما معاملة ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

فالمجرم له حساب والمستقيم له حساب أيضاً، ومن ارتكب خطأً فعليه عقابه، ومن عمل صالحاً فله ثوابه وجزاؤه، فالقرآن ينبّهنا إلىٰ ذلك حتىٰ لا تختلط علينا المقاييس.

قصّة الرجل الشامي

ولنقرّب هذا المعنىٰ بهذه الحادثة: يقول رجل: دخلت للشام في يوم الجمعة، فصليت صلاة الجماعة. فلمّا فرغنا أخذ أحدهم يشتم علي بن أبي طالب شتماً ذريعاً، وكان بجانبي رجل فقلت: لماذا يُشتم هذا الرجل وحياته كلّها حسنات؟ فهذا أول المسلمين، وابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته، وأبو سبطيه، والمجاهد، وصاحب المنطق الرائع! أفيستحق أن يشتم؟ فبكىٰ بكاءً شديداً، فقلت له: لماذا تبكي؟ فقال: لو سلم أحد من الناس لسلم منهم أبو محمد. فقلت له: ومن هو أبو محمد؟ قال: الحجّاج.

هذا بلاء عجيب؛ لأنه لا مصيبة أعظم من الجهل، فهذا لا يفرّق بين علي بن أبي طالب والحجّاج، والآن في بعض البلاد الإسلاميّة توجد آثار لقتيبة ومسجد باسمه في حين أن علي بن أبي طالب ﷺ ليس له ذلك، فهذا يحزّ في النفوس. مع أنه ﷺ لا يُنقص ذلك منه شيئاً، لكن نحن بعملنا هذا نعطي العالم انطباعاً بأننا لا نملك مقاييس صحيحة، فلو كان عندنا مقاييس لفرّقنا. فالقرآن يفرّق بين الحقّ والباطل:

---

(١) القلم: ٣٥ ـ ٣٦.

﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[١].

فالحقّ له آثاره والباطل له آثاره، فصاحب الحقّ له حقّه ولا يبخس ذلك الحقّ، والباطل له جزاؤه ولا يبخس صاحبه جزاءه. فالمقياس دقيق.

وكذلك يفرقّ القرآن بين العلم والخرافة، فهو يعتمد المنهج العلمي، ويطرد الأفكار الخرافيّة، لأنه نزل في محيط قائم على الخرافة في الجزيرة العربيّة، وجعل مكانها العلم، فمن خرافاتهم أنهم كانوا يأتون مريضهم بقلادة من امرأة وحجل من امرأة أُخرىٰ ويهزونهما حتىٰ يبرأ، يقول شاعرهم:

فلو أن عندي حليتين وراقياً

إلىٰ آخر أبياته. فجاء الإسلام وخاطبهم الله علىٰ لسان نبيّه: «فتداووا»[٢]، فإن الله لم يخلق داء إلّا خلق له شفاء، فلا يوجد مرض ليس له دواء[٣]. فيجب ألّا نعتمد على الخرافة، بل على العلم الذي يقود المجتمع ويرتفع به عن الخرافة.

شهادة على التاريخ

وكان (جورج سالتون) أحد أقطاب العلم الغربيّين يقول: إذا درست التاريخ منذ سنة (٧٥٠)م إلىٰ سنة (١١٠٠)م لوجدت أن الإسلام هو الذي يقود العالم علميّاً؛ حيث ازدهرت علوم الهندسة والطبّ والفلك والرياضيّات.

فالإسلام رائد العلم، فقد خرّج أمثال ابن رشد والكندي والملّا صدرا ومجموعة من العلماء، وبعد ذلك لسبب أو آخر فإن الحوزات العلميّة الإسلاميّة تركت هذا الأمر واختصّت بالعقيدة والشريعة.

---

(١) الإسراء: ٨١.
(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٤٩ / ٥٣٤، مسند أحمد ٢: ١٥٦.
(٣) إلّا الفهاهة أعيت من يداويها

وأنا أذكر أننا كنّا في الحوزات العلميّة ندرس أغلب العلوم؛ فقد كـان الشـيخ المظفّر يشرح المسائل الرياضيّة بأبسط الطرق، وكنّا ندرس علوم الهيئة والفـلك وفي كافة أبعاد المعرفة ولم نـقتصر عـلى العـقيدة والشـريعة. ولكـن بـعد ذلك انحسرت. فهذا العالم الغربي يقول: إن الإسلام قـاد العـالم. ولكـن لسـبب مـن الأسباب كما قلنا تركت الحوزات هذا الأمر واقتصرت علىٰ العقيدة والفقه، مـمّا أدّىٰ إلىٰ حدوث هوّة كبيرة بينهم وبين العالم؛ بحيث إنهم كانوا يضطرّون لشـراء الأُبرة من الخارج، فرجعوا إلى القرآن لطلب المعرفة، ولكن رجعتهم كان فيها نوع تطرّف، فكانوا يجلبون أشياء ليست في القرآن فيربطونها بـالقرآن. وهـذا غـير صحيح، فمثلاً بعض النظريّات الحديثة نجد لهـا صـدىً عـند بـعض المـفسّرين المحدثين، فنجده مثلاً يقول: المقصود بالـ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ـ في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[1] ـ هو الإلكترون، والمقصود بـ﴿زَوْجَهَا﴾ ـ فـي قـوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2] ـ هو البروتون. فهل هذا يقبله أحد من العلماء؟

وهناك مفسّر آخر يقول: إن علم الفلك موجود في الصلاة حـيث يـقول: إنـه عندما ينحني ويركع ويقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3]، فإنه يهتدي إلىٰ علم الفلك. فهذا الكلام ليس فيه روح، ويفتح علينا عيون الناس وألسنة المستشرقين، فجمعيّة الهداية المسيحيّة في أوربا تقول عن القرآن الكريم: لا تهمّه الحقائق العلميّة، وإنما السجع فقط: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[4]، وكذلك سمّىٰ قابيل بهذا الاسم لكي

---

(١) النساء: ١.
(٢) النساء: ١.
(٣) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.
(٤) الضحىٰ: ١ ـ ٣.

يوازن اسم هابيل. فهؤلاء حاقدون وقد رأوا المسلمين يكتبون: إن الطائرات النفاثة موجودة في القرآن الكريم بدليل الآية الفلانيّة، فراحوا يستهزئون بالقرآن.

أقوال المستشرقين في نبيّنا الأكرم ﷺ

أمّا المستشرق الألماني «مرجليوث» فعندما يمرّ بالنبي ﷺ فإنه بدلاً من أن يتكلّم عنه بالمنهجيّة العلميّة نجده يعبّر عنه فيقول: إن محمداً كان يعيش علىٰ أموال السلب وهو جالس في بيته.

ويأتي «لامنس» ـ وهو مستشرق بلجيكي ـ فيقول: «تكاثفت اللذائذ عند محمد إلىٰ أن تضخّم جسمه وأصبح نؤوماً». أي يأكل وينام.

فهؤلاء فتحوا ألسنتهم علينا؛ لأنهم رأوا البعض منّا لا يقيم للكلمة وزناً، وليس عنده شعور بمسؤوليتها. وهذا بلاء، والحال أن القرآن كتاب علم: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1] فيجب ألّا نتكلّم إلّا عن الشيء الذي نعرفه. فالقرآن هو الفرقان؛ لأنه يفرق بين العالم والجاهل ويجعل لكلّ منهما معاملة، وتقدير العالم غير تقدير الجاهل، وكلمة العالم تؤخذ كأنما هي صادرة عن علم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾[2]، فإنهم يخافون الله، وعندما يتعرّفون علىٰ أسرار خلقه يزدادون شعوراً بعظمة الله. وقد سئل «آينشتاين» عن مسألة لاهوتيّة، فقال أنا: أشبه شيء بجرثومة صغيرة تقف علىٰ شعرة طويلة، وهي تحسّ كأنها صاعدة إلى السماوات. فأنا ذرّة تائهة في الكون، فهل تريدون رأيي في مسألة عظيمة؟ أمّا الجاهل فإنه دون تردّد يعطيك نظريّة ورأياً ليس لهما صلة بالموضوع.

فالقرآن يطرح لنا مقاييس سليمة، كما أنه فرقان.

---

(١) الإسراء: ٣٦.　　(٢) فاطر: ٢٨.

المبحث الرابع: معنى العبوديّة

ثم انتقلت الآية: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾[1] فالعبوديّة أمر عظيم حيث وصف النبيﷺ بها، وهي مرتبة عاليّة، فالعبوديّة لفظ يقع علىٰ ثلاثة معانٍ:

عبوديّة بالمعنى الحرفي لكلمة العبوديّة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾[2]، وهم الذين يعبدون الله علىٰ هدي منه تعالى، والعبد هنا له معنىٰ آخر، فالعبوديّة لله هي رباط من ارتبط بالله عزّ وجلّ، وعبادة الله تقود الإنسان إلىٰ معرفة الله عند عبادته عبادة واعية غير تقليديّة. ونحن إنما نقلّد أبوينا في الصلاة، ونسأل أحدنا: لماذا تحبّ علي بن أبي طالبؑ؟ فيقول: لا أدري فقد رأيت أهلي يحبّونه فأحببته. وهكذا غالباً ما تكون عباداتنا تقليديّة وليست صادرة عن وعي. فالله لا يمدح النبيّ على العبوديّة بمعنى الملك، فالناس كلّهم عبيد الله وملكه، وإنما العبوديّة هنا هي العبادة الواعيّة التي نشهد بها «أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله».

وعبوديّة، بمعنىٰ الرق، فالناس عندهم أن العبوديّة من الملك، وقد رأى الإسلام هذه الظاهرة وعالجها، حيث كان نظام الرقّ منتشراً في العالم، فالمزارع والمعامل والأشغال العامّة يديرها العبيد، حيث كانت الدنيا قائمة على الحروب فبالسبي يصبح الأسير عبداً مملوكاً، فعالج الإسلام هذا الأمر تدريجياً إلىٰ أن انتهى الرقّ وامتصّ وجوده.

وعبوديّة أدبيّة، وهو أدب التخاطب، فإن الله علّمنا أن لكلٍّ آداباً تختصّ به كالتحيّة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[3]، والبيت[4] وآداب

---

(١) الكهف: ١، الفرقان: ١، الحديد: ٩. (٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) النساء: ٨٦.

(٤) كقوله تعالى: ﴿وليسَ البِرُّ بِأنْ تَأتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ولكِنَّ البِرَّ مَنْ اتَّقَى وأتُوا البُيُوتَ مِن أبوابِها﴾ البقرة: ١٨٩، وقوله تعالى: ﴿ياأيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تَدخُلُوا بُيُوتاً غَيرَ بُيُوتِكُم

المجلس والطريق[1]، وكيف نمشي[2]. وهناك آداب المخاطبة، أي الكلام مع الشخص الآخر، فالعالم له لهجة خاصّة، والحاكم له لهجة خاصة، فـ«لكلّ مقام مقال». فكلّ واحد له مكانة خاصّة. وأحدنا حينما يحترم رجلاً جليلاً يقول له: أنا عبدك، فجاء هؤلاء وقالوا: إن هذا شرك، فلماذا تسمي ابنك «عبد الحسين»؟ مع أني عندما أُسميه بهذا الاسم فمن باب التعبّد، والعرب يستخدمون هذا المعنىٰ في حضارتهم. ونحن مسلمون موحّدون ولا نرىٰ أحداً يرزق ويعطي ويخلق غير الله تعالى. فإذن أنا أتأدّب إزاء الإمام علي أو الحسين﴿عليهما السلام﴾، فهذا من باب التأدّب والاحترام، فأقول له: أنا عبدك وخادمك. يقول الإمام الصادق﴿عليه السلام﴾: «كلّنا عبيد الله؛ خلقنا ورزقنا، ويميتنا ويحاسبنا». فيراد تصحيح كثير من الأفكار وأن نتخلص من السطحيّة.

فعبد الله هو النبي، ومنزلة العبوديّة منزلة عاليّة فقد عبده عن وحي ومعرفة وبإلهام منه تعالىٰ.

☚ حتّى تَستأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أهلِهَا﴾ النور: ٢٧، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ النور: ٢٩، وقوله تعالى: ﴿لَيسَ عَلَى الأعمَى حَرَجٌ... وَلاَ عَلَى أنفُسِكُمْ أنْ تَأكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أوْ بُيُوتِ إخوَانِكُمْ أوْ بُيُوتِ أخَوَاتِكُمْ أوْ بُيُوتِ أعمَامِكُمْ أوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أوْ بُيُوتِ أخوَالِكُمْ أوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أوْ صَدِيقِكُمْ لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَأكُلُوا جَمِيعاً أوْ أشْتَاتاً فَإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أنفُسِكُمْ﴾ النور: ٦١.

(١) كقول رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾: «إياكم والجلوس في الطرقات». الأمالي (المفيد): ٢٢٢، الأمالي (الطوسي): ٨، بحار الأنوار ٤٢: ٢٠٣، ٧٢: ٤٦٥، ٧٥: ٩٩، مسند أحمد ٣: ٣٦، الأدب المفرد: ٢٤٥، صحيح مسلم ٦: ١٦٥، المجموع شرح المهذب ١٥: ٢٢٦، سبل السلام ٤: ٢٠٥، نيل الأوطار ٦: ٥٩.

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأرْضِ مَرَحاً إنَّكَ لَنْ تَخرِقَ الأرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ الإسراء: ٣٧، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأرْضِ مَرَحاً إنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لقمان: ١٨.

المبحث الخامس: هل نحن مكلّفون بمخاطبة الجنّ

فحول قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾[١]، يقول المفسّرون: إنهم «الإنس والجنّ»، أي أنه ﷺ نبي مرسل للجنّ والإنس. لكن هل كلّفنا الله بالتعامل مع الجن أو مع الإنس فقط؟ فلو رجعنا إلىٰ كتب المعاملات في الفقه فهل نجد معاملة خاصّة مع الجنّ؟ أقول: إنهم من جنس آخر ولا يلزم التعامل معه: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٢]. فالله لم يكلّفنا بالتعامل مع الجنّ، فهؤلاء عالم آخر لا يمكن أن نتعامل معه، وقد وضع الله لنا أُفقاً خاصّاً.

نعم أمرنا الله بالاستعاذة من مردتهم ومن الأشرار منهم، الذين لهم تأثير عن طريق الإيحاء النفسي، فعندما تقرأ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾[٣]، فهو بالنسبة إلىٰ إبليس، وإبليس من الجنّ. فنعرف أن من الآداب أن يستعيذ بالله من الشيطان عندما يلتقي بأهله؛ حتىٰ يكون له ولد صالح. وهذه من آداب المضاجعة، لكن البعض سخّر الجنّ في أغراضهم، فلو امتنع أحد عن البيعة قالوا: إن هذا امتنع عن البيعة، فبال واقفاً فقتلته الجنّ كما حصل مع سعد:

يقولون سعد شكّت الجنّ قلبه	ألا ربّما صحّحت دينك بالغدرِ
فما ذنب سعد أنه بال قائماً	........................[٤]

---

(١) الفرقان: ١.　　(٢) الأعراف: ١٢، ص: ٧٦.

(٣) الإسراء: ٦٤.

(٤) البيتان لحسان بن ثابت الأنصاري. انظر شرح نهج البلاغة ١٠: ١١١. وتمام البيت الثاني:

ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر

ويروى معهما بيت ثالث هو:

وقَدْ صبرت عن لذّة العيش أنفس　　وما صبرت عن لذة النهي والأمرِ

وسعد هذا هو سعد بن عبادة الخزرجيّ الأنصاريّ. ارتحل إلى الشام في خلافة عمر، وقتل

وفي كتبنا أن الجنّ ناحت على الحسين﵇، فما يدرينا بذلك؟ وهؤلاء يدّعون أنهم سمعوا نساء الجن يندبن:

نساءُ الجنّ يبكينَ ... على السبطِ شجيّاتِ

ويلطمنَ خدوداً كالـ ... ـدنانيرِ نقيّاتِ[1]

وآخر يقول: إن الجنّ ناحت على عمر بن الخطّاب[2].

☚ بحوران من أرض الشام مضروباً بسهم، وزعموا أن أهل المدينة سمعوا الجن تقول:

قَدْ قتلنا سيّدَ الخزْ ... رجِ سعْدَ بنَ عبادَهْ

ورَميناهُ بسهْمَيـ ... ـنِ فلَمْ نُخْطِ فؤادَهْ

انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٤٦٣ / ٢٦٠.

وشكّك بعضهم في صحّة هذا القول، وقالوا: إن أعداءه من الناس رموه بسهم فقتلوه؛ لأنـه امتنع عن مبايعة المستخلَفين بعد رسول الله ﷺ، وأراد الأمر كلّه لنفسه. ثمّ تنازل عن ذلك وقال للمهاجرين: إذا كان ولابدّ، فمنا أمير ومنكم أمير.

ولما تمّ الأمر لأبي بكر، أراد منه البيعة، فأبىٰ وقال: لا والله لا أُبايع حتّىٰ أرميكم بكلّ سهم في كنانتي، وأُقاتلكم بمن تبعني من قومي وعشيرتي.

فقال بشير بن سعد الأنصاريّ والد النعمان بن بشير للخليفة: إنه قد أبـىٰ ولجّ، وإنـه ليس بمبايعكم أو يقتل، ولن يقتل حتّىٰ يقتل معه ولده وعشيرته، ولن يقتلوا حتّىٰ تقتل الخزرج، ولن تقتل الخزرجَ حتّىٰ تقتل الأوس، فلا تحرّكوه، فقد استقام لكم الأمر، وإنه ليس بضارّكم، إنما هو رجل وحده ما تُرك. فقبل الخليفة نصيحة بشير، وتركه.

فلمّا ولي عمر، لقيه ذات يوم في طريق من طرق المدينة، فقال له: إيه يا سعد. فقال له سعد: إيه يا عمر. فقال له عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه؟ فقال سعد: نعم أنا ذاك، وقد أفضىٰ هذا الأمر إليك، وكان والله، صاحبك أحبّ إلينا منك، وقد والله أصبحتُ كارهاً لجوارك. فـقال عمر: إن من كره جوار جاره تحوّل عنه.

فخرج إلى الشام بعد سنتين ونصف من خلافة عمر، فكمن له بعض أعدائه، فرماه بسهم فقتله سنة (١٥)هـ. انظر رائق الضمير ٣: ٧٢ ـ ٧٣.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢١٩، مثير الأحزان: ٨٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٤٤: ٤٨٠، ٤٨١، وقد نقل أبياتاً مقاربة لتلك المشار إليها في الهامش السابق.

وهكذا استغلّ بعضنا الجن سياسيّاً ودينيّاً واجتماعيّاً، فجاء الدجّالون فرأوه مرتعاً خصباً. وفي بعض البلاد من يصطاد في الماء العكر، فتجد هذا مريضاً، والأسباب الطبيعيّة تعجز عن تلبية حاجاته من العلاج، فيلجأ إلىٰ هذه الوسائل الجانبيّة وإلى العرّافين والدجّالين، فيمسك بعصا ويضربه حتىٰ يُخرج الجنَّ من رأسه، فكيف نُفهمهم؟

فيجب أن ينتبه الناس إلى أن هؤلاء ثُلة دجّالون مستغلّون وإلى أن عملهم يؤدّي إلىٰ تفكيك الأُسرة، فبدلاً من أن يُرشدوا الزوج إلىٰ تحسين خُلُقه مع زوجه، والمرأة إلى التقيّد بآداب الشرع فإنهم يستخدمون وسائل أُخرىٰ، فهؤلاء ليس عندهم ضمير ولا وازع، ولا يعرفون الله.

فالله أنزل القرآن للعالمين؛ للإنس والجنّ، لكن من غير أن تكون لنا علاقة بالجنّ. غير أن المشكلة في مراكز القرار والفتوىٰ؛ حيث يُفتىٰ بجواز زواج الإنسي من الجنّي.

﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، فالإنس لهم تكليف والجنّ لهم تكليف أيضاً، وتكاليفنا معروفة وواضحة. فالآية يستفاد منها أن النبيﷺ إنما بعث ليبلّغ رسالة الله إلى الناس. ونفهم من هذا أن الذي يحمل رسالة دينيّة عليه أن يبلّغها للناس عبر توجيههم وتنبيههم وإسداء النصح لهم، فالمجتمع بحاجة إلىٰ تربية دينيّة دون ترك فراغٍ، لأن الفراغ حتماً ستملؤه النماذج الفارغة.

المبحث السادس: معنى النذير

﴿نَذِيراً﴾، النذير غير البشير، فالبشير الذي يحمل البُشرى، والنذير الذي يخوّف، يقول المفسّرون: إن النذير يجعل في نفس السامع مناعة من الوقوع في الذنب، أي ينذر قبل الوقوع في الكارثة؛ لأنه إذا وقعت الكارثة فليس من السهل

التخلّص منها. وهذا الأُسلوب هو بعينه الذي اعتمده الحسين عليه السلام، يقول ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة): «إن معاوية زار المدينة وأرسل إلى الحسين بن علي وعبد الله ابن عباس، فسبق ابن عباس فلما دخل وسلم أقعده في الفراش عن يساره، فحادثه مليّاً».

إلى أن قال: «حتى أقبل الحسين بن علي، فلما رآه معاوية جمع له وسادة كانت على يمينه، فدخل الحسين وسلم، فأشار إليه، فأجلسه عن يمينه مكان الوسادة، فسأله معاوية عن حال بني أخيه الحسن وأسنانهم، فأخبره، ثم سكت. قال: ثم ابتدأ معاوية فقال من ضمن ما قال: وقد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه، وقد علم الله ما أُحاول به في أمر الرعيّة، من سدّ الخلل، ولمّ الصدع بولاية يزيد بما أيقظ العين، وأحمد الفعل، هذا معناي في يزيد، وفيكما فضل القرابة، وحظوة العلم، وكمال المروءة، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ما أعياني مثله عندكما وعند غيركما، مع علمه بالسنة وقراءة القرآن والحلم الذي يرجح بالصمّ الصلاب، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة، قدّم على الصدّيق والفاروق ومن دونهما من أكابر الصحابة، وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل من لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة في قرابة موصولة ولا سنة مذكورة....

فتيسّر ابن عبّاس للكلام، ونصب يده للمخاطبة، فأشار إليه الحسين وقال: «على رسلك، فأنا المراد، ونصيبي في التهمة أوفر».

فأمسك ابن عبّاس، فقام الحسين، فحمد الله وصلى على الرسول ﷺ، ثم قال: «أما بعد يامعاوية، فلن يؤدّي القائل وإن أطنب في صفة الرسول ﷺ من جميع جزءاً، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكّب عن استبلاغ النعت. وهيهات هيهات يامعاوية، فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت

الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حقّ من اسم حقّه بنصيب، حتى أخذ الشيطان حظّه الأوفر ونصيبه الأكمل. وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأُمّة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاصّ، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلّا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ، في يوم مشهود، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[1]. ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثا، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول (عليه الصلاة والسلام) ولادة وجئت لنا بها، أما حججتم به القائم عند موت الرسول، فأذعن للحجة بذلك، وردّه الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقلتم: كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك؟ فهناك فاعتبروا يا أُولي الأبصار»...»[2].

وهذا الذي حصل حيث إنه ولّاه وسلّطه علىٰ رقاب المسلمين، ففي واقعة الحرّة وحدها سقط عشرة آلاف قتيل، وفيهم سبعمئة من الصحابة، وقد انتهكت أعراض المسلمين، وسلّط المنجنيق على الكعبة[3]. وأراد من الناس أن يبايعوه

---

(١) ص: ٣. (٢) الإمامة والسياسة ١: ١٦٠ ـ ١٦٤.

(٣) وذلك في مرّتين:

الأُولى: عندما امتنع ابن الزبير من البيعة ليزيد، وتوجّه الجيش إليه بإمرة حصين بن نمير،

كعبيد قِن[1]، واضطرّهم إلى البيعة، وأباد عترة رسول الله ﷺ وجعل بيوته خالية. فما الذي يفعله أكثر من هذا حتىٰ لا نقول عنه: إنه مجرم[2]؟ ومع هذا كلّه يأتي أحد الكتّاب ويقول: أمير المؤمنين يزيد المفترىٰ عليه[3]، فهل يعيش في ذاكرتك التاريخ أم لا؟ ولماذا هذا الموقف مع هذه الفوادح؟ وقد رأينا كيف أن الحسين ﷺ قد أنذر معاوية إن تولّىٰ يزيد السلطة. ورحم الله السيد جعفراً الحلّي عندما يقول:

☚ فحصر ابن الزبير بمكّة ورموا الكعبة بالمنجنيق حتى احترقت.

الثانية: حين عاودها الحجّاج ووجّه الحجارة صوبها حتّى هدم جدرانها، وأوقد بالنار ثم وجّهها إليها فأحرق أستارها.

وقد مرّتا كاملتين بمصادرهما في الصفحة: ٧٠، من هذا المجلّد.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) قال المناوي ﷺ: «قال أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (الرد على المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد): أجاز العلماء الورعون لعنه. وفي فتاوى حافظ الدين الكردي الحنفي: لعن يزيد يجوز، لكن ينبغي ألّا يُفعل، وكذا الحجّاج. قال ابن الكمال. وحكي عن الإمام قوام الدين الصفّاري: ولا بأس بلعن يزيد. وسئل ابن الجوزي عن يزيد ومعاوية فقال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو أمن»، وعلمنا أن أباه دخلها فصار آمناً، والابن لم يدخلها. ثم قال المولى ابن الكمال: والحقّ أن لعن يزيد على اشتهار كفره وتواتر فظاعته وشرّه على ما عرف بتفاصيله جائز ... (فلعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه).

وقيل لابن الجوزي وهو على كرسي الوعظ: كيف يقال: يزيد قتل الحسين، وهو بدمشق والحسين بالعراق؟ فقال:

سهم أصاب وراميه بذي سلم ... من بالعراق لقد أبعدت مرماكا

وقد غلب على ابن العربي البغض من أهل البيت، حتى قال: قتله ـ يعني الحسين ﷺ ـ بسيف جدّه. وأخرج الحاكم في (المستدرك) عن ابن عباس ﷺ: أوحى الله تعالى إلى محمد ﷺ: «إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن ابنتك الحسين سبعين ألفاً وسبعين ألفاً». قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: على شرط مسلم». فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٣) أحد المعاصرين الذي ألّف كتاب (يزيد بن معاوية الخليفة المفترىٰ عليه)، كما دافع عن الحجاج في كتابه (الحجّاج بن يوسف الثقفيّ وجه حضاريّ في تاريخ الإسلام).

لم أدرِ اين رجال المسلمين مضوا ... وكيف كان يزيد بينهم ملكا

العاصر الخمرَ من لؤم بعنصره ... ومن خساسة طبع يعصر الودكا

وفي كلّ عصر نجد يزيد ونجد الحسين، ونرىٰ أن الذين استدعوا ثلاثة هم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين، قال الحسين: «**إنا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي والتنزيل بنا فتح الله وبنا ختم الله، ويزيد رجل فاسق شارب للخمر ومثلي لا يبايع مثله**»[1].

فخرج وغلمان الحسين عليه السلام قابضون علىٰ سيوفهم. ولو أن هؤلاء الرجال كانوا مع عقيلة آل أبي طالب، الحوراء زينب عليها السلام لمّا وقف أمامها عبيد الله بن زياد وقال: كيف رأيت صنع الله بأخيك والعتاة المردة من أهل بيته؟ وكان أن أجابته بقولها: «خيراً رأيت، ما رأيت إلّا جميلاً، هؤلاء قوم كُتب عليهم القتل فبرزوا إلىٰ مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّ وتخاصم، فانظر يومئذٍ لمن الفلج ثكلتك اُمّك يابن مرجانة».

هذه بنت علي بن أبي طالب.. هذه اللبوة الجريحة، فأخذ ابن زياد سوط حديد من أحد مجرمي شرطته وأخذ يتخطّىٰ رقاب الناس، فوقف له عمرو بن الحريث وقال له: قف، هذه عقيلة آل أبي طالب. قال: أما تراها تجرّأت عليَّ؟ قال: أيها الأمير لا تلُمها؛ إنها إمرأة فقدت أعزّتها وأحبّتها.

وبالفعل اختزنت اللوعة وجلست في جوف الليل في خربة الكوفة واختنقت بعبرتها وهي تتصوّر منظر ابن زياد وهو يريد أن يضربها.

---

(١) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٧، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

﴿٣٤﴾

و

التثاقل عن الجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَـهَنَّمَ لَـمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: ضرورة الاجتماع على مائدة الإسلام

ترتبط هذه الآية بالواقع السياسي للمجتمع الإسلامي، وسبب نزولها أنه لما وقعت غزوة تبوك سنة (٩)هـ بين المسلمين والروم، ندبَ النبيﷺ المسلمين إلى قتال الروم فتثاقلوا[2]؛ ولذلك قالت الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾**[3]. ويرى بعض كتّاب المسلمين أن هذا تعبير متحرّك، يعبر عن التثاقل والتباطؤ.

﴿أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ﴾ يعني الله تعالى بذلك مجموعة من المعاصرين للنبي، أي بعض الصحابة؛ ولذلك عبّر عنهم القرآن

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) مجمع البيان ٥: ٦٠.

(٣) التوبة: ٣٨.

بالمتثاقلين، ووصفهم بقوله: ﴿أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ﴾. ونحن بهذه المناسبة ندعو علماء الإسلام ألّا يتعصّبوا، فنحن على مائدة الإسلام، وهي تتّسع لكلّ المسلمين.. لكلّ أهل «لا إله إلّا الله»، فينبغي أن نأكل من مائدة الإسلام لا من مائدة التعصّب ولا من الآراء المتطرّفة، فنقول: إن الجماعة الذين عاصروا النبي ﷺ فيهم أُناس هم كحل عيوننا، ونعتبرهم أيمّتنا وقادتنا، ونقيّمهم كما قيّمهم القرآن، لكن قسماً آخر عبّر عنهم القرآن: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[1]، وثالثاً بقوله: ﴿أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾. فنحن لم نخرج عن منهج القرآن، فلا ترمِنا بأننا أُناس لا نحترم الصحابة. إننا نقيّم الصحابة كما قيّمهم القرآن، وحسب نعوت القرآن، وأما الشتم فلا، فهو ليس من شيم الرجال ولا من أخلاق ديننا، والذي يشتم بعيد عن الروح الإسلاميّة. وهذا ليس ذنبنا، وإنما ذنب الذين شتموا الإمام علياً عليه السلام ثمانين سنة على المنابر، وأوجدوا ردود فعل عند الطرف المقابل.

إبراهيم الجبهان يتجرّأ على الصادق عليه السلام

وقد رأيت إبراهيم الجبهان ـ وهو ممّا لا يساوي شيئاً ـ يعبّر عن الإمام الصادق عليه السلام بالأبقع، فهل توجد جرأة أكثر من هذا؟ وهم يستخدمون أنواعاً كثيرة من السبّ والشتم عند مرورهم بعدل الكتاب أهل البيت عليهم السلام، فيطلقون عليهم تعبيرات مختلفة، فهذه قطعاً تولّد ردود فعل عند الطرف الآخر. مع أنهم عليهم السلام كانوا غاية في النبل، ولنضرب لذلك مثلاً، ففي واقعة الجمل التي تركت الآلاف من القتلى، وكانت الدماء تسيل والأشلاء تتراقص، جاء الإمام علي عليه السلام ومرَّ على القتلى إلى أن وصل إلى طلحة ـ وكان قد قتله مروان بسهم ـ فقال: «من هذا؟».

---

(١) التوبة: ١٠٢.

قالوا: طلحة هذا. فأقعدوه فقال: «**أبا محمد، اعزز علي**»، أي ليس من السهل أن أراك قتيلاً، فهذا نبل أيمّتناﷺ.

فعلينا أن نكون مؤدّبين، وأن نتّبع منهج القرآن، وعلى الخصم أن يرىٰ منهجنا ويرى الفرق بيننا وبينهم، يقول السيد الخوئيﷺ في كتابه (معجم رجال الحديث): «عن معاذ بن مسلم النحوي عن أبي عبد اللهﷺ قال: قال لي: «**بلغني أنك تقعد في الجامع فتفتي الناس؟**». قال: قلت: نعم، وقد أردت أن أسألك عن ذلك قبل أن أخرج، إني أقعد في الجامع، فيجيء الرجل فيسألني عن الشيء، فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يقولون، ويجيء الرجل أعرفه بحبّكم أو بمودّتكم فأخبره بما جاء عنكم، ويجيء الرجل لا أعرفه ولا أدري من هو، فأقول: جاء عن فلان كذا، وجاء عن فلان كذا، فأدخل قولكم فيما بين ذلك. قال: فقال لي: «**اصنع كذا فإني أصنع كذا**»...»[1].

ونحن هذا منهجنا من عهد الإمام الصادقﷺ إلى الآن، فنحن في النجف ندرّس في الفقه رأي أبي حنيفة والإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ورأي الإمام جعفر بن محمد الصادقﷺ.

وقد أُلّفت كتب في هذا المجال منها (الأُصول العامة للفقه المقارن) وهو منهج يدرّس في كليّة الفقه[2]، لكن إذا دخلنا إلى مكتبات إخواننا أهل السنّة فلن نجد فيها كتاباً شيعيّاً وكأن لسان حاله: لماذا أنا آخذ برأي جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالبﷺ، ابن رسول اللهﷺ؟ ولم لا آخذ بآراء فقهاء المسلمين؟ فهل أنا قد أخذته من كوري مثلاً؟ لا بل أنا قد

---

(١) معجم رجال الحديث ١٩: ٢٠٨.

(٢) ومن قبلُ ألّف الشيخ كتاب (الخلاف)، والعلّامة كتاب (تذكرة الفقهاء)، وغيرهما من الكتب، وكلّها في الفقه المقارن.

أخذت بآراء كبار فقهاء المسلمين.

لكن وياللأسف صار العلم عند غير أهله، ففي أحد الأيّام جاء أبو أيّوب الأنصاري (رضوان الله عليه) ـ وهو الصحابي الذي نزل النبي ﷺ عنده عند الهجرة إلى المدينة، وهو الذي وقفت الناقة علىٰ باب بيته ـ لزيارة قبر النبي ﷺ، فأحسّ بيد تمسكه من الخلف وقائل يقول له: ماذا تصنع؟ فالتفت فإذا هو مروان، فقال: أنا أعرف ما أفعل، أنا لا أزور الأحجار وإنما أزور نبي الله ﷺ وأكلمه وأُقدّسه، ولقد سمعته يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن أبكوا عليه إذا وليه غير أهله»[1].

والآن ما إن يحفظ الرجل بضعة أحاديث حتىٰ يسارع إلىٰ العبث في الأُمّة الإسلاميّة، والتفرقة بين المسلمين. وهذا ليس سهلاً، فاللهَ اللهَ في أُمّة محمد ﷺ، فنحن ندعو أهل العلم والمعرفة وحملة الفكر الإسلامي إلىٰ عدم الالتفات إلىٰ هذه الأصوات المنكرة التي تفرّق بين المسلمين.

المبحث الثاني: أسباب تثاقل هؤلاء عن الخروج مع الرسول ﷺ

نرجع للموضوع، فلماذا اثّاقل هؤلاء، وقالوا للنبي ﷺ: ﴿ائْذَنْ لِي﴾ ولم يخرجوا؟ هناك أسباب أربعة:

الأسباب المناخيّة

وتتمثّل بشدّة الحرّ والبرد. ويلاحظ أن هناك حملة ضدّ أهل الكوفة لتثاقلهم عن القتال مع الإمام الحسين عليه السلام، في حين أن هؤلاء الذين تشير إليهم الآية هم أهل المدينة، ولم نعرف مؤرّخاً حمل عليهم: ذلك أن الكوفة بلدة مستهدفة.

---

(١) مسند أحمد ٥: ٤٢٢، المستدرك علىٰ الصحيحين ٤: ٥١٨، المعجم الكبير ٤: ١٥٨، المعجم الأوسط ٩: ١٤٤.

الأسباب الاقتصاديّة

فقد كانوا يقولون: إن وقت خروجنا لقتال الروم هو عينه وقت الثمار في المدينة، أي أن الموسم قادم وعندنا زراعة وحصاد ولا نستطيع ترك ذلك. وممّا يذكر في هذا المجال أن أحد الجبناء كان لا يقاتل مع المسلمين، لكنه جاء إلى النبيﷺ في يوم أُحد قال: أنا أُريد النزول للقتال. فقال له النبيﷺ: **«أمصرٌ على القتال؟»**. قال: بلىٰ. فقال النبيﷺ: **«أعطوه سيفاً وفرساً»**.

فنزل إلىٰ المعركة فأبلىٰ بلاء الأبطال حتىٰ قتل بعد أن قتل الكثير، فجاؤوا إلى النبيﷺ وقالوا: إن هذا الرجل أبلىٰ بلاءً حسناً. فقال لهمﷺ: **«إنه من أهل النار»**. فتعجبوا وقالوا له: إنه استشهد ودافع عن المسلمين. فقال النبيﷺ: **«إنه من أهل النار»**.

فقالوا: فلنره. فذهبوا إليه، يقول أحدهم: جلست عنده وهو ينازع فقلت له: هنيئاً لك الجنة. فقال: ماذا؟ إن حبّة حرمل خير من جنّتكم؟ فقلت له: علام قاتلت؟ قال: إنما قاتلنا علىٰ سعفاتنا وزرعنا حتىٰ لا يأخذه هؤلاء.

فهؤلاء يقولون للنبي: إن هذه أيّام حصاد وزرع.

الأسباب الأمنيّة

وهو الخوف من عسكر الروم، فإن الجندي قبل ذهابه للمعركة يعبّأ معنويّاً، وعلم النفس العسكري يقوم بهذا الدور الآن لزيادة معنويات الجندي بحيث يهوّن من أمر الجيش الذي يقابله. وهو أُسلوب استخدمه القرآن: **﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾**[1].

إذن التعبئة ضروريّة للجندي، وإذا عبّئ الجندي فإنه يخرج وهو يملك روحاً

---

(١) النساء: ١٠٤.

قتاليّة عالية. فهؤلاء كانوا منهزمين من الداخل حيث قالوا: لا طاقة لنا بجنود الروم.

الأسباب الشخصيّة

وهي من قبيل قولهم: إنا لا نستطيع أن نترك نساءنا وأطفالنا، فإذا بعدنا عنهم فإنهم يتعرّضون للضياع.

نرجع للمجالات السلبيّة، فالآن عندنا كثير من الناس يعامل زوجته بما هو خارج عن إطار الشرع بأن يسافر مثلاً لمدّة أكثر من الحدّ الشرعي، وهو أكثر من أربعة أشهر، وهذا لا يجوز إلّا بإذنها، أو كزوج يضارّها ـ أي لا يميل لها ـ مع أنه حينما تزوّجها فالواجب يقضي عليه أن يعاملها كإنسانة، فإن لم يحصل بينهما انسجام فهناك نبل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ﴾[1]. فهذه شريكة الرجل في الأُسرة، فلا يؤذِها، وإلّا ماذا سيقول لله غداً؟ وليُعلم أن أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هو من سوء الخلق مع العيال[2].

فالزوج قد ملكها بكلمة الله، فهي أسيرة عنده، وإذا طلقت أصبحت على الهامش، فيضيع عليها الكثير من فرص الحياة، فلا يستغلّ أحد ضعف المرأة وحاجتها، فهذا خلاف الخلق الإسلامي وخلاف الدين والمروءة، وإن الله لن يترك ذلك، ولن يدع هذا المضارّ يمرّ دون عقاب.

فهؤلاء يقولون: من الصعب علينا أن نترك نساءنا وأبناءنا.

ويقال لهم: مع أن ما تحسّونه وتشعرون بصعوبته واقع فعلاً لكن هناك أهمّ وهناك مهمّ، فترك المرأة هنا إنما هو في سبيل ما هو أهمّ فيجوز؛ حيث الدفاع عن المقدّسات أهمّ من المرأة. ومن باب الشاهد يروى أن عبد الملك بن مروان لمّا

---

(١) النساء: ١٩.

(٢) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

أراد أن يقاتل آل الزبير وقفت له زوجته عاتكة ـ ولعلّها كانت أجمل امرأة في زمانها ـ وقالت له: أمتعنا بنفسك. فجلس عندها، ثم تمثّل بهذين البيتين:

إذا ما أراد الغزوَ لم تثنِ عزمَهُ ... حَصانٌ عَليها نَظمُ دُرٍّ يَزينُها
نَهَتهُ فَلمَّا لم ترَ النَّهيَ عَاقَهُ ... بكت فَبَكى ممَّا شَجَاهَا قَرينُها[1]

فبكت عاتكة، لكنه ألوىٰ عنانه وخرج. فعيب أن تعوقني المرأة عن الدفاع عن أوطاني وعن مقدّساتي. فالنبيﷺ قد أخرجهم لنصرة الإسلام، وهم يقولون: لا نفارق نساءنا وأطفالنا.

المبحث الثالث: سبب نزول الآية

كان جدّ بن قيس رئيس الخزرج يقول للنبيﷺ: لا تبعثني للروم، لأن بنات الروم شقراوات، وأنا أتأثر بهنّ وأخشىٰ أن أقع في الفتنة، فأنا أُحبّ النساء وقد أقع في الفساد، فنزلت الآية: ﴿**ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي**﴾[2].

وعند الفقهاء لفتة هنا حيث يقولون: إن الإنسان إذا نزل في بلد ولم يستطع أن يتحكّم فيه بنفسه وأخلاقه ورغباته، فإنه لا يجوز له البقاء فيه، وعليه أن يُخرج منه عائلته: ﴿**قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ**﴾[3]. والآن يجمع الفقهاء علىٰ أن الإنسان إذا هاجر إلىٰ دار ويغلب عليه الفساد فيها فلا يسوغ له البقاء فيها؛ لأن الحفاظ علىٰ الدين أهمّ. تقول الآية: ﴿**ألا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾. ولأُقرّبْ لك المعنىٰ، فمثلاً لو أن رجلاً عنده مال لا ينفق منه علىٰ نفسه ولا علىٰ عياله؛ متعلّلاً بأنه إذا أنفق فإنه سيصبح فقيراً. وهو لا يعلم بأنه الآن فقير فعلاً؛ فهو

---

(١) البداية والنهاية ٩: ٢٧٩، تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٨٩، ٦٩: ٢٤٥ ـ ٢٤٦، والبيتان لكثير.
(٢) أسباب نزول الآيات (الواحدي): ١٦٧ ـ ١٦٨، الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٥٩.
(٣) التحريم: ٦.

لا يلبس لباساً فاخراً، ولا يأكل طعاماً جيّداً، ولا يوسّع علىٰ عياله. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب**»[1].

فجدّ بن قيس يقول: أخاف أن أقع في الفتنة، وهو فعلاً واقع في الفتنة؛ لأنه سقط في أحضان المرأة. نعم، الإنسان يحتاج للمضاجعة، لكن لا يصل إلىٰ حدّ الانهيار، فالقرآن يقول: ﴿**ألا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾، فهل تمنع المرأة المجاهد عن جهاده؟ المفروض أنه لا يكون ذلك، والواقع فيه واقع في الفتنة، وهي الرغبة الجنسيّة.

المبحث الرابع: معنى جهنّم وإحاطتها

ثم انتقلت الآية: ﴿**وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ**﴾، فهؤلاء جحدوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله، وجحدوا ما أمر به الله تعالى، وستحيط بهم جهنّم. وفي هذا ـ جهنّم وإحاطتها ـ عدّة آراء، منها:

الأول: أنها تحيطهم وتطوّقهم، فالذين تمرّدوا علىٰ أوامر الله والرسول تطوّقهم جهنّم يوم القيامة.

الثاني: أن جهنم المرادة هي جهنّم النفسيّة، أي أنهم يعيشون العذاب النفسي. فكأنما يقول القرآن: إن السعادة ليست بالحصاد والزراعة، أو بالمرأة التي عندكم، وإنما هي أمر نفسي، فقد تجد من يملك الكثير من نعم الدنيا وخيراتها لكنه لا يعيش سعيداً، ولا يشعر بلذّات الحياة، في حين أنك تجد إنساناً عارياً يعيش في كوخ مع امرأته، وهو متفجّر فرحاً وسعادة. فالسعادة ليس لها علاقة بالموجودات الخارجيّة، وإنّما هي أمر نفسي، فمثلما يعطي الله تعالى لإنسان ما جمال الوجه كذلك يعطيه جمال الروح:

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٢٩.

والذي نفسه بغير جمال لا يعدّ الحياة شيئاً جميلاً[1]

المبحث الخامس: موقف أصحاب الحسين عليه السلام وسماتهم

فالذي يمنعهم عن القتال حسب زعمهم إذن هو الأموال والنساء، وألّا يقعوا في الفتنة، ولنمرّ بأصحاب الحسين عليه السلام لنرىٰ على ضوء أسباب نزول الآية الكريمة ماالذي صنعوه من أجل النهضة وماالذي تركوه. وأُلفت النظر إلىٰ أن هناك بعض الصحابة وقسماً من التابعين في معسكر الإمام الحسين عليه السلام، فهم نمط مميّز؛ ذلك أن البعض ينضمّ لجماعة بداعي الغنيمة حتىٰ إذا انتصرت تلك الجماعة لحِقهُ قسم من الغنيمة. وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا خرج للغزو يلحقه بعض الأعراب ويقولون له: نحن لا نريد أن نُسْلم، لكننا نريد أن نخرج معك حتىٰ نحصل علىٰ غنيمة. فيردّ عليه النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «ارجع فلن أستعين بمشرك»[2].

أي إنني أُريد معي من يقاتل عن عقيدة.

السمة الأولىٰ: أن منهم صحابة وتابعين

فأصحاب الحسين عليه السلام شريحة مميّزة، فقسم منهم صحابة كحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وعابس بن شبيب وغيرهم، وقسم منهم تابعون كبرير وجماعة، لكن كيف كان موقفهم من حركة أبي الأحرار عليه السلام؟ عندما نرجع إلىٰ تراجمهم نرىٰ أنهم كانوا في غاية الغنىٰ، ومع ذلك لم يندفعوا لحساب الدنيا، وكانوا رؤوساء وأهل زراعة وتجارة وأموال، فما منعتهم أموالهم ولا مراكزهم،

---

(١) قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢٢، بحار الأنوار ١٠٦: ١٥٤.

(٢) مسند أحمد ٦: ١٤٩، الجامع الصحيح ٣: ٥٩ / ١٦٠١، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٦: ٤٩٢ / ١١٦٠٠.

فمثلاً عبد الله بن أبي المحلّ ابن عمّة أمّ البنين ـ أي قريب للعباس ـ قال لابن زياد: عندنا أولاد أختنا مع الحسين، فهل تمانع أن تمنيهم ـ أي ترغبهم بمال أو بمركز ـ حتىٰ نستطيع أن نجلبهم ونفردهم عن الحسين؟ فقال ابن زياد: لا مانع لدي، اكتب الكتاب وأنا أوقعه. فأخذ صحيفة كتب بها ما يريد فوقّعها ابن زياد وأرسلها للعباس، فتبسم العباس وقال: «لا حاجة لنا في أمانكم أمان الله خير من أمان ابن سمية». ثم أرسل إخوته لخالهم مع الرسول: «لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟»[1].

فهو﵇ يقول: إن هؤلاء لا يدركون مغزى خروجنا ولا الهدف منه. وهكذا نرى أن الجاه والأموال والمناصب عُرضت لهم لكنهم أبَوها. ومثلهم كان هاني بن عروة؛ حيث إن ابن زياد كان مستعداً لأن يعطيه ما يريد إن هو أسلمه مسلماً﵇، لكنه قال: «والله لو كانت رجلي علىٰ طفل من أطفال آل محمد ﷺ لما رفعتها حتىٰ تُقطع، فهل أُسلمك أمانتي؟». فهؤلاء كانوا علىٰ بصيرة من أمرهم.

السمة الثانية: أنهم من الرؤوساء

فهم لم يكونوا من غمار الناس وعامّتهم، وإنما هم من رؤوساء القوم وأشرافهم وسادة قبائلهم.

السمة الثالثة: أن غالبيّتهم من العلماء

فبالإضافة إلى المكانة الاجتماعيّة والثروة نلاحظ وجود شريحة كبيرة منهم من العلماء. ولنذكر في هذا المضمار محاورة بين عقيل بن أبي طالب ومعاوية. فمعاوية يسأل عقيلاً: أنت مررت بجيش علي بن أبي طالب، ومررت علىٰ جيشي، فهل تستطيع أن تعطيني ملامح كلا الجيشين؟ فالتفت إليه وقال: مررت

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣١٤، مقتل الحسين (أبو مخنف): ١٠٣.

بجيش أخي علي بن أبي طالب عليه السلام فما رأيت فيهم إلّا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً كأنه جيش رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن الرسول صلى الله عليه وآله ليس فيهم، ومررت بجيشك فما رأيت إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله ليلة العقبة حيث يوجد الطليق وغيره[1].

ولْنقرب المعنىٰ، فنقول: أحد قادة يزيد هو شَبَث بن ربعي، وكان مؤذّناً عند سجاح التي ادّعت النبوّة وكان يقول: أنا أول من حرَّ الحروريّة[2]. يعني أنه أول من وضع بذرة الخوارج. وقد بنىٰ مسجداً فرَحاً بقتل الحسين عليه السلام، وهو ممّن خرج لقتاله عليه السلام[3]. وهذا النموذج من الرجال تروي عنه الصحاح، حيث يروي عنه النسائي[4] وغيره[5]. فهناك مفارقات مؤلمة لا يمكن تجاوزها.

فمثل هذا الرجل كان في معسكر عبيد الله بن زياد، أمّا قادة معسكر

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥، بحار الأنوار ٤٢: ١١٣.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ١٤٤، معرفة الثقات (العجلي) ١: ٤٤٨ / ٧١٤، تهذيب الكمال ١٢: ٣٥٢ / ٢٦٨٦، ميزان الاعتدال ٢: ٢٦١ / ٣٦٠٤.

(٣) معرفة الثقات (العجلي) ١: ٤٤٨ / ٧١٤. (٤) انظر السنن الكبرىٰ ٦: ٢٠٤ / ١٠٦٥٢.

(٥) انظر: سنن أبي داود ٢: ٤٩٠ / ٥٠٦٤، كتاب الدعاء (الطبراني): ٩١، فيض القدير ٢: ٢٣١ ـ ٢٣٢، وكان من شيوخ أبي داود والنسائي، وهو أوّل من أعان علىٰ قتل عثمان كما نقل العجلي في معرفته ١: ٤٤٨ / ٧١٤.

ومن قبلُ روى البخاري عن الأشعث الذي كان يعدّ من شيوخه مع أنه كانت له انحرافات كبيرة وخطرة؛ حيث شارك في قتل إمام المتّقين عليه السلام. انظر: شرح نهج البلاغة ٦: ١١٧، الطبقات الكبرىٰ ٣: ٣٦، أُسد الغابة ٤: ٣٧، وانظر رواية البخاري عنه في صحيحه ٣: ١١٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٦، ٧: ٢٢٤، ٢٢٨، ٨: ٤٢.

كما روى عن عمران بن حطّان الذي يقول في عبد الرحمن بن ملجم:

ياضربة من تقيّ ما أراد بها	إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنـي لأذكره يوماً فأحسبه	أوفى البريّة عند الله ميزانا

انظر الحور العين: ٢٠١، وانظر رواية البخاري عنه في صحيحه ٧: ٤٥. وقد مرّ كلّ هذا في ج١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ من كتابنا هذا.

الحسين ﷺ، فكان منهم زهير بن القين وهو كلّه رجولة وعنفوان ومجد وكرم، وكان قد خرج من الكوفة حتىٰ لا يبتلي بقضيّة الحسين حيث إن عبيد الله بن زياد كان يراقبه، وقد عرف أنه سيبعثه لقتال الحسين إذا بقي، تقول زوجته دلهم بنت عمرو: كنّا نتغدىٰ، فدخل علينا رسول الحسين ﷺ فقال له: إن الحسين ﷺ يدعوك. فسقط ما في أيدينا ووجمنا، فالتفتّ إليه وقلت: مالي أراك واجماً؟ ابن رسول الله ﷺ يدعوك فلا تجيبه؟ فأقبل ودخل على رسول الإمام الحسين ﷺ واجتمع به دقائق قليلة. تقول زوجته: جاءنا بوجه غير الوجه الذي خرج به فقد جاء بوجه مشرق، وقال لي: أنتِ في حلّ من أمري، وهذا ابن عمّك وطفلك فاذهبوا. فقلت: ما الخبر؟ فقال: قد عزمت على اللحاق بأبي عبد الله ﷺ. فقلت: أيسرّك أن تذهب إلى الجنّة وأن تعيدني إلى النار؟ أنت تذهب للحسين، فلماذا لا تدعني أذهب لزينب وأهلها وعائلة الحسين؟ فقال: جزاك الله خيراً. واصطحبني معه.

فتأمل هذه الشريحة ومواقفها حينما خاطبها الحسين ﷺ بقوله: «**هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وتفرّقوا في سواده؛ فإن القوم إنما يطلبونني**». فلماذا تيتّمون أطفالكم وترملون عوائلكم، اذهبوا. فقال أحدهم: لماذا نرجع هل لنعيش بعدك، قبّح الله العيش بعدك أبا عبد الله[1].

ونرى الإمام الصادق ﷺ يخاطبهم: «**بأبي أنتم وأُمّي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم والله فوزاً عظيماً، فياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً**»[2]. فهذه مكانة كبيرة، وكذلك يخاطبهم: «**السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفِناء قبر**

---

(١) روضة الواعظين: ١٨٣، الإرشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١. (٢) مصباح المتهجّد: ٧٢٣.

الحسين وأناخت برحله»[1].

أبا عبد الله لئن سُفحت دموعك على الشباب من آل محمد وعلى الفتية من أنصارك، فهذه دموعنا لك ولأطفالك ولعيالك ولأنصارك نرسلها إليك عن بعدٍ، سيدي نحن لا ننسىٰ موقفك عندما مررت علىٰ مصارعهم وأنت تخاطبهم: «مالي أناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون، أولستم قد طلّقتم حلائلكم لأجلي، وأعرضتم عن زهرة دنياكم؟».

---

(١) بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ / ٦٢، ٩٨: ١٩٦ / ٣١، بشارة المصطفىٰ: ١٢٥.

﴿٣٥﴾

من مسائل الفقه الجنائي

عــثرَ الدهــرُ ويــرجــو أن يُــقالا
تــربت كــفّك مــن راجٍ مَــحالا
قــبلتْ عــذرك إذ نــازلتها
بــالذرا مــن هــاشم تــدعو نــزالا

أزلال العــفو تــرجـو وعـلى — آل حــوض الله حــرّمت الزلالا
فــتراجــع وتــنصّل نــدماً — وتــخادع واطـلب المكر احتيالا
أنــزوعاً بــعدما جــئت بــها — تــنزع الأكـباد وجـداً واشـتعالا
بــالمطاعين إذا شــبّت وغــىً — والمــطاعيم إذا هــبّت شِـمالا
والمــحامين عــلى أحسـابهم — جهدما تحمي المغاوير الحجالا[1]
فــهُمُ الأطــواد حـلماً وحـجا — وهـــم الآسـاد عـزماً وصـيالا
ولهــم كــلّ طــموح لا يـرى — خــدّ جــبار الوغـى إلا نـعالا
وقــفوا والمــوت فـي قـارعة — لو بِــها أُرســيَ ثَـهلان لزالا[2]
أفــتديهم وبــمن ذا أفــتدي — مَن لهلاك الورى كانوا الثمالا[3]

---

(١) يريد: ربّات الحجال، وهنّ النساء، والحجال: جمع حجلة، وهي بيت للعروس مثل القبة يزيّن بالثياب والأسرّة والستور، لسان العرب ١١: ١٤٤ ـ حجل.

(٢) ثهلان: جبل ضخم بالعالية ـ معجم البلدان ٢: ٨٨ ـ ثهل.

(٣) الثمال: أفضل العشيرة، أو هو المطعم في الشدّة. لسان العرب ١١: ٩٣ ـ ثمل، مجمع البحرين ١: ٣٢٣ ـ ثمل.

نسيت نفسيَ جسمي أو فلا ... ذكرتْ إلّا عن الدنيا ارتحالا

حين أنسى أوجهاً من هاشم ... ضمّها الترب هلالا فهلالا

أرخصوها للعوالي مهجاً ... قد شراها منهُمُ الله فغالى

أيها المدلج في ذيّافة ... بأمون قطّ لم تشكُ الكلالا[1]

اقتعدها وأقم من صدرها ... حيث وفد البيت يلقون الرحالا

وإذا أندية الحيّ بدت ... تشعر الهيبة حشداً واحتفالا

قف على البطحاء واهتف ببني ... شيبة الحمد وقل قوموا عجالى

ونواعٍ برزت من خدرها ... تُلزِمُ الايديَ أكباداً وجالى[2]

طحنت أبناء حرب هامكم ... برحىً حربٌ لها كانوا الثفالى[3]

كم لكم من صبية ما أبدلت ... ثم من حاضنة إلا رمالا[4]

* * *

نوايح لعد جسم حسين يومن[5] ... وما يدرن دربهن خطر يومن[6]

أجل من بعد يوم حسين يومن[7] ... مشوا بيهن لعند ابن الدعيّه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تَقتُلُوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحَقِّ ومَنْ قُتِلَ مَظلوماً فَقَد جَعلنا لِوَلِيِّهِ سُلطَانَاً فلا يُسرِف في القَتلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾[8].

---

(١) الأمون: الناقة الشديدة. لسان العرب ٤: ٥٥٥ ـ عذفر.

(٢) وجالى: خائفة فازعة. لسان العرب ١١: ٧٢٢ ـ وجل.

(٣) الثفال ـ بالكسر ـ: جلدة تبسط تحت رحى اليد ليقع عليها الدقيق، ويسمى الحجر الأسفل ثفالاً بها. يريد: أن حرباً دقّتهم دقّ الرحا للحبّ إذا كانت مثفلة. النهاية في غريب الحديث ١: ٢١٠ ـ ثفل، لسان العرب ١١: ٨٥ ـ ثفل. وقد مرّ.

(٤) ديوان السيّد حيدر الحلي ٢: ١٠٠. (٥) يؤشّرن.

(٦) أم آمن. (٧) يومان.

(٨) الإسراء: ٣٣.

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: النظم بين هذه الآية والتي قبلها

هذه الآية من الفقه الجنائي في الإسلام. والآية التي قبلها هي: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1]، ويعقّب أحد الفلاسفة من المفسّرين على الآيتين بالقول: الآية الأُولى حرمّت الزنا؛ لأنه يمنع دخول الإنسان للحياة، لأن المرأة التي تكون علاقتها غير شرعيّة تحرص على ألّا تحمل؛ إذ الحمل يشنوّه صورتها وخلقتها، ويبرزها بصورة مترهّلة. فكلما كثر عليها الحمل والولادة فقدت أناقتها. ومن ناحية أخرى فإن الجنين يكون رمزاً للعار بالنسبة لها، فهي تحرص على أن تتخلّص منه. فالزنا يمنع دخول الإنسان للحياة. أما القتل فقد حرّمته الآية الثانية؛ لأنه يخرج من الحياة من دخل إليها. وهذا هو السرّ في أن القتل يثبت بشاهدين، والزنى لا يثبت إلّا بأربعة.

ومن هنا فنحن نرى أن القياس لا يطّرد في كلّ شيء، وقد كانت إحدى استدلالات الإمام الصادقعليه السلام على أبي حنيفة أنه قال له: «القتل أعظم أم الزنا؟». ولا شك إن القتل أعظم؛ لأن فيه إذهابَ نفس، والزنا منع النطفة، فهو أسهل من القتل، فلماذا إذن يكون في القتل شاهدان وفي الزنا أربعة؟

المبحث الثاني: معنى النفس وعلاقة الروح بالبدن

تقول الآية الكريمة: ﴿ولا تَقتُلُوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ﴾ والتعبير هنا يلفت النظر، فما هو المقصود بالنفس؟ هل المقصود: هذا الكيان المتمثّل بالانسان، أم المقصود بها الروح وما يحرك الإنسان؟ إن ظاهر لفظة النفس يعني الروح، ولكن المقصود واقعاً ليس الروح؛ لأن النفس التي تعني الروح لا تُقتل. فالقتل ليس قتلاً للروح،

---

(١) الإسراء: ٣٢.

إنما هو عملية تفريق بين الروح والجسد، فالموت لا يعني الانعدام، وإنما هو عملية إرجاع الجسد إلى مكانه الأول، وإرجاع الروح إلى مكانها الأول.

وأحدث النظريّات حول هذا الموضوع تلتقي مع نظريّة الإسلام في أن الروح ليست داخل الجسم. وهناك نظريّات تعتبر الروح تطوراً من تطورات الجسد، فالقوة النامية تتحوّل إلى قوة عاقلة. في حين أن النظريّات العلميّة بدأت تميل إلى وجهة النظر القائلة: إن الروح تتّصل بالبدن اتّصال تدبير، أي أنها تحرّك البدن ولا تكون في داخله. وقد بدأنا الآن نألّف الكثير من المخترعات الحديثة التي تقرّب لنا الصورة. فهناك أجهزة صغيرة تتحكّم بتشغيل السيارة مثلاً عن بعد، والروح من هذا النوع.

علّة عدم جواز قتل النفس

فالقتل لا يكون للنفس، وإنما هو تخريب للجهاز الذي تحركه الروح ليس إلّا. فالموت لا يعدمنا، ولو كان يعدمنا لما سمعنا القرآن الكريم يقول: **﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾**[1]، وما وقفنا على المعصوم وقلنا له: **«أشهد أنك تسمع كلامي وتقدر على ردّ جوابي»**[2]، فكيف يسمع؟ المفروض أن الإنسان لا يسمع إلّا بتوسّط الأذن، ولكن الذي يبدو أن الروح لا تفتقر إلى الأعضاء إلّا في الدنيا فقط، فإن انفصلت لبست هذا الجسد الذي يسميه العلم الحديث بـ«الجسد الأثيري»، ويسميه اليونانيون سابقاً «هرقليا»، ويسميه فلاسفة المسلمين «الجسد المثالي»، فإنها تلبس هذا الجسد بعد الموت، أي في فترة البرزخ. ولدينا من الروايات ما لا يمكن تفسيره إلّا على هذا الأساس، ولا

---

(١) يس: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) رسائل المرتضى ١: ٤٠٧، المزار (المشهدي): ٢١١، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ١٣٤.

أُحبّ الدخول فيها؛ لأنها توجب بعض إشكالات.

إذن فالقرآن الكريم عندما يقول: ﴿ولا تَقتُلُوا النَّفسَ﴾ فهذا من باب التعبيرات المجازيّة، وإلّا فإن القتل لا يقع على الأنفس وإنما يقع على الجسد.

وقد نهى القرآن عن قتل النفس؛ لأن هذا ليس من حقّ الإنسان. يقول الحديث الشريف: «الآدمي بنيان الله، فمن هدم بنيان الله عاقبه الله»[1]. فالله هو الذي يمنّ على الإنسان بالحياة وهو وحده صاحب الحقّ في استردادها. وقد أرشدنا إلى أن الدم لا يحل إلّا في حالات معينة.

المبحث الثالث: معنى الحقّ

ثم قالت الآية: ﴿إلا بالحَقّ﴾، والحقّ يعرّفه الفلاسفة بأنه الواقع، بمعنى أن الحقّ يطلق أحياناً ويراد به الواقع المعاصر، فنقول: الإنسان حقّ سيصير يوماً إلى باطل، لكن الله حقّ لا يصير إلى باطل. فالإنسان الآن موجود، لكنه سيكون يوماً تراباً فيصير باطلاً، أما الموجود الذي لا يصير باطلاً فهو الله وحده، وكل الموجودات تنتهي إلى باطل. فالحقّ إذن هو الموجود، و﴿إلا بالحَقّ﴾ تعني إلّا بما يحدث من فعل يثبت في عالم الوجود.

الأفعال التي تثبت في عالم الوجود

وهذه الأفعال التي تثبت في عالم الوجود ثلاثة:

الأول: كفرٌ بعد إيمان

أخبرني يوماً أحد المشتغلين في المحاكم أن أحدهم جاءه فقال: أنا مسيحي، وأُريد أن أُطلّق امرأتي، وأُريد منك أن تطلّقها مني. فقلت له: وكيف تطلق وأنت

---

(١) جاء في الحديث أن النبي سليمان عليه السلام قال: «من هدم بنيان ربه، فهو ملعون بين يديه». قال ابن قتيبة: يعني من قتل النفس؛ لأن الجسم بنيان الله وتركيبه، فإذا أبطله فقد هدم بنيان ربّه. غريب الحديث ٢: ٣٧٠ / ٥٩. ومثله في النهاية في غريب الحديث ٥: ٢٥٢ ـ هدم.

مسيحي؟ قال: لا، أنا أسلمت لأنني أردت أن أتزوّج، والآن أريد أن أُطلّق وأعود لأكون مسيحياً. فكان يقول لي: إن هؤلاء القضاة لا يأخذون بروح القانون، وإنما يأخذون بالنصّ اللفظي، والحال أن الشريعة ينبغي أن يؤخذ بروحها لا بنصّها. فكان هذا الرجل يقول للمسيحي: إذا تكلّمت بهذا مرّة أُخرى فجزاؤك سيكون قطع الرقبة. فطأطأ رأسه وخرج، وقد رأى أن المسألة فيها موت.

فالكفر بعد الإيمان سبب موجب للقتل. على إشكال في أن المسيحي هل يعتبر كافراً أم لا، فهذا محل نقاش بين علماء المسلمين.

وقد يقول قائل: لماذا يكون الكفر بعد الإيمان موجباً للقتل؟ وما هذه الوحشيّة؟ ولماذا لا تعطون للناس حرّيّتهم في الاعتقاد؟ وقد نجد كافراً أكثر تهذيباً وأخلاقاً من المسلم، فقد تجده نظيفاً مستقيماً لا يؤذي ولا يبغي ولا يعتدي، فلمَ يُقتل بردّته؟

الجواب: أن من أول أهداف الإسلام التي ترتكز على أُسس عقلية أن الفرد يُنسى ويُتلاشى من أجل مصلحة المجتمع، ومصلحة المجتمع أن يعيش في القيم الحقّة، فإن سُلبت منه القيم تحوّل إلى غابة. وهذه القيم هي الصدق والوفاء والرحمة والعطف والعفّة والإنسانيّة والخلق العالي وغيرها، فإذا تجرّد الإنسان من هذه القيم فلن يبقى فيه سوى المعدة والجلد والغريزة، فلم يعد إنساناً، وإنما تحوّل إلى كيان حيواني. فالله لا يشدّد على الكافر لأنه سوف يهزّ عرش الله ويؤثّر فيه، بل لأن الكافر لا يؤمن بالقيم، فإن كان كذلك فإنه من الممكن أن يعرّض الإنسانيّة إلى الإبادة والخطر.

وقد يقال: إن هناك من المسلمين من يعرض الإنسانيّة إلى الخطر.

والجواب: أن هذا صحيح، ولكن من المفروض بالمسلم أن يكون لا كما نعرفه نحن من أنه ينطق بالشهادتين فقط، وإنما يشترط فيه أن يطبّق الإسلام الذي هو

عبارة عن مجموعة من المضامين والتعاليم التي يطبّقها الإنسان. أما الكافر فيُفترض فيه أنه متحلّل من القيم؛ لأن القيم لا تأتي إلا بعد الإيمان بالله، فمن لا تكن فكرة الإيمان بالله عنده ناضجة لا تكن عنده قيم، لأنها تأتي بعد الإيمان بالله، والرسالة السماوية تأتي بعد الإيمان بالله، والأحكام الشرعية تأتي بعد الإيمان بالله. فهذه كلّها متفرّعة عن الإيمان بالله[1]. والله تعالى إنما يشدّد على الكافر باعتبار أن الكافر ليس عنده إيمان بالقيم ليس إلّا. والمفروض أن الكفر يؤدّي إلى عدم وجود القيم، وبالتالي يتحوّل الإنسان إلى كارثة على المجتمع. ولذا فإن المسلم إذا ارتدّ إلى الكفر ورجع إليه أصبح إنساناً خطِراً لا إيمان له بالمثل؛ ولهذا يدفعه الإسلام الحنيف عنه.

الثاني: زنا بعد إحصان

والقاعدة فيه هنا لا تختلف عن سابقتها في الكفر بعد الإيمان، وهي تقديم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد، فالإنسان عندما مكّنه الله من الزواج، وهيأ له مجرىً نظيفاً وصحيحاً للنطفة ومجالاً مشروعاً طاهراً يمكن أن يشبع به غريزته، فعليه ألّا يسلط غريزته على أماكن غير مشروعة. وهذه الأماكن غير المشروعة يتسبب بها إما الحاجة أو الخيانة، فأحياناً قد تمارس المرأة الرذيلة بدافع الحاجة، وأحياناً بدافع الخيانة. وهذا الإنسان على كلتا الحالتين ينقل ضرره للمجتمع، إذ سوف يعرض بيتاً للانهيار، ويعرض امرأة لأن تُرمى بالدعارة، وهو يلوّث أيضاً خلقه، ويجعل نفسه عرضة لأن يوصف بالاستهانة بقيمة من القيم التي تتعلّق بأقدس الموجودات وهي الأُسرة؛ لأن الزنا إذا انتشر امتدّ للأُسرة، وإذا امتدّ

---

(١) فينبغي تحقيق أسلمة مفردات الحياة حتى نتمكّن من تحقيق هذه القيم؛ فإن ثبوت شيء لشيء فرعُ ثبوت المثبَت له، كما يقال.

للأُسرة خلق ألف مشكلة: فهو أولاً يُوجِد جوّاً من عدم الثقة بين الزوج وزوجته، وثانياً يجعل من الأب فريسة للشكّ بصحّة أُبوّته للولد الذي يعيش معه في البيت، وهل هو ابنه أم لا، أي أن الإنسانيّة تتحوّل إلى مآسٍ.

ثم كيف يمكن لنا أن نحصل على الجو والأُفق الطاهرين إذا كان حجر المرأة ملوّثاً؟ فهذه مصيبة. وبعض الناس قد ينساق في هذا الميدان مع الأسف بعنوان أو بآخر، فليس صعباً اليوم أن تكون العناوين متعدّدة، أو أن بعض الصحف تنشر الإعلانات المنمّقة بعنوان دعم الفن مثلاً، وعندما تبحث عن هذا الفن فلا تجده إلّا العري بعينه. فهل هذا هو الفن الذي يفترض فيه أن يرفع ذوق الإنسان، ويخلق عنده نوعاً من الشعور بالتسامي والكمال؟ فما فرق الإنسان هنا عن الحيوان إذا كان يمارس غريزته في الشارع دون مراعاة لأي قيمة، وينتهي به الأمر أن يسطو على أعراض ومقدّسات الناس والمجتمع؟ لهذا ولغيره من الاعتبارات عدّ الإسلام الزنا جريمة خطرة لا يمكن أن يُصبر عليها بحال من الأحوال.

أساليب التربية في الإسلام

وأُلفت النظر هنا إلى أن الإسلام لا يقتل الزاني المحصن فحسب، وإنما يربّي الفرد من الداخل، فهو يعتمد على أُسلوبين في التربية: أُسلوب التربية من الداخل، وأُسلوب فرض القانون من الخارج. فالانسان لا يستطيع أن يُعمل القانون الإسلامي من الخارج ما لم يُربّى الفرد من الداخل. والإسلام يسير مع الإنسان حتّى من قبل ولادته، فيختار له الحِجر الطاهر: «إياكم وخضراء الدمن»[1]

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٣ / ١٦٠٨، وسائل الشيعة ٢٠: ٣٥ / ٢٤٩٦٣، كنز العمال ١٦: ٣٠٠ / ٤٤٥٨٧.

و«تخيّروا لنطفكم»[1]، ثم يحيط الولد بجوّ من التربية والنظافة في أجواء إسلاميّة طاهرة. ونحن ببالغ الأسف ليس عندنا أجواء إسلاميّة، فلا نخدع أنفسنا؛ فالطفل يفتح عينيه على أجوائنا أولاً وهو يرى الصور العارية الخليعة في جهاز الإعلام كالتلفاز مثلاً أو في الشارع والمحلّات العامة والملصقات الدعائيّة، ويسمع النبرة العارية والكلمة العارية والتصرّف العاري. وينتهي الأمر إلى أن هذا الطفل يعيش في بؤرة ومستنقع منِ الجنس، وتصبح مشاعره وليس من السهل السيطرة عليها، مع وجود ما ييسّر ذلك.

فالجوّ الإسلامي التربوي غير موجود، مع أن هناك الآن أجواء تربويّة قد يراد منها إيصال الإسلام للنفوس، لكنها يجب أن يعاد النظر فيها، فتغذية الطفل بالإسلام لا تكون بأن يتلى عليه بضع آيات من القرآن أو بضعة أحاديث ليحفظها. فالمشكلة أن الذي يحفّظ هذه الآيات قد يكون خمّاراً أو معروفاً بالرذيلة، فكيف يكون هذا قدوة حسنة للصبي؟ ومن ناحية ثانية فكيف يفهم الطفل هذه الآيات أو الأحاديث إذا لم نحلّلها التحليل الكافي؟

إن ممارساتنا الآن في مؤسّساتنا الدينيّة قد يقوم بعضها على كثير من البهلوانية، فيحفظ الحافظ بضع كلمات لا يفهم هو معناها، فهي ممارسات تقوم على نمط من الكلمات التي لا يفهمها ولا يعقلها من يُلقيها ويُعلّمها نفسه. وقد تجد عندنا نقصاً يُشعرنا بالخجل، فأنا مثلاً أرى بعض القساوسة من النصارى يتكلّم بعدّة لغات، ويحفظ دائرة معارف كبيرة، وله سعة فكر لا توصف، فأشعر بالخجل عندما أرى أننا لا نحسن لغة واحدة ولا نطلّ على الفكر العالمي ولو من نافذة واحدة كي نتفاعل مع هذا الفكر.

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

والنبي‌ﷺ أوّل ما بُعث أرسل وراء زيد بن ثابت فقال له: «**تعلّم لغة يهود حتى تقدر على ردّهم**»[١]. ويقف الإمام أمير المؤمنين قبل (١٤٠٠) سنة فيقول: «**لا تقسروا أولادكم على تربيتكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم**»[٢]. فهو‌ﷺ يحاول أن يوجد الأجواء التي تساير التطوّر مهما أمكن.

فالإسلام لا يقطع رقبة مَن زنى بعد إحصان دون أن يهيّئ له المجتمع النظيف، ويمنع عنه الوسائل المحفّزة؛ لأن الإنسان مجموعة من الغرائز. فالشابّ الذي يكون في عنفوان غريزته ويرى أمامه الجسد العاري وغيره من وسائل الإغراء، قد لا يستطيع أن يتحكّم بنفسه ومشاعره. لكننا نستطيع أن نجعله يتحكّم بذلك إذا سقيناه الكلمة الطيّبة الهادفة والخلق الطيّب والإيمان. وإذا كان حجر الأُمّ نظيفاً أيضاً فإنه سيلعب دوره في تربيته.

الثالث: القصاص، وحوله تساؤلان

ويورد البعض في هذا القسم عدّة تساؤلات منها هذان التساؤلان:

التساؤل الأوّل: تكرار القتل

أي لو قارف أحد جريمة القتل، فلمَ نقتله فنكرّر القتل بذلك؟ جيء لقيس بن عاصم المنقري سيد بني تميم بابنه مقتولاً، وجيء بالقاتل وكان أحد أبناء العشيرة، فلمّا أوقفوه أمامه قال: إن كان هذا القاتل أساء مرّة فقد أسأتم مرّتين؛ فأنتم أتيتم إليّ به وأنا في هذه الحالة، فربما قتلته وكرّرت الخطأ مرّتين، خذوه عني. فأطلق سراحه ثم التفت إلى أحد أبنائه وهو أخو المقتول فقال له: خذ لأُمّك ألفاً من الإبل لعلّها تتسلّى عن ولدها. ثم أنشأ يقول:

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٣٣، وقد اقتصر على ذكر أنه تعلّمها.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦٧ / الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين‌ﷺ.

أقـولُ للـنفسِ تأسـاءً وتسليةً   إحدى يديَّ أصـابتني ولم تُـرِدِ
كـلاهما خَـلَفٌ عـن فـقدِ صـاحبِه   هذا أخي حينَ أدعوهُ وذا ولدي(١)

أهداف العقوبة في الإسلام

فلماذا نقتل القاتل في الإسلام؟

الجواب: أن القرآن لا يحتّم قتله، وإنما يريد أن يحقّق العدل، فللعقوبة في الإسلام ثلاثة أهداف:

الأول: أنها تطفئ غضب المعتدى عليه

فعندما يأخذ القانون حقّ المعتدى عليه فوراً فإن غضبه يطفَأ ولا تبقى عنده نزعة الأخذ بالثأر. فهذه النزعة تتوالد لحظة بعد لحظة مثل الضوء.

الثاني: تحقيق العدل

فالله تعالىٰ يريد منا أن نعيش في مجتمع عادل، فهذا القاتل حرم شخصاً من الحياة؛ فلا بد أن يُحرم هو من الحياة أيضاً.

الثالث: حماية المجتمع

فعندما يُقتل القاتل فإن في ذلك تحقيقاً لحماية المجتمع؛ لأن المجتمع إذا رأى القاتل يتمشّىٰ يصبح مرتعداً خائفاً؛ إذ أنه يرى أن الحماية من القتل معدومة.

وقد أعطى القرآن حقّ القتل لولي الدم بأن يختار القتل إذا عرف أنه يحقّق أهداف العقوبة، أو أن يعفو إذا رأى أن العفو يحقّق أهدافاً أُخرى تصبّ في صالح أيضاً، وهو الأولى. فوليّ الدم مخيّر بين العفو والقصاص.

التساؤل الثاني: تحقّق التماثل وعدمه

هل إن القتل يحقّق التماثل أو لا؟ وقبل الإجابة عن هذا التساؤل أذكر تقريراً

---

(١) خزانة الأدب ٢: ٣١١ ـ ٣١٢، ديوان الحماسة ١: ٦٦.

نشره «آرثر جينسون» في مؤتمر عقد في أميركا سنة (١٩٧٠) سمي بمؤتمر «هيئة المخ»، أراد كاتب التقرير فيه أن يبرهن على أن القابليات النفسيّة والعقليّة للملوّنين تنحطّ كثيراً عن قابليّات البيض. كما قسّم البيض إلى ثلاث درجات: دنيا ووسطى وعليا. وقال: إن قابليّات الدرجة الدنيا غير قابليّات الدرجة الوسطى والعباقرة. وهذا الفكر ليس جديداً وإنما له جذوره القديمة التي لا أُريد أن أستعرضها الآن.

ومن بعد هذا جاء البروفسور «أمير»، ويبدو أنه يهودي إيراني، فأعطى نظريّة فرّعها على نظرية «جينسون»، فقال: إن مدارك أبناء الشرق الأوسط (يعني الإيرانيين والعرب) تنحطّ عن المخّ الإسرائيلي، فالمخّ الإسرائيلي ـ حسب زعمه ـ متحرّك أكثر، وفيه قابليات أكبر.

وقد يقول قائل: أليست هذه النظرية صحيحة، وأن هناك تفاوتاً؟ فأقول: إن التفاوت موجود، لكنه ليس تفاوتاً بحجم الشعوب، وإنما هو تفاوت بحسب الأفراد. فأنت تجد في الشرق العبقري والمتوسط والبليد، كما تجد ذلك في الغرب أيضاً. أما على مستوى شعوب فلا يمكن أن يكون ولا يقول به قائل. وقد برّر هتلر ذلك في يوم من الأيّام، وبرّرته نظريّات سابقة على هتلر، لكن العلم أثبت خلاف ذلك. فالتفاوت يكون في الأفراد، والذكاء يتقرّر بالوراثة، وهناك ترابط وثيق بين عامل الذكاء وعامل الوراثة.

ونعود إلى سؤالنا الذي طرحناه فنقول: إن فاتكاً الأسدي قتل المتنبّي في بلدة النعمانية[1]، وهو بفعله هذا قتل دنيا بكاملها، وقتل ثروة عقلية ضخمة وعملاقاً من عمالقة الدنيا، وعبد الرحمن بن ملجم (لع) قتل علياً﵇، وهو بهذا قتل أُمّة وجيلاً

---

(١) البداية والنهاية ١١: ٢٩٣.

بكامله، فهل تكون النتيجة أن نقتصّ من القاتل فيكون في مقابل هذا المقتول العظيم؟ وهل إن عبد الرحمن (لع) في الميزان في مقابل علي بن أبي طالب؟ الجواب على ذلك: إن الدين لم يلحظ هذه الظاهرة أبداً، وقد مرّ أبو العلاء بهذه الظاهرة في نوبة من نوبات الشك التي اعترته، فكان يقول:

يدٌ بخمسِ مئينٍ عسجدٍ فُديتْ ... ما بالُها قُطعت في ربع دينارِ

تَحَكُّمٌ ما لنا إلّا السكوتُ له ... وأنْ نعوذَ بمولانا من النارِ[١]

فهو يقول: إن هذه الكفّ مرّة تفدىٰ بخمسمئة دينار إذا قطعت، ومرة تقطع من أجل ربع دينار إذا سرقتة، فهل إن الخمسمئة دينار هي قيمة اليد؟ إن هذا تحكّم على حد قول أبي العلاء، فأجابه السيد المرتضى:

عــزُّ الامــانةِ أغـلاها وأرخـصَها ... ذُلُّ الخيانةِ فافهَم حكمةَ الباري[٢]

وهذه العقوبة من الدية والقصاص ليست قيمة لليد أو المقتول، وإنما هي وسيلة ضبط للحياة، فالألف دينار ليست قيمة للمتنبّي عندما يعطيها فاتكٌ مثلاً، ولا يكون عبد الرحمن بن ملجم في مقابل علي، كلّ ما في الأمر أن هذه وسيلة ضبط. ولذا قال أمير المؤمنين ﷺ: **«انظروا إن أنا متّ من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة»[٣]**.

---

(١) فقه القرآن ٢: ٣٨٤، لسان الميزان ١: ٢٠٥.

(٢) نسب هذا الرد للسيد المرتضى صاحبُ روضات الجنات: ٧٣، كما في هامش بحار الأنوار ١٠٤: ٩ ـ ١٠، وأضاف إليها بيتاً آخر هو:

عزّ الأمـانة أغـلاها وأرخـصها ... ذلّ الأمانة فافهم حكمة الباري

وفي الهامش نفسه: وأجابه رجل في المجلس:

هـناك مـظلومة غـالي بـقيتها ... وهاهنا ظلمت هانت علىٰ الباري

غير أن المصادر تكاد تجمع علىٰ أن صاحب هذا البيت هو القاضي عبد الوهاب المالكي. انظر: الإقناع في حل ألفاظ أبي الشجاع ٢: ١٩٠، مغني المحتاج ٤: ١٥٨، فتح الباري ١٢: ٨٦.

(٣) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

وهناك حادثة حصلت في زمن سليمان بن عبد الملك، فقد كان عمر بن عبد العزيز جالساً في مجلس سليمان ودخل شخص من أقرباء إحدى نساء الخلفاء وكان يطلب ميراثاً، فقال لسليمان: أريد ميراثي. قال سليمان: ما أظن النساء يرثن بالعقار شيئاً. فالتفت إليه عمر بن عبد العزيز قائلاً: إذن أين كتاب الله؟ فنادى سليمان: عليّ بالسجل الذي كتبه عبد الملك، يعني (القانون). فقال عمر بن عبد العزيز: أقول لك: كتاب الله وتقول: (القانون)؟ من هو عبد الملك حتى يكون في مقابل كتاب الله؟

وفيما هم في هذه المسألة إذ أُدخل عليهم أحد الخوارج، فرفع سليمان رأسه لهذا الخارجي وقال له: ما تقول في الحجّاج؟ قال: إنه شرارة من ناركم، وخطيئة من خطاياكم، لعنكم الله ولعن الحجّاج. فالتفت سليمان إلى عمر بن عبد العزيز قائلاً: ما رأيك فيه؟ قال: هذا رجل مثلك، إن شئت أن تتنازل إلى مستواه فاشتمه كما شتمك. وإلا فترفّع عنه واعفُ عنه.

فكلّ العقوبات تستهدف ضبط المجتمع، لا أنها تكون قيمة واقعية، فالجاهل عندما يعتدي على العالم لا يكون هو في مقابل العالم عند العقوبة، فهذا الإشكال لا يرد هنا على العقوبة.

المبحث الرابع: معنى الإسراف في القَتلِ

ثم قالت الآية: ﴿**ومَنْ قُتِلَ مَظلوماً فَقَد جَعلنا لِوَلِيِّهِ سُلطَاناً فلا يُسرِف في القَتلِ**﴾، فالفقه الإسلامي يعطي القاتل السلطة في أمرين: فهو مخيّر بين القصاص، أو العفو والدية. أما قوله ﴿**فلا يُسرِف في القَتلِ**﴾ ففيه ثلاثة آراء:

١ ـ أنه تلك النزعة التي لا زالت إلى الآن عند بعض الشعوب من أن القاتل إذا قتل، أصبح أي فرد من عشيرته مطلوباً للقتل، فبدلاً من أن يُقتل القاتل نفسه يقتل

أحد أعيان العشيرة. فما ذنب هذا المقتول؟ إنها الجاهليّة التي لا زالت تعيش في المجتمعات الإسلاميّة إلى الآن. فهذا إسراف في القتل، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

٢ ـ أن معنى الإسراف أن يتعدى حدّ الواحد، فالمقتول واحد يُقتل به القاتل فقط، أما بعضهم فلا يقبل بذلك. جيء لأحد رؤساء بني تميم بابنه مقتولاً، ثم جاء أهل القاتل للمصالحة على الدية، فقال: لا أرضى إلا بواحدة من ثلاث. قالوا: ما هي؟ قال: أن تُنزلوا لي نجوم السماء. قالوا: لا نستطيع. قال: أو تعيدوا لي ولدي حيّاً. قالوا: وهذه لا نقدر عليها. قال: إذن أبيدكم بأجمعكم. وهذا لون من الجاهليّة الرعناء، ونوع من الشعور بالطبقيّة غير المقبولة بحال من الأحوال.

٣ ـ أن يتجاوز حدّ القتل بأن يتلذّذ بالتشفّي وتقطيع الأعضاء والتمثيل، وقد روي أنه لمّا وقع أبو جهل في المعركة جاء عبد الله بن مسعود (رضوان الله عليه)، وهو أحد القراء السبعة، فجلس على صدره، فقال: من؟ قال: أنا عبد الله بن مسعود. فقال: لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يا رويعي الغنم. أي أنه يريد أن يقول له: أنا رئيس مخزوم وأنت تجلس على صدري؟ فقال ابن مسعود: اسكت يا لكع، إن الله قد أعزّني بالإسلام وأذلّك بالشرك. فقال أبو جهل: ما صنعت قريش؟ قال: هُزمت. قال: ومحمّد؟ قال: غلب وانتصر. قال أبو جهل: عجل إذن بقطع رأسي وارفعه على رمح طويل وطف به في العسكر حتى تعلم قريش أني متّ على دين الصنم.

فقطع رأسه، ثم أراد أن يعمل ما يتصوّر أنه يسرّ به النبيﷺ، فخرق أذنه ووضع فيها خيطاً وجاء برأسه يجرّه على الأرض، فحانت من النبيﷺ التفاتة فقال له:

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

«مه، مه». أي اكفف. فارتعد ابن مسعود، ثم قال ﷺ له: **«أنُزعت الرحمة من قلبك؟»**. أهذه بطولة على الأموات؟ إننا قتلناه ودفعناه عن أنفسنا وكفى، فلا تصل إلى هذا المستوى. **«والله لولا أني أعلم أنك فعلت ذلك بجهل لأوجعت ظهرك»**.

فتعالَ يا رسول الله، يا من أسّست النبل، تعالَ وانظر الأعضاء والأنامل الكريمة العزيزة، والأجساد التي كنت ترعاها وتربّيها على صدرك، وتمسكها بيدك، وذاك الصبي الذي كان يملأ نفسك غبطة، فكنت تحمله على صدرك وتقول: **«حزقة حزقة، ترقّ، عين بقة»**[1]. وتتّكئ بشفاهك على شفاهه، وليتك ترى تلك الأعضاء بعد القتل! يقول الإمام الصادق‏: **«قتل جدّي الحسين‏ قتلة لم يُقتل بها أحد: رضخاً بالحجارة، وضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح»**[2]. وانتهى الأمر إلى أن قطعوا حتى أنملته»:

لهفي على تلك الأنامل قُطّعت ... ولَو انها اتّصلت لكانت أبحرا[3]

يقول بنو أسد: لما رجع الإمام السجاد إلى دفن أبيه الحسين‏، نظرنا إليه وقد خرج من القبر منحنياً كهيئة الراكع يبحث عن شيء في الأرض، ثم انحنى على شيء التقطه من التراب، فحققنا النظر فإذا به إصبع الحسين‏ المقطوع:

دوّر على مگطوع صبعه ... بالله عليك الچفّه رجعه

اعداي ما خلوني اودّعه

أما البضعة الثانية التي التقطها من التراب فهو الطفل الرضيع، فقد أقبل به وواراه

---

(١) كفاية الأثر: ٨٢، معرفة علوم الحديث (الحاكم): ٨٩، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٣١، كنز العمال ١٢: ٦٤٩ ـ ٦٥٠ / ٣٧٦٤٣.

(٢) قريب منه في تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٢١.

(٣) ديوان ابن معتوق: ٢١٣.

إلى جانب أبيه الحسين عليه السلام. وكان الحسين عليه السلام قد وضع له مكاناً للـدفن لتـحديد المأساة، يقول الإمام عليه السلام: «**قتيل يرقُّ له من يرى ولده عند رجليه**». لذلك يـقول السيد حيدر لصاحب الأمر:

مـــاذا يُـــهيجُك إن صـــبر ... تَ لوقـــعةِ الطَّـفِّ الفَـظيعة

أتُـــرى تـــجيءُ فـــجيعةٌ ... بأمَـضَّ مـن تـلكَ الفـجيعة[1]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي: ٨٨، وأمضّ: آلم، يقال: أمضّني الجرح، إذا آلمني وأوجـعني. لسان العرب ١٣: ١٢٨ ـ مضض..

﴿٣٦﴾

أضواء على خطبة الزهراء عليها السلام

أفبنت النبي لم تدرِ إذ كا	نَ نبي الهدى بذلك فاها
بضعةٌ من محمدٍ خالفت ما	قال حاشا مولاتنا حاشاها
سمعته يقولُ ذاك فجاءت	تطلب الإرث ظلة وسَفاها
هي كانت لله أتقى وكانت	أفضلَ الخلق عِفّةً ونَزاها[1]

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: حول مسألة فدك

أوّل ما يلفت النظر في خطبة الزهراء عليها السلام القدرة الأدائيّة والفقهيّة في حوارها مع الخليفة الأوّل، فالزهراء عليها السلام كانت في سنّ مبكرة، وفي عمر الورد؛ إذ كانت في عامها الثامن عشر. وهذا العمر مع هذا العطاء الذي لم يجُد العلم بمثله إلى الآن شيء يبعث على الإعجاب؛ فالأبعاد التي تناولتها (سلام الله عليها) في خطبتها تنطوي على جانبين: الأحكام والعقائد؛ فجانب العقائد هو الجانب الذي تعرّضت له في كلامها على التوحيد، وجانب الأحكام هو الجانب الذي تعرّضت له في كلامها على الميراث. ونحن الآن في القرن الرابع عشر وما جدّ شيء على ما جاءت عليها السلام به في هذين الجانبين. وأحدث ما توصّل إليه علم الأُصول كانت

---

(١) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

الزهراء عليها السلام قد تطرّقت إليه في الصدر الأول.

ولنلاحظ أولاً أساس الدعوى التي جاءت بها الزهراء عليها السلام، فهي أول ما بدأت بدعوى النِّحلة، والنحلة في اللغة: العطية، ومعنى أنحله: أعطاه[١]. فالواهب يقول: أنحلتك، والموهوب له يقول: قبلت.

فالزهراء عليها السلام رفعت دعوىٰ مفادها أن فدكاً كانت نِحلة دفعها إليها النبي صلى الله عليه وآله. ولدينا هنا أمور، منها أن النبي صلى الله عليه وآله هل دفع ما يملك أم لا؟ فهذه القطعة من أي أقسام الأراضي هي؟ لأن للاراضي أقساماً، كما أن لكل قسم منها حكماً، فلدينا مثلاً الأنفال والغنائم وما يُحيا في حال الفتح. فمن أي الأقسام كانت فدك؟ لقد كانت فدك ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، أي أنها ممّا لم يؤخذ بقتال ولا بحرب، وإنما أُخذت بصلح[٢]، فقد تنازل أهلها عنها للنبي صلى الله عليه وآله بعد حادثة معيّنة وصالحوه مصالحة، وقالوا له: نصالحك على نصف أموالنا مقابل أن تقرّنا على هذه الأرض[٣].

فهذه الأرض تدخل تحت قسم الأنفال، والقرآن الكريم يقول: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾**[٤]. فالأنفال للنبي يتصرّف بها كيف يحب، وجيء باسم الله هنا للبركة. فلمّا صالح أهل فدك النبي صلى الله عليه وآله على هذه القطعة هبط جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله يحمل قوله تعالىٰ: **﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾**[٥]، فاستفسر النبي صلى الله عليه وآله من جبرئيل عليه السلام: «من هم ذوو القربى؟». هل هم المجموع؟ أم أن المعنيّ

(١) المعجم الوسيط ٢: ٩٠٧ ـ نحل.

(٢) يوجف عليه: يسرع إليه، أو تُحثّ الخيل علىٰ الإسراع إليه. لسان العرب ٩: ٣٥٢ ـ وجف.

(٣) سنن أبي داود ٢: ٣٧ / ٣٠١٦، تاريخ الطبري ٢: ٣٠٦، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٦: ٣١٧، شرح نهج البلاغة ١: ١٩٨، ١٦: ٢١٠. (٤) الأنفال: ١.

(٥) الإسراء: ٢٦.

بذلك واحد لكن القرآن عبر عنه بالجمع من باب التكريم والتعظيم؟ فالقرآن قد يستعمل مع الواحد صيغة الجمع تكريماً له، وهذا معروف في أسلوب القرآن. فقال جبرئيل: «**إن الله يأمرك أن تعطي فدكاً بُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أُمها في سبيل الإسلام**».

والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرّخون أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة[1]؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله، وانتهى الأمر بها أن تنام مع النبي صلى الله عليه وآله على جلد كبش.

فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وأنحلها فدكاً، وقد جرت هذه المسألة في بيت أم أيمن بحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام وأم أيمن[2].

وقد يقول قائل: ألم يكن النبي صلى الله عليه وآله يحسب حساباً للظروف، فأعطي فدكاً لفاطمة دون أن يشهد شهوداً على ذلك؟

الجواب: أن المسلمين بعد ذلك كلّهم تحولوا إلى شهود. وزيادة على ذلك أنه لم يكن يخطر ببال مسلم أن الزهراء يمكن أن تكذّب، بغضّ النظر عن القول بعصمتها. فليس هناك مسلم يؤمن بالله ورسوله يستطيع أن يقول: إن فاطمة يصدر منها ما هو خلاف الواقع؛ لأنه بذلك يكذّب النبي، وإن كذّب النبي كذّب الله. ذلك لأن القرآن يقول: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾[3]، والآية نزلت

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨ الدر المنثور ٤: ١٧٧.

(٢) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

في خمسة كانت الزهراء أحدهم[1]. فالكذب نوع من الرجس، وهو منفي بنصّ الآية.

والرسول ﷺ يقول: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها»[2]. ولو كانت ممّا يجوز عليها الكذب لما كان يؤذيه ما يؤذيها؛ لأن الكاذب يؤذَى. فهي صادقة بنصّ القرآن والسنة.

ويستفاد من النصّ العصمة أيضاً فضلاً عن الصدق. ولإجماع المسلمين على أنها صادقة، ما كان من الممكن أن يدور في ذهن أحدهم أنها يصدر منها ما هو خلاف الواقع.

المبحث الثاني: أدلّة صحّة ملكيّة الزهراء عليها السلام لفدك

وعليه، لما أنحلها النبي ﷺ فدكاً صار عندها وسائل شرعية للتملّك:

الوسيلة الأولى: النحلة

وهذا ناقل من النواقل الشرعيّة، وتسمى بالهبة المقبوضة. وهناك نوعان من الهبة: الهبة المعوّضة، والهبة غير المعوضة[3]. وأحببت أن أبين هذه الأحكام بشكل مبسّط لأنني أعتبر المنبر مائدة آل محمد ﷺ، ولما كان كذلك فالمأمول أن يستفيد منه كلّ من له صلة بآل محمد ﷺ. وأنا أعتبر أن كلّ من يمتّ بصلة لآل البيت عليهم السلام هو على مائدتهم. وآمل أن يُستلّ الخلاف ما بين الأُخوة، وأن يجمعهم على حبّ آل محمد ﷺ؛ لأن ذلك ذخيرة لنا.

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٣١، ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، ٤: ١٠٧، ٦: ٢٩٢، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، الجامع الصحيح ٥: ٣٠ ـ ٣١، وغيرها كثير.

(٢) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٣) انظر عدم جواز الرجوع في الهبة المعوضة المبسوط (السرخسي) ١٢: ٨٢، ١٠٥.

ردّ دعوىٰ جواز الرجوع بفدك كونه هبة غير معوّضة

وقد يقول قائل: إن هذه الهبة إذا كانت هبة غير معوّضة فيجوز الرجوع فيها، فإن لم يرجع بها النبي صلى الله عليه وآله أمكن أن يرجع فيها ولي الأمر؛ لأن صلاحيّات ولي الأمر هي صلاحيّات النبي صلى الله عليه وآله نفسها، وبذلك يمكن لأبي بكر أن يرجع فيها.

والجواب على ذلك: أن هذه الدعوى تُنقض من جوانب كثيرة، نذكر منها جانبين هما:

الأوّل: أن الوصول إلى ولاية الأمر يكون إما عن طريق التعيين من النبي صلى الله عليه وآله، أو عن طريق الانتخاب على نظرية الشورى. فأين هي نظرية الشورى التي وصل عن طريقها أبو بكر أو غيره؟ إن الذين بايعوا أبا بكر أول الأمر اثنان فقط، فهل هذان يمثلان المسلمين؟ ولو بايع كلّ أهل المدينة، فهل يمثّلون المسلمين؟ إننا نخترع اصطلاحاً هو أن أهل الشورى هم أهل الحلّ والعقد، يعني أنهم يكفي فيهم كونهم اثنين أو ثلاثة، وهذا ما لا يقرّنا عليه العرف العلمي أو المعنوي. فمن أراد الدليل فالشورى لا تحصل بهذا المعنىٰ، ومن أراد فرض الأمر الواقع فلا كلام معه.

الثاني: أن لسان الخبر يقول: إن الهبة كانت معوّضة، فالعوض كان مدفوعاً مقدّماً وهو ما أنفقته خديجة (رض). فهذه هبة معوّضة لا يمكن استردادها.

الوسيلة الثانية: اليد[1]

وهي الناقل الشرعي الثاني. فنحن الآن نقرّ الملكيّات العامّة بدليل اليد، فلو أن شخصاً كان في بيت وأنا أعرف أنه لا يمتلك ورقة إثبات على ملكيّته، فمن أين أعرف أنه يملكه؟ الجواب أن يده عليه حجّة، فإن تصرّفه يدلّ على أن البيت

---

(١) انظر فدك في التاريخ: ١٩٦، ومعنىٰ قاعدة اليد: إثبات الملكية بواسطة اليد، أي بواسطة التسلط علىٰ المال. انظر المحكم في أُصول الفقه ٥: ٣٥٥.

ظاهراً له. فمن ادّعى أن هذا البيت ليس له، وأنه مستأجر يملك المنفعة لا العين، فعليه أن يأتي بالدليل، أما إذا لم تكن هناك دعوى من أحد على الملكيّة فإن يده عليه حجّة؛ فاليد أمارة على الملكية.

والزهراء﵂ كانت يدها على فدك ستّ سنوات تتصرّف به، والمسلمون يرونها، والنبي ﷺ أقرّها، فلو كانت خاضعة للملكيّة العامّة لكان النبي ﷺ انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملّكها المنفعة فقط لا الأصل. ولكن لم يوجد من ذلك شيء، فالنبي ﷺ أعطاه إياها بحضور الشهود على أنها لها نحلة، فلمّا جاءت أبا بكر ادّعت النحلة فقال لها: ما بلغني أنها لك ملك. فقالت: «**أنحلنيها أبي**». فقال: لا أقبل الدعوى إلّا بالشهود.

ومع أن الزهراء ينبغي ألّا يطلب منها الشهود لأن الشاهد يؤيد الدعوى ويعزّز الشعور بالصدق، وهذا هو ملاك الشهادة، والقرآن يقول: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾[1]؛ لأن ملاك الشهادة أن الشاهد يعزّز الشعور بصدق المدعي، فإن كان المدّعي صادقاً فما الحاجة إلى الشاهد والشهادة؟ ومع ذلك أتت الزهراء﵂ بالشهود الذين حضروا الواقعة وهم علي والحسن والحسين﵈ وأُم أيمن (رضي الله عنها)[2]. فقال: الحسن والحسين فَرعان، وشهادة الفرع للأصل لا تجوز.

---

(١) الطلاق: ٢.

(٢) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤، وفيه: وروى هشام بن محمد عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: «إن أُمّ أيمن تشهد لي أن رسول الله ﷺ أعطاني فدكاً». فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله خلقا أحبّ إلي من رسول الله ﷺ أبيك، ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك. والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلي من أن تفتقري، أتراني أُعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله ﷺ؟ إن هذا المال لم يكن للنبي ﷺ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ وليتُه كما كان يليه.

متى تردّ شهادة الفرع للأصل؟

ولكن هل التزم الخليفة بهذا الرأي للنهاية أم لا؟ لقد قبل الخليفة فيما بعد شهادة مالك بن أوس[1] وعائشة[2] بأنهما سمعا النبيصلى الله عليه وآله يقول: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث**». وهذه المرأة (عائشة) فرع لأبيها، فكيف قبلت شهادتها لأبيها، ولم تقبل شهادة الحسن والحسين؟ فإن كانت شهادة الفرع للأصل لا تقبل، فهذا يلزم أن يكون ذلك قانوناً عامّاً، وإذا كان لحالة دون حالة فهذا أمر يبعث على التساؤل.

ثم من قال: إن شهادة الفرع للأصل لا تجوز؟ نعم، إنها لا تقبل فيما إذا كانت تشكّل مورد تهمة، أما إذا كان هذا المورد منتفياً، أو كما يقول الأُصوليون: (هذا خارجٌ تخصّصاً)، فلم لا تجوز؟ وهذا المورد مقام البحث خارج تخصّصاً؛ لأن الحسن والحسينعليهما السلام سيدا شباب أهل الجنة ولا يمكن أن يُتّهما.

وأما عليعليه السلام فلم تقبل شهادته أيضاً لأنه يجرّ النار إلى قرصه كما ادّعوا.

وأما أُمّ أيمن فهي امرأة أعجميّة لا تفقه ما تقول[3]! فرجعت فاطمة، ولم يكن أحد صادقاً برأيهم، لا علي ولا فاطمة ولا الحسن ولا الحسينعليهم السلام ولا أُمّ أيمن (رضي الله عنها). وإلى هنا انتهت دعوى النحلة وتوقّفت[4].

---

(١) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، مسند أحمد ٦: ١٤٥، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، وغيرها

(٢) مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، السنن الكبرى (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها كثير.

(٣) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١ / ٢، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٢، ٤٣: ١٩٨.

(٤) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٣:

لقد أجاب المحققون والمحدثون على كلام أبي بكر، بأن قوله هذا مردود؛ لأن جميع مفاهيم الإسلام والسنة المحمديّة ظهرت واضحة على عهد النبيصلى الله عليه وآله، فكيف لم يظهر هذا القول إلّا بعد وفاته، والناقل له هو وحده. وهل إن النبيصلى الله عليه وآله ـ لا سمح الله ـ أتى بخلاف ما جاء به القرآن كما قالت واستشهدت به السيّدة فاطمة الزهراءعليها السلام من الآيات؟ وكيف أخرج أبو بكر

الوسيلة الثالثة: الإرث

ثم رجعت الزهراء ﷺ إلى وسيلة التملك الأُخرى وهي الإرث فقالت: «وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي، أفخصّكم الله بآية أخرج أبي محمداً منها؟ أم تقولون: أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟».

وعقّبت بكلامها هذا على قوله تعالى: « ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[1]، وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[2]، وقال: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾[3] وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي».

فهي ﷺ أتت الآن بدعوى جديدة هي دعوى الإرث. ثم جاءت إلى موانع الإرث فقالت: «أفخصّكم الله بآية أخرج أبي محمداً منها؟». ومعنى هذا أن القرآن يخصّص بعضه بعضاً، فهي تقول له: هل هناك آية في القرآن تقول: إن الانبياء لا يورّثون؟ إن آيات القرآن عامّة في الميراث. فهل عندك دليل من القرآن يخصّص هذا العموم؟ فقال: لا. فقيل له: فبم تخصّص العموم؟ قال: أُخصّصه بقول النبي: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث».

☚ وبأي دليل وسنّة آلة الرسول ﷺ ودابّته وحذاءه من ضمن الإرث ودفعها إلى علي ﷺ. وعلى حدّ قول أبي بكر فإن فاطمة الزهراء ﷺ ورثت إيمان النبي ﷺ وحكمته وعلمه وسنّته، وإنها وارثة في جميع ذلك، فهل يمكن أن تدّعي ما ليس لها بحق؟ كلّا وألف كلّا. وهل يجوز له أن يقول للصديقة الطاهرة: «أغلظت فأهجرت، فغفر الله لنا ولك»؟.

(١) النمل: ١٦.
(٢) مريم: ٥ ـ ٦.
(٣) الأحزاب: ٦.

الردّ على حديث «لا نورّث»

وهذا القول غير ثابت، ولم يؤيّد أحد به الخليفة، إلّا بعد ستة أشهر عندما جاء أوس بن ملك وعائشة وحفصة وشهدوا عند أبي بكر أن النبي ﷺ قال ذلك.

هذه واحدة، والأُخرى أن رأي المذاهب الإسلامية الأربعة أن القرآن لا يخصَّصُ بخبر الواحد[1]، فإذا قال القرآن: إن الناس كلّهم يورّثون، فلا نستطيع أن نأتي من السنة برواية تُخرج الأنبياء من العموم؛ باعتبار أن القرآن قطعيّ الصدور والخبر ظنّي الصدور، والظنّيّ الصدور لا يقابل القطعيّ الصدور. فالقرآن عندهم لا يخصّص بخبر الواحد، لكنهم خصّصوه بهذه المسألة فقط تصحيحاً لرأي الخليفة.

ثم أتت عليها السلام إلى مانع آخر من موانع الإرث فقالت: **«أم تقولون: أهل ملّتين لا يتوارثان؟»**. فمن موانع المواريث أن يكون هناك اختلاف في الدين، كأن يكون أحدهما مسلماً والآخر يهودياً فهما هنا لا يتوارثان.

ثم قالت: **«أم أنكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟»**. فقال لها: على كلّ حال، إنني سمعت أباك يقول: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورّث»**.

طلب الشهادة من الزهراء تجاوز على روح القرآن

ثم إن طلب الشهود من الزهراء تجاوز على روح القرآن والشريعة، فمن شواهد ذلك أن النبي ﷺ كان يمشي يوماً في الصحراء فجاءه أعرابي وأمسكه من تلابيبه، ثم قال له: بعتك فرساً ولم تدفع لي الثمن. فقال النبي ﷺ: **«بل اشتريت وأعطيتك الثمن»**. فقال الأعرابي: كلّا، لم تسدّد، هات الشهود. فانفعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي بدفعه أو قتله، فقال النبي ﷺ: **«دعوه، إن**

---

(١) انظر: الابهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥.

لصاحب الحقّ مقالاً». ثم قال: «من منكم يشهد لي؟» فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن ثابت الأنصاري﵁ فلما رأى الجمع سأل عنه فقيل له: أعرابي يطلب من النبي ﷺ ثمن فرس وقد حبسه في الشمس يطالب بحقه، والنبي ﷺ يطلب الشهود فلم يشهد له أحد. فقال خزيمة: أنا أشهد.

فناداه النبي ﷺ فقال له: «كيف تشهد وأنت لم تكن معنا ولم تسمع ولم ترَ؟». قال خزيمة: صدّقناك على الوحي وأخبار السماء وما تنقل عن الله، ولا نصدّقك في هذا؟ فهو يقول له: إما أن تكون صادقاً فيكون قولك كلّه صدقاً، وإما أن تكون غير صادق فإن نبوتك كلّها غير صادقة، ونحن عندما صدقناك صدقناك بكلّ شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنك نبي. فقال النبي ﷺ: «قد أجزت شهادتك وجعلتها بشهادتين». فلقّب خزيمة من ذلك اليوم بذي الشهادتين[1].

وهذه العلّة نفسها مطّردة عند الزهراء﵍، لأنها أحد الخمسة أهل آية التطهير، وهي التي يعبّر عنها النبي ﷺ بقوله: «بضعة مني»[2]، و«روحي التي بين جنبي»[3]، و«سيّدة نساء العالمين»[4]. فهي موضع تقديس المسلمين عامّة، وهي صادقة قطعاً، فما الوجه في طلب الشهود منها؟ بالتأكيد لا وجه لذلك.

فرأت الزهراء﵍ أن دعوى النحلة قد أُغلقت، وأُغلقت دعوى اليد، وكذلك دعوى الميراث بادّعائهم أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث».

---

(١) الانتصار: ٤٩١، سنن أبي داود ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧ / ٣٦٠٧.
(٢) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.
(٣) الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨.
(٤) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٦، فتح الباري ٧: ٨٢، ١٠١، ٩: ٢٦٦، مسند أبي داود: ١٩٧.

وقد حدث فيما بعد بين الخليفة الثالث وأُم المؤمنين عائشة تشنّج في مسألة ميراث النبي صلى الله عليه وآله. فقد دخلت عليه هي وحفصة أيّام بوادر الثورة، فقالت عائشة: ادفع لنا حقّنا من الميراث من حُجَر النبي صلى الله عليه وآله. فاستوى جالساً بعد أن كان متّكئاً، فقال: ستعلم فاطمة أي ابن عم أنا لها اليوم. ثم قال لمن حوله: أي ميراث؟ قيل له: إن النبي صلى الله عليه وآله توفّي عن تسع نساء، وهن يشتركن في الثُّمن من الميراث، (وهذا على نظرية الإمامية)[1]. فقال عثمان: والنبي صلى الله عليه وآله يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبْن به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي صلى الله عليه وآله وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته[2].

ثم بعد ذلك خرجت مطالبة بدمه لمّا علمت أن الأمر آل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فاستقبلها أحد بني أخوالها ـ وهو ابن أُمّ كلاب من بني ليث ـ فقال لها: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً. ثم أنشد:

فمنكِ البداءُ ومِنكِ الغِيرْ ... ومنكِ الرياحُ ومِنكِ المَطرْ

وأنتِ أمرتِ بِقَتلِ الإمامِ ... وقلتِ لنا إنَّه قد كفرْ

فهَبنا أطَعناكِ في قَتلهِ ... وقاتِلُه عندَنا مَنْ أَمَرْ

وقد بايعَ الناسُ ذا تدرَإ ... يزيل الشبا ويقيم الصعَرْ

ويلبسُ للحربِ أثوابَها ... وما من وفى مثلُ من قد غدرْ[3]

---

(١) الفقيه ٤: ٣٤٧ / ٥٧٤٨، المراسم العلوية: ٢٢٤، النهاية: ٦٤٠، شرائع الإسلام ٤: ٨٣٤.

(٢) الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

(٣) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

فقد خرجت من مكّة عائدة إلى المدينة فسألت: ما الخبر في المدينة؟ فقيل لها: قتل عثمان. فقالت: من الذي استُخلف بعده؟ قيل لها: علي بن أبي طالب. فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تاب عثمان، ولما تاب قتلوه[١].

حقيقة قداسة الصدر الأوّل

وهذا لا يثيرنا نحن بقدر ما يثيرنا أن جيلنا الإسلامي يفتح عينيه على هذه المفارقات ثم نريد منه أن يؤمن بقداسة الصدر الأوّل من الصحابة كلّه على الإجمال، فهذا يثير عنده التناقض والازدواجيّة في نفسه، فهو يسأل نفسه: هل إن الدين بالإكراه؟ أوليس عندنا عقل يحلّل ويفكّر؟ فكيف نؤمن بهذه المتناقضات؟ كيف نؤمن بوجود القداسة مع هذه التصرّفات؟ فالمسألة تثير لوناً من التناقض في الذهن، وتخلق مشكلة. وهذا أشبه بما يُنقل عن أحد الأشخاص أنه كان إلى جوار نهر، فخرج كلب كان في النهر ورشه بما كان عليه من الماء، ولم يكن عند الرجل إلّا هذه الجبّة التي يلبسها، فأغمض عينيه وقال: إن شاء الله هو عنزة. فإن كان التاريخ هكذا بأن نغمض أعيننا ونقول: إن شاء الله عنزة، فهذه مصيبة.

الوسيلة الرابعة: سهم ذوي القربى

المهم أن الزهراء﵁ انطوت على نفسها وتركت دعوى اليد والميراث والنحلة، لكن جاءت في اليوم التالي تطالب بسهم ذوي القربى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٢]، فقالت: «إن اليتامي يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم الله ذكر للبركة، وسهم النبيﷺ وسهم ذوي القربى كلّه يعود لنا، فأعطنا حقّنا من خمس

---

(١) المصدر نفسه. (٢) الأنفال: ٤١.

الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم»[١]. فقال: إن مبلغ علمي أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أعطيناه، ومن كان يحتاج اللباس كسوناه، ومن أراد التزويج زوّجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال. فأحسّت الزهراء أن المراد بكلّ ذلك أن يغلق الباب بوجهها.

أُستاذ ابن أبي الحديد يعلّل موقف أبي بكر

يقول ابن أبي الحديد: «سألت أُستاذي، وقد كان مهذباً في تعبيره، رقيقاً، فقلت له: أوليس المسلمون يعلمون بصدق الزهراء؟ قال: بلى، ولا يجتمع إيمان مسلم مع قوله: إن الزهراء غير صادقة. قلت: أوليس الخليفة الأول كان يعلم بصدقها؟ قال: بلى. قلت: إذن لمَ لم يدفع لها فدكاً؟ قال: إن أبا بكر يعلم أن الزهراء لم تكن تطالب بفدك فقط، ولو كان يعرف أن المسألة تقف عند فدك لأعطاها، لكنه يعلم أنه إذا سجّل على نفسه أنها صادقة، فهذا يعني أنها لا يجوز ردّها، وإذا كان الأمر كذلك فإنها سوف تأتي إليه غداً فتقول: إن هذا المنصب لابن عمّي فأعده إلينا. لذا أغلق الخليفة الباب من أصله». وهذا هو الواقع.

والغريب أن المذاهب الإسلاميّة عندما يأتون إلى ميراث النبي صلى الله عليه وآله يقولون: إنه لا يورث الأموال وإنما يورث المنصب والعلم والحكمة، وهذا ما يورثه الأنبياء. ونحن نسأل: لمن يورّث النبي المنصب؟ أليس للوريث؟ فلمَ لم يُعطَ المنصب للوريث؟ ولذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[٢]. لأن من جملة ما احتجّ به المسلمون في السقيفة أنهم قالوا: نحن شجرة محمد صلى الله عليه وآله؛ لأن

---

(١) انظر الخطبة كاملة في شرح الأخبار ٣: ٣٤ ـ ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ ـ ٢٣٥.
(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.

محمّداً منا. فالإمام يقول: إن الاحتجاج ينبغي أن يكون بالثمرة، لأن الشجرة ما هي إلّا وسيلة للثمرة.

المبحث الثالث: الزهراء ﷺ ماتت غير راضية عن الشيخين

فرجعت الزهراء منفعلة بعد أن أحسّت أن الباب أُغلق في وجهها. يقول أصحاب الصحاح: إن الزهراء لما اشتدّت بها العلّة قصدها الخليفتان الأوّل والثاني، فدخلا عليها بعد أن استأذنا من أمير المؤمنين ﷺ وألحّ عليها، فقالت: **«ليدخلا»**. فلما دخلا حوّلت وجهها إلى الحائط، فاستدار الخليفتان، فاستدارت هي، ثم استدارا فاستدارت، ثمّ قالت: **«والله لا أُكلّمكما حتى تصدّقاني إن صدقت»**. قالا: بلى. قالت: **«الله عليكما، هل سمعتما قول أبي فيّ: فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني؟»**. قالا: بلى. قالت: **«اللهم اشهد عليهما أنهما آذياني»**. ثم حوّلت وجهها مرّة أُخرى، فجزع أبو بكر جزعاً شديداً، فوضع الخليفة الثاني يده بيده وقال: قم ولا تجزع لقول امرأة. فأخرجه[1].

وانطوت الزهراء على جراحها وألمها، تجترّ الألم واللوعة وتتطلّب بواعث الأسى ودواعي الشجا، فلاذت بالحسرة والدمعة التي ضنّوا حتى بها عليها، فكانت تأتي إلى قبر النبي ﷺ فتجلس وتأخذ قبضات من ترابه وهي تقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ... ألّا يشمّ مدى الزمان غواليا

صُبّت عليّ مصائب لو أنها ... صُبّت على الأيّام صرن لياليا[2]

* * *

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٠ ـ وحول حديث «يؤذيها ما يؤذيني» انظر: مسند أحمد ٤: ٥، صحيح مسلم ٧: ١٤١، وغيرها كثير.

(٢) المغني (ابن قدامة) ٢: ٤١١، نظم درر السمطين: ١٨١، سبل الهدىٰ والرشاد ١٢: ٢٨٩، ٣٣٧، مغني المحتاج ١: ٣٥٦.

عگب ابـــوها شـــلون ذلّت ... ومـن البـچا مـا يـوم ملّت
حـين بـالشجرة اسـتظلّت ... عـــمدوا عـليها اگـطعوها

نعم، دخلوا على أمير المؤمنين، فقالوا له: لقد أزعجتنا فاطمة بكثرة بكائها، قل لها أن تبكي أباها إما ليلاً أو نهاراً. فأخرجها أمير المؤمنينعليه السلام إلى خارج المدينة فبنى لها بيتاً يظلّها عن الشمس، فكانتعليها السلام تأخـذ بـيد الحسـن والحسـينعليهما السلام، فتجلس تندب أباهاصلى الله عليه وآله إلى أن يجنّ عليها الليل، فتأخذ بيد الحسنينعليهما السلام وتؤوب إلى الدار:

قـالوا لهـا قَـرّي لقـد آذيـتِنا ... أنّى وقد سَلب المصاب قَرارَها
البـضعةُ الزهـراء تـعدو خـلفَهم ... عَـبرى فـليتَك تـنظرُ استعبارَها
جـمعوا عـلى بـيت النـبي مـحمدٍ ... حطَباً وأوقدتِ الضغائنُ نارَها[1]

---

(١) ومثل هذا قصيدة للشيخ صالح الحليرحمه الله يقول فيها:

الواثـــبين بـــظلم آل مـحمّد ... ومـحمّد مـلقىً بـلا تكـفينِ
والقـــائلين لفـــاطم آذيـــتنا ... فـي طـول نـوح دائـم وحـنينِ
ومجمّعي حطب عـلى البـيت الذي ... لم يـجتمع لولاه شـمل الديـنِ
والهـاجمين عـلى البـتول بـبيتها ... والمسـقطين لهـا أعـزّ جـنينِ
خلوا ابن عمي أو لأكشف في الدعا ... رأســي وأشكـو للإله شـجوني
مـا كـان نـاقة صـالح وفـصيلها ... بـالفضل عـند اللـه إلّا دونـي
ورنت إلى القـبر الشـريف بـمقلة ... عبرى وقـلب مكـمد مـحزونِ
قـالت وأظـفار المـصاب بـقلبها ... غوثاه قلّ عـلى العداة مـعيني
أبـتاه هـذا السـامري وعـجله ... تُبعا ومال النـاس عـن هـارونِ
أي الرزايـا اتّـقي بـتجلّدي ... هو في النوائب مذ حييت قريني
فقدي أبـي أم غـصب بـعلي حـقّه ... أم كسر ضلعي أم سقوط جنيني
أم أخـذهم إرثـي وفـاضل نِـحلتي ... أم جهلهم حقّي وقـد عـرفوني
قـهروا يـتيميك الحسـين وصـنوه ... وسـألتهم حـقّي وقـد نـهروني

بيت الأحزان: ١٢٨ ـ ١٢٩.

تقول أسماء: اشتدّت عليها العلّة يوماً فقالت: «أنا ذاهبة إلى حجرتي أضطجع، وبعد ساعة ناديني، فإن أجبتك وإلّا فاعلمي أني لحقت بأبي رسول الله ﷺ. يا أسماء، إذا جاء الحسنان فضعي لهما الطعام، وإن سألا عني فقولي: إن اُمّكما نائمة بالحجرة. وتعالي إلى هنا فاسكبي لي الماء».

تقول: فسكبت لها ماء، فلبست ملابسها وذهبت إلى الحجرة، وبعد ساعة ناديت: يا بنت رسول الله، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من صلى بملائكة السماء مثنىً مثنى، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من حمل الركن بأطراف الردا، فلم تجبني. فدنوت إليها فكشفت الرداء عن وجهها فإذا بها ميّتة، فجلست عندها أبكي، وبينما أنا كذلك وإذا بالحسن والحسين قد أقبلا، فقالا: «أين اُمّنا يا أسماء؟». فقلت: سيداي، إنها في الحجرة مضطجعة، هذا طعامكما إن أردتما الطعام. قالا: «أسماء، متى علمت أننا نأكل واُمّنا ليست معنا؟ أين هي؟». فقلت: في الحجرة. فهرول الحسن إليها فكشف الرداء عنها، ثم صاح: «أخي حسين هلمّ إليّ، إن اُمّنا فاطمة قد فارقت روحها الدنيا»[1]:

بأبي التي ماتت وما ماتت مكارمها السنية
دفنت وبين ضلوعها آثار ضرب الأصبحية[2]

---

(١) قريب منه ما في بحار الأنوار ٤٣: ١٧٤ ـ ١٨٠ / ١٥، عن فضّة خادمة الزهراء عليها السلام.
(٢) الأصبحية: سياط تنسب إلى ذي أصبح، ملك من ملوك حمير. لسان العرب ٢: ٥٠٧ ـ صبح، ٣: ٤٩٢ ـ ربذ.

﴿٣٧﴾

أمّية الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أقسام الأميّة ومعنى أمّية الرسول ﷺ

الأُمّيون: جمع الأمّي، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب. وفي الأيّام الأخيرة نشأ عند الكتّاب والمتكلّمين اصطلاح هو أن الامّيّة صنفان: الأُمّية الأبجدية، وهي أن المرء لا يعرف القراءة والكتابة. والأُمّية الحضاريّة وهي خلو الذهن الإنساني من المعلومات. فقد تجد إنساناً لا يقرأ ولا يكتب لكنه يمتلك معلومات كثيرة، وتجد له أُفقاً واسعاً ومعرفة واطلاعاً، وكل ما في الأمر أنه لا يستطيع أن يسطرها أو يقرأها في كتاب.

طبيعة أُمّية الرسول ﷺ

والآية بالتأكيد تعني الصنف الأول من الأُمّية، فالنبي ﷺ لم يمارس القراءة

---

(١) الجمعة: ٢.

والكتابة، يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَـتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ﴾[١]. وكأن القرآن الكريم يعلّل ذلك بأن النبي ﷺ لو كان يمارس القراءة والكتابة لقيل له: إن هذا القرآن من عندك، وأنت الذي اخترعته وليس وحياً من السماء. وحتى مع كون النبي ﷺ أمّياً فإن هذه المقولة إلى الآن موجودة خصوصاً لدى المستشرقين والمجامع العلمية الأوربية، فإنهم عندما يمرون بمسألة تقييم رسالات السماء والكتب السماوية يقولون: إن هذا القرآن من اختراع محمد. مع العلم أنه من المفترض في الإنسان أن يكون ابن البيئة التي يعيش فيها، فهو ابن المنطقة والحضارة السائدة. والزمن الذي عاش فيه النبي ﷺ كانت فيه الحضارة بدائية. فنحن نعرف أن مجموع من كان يقرأ ويكتب في الجزيرة العربية كما ينصّ عليهم البلاذري[٢] كان (١٧) فرداً؛ قسم منهم كان يحسن القراءة والكتابة، وقسم كان يحسن القراءة فقط، ونعرف أن الجهل كان يلفّ المجتمع الذي كان حول النبي ﷺ والذي عاصره.

فالمجتمع بأجمعه كان جاهلاً لا يملك أي معلومات، والمعلومات التي جاء بها القرآن معلومات ضخمة، فكلّما جدت العصور وتقدّمت الدنيا وتعمّق الفكر واتّسعت الثقافة فنحن نجد أن القرآن يتفجّر عطاء، وفي كلّ عصر تجد فيه مكامن لاستفادة البشرية تأخذ منه من العلوم ماتريد. والباحث لو أراد الآن أن يبحث عن

(١) العنكبوت: ٤٨.

(٢) وهم كما نصّ عليهم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو العامري، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد أخوه، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وحويطب بن عبد العزّى العامري، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطّلب بن عبد مناف، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي. فتوح البلدان ٣: ٥٨٠ / ١١٠٤.

جذور الكثير من النظريّات الحديثة لوجدها ضاربة الجذور في القرآن الكـريم. فمن أين جاء محمد وهو الأُمّي بهذه المعلومات حتى يسطرها في القرآن؟ فـلو فرضنا أن النبي ﷺ عنده معلومات عامّة، فهي لا تتعدّى محيطه الذي يعيش فيه؛ لأن الإنسان إنما يأخذ معلوماته وثقافته من بلده بما فيه من عطاء علمي.

العلم يصدّق القرآن

فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾[1]، وما يتّسع له أُفقي الذهني والذي أستطيع أن آخذه من هذه الآية وفق المعارف التي أعيش فيها أن القرآن يضرب مثلاً في الصوت الخشن المزعج، ولكن العلم اليوم يقول على لسان عالم من الأكاديميّة الفرنسيّة فيقول: إن أعظم المطارق إذا وضعت جـنب الأذن البشرية فإنها لا تحدث ضرراً في السمع بقدر ما يحدثه صوت الحمار من ضرر به. وهذا لم يُتح لأحد أن يكتشفه إلا بعد (١٤٠٠) سنة من نزول القرآن، فمن أين أخذ النبي ﷺ ذلك، وهو الذي كان يعيش في مجتمع بدائي بما للكلمة من معنى؟

إذن لا قيمة لدعوى أن النبي ﷺ جاء بالقرآن من عنده كما يدعي المستشرقون وتلامذة المستشرقين. وقد يكون بعض أبـنائنا مـمّن يـنقلون أفكـار الأجـنبي ويكونون ترجمة صادقة للأجنبي في أفكاره يحملون مثل هذا الرأي.

فالنبي ﷺ كان أُميّاً بمعنى الأُمّية الأبجدية.

المبحث الثاني: وجوب بعثة الأنبياء وعدمه

والنقطة المهمّة التي ينبغي أن نعرّج عليها هي أن بعثة الأنبياء عليهم السلام هل هي واجبة على الله تعالى أو مستحبّة؟ علماء المسلمين في هذه المسألة فريقان: فريق يقول: إن مثل البعثة أو غيرها لا يمكن أن يأخذ صفة الوجوب على الله، فلا يمكن أن

---

(١) لقمان: ١٩.

نقول: إن هناك شيئاً واجباً على الله أبداً. فالله يمكن أن يترك الناس سدىً بدون دين، ويمكن أن يعذّب بعض الناس بدون مبرّر، فيمكن أن يعذّب المطيع وينعّم العاصي؛ لأن القرآن يقول: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1]، فلا يمكن أن نوجب على الله شيئاً[2].

وهذا اللون من الفكر خطر على الإسلام، لأنه يفتقر إلى مقوّمات الأصالة، فالله تعالى عندما خلق العقل فإنما خلقه ليكون مقياساً لنا لا أن نجمّده في رؤوسنا، وخلقه لنُعمله ونستفيد منه ونفهم به، وليس من الممكن أن يخلق الله العقل كي نعطّله عن العمل. والعقل يحكم بقبح تعذيب المطيع وحسن تعذيب العاصي، والله سيّد العقلاء وخالق العقل، والمقياس العقلي مقياس صحيح ترجع إليه كلّ الأُمور. فلا يمكن أن نحكم على الله أنه من الممكن أن يترك مجتمعاً سدىً. يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[3]. فلابدّ من وجود نبيّ يحمل الرسالة إلى الناس، ويشرح لهم التكاليف وفلسفة وجودهم، ويجيب عن الأسئلة التي لا يستطيع العلم أن يجيب عنها.

شبهة البراهمة حول إرسال الرسل، وردّها

وإحدى الشبهات حول بعثة الأنبياء ﷺ مثلاً شبهة البراهمة، فهم يقولون: لا داعي لأن يبعث الله نبيّاً؛ فهذا النبي الذي يبعثه الله هل سيأتي بأحكام توافق العقل أم تخالفه؟ فإن كانت توافق العقل فلا قيمة لها؛ لأنها أصبحت مكرّرة، فالعقل كان يقول بها قبل مجيء النبي، وإن جاء بأحكام تخالف العقل فيجب علينا ردّه؛ فلا ضرورة إذن إلى بعثة الأنبياء ﷺ[4].

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) انظر الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ٤٠، الصراط المستقيم ١: ٤٠.

(٣) الإسراء: ١٥.

(٤) شرح المواقف: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ (حجري).

وقد انطلت هذه الشبهة على الكثير من الناس، ولكن الواقع غير ذلك، فالله يبعث النبي بما لا يخالف العقل، وهذا صحيح، لكن هناك أشياء كثيرة لا يستطيع العقل أن يصل إليها، فنحن نستطيع أن نكلّف العقل ما يستطيع، كأن نسأل عالم الكيمياء حول قوله تعالى عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾[1]، فهو يحلّل العسل في المختبر ويقول لنا: إن فيه موادَّ وعناصرَ نافعة، لكن لو أردنا أن نكلّف العلم أن يحلّل لنا ما بعد الموت، وهل إن الإنسان يُبعث أو لا، وهل إنه يُسأل إذا بعث أو لا، وأين يكون البعث والنشور، وكم هي البقعة التي سوف يحشرون عليها، فلدينا الآن عشرات المليارات من الناس منذ آدم وإلى الآن، ولو حشروا كما يقول القرآن: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[2]، فأية رقعة تتّسع لهم؟ فإن العلم لا يستطيع أن يجيب عن ذلك، والعقل لا يهتدي إلى ذلك، لأن ذلك ليس من شأنه. فهذا من علوم ما وراء الطبيعة، وهو من اختصاص الوحي والنبوات.

فنحن إذن بمسيس الحاجة إلى النبوّة باعتبار أنها تجيب عن أسئلة لا يجيب عنها العلم ولا العقل؛ فهذه الشبهة إذن ليست مستقيمة.

عدم وجوب الوصيّة يساوق عدم وجوب البعثة

إذن هذا الرأي في عدم وجوب البعثة والنبوّة على الله لا يمكن أن يقبله العقل. ونحن عندما نسمع هذا الرأي، فإننا لا نستغرب إذ نسمع رأياً آخر يقول: إن النبيﷺ مات ولم يوصِ[3]؛ لأنك عندما تسمع أن الله لا يجب عليه أن يبعث النبي، فليس من الغريب أن تكون الوصيّة على النبي غير واجبة. مع أن هذا خلاف المعهود من أُسلوب الإسلام، فنحن نعرف أن أُسلوب الإسلام يفرض الوصيّة حتى

---

(١) النحل: ٦٩.　　(٢) الكهف: ٤٧.

(٣) انظر: صحيح مسلم ٥: ٧٥، نيل الأوطار ٦: ٤٤، فتح الباري ٥: ٢٦٩، كنز العمال ٦: ٦٠٠ / ١٧٠٦٢.

في الأشياء البسيطة، يقول النبي ﷺ: «**حقّ على المؤمن ألّا يبيت إلّا ووصيّته تحت رأسه**»[1]. فكيف يمكن أن يخرج النبي ﷺ من الدنيا دون أن يوصي؟

وتعال إلى التناقض في هذه المسألة، فتارة يقال: إنه خرج من الدنيا ولم يوص نهائيّاً، مع العلم أنه كان عندما يخرج خارج المدينة قليلاً ولو ليلة واحدة فإنه يعيّن شخصاً ينوب عنه عليها[2]. فكيف يخرج من الدنيا ويترك الناس سدىً دون وصيّة؟

---

(١) مصباح المتهجّد: ١٤، المدوّنة الكبرى ٦: ١٠.

(٢) أحصى الخطيب الشيخ عبد الحميد المرهون في كتابه (رائق الضمير) ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٨ غزوات الرسول الأكرم ﷺ التي كان يستخلف فيها أحد أصحابه على المدينة، نذكر منها:

١ ـ استخلف عليها سعد بن عبادة عندما خرج إلىٰ غزوة الأبواء.

٢ ـ استخلف عليها السائب بن عثمان بن مضعون عندما خرج إلىٰ غزوة بُواط.

٣ ـ استخلف عليها أبا سلمة المخزومي عندما خرج إلىٰ غزوة العُشيرة.

٤ ـ استخلف عليها زيد بن حارثة رضي الله عنه عندما خرج خلف كرز بن جابر الفهري.

٥ ـ استخلف عليها عبد الله بن أُبي بن سلول عندما خرج إلىٰ غزوة بدر والسويق وبني قينقاع.

٦ ـ استخلف عليها سُباع بن عرفطة الغفاري عندما خرج إلىٰ غزوة كدر.

٧ ـ استخلف عليها أبا دجانة الساعدي عندما خرج إلىٰ حجّة الوداع.

٨ ـ استخلف عليها ابن أُمّ مكتوم عندما خرج إلىٰ غزوة نجدان وأُحد وحمراء الأسد والخندق وبني لِحيان وذي قَرَد.

٩ ـ استخلف عليها عثمان بن عفّان عندما خرج إلىٰ غزوة ذات الرقاع، وقيل: ذي أمد.

١٠ ـ استخلف عليها أبا ذرّ الغفاري عندما خرج إلىٰ غزوة ذات الرقاع وغزوة بني المصطلق.

١١ ـ استخلف عليها عبد الله بن رواحة عندما خرج إلىٰ غزوة بدر الثانية.

١٢ ـ استخلف عليها نميلة بن عبد الله الليثي عندما خرج إلىٰ غزوة الحديبية وخيبر.

١٣ ـ استخلف عليها عوف بن الأخبط الدؤلي عندما خرج إلىٰ عمرة القضاء.

١٤ ـ استخلف عليها أبا رهم الغفاري عندما خرج إلىٰ فتح مكّة.

١٥ ـ استخلف عليها علي بن أبي طالب عليه السلام عندما خرج إلىٰ غزوة تبوك، وفيها قال له: «إن المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنّه لا نبي بعدي؟». فعاد عليه السلام قرير العين.

وتارة يقال: إنه وصّىٰ لكننا لا نأخذ بوصيّته؛ لأنه كان (يهجر)؛ لأنه في ساعة مرض[١]. فكيف يمكن الجمع بين هذين الادّعاءين؟

أوصى النبيُّ فقال قائلُهم　　قد راحَ يهجرُ سيدُ البشرِ

لكنْ أبو بكرٍ أصابَ فلمْ　　يهجرْ وقد أوصى إلى عُمرِ[٢]

فالاثنان أوصيا؛ النبيﷺ وأبو بكر، وكلتا الوصيّتين كانتا في وقت المرض، فالمرض الذي غلب على النبيﷺ وجعله يهجر لمَ لم يغلب على الخليفة الأوّل أيضاً ويجعله يهجر؟ إن هذا اللون من الفكر نستطيع أن نسميه تزييفاً للتأريخ والحقائق. مع أن الإسلام يربّي فينا الموضوعيّة، ويريد منا أن نكون كذلك عند البحث، وألّا تغلب علينا العاطفة فتجعلنا نلوي المقاييس ليّاً؛ فنمسخ وجه الدنيا.

فهذا الفريق من العلماء ـ وهم الأشاعرة، وهو الذي عليه المذاهب الأربعة ـ يقولون: إن الله لا تجب عليه النبوّة[٣].

أمّا المعتزلة[٤] والإماميّة[٥] والفلاسفة[٦] والمتكلّمون[٧] كلّهم فيذهبون إلى وجوب بعثة الأنبياء؛ لأن ما لا يتمّ الواجب إلّا به يكون واجباً، أي أن مقدّمة الواجب واجبة أيضاً. فنحن نعرف أن نظام المجتمع يتوقّف على وجود شريعة سماويّة، فإذا لم يُنزل الله لنا شريعة توضح لنا الأشياء فإن نظامنا سيبقى متخلخلاً. فليس من الممكن أن يترك الله الناس سدىً، وليس من الممكن أن يخلقهم ولا

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٥٥، صحيح البخاري ١: ٣٦، ٧: ٩، صحيح مسلم ٥: ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) البيتان للديلمي. انظر الصراط المستقيم ٣: ٧.

(٣) الصراط المستقيم ١: ٤٠.

(٤) المصدر نفسه، شرح المواقف: ٢٣٠ (حجري).

(٥) شرح تجريد الكلام: ٣٧٥ ـ ٣٨١ / المسألة: ٥ ـ ٦.

(٦) شرح المواقف: ٢٣٠ (حجري).　　(٧) المصدر نفسه.

يعلّمهم وينظّم شؤونهم. فلا بدّ من إنزال شريعة تنظّم الدنيا، وهذه الشريعة لا يحملها إلا النبي، ولا يصلح لهاأحد؛ إذ أن الله لا بد أن يختار لها عنصراً يحمل القابليّة والكفاءة والمرونة والطاقات العظيمة حتى يصلح لحمل النبوّة والرسالة. ولذا أصبحت بعثة الأنبياء واجبة على الله.

المبحث الثالث: دلائل النبوّة

ولكن كيف يمكن لنا أن نعرف النبي؟ وما هي الدلائل على نبوّته؟ هناك ثلاث علامات لابدّ أن تتوفّر كي نعرف أن هذا نبي:

الأولى: ألّا يأتي بما يخالف العقل والواقع والفطرة

فمن الأمثلة على ما يخالف العقل أن يقول: إن الآلهة متعدّدة؛ لأن العقل يحكم بأن الآلهة إذا تعدّدت تضاربت الإرادات؛ وبالتالي يضطرب الكون ولا يمكن أن يستقيم. قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[1]، فلو كان هناك أرباب متعدّدون فإنه يلزم من هذا أن أحدهم يريد شيئاً ويريد الآخر خلافه؛ فتتعارض إراداتهم؛ فيتعطّل الكون. يقول أمير المؤمنين لابنه الحسن: «**لو كان لربك شريك لأتتك رسله**»[2].

وأما ما يخالف الواقع فكأن يقول: إن الأرض مسطّحة لا كرويّة. فهذا خلاف الواقع؛ لأن غروب الشمس وطلوعها دليل على كرويّتها. وعندما تقف على البحر وتتأمّله تعرف أن الأرض كرويّة[3]. فإن قال النبي: إن الأرض مسطّحة فهذا ممّا يخالف الواقع.

---

(١) الأنبياء: ٢٢. (٢) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٣) فإن البواخر التي تمخر عبابه حينما تقدم من بعيد أوّل ما يتراءى منها أعلى جزء فيها، ثمّ بعد ذلك تبدأ السفينة بالظهور شيئاً فشيئاً من جزئها العلوي حتى تستبين كلّها؛ مما يدلّ على تكوّر سطح الماء الناشئ عن تكوّر الأرض.

وأما ما يناقض الفطرة فكأن يقول: إن الزواج محرّم. ولذلك نحن لا نقبل ما ينسب إلى النبي عيسى ﷺ في هذا الميدان، ولا يمكن أن يقول عيسى ﷺ: إن الإنسان إذا أراد أن يكون قريباً من الله فعليه أن يبتعد عن المرأة. فالإنسان غريزة، وعندما وضع الله الغريزة عنده لم يضعها عبثاً، وإنما وضعها ليمدّ المجتمع بالأجيال. فليس من الممكن أن يخلقها ثم يقول له: لا تتزوّج وابتعد عن المرأة كي تكون قريباً منّي. فهذا تناقض، وهو خلاف الفطرة. فإذا كان الله قد وضع عندي الاستعداد لإشباع غريزة ما، فلماذا يكلّفني بخلافها؟

وممّا يخالف الفطرة أن يقول النبي: إن العلم قبيح، فهذا مستحيل؛ لأن الله خلق عندنا حبّ العلم والاستعداد لطلبه، فكما أن المعدة تحتاج للأكل فإن العقل أيضاً يحتاج للمعلومات. فالإنسان عندما يخرج إلى الدنيا يسأل نفسه: من أين أتيت؟ وإلى أين سأذهب؟ وما هذا الكون المحيط بي؟ فيجب على النبي ألّا يأتي بما يناقض الفطرة.

الثانية: أن تكون بعثته خيراً للناس وطاعة لله

فلا يمكن أن يأتي الأنبياء بشرّ للناس. وإذا كنّا نحن لا نعرف الخير، فهذا بحث آخر. فالمجتمع قد لا يعرف الخير فيسميه شرّاً، ولا يعرف أسرار البعثة أحياناً، لكن هذا بحث آخر كما قلنا؛ وعليه فالنبي ﷺ لا يأتي إلّا بالخير.

والمرء قد يجد من يسأل عن حكمة الصوم وآلامه، ويقول: لمَ الصوم في هذا الصيف الحارّ وأفواهنا جافة؟ وكيف يكون هذا خيراً؟ لكن هذا لا يعرف معنى الخير، فلو كان يعرف أن الله هو الذي خلق الجسم وهو أعرف بمصلحته ومفسدته، لعرف الخير، ولعرف أن بعثة الأنبياء خير محض، ووَكلَ أمر كلّ شيء إلى الله؛ لأن النبي ينفذ أوامر السماء، فهو يطيع الله بهذا.

الثالثة: أن يكون مسلّحاً بالمعجزة

والمعجزة تكون في الإتيان بما هو خلاف المعتاد، فنحن نعرف مثلاً أن الإنسان لا يمكن أن يصعد إلى الجو إلا بالطائرة، أو أن يكون عنده جناحان يطير بهما. لكن عندما أعرف أن النبي ﷺ صعد واخترق الجوّ كما يقول القرآن: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[١]، وأعرف أنه يجتاز الأُفق ويشقّه بهذا الإعجاز فإنّي أرىٰ أن هذا دليل على نبوته.

ولكن أُلفت نظرك هنا إلى أن هناك فرقاً بين المعجزة والكرامة، فالكرامة مثل ولادة النبي عيسى﵇ من غير أب، لأن مريم﵍ حملت به من دون زوج، أما المعجزة فشرطها التحدّي، فإن لم يكن بها تحدٍّ فلا تعتبر معجزة. فالنبي يتحدّاهم أن يأتوا بما يأتي به هو.

المبحث الرابع: من معجزات النبي ﷺ

المعجزة الأُولىٰ: تنظيم المجتمع

وأول معجز للنبي محمد ﷺ أنه استطاع أن ينظّم الدنيا وهو أُمّي، فقد استطاع أن ينظم ذلك المجتمع البدوي الذي يقول عنه التاريخ: إن التخلّف كان يسوده في الأبعاد؛ فلا علم ولا أخلاق ولا اقتصاد ولا تنظيم. لكن النبي ﷺ بدأ معهم من الصفر كما نقول اليوم في لغتنا، فقد جاء إلى مجتمع أقلّ ما فيه أنه وصلت به الحالة أن يقف أحدهم على النبي ﷺ في سنة جدباء لا مطر فيها ولا زرع ولا خيرات، وكانت البيوت تنام على الطوى والجوع، فيقول:

أتيتك والعذراءُ تبكي بِرَنّةٍ ... وقد ذُهلت أمّ الرضيع عن الطفلِ

---

(١) الإسراء: ١.

وأختٌ وبـنتانِ وأمٌّ كـبيرةٌ وقد كِدت من فقري أُخالَط في عقلي
وليسَ لنا ما يأكلُ الناسُ عندنا سوى الحنظلِ العامي والعِلهز الفسلِ[1]
وليسَ لنا إلّا إليك تقرّباً وأينَ فِرارُ الناس إلّا إلى الرسُلِ[2]

ويقف كعب بن مالك فيقول:

زعمت سُخَينَةُ أن ستغلبُ ربَّها وليغلَبَنَّ مُغالبُ الغلّابِ[3]

ويعني بسخينة: قريشاً؛ فقد كانوا من جوعهم يأكلون السَّخينة، ويعتبرونها من الأكلات الراقية عندهم، وهي أن يؤتى بالماء فيغلى ثمّ يلقى فيه شيء من طحين الحنطة إذا كان عندهم، ويضاف إليه شيء من الحلو. فهذه أكلتهم المفضلة.

ونجد الزهراء ﷺ ترسم صورة أكثر براعة من هذا، فتقول في خطبتها: «وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرْق[4] فأنقذكم الله بأبي محمد ﷺ منها»[5]. والقدّ هو جلد الخروف بعد أن يؤخذ لحمه[6]؛ فهم يضطرّون أحياناً لأكل الجلد، وقد يضطرّهم الأمر أحياناً لأكل الحشرات.

فالنبي ﷺ انطلق من هذه النقطة، وإذا بك تدخل بعد أيّام إلى مطابخ

---

(١) العلهز: شيء يتّخذون منه طعاماً في سنيّ المجاعة، حيث يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. وقيل: كانوا يخلطون فيه القردان، ويقال للقراد الضخم: علهز. وقيل: العلهز شيء ينبت ببلاد بني سليم له أصل كأصل البردي. والفسل: الرديء الرذل من كلّ شيء. المصدر نفسه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣: ٢٩٣ ـ علهز، ٣٢٣ ـ عول، ٤٤٦ ـ فسل، لسان العرب ٥: ٣٨١ ـ علهز، ١١: ٥١٩ ـ فسل.

(٣) غريب الحديث (ابن قتيبة) ٢: ١٤٠، لسان العرب ١٣: ٢٠٦ ـ سخن، طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢٢ / ٣٠٥.

(٤) الطَّرْق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق.

(٥) شرح الأخبار ٣: ٣٥.

(٦) لسان العرب ٣: ٣٤٥ ـ قد.

المسلمين فتجد فيها ما لذّ وطاب، في حين أن فترة البعثة هي (٢٣) سنة فقط. فهل يستطيع أحدنا أن يربّي في مثل هذه الفترة ولداً واحداً فقط؟ فكيف بتربية مجتمع معقّد غاية التعقيد؟ لقد جاء النبي ﷺ إلى الاقتصاد فعالج الموانع عن تنمية الاقتصاد، فجعل النفوس تتقبّل العمل بعد أن كانت تأنف منه[1]، وجعل المجتمع ينزل إلى العمل بمختلف أصنافه. وحمل شعار «من لا يعمل لا يأكل»[2]. وهذا

---

(١) والرسول الكريم ﷺ لم يكن يقول ذلك فقط، بل كان يطبقه بالفعل على الواقع كما سنراه في الأمثلة التالية:

١- فمن المعلوم أن الرسول ﷺ مارس الرعي والتجارة بنفسه كما هو المشهور من سيرته.

٢- كما أنه ﷺ كان يؤكّد عليه بقوله: «لأن يحمل الرجل حبلاً فيحتطب به ثم يجيء فيضعه في السوق فيبيعه ثم يستغني به فينفقه على نفسه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». الكافي ٤: ٢٠ / ٣، مسند أحمد ١: ١٦٤، ٢: ٤٩٦.

٣- وبقوله ﷺ: «والله لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدّق خير له من أن يأتي رجلاً أغناه الله عزّ وجلّ من فضله فيسأله أعطاه أو منعه». مسند أحمد ٢: ٣٠٠.

٤- وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، فشكا إليه الفاقة، فقال ﷺ له: «انطلق حتى تجد من شيء». فانطلق فجاء بحلس وقدح، فباعهما له رسول الله ﷺ، وقال له: «اشترِ بدرهم فأساً وبدرهم طعاماً لأهلك، وانطلق إلى هذا الوادي فلا تدع شوكاً ولا حطباً، ولا تأتني إلّا بعد خمسة عشر يوماً». فانطلق فأصاب عشرة: فعاد إليه فقال له: «فانطلق فاشترِ بخمسة طعاماً لأهلك». فقال: يا رسول الله، لقد بارك الله لي فيما أمرتني. فقال ﷺ: «هذا خير من أن تجيء يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة. إن المسألة لا تصلح إلّا لثلاثة: لذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مفقع». انظر: بحار الأنوار ١٠٠: ١٠، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٥.

(٢) ليس المراد أنه مبدأ إسلامي بمنطوقه، بل المراد: بمفهومه، ذلك أن الإسلام حثّ على العمل، ومنع من التصدّق على القادر على العمل كيلا يُتسبّب في إعانته على خلق طبقة غير منتجة، وبالتالي زيادة نسبة البطالة في المجتمع. ومن مصاديق حثّ الإسلام على العمل وترغيبه فيه ما روي من أحاديث عن الرسول الأكرم ﷺ ممّا مرّ بعضه في الهامش السابق. ويلاحظ أنه يجب التفريق بين تطبيق هذا المبدأ في الإسلام وفي غيره؛ فالمقصود به في الإسلام: القادر على العمل، أو من تتوفّر له فرص العمل لكنه لا يعمل، في حين أن من لم يكن كذلك فإن الإسلام يضمن له حاجاته الحياتية حتى يتمكن من العثور على عمل بالنسبة

الشعار أوّل من طرحه هو الإسلام؛ لأن الله جنّد الناس إلى العمل في مختلف الميادين: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»[١]. ثم كرّم العمل والعامل[٢]، ثم أعاد توزيع الثروة[٣]، ثم استفرغ وسع المجتمع كلّه في استثمار الطاقات.

وإذا بنا بعد فترة نلاحظ مثلاً أن الزبير يموت وعلى مربطه من الخيل ألف فرس[٤]، ويموت زيد بن ثابت فيترك من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس[٥]،

☛ يكن كذلك فإن الإسلام يضمن له حاجاته الحياتية حتى يتمكن من العثور على عمل بالنسبة للقادر عليه أو حتى يتوفّاه الله بالنسبة للعاجز، أمّا في غير الإسلام من الأنظمة الوضعية فالمراد به كلّ أُولئك؛ سواء كان قادراً على العمل أو لا. وهذا ما أراده المحاضر ممّا مرّ في موضوع «المبادئ لا ترتبط بالقائمين عليها»، ولأجله نوّهنا.

(١) الفقيه ٣: ١٥٦ / ٣٥٦٩ عن العالم عليه السلام، وروي عن الرسول ﷺ بلفظ «احرث لدنياك ...». النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٢٤٦ ـ حرث.

(٢) قال الصادق عليه السلام: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله». الكافي ٥: ٨٨ / ١، الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام: ٢٠٨، وفيه: عن رسول الله ﷺ.

(٣) كما في مسألتي الزكاة والخمس، والمساواة بين المسلمين في العطاء، وغير ذلك.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، ونصّ عبارته: في أيّام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مئتا ألف دينار، وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلّة طلحة من العراق ألف دينار كلّ يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلّف زيد بن ثابت من الفضّة والذهب ماكان يكسر بالفؤوس، غير ما خلّف من الأموال والضياع بمئة ألف دينار. وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندريّة. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة، وبناها بالجصّ والآجرّ والساج. وبنى سعد بن أبي وقّاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات. وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصّصة الظاهر والباطن. وخلّف لعلي بن منبّه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ممّا قيمته ثلاثمئة ألف درهم. وانظر المنتخب من ذيل المذيّل (الطبري): ١٣، وفيه: اقتُسم ميراث الزبير على

ويموت عبد الرحمن بن عوف فيأتون بتركته إلى مجلس الخليفة الثالث فيقف رجلان كلّ واحد في جهة من التركة فلا يرى أحدهما الآخر[٦]. وقد انعدمت الحاجة تماماً في عهد النبي ﷺ، ولا أقول انعدم التفاوت؛ لأن انعدام التفاوت نظرية طوبائية لا يمكن أن تكون على أرض الواقع. فليس من الممكن أن يكون هناك مجتمع ينعدم فيه التفاوت، فالله تعالى خلق البشر متفاوتين بالعقول والإدراك والأجسام. فلابد من وجود تفاوت في المعاش أيضاً، لكن ينبغي أن يكون تفاوتاً معقولاً لا أن يصل إلى درجات مرعبة. فالنبي ﷺ ركّز الحالة الاقتصادية ووضع أُسسها وقواعدها العامّة، ثم ذهب إلى ربه.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد جاء النبي ﷺ والأرحام تُقطع، والدماء تسفك، فيجنّ الليل على الإنسان وليس عنده إلّا النهب والسلب والاعتداء، وإذا بالنبي ﷺ يجنّد هؤلاء للعبادة، فالذي كان إذ جنّه الليل ينهب ويسلب إذا به يفترش محراباً من الحصباء عند هجوع الأنفاس ويستقبل القبلة ويتّجه إلى الله يستوحي منه الخير. فهو ﷺ وجّه هذا الإنسان إلى الصلاة: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[٧].

وإذا بهذه المدينة التي كانت إذا مرّ بها أحد في الليل سمع اصطكاك الأسنة وضرب السيوف الرماح، وتعديل الأسلحة، صار المارّ بها ليلاً يسمع القرآن في

☚ أربعين ألف ألف.

(٥) مروج الذهب ١: ٤٣٤، وروي أن عثمان أعطاه يوماً مئة ألف مرّة واحدة، انظر أنساب الأشراف ٥: ٣٨، ٥٢، وروي كذلك أنه قال: كان عمر يستخلفني على المدينة، فوالله ما رجع من مغيب قط إلّا قطع لي حديقة من نخل. انظر: الإصابة ١: ٥٦٢، سير أعلام النبلاء ٢: ٤٣٤، أخبار القضاة ١: ١٠٨.

(٦) مروج الذهب ٢: ٣٤٠، حلية الأولياء ١: ١٦٠.

(٧) الإسراء: ٧٨.

البيوت: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[1]، ويسمع فيها ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾[2]، وإذا المجتمع مجتمع قرآن، وإذا الليل يمرّ عليهم بين باكٍ وشاكٍ ومتضرّع ومتأوّه ومتقرّب إلى الله، ويصبح عليهم الصباح وقد استعدّوا للجهاد دفاعاً عن كلمة التوحيد:

سمةُ العبيدِ من الخشوعِ عليهم ... لله إن ضمّتهم الأسحارُ

وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم ... بيضُ القواضبِ أنهم أحرارُ[3]

نعم، جاء النبي ﷺ إلى تلك الأمّة التي كانت مسحوقة من عروش كسرى وقيصر، فجعلها تسحق تلك العروش، وترفع لواء «لا إله إلّا الله». فهو ﷺ إذن ابتدأ من الصفر، وأول معجزاته تمكّنه من خلق مجتمع تكافلي مع أنه لا يقرأ ولا يكتب.

المعجزة الثانية: القرآن الكريم

فالنبي ﷺ جاء في معدن الفصاحة والبلاغة، وهذا القرآن بين أيدينا منذ (١٤٠٠) سنة، وله من الأعداء ما لا يعدّ ولا يحصىٰ، بل إن الدنيا لا زالت تعيش إلى اليوم الحملات الصليبية؛ فإن ذهبت إلى أوربا لمست ذلك الحسّ الصليبي بأوضح صوره، فهم لازالوا يبحثون عسى أن يجدوا سقطة في القرآن، ويحركون أتباعهم ويحثّونهم على ذلك. فقد رأيت مثلاً أحد المسيحيين اللبنانيين يحمل الدكتوراه ـ وإني لأستغرب كيف نال هذه الشهادة ـ يقول: إن هذا القرآن في غاية الضحالة، فهو يتحدّث عن ناقة صالح مرّة، وعن الذبابة مرّة أُخرى، وعن

---

(١) الفرقان: ٦٤ ـ ٦٧. (٢) لقمان: ١٨.

(٣) ديوان السيّد حيدر الحلّي ١: ٨٢.

العنكبوت مرة ثالثة؛ فهذا الكتاب كلّه أساطير.

وهذا اللون من التفكير ضحل جداً؛ لأن القرآن اشتقّ أمثلة من المحيط أراد بها أن يقدّم المعنى، فيجعل منه صورة متحرّكة محسوسة شاخصة أمام أعين الإنسان، فعندما يريد القرآن أن يصف من يحمل علماً ولا ينتفع بعلمه ـ فإن بعض الناس يحمل العلم لكنه ليس أكثر من أنه يخزّن العلم في رأسه، فيستعمل الدجل ليسرق وينهب ويكذب، ويدعي ادعاءات أكبر من حجمه، فهو يحمل العلم لكنه لا يستفيد منه ـ فإنه يقرب هذا المعنى إلى البسطاء فيقول: ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ**﴾[1]. وهذا أروع تمثيل، فهذا أولاً كلّه خسّة؛ لأنه يلوّث جبين العلم والصلاح فهو مثل الكلب. وثانياً أن الكلب يلهث سواء حملت عليه أو لم تحمل، وهذا مِثله لأنه لا يستفيد من علمه؛ فهو سيّئ؛ سواء كان عنده علم أم لا.

فالقرآن أراد أن يقرّب الصورة المعنوّية بهذه الصورة الحسّيّة، فصوّر هؤلاء الذين يسخّرون علمهم للجبابرة وتحت أحذية الظالمين ويخدمون به حكماً متهرّئاً، أو يعملون ما يلوّث جبين العلم، صوّرهم بأنهم مثل الكلب الذي يلهث في كلّ وقت. فأية صورة أروع من هذه الصورة؟ وهل هذا كتاب أُسطورة، أم أنه يحاول أن يلبس المعنى صورة شاخصة ليقرّبه إلى الذهن؟

فالقرآن جاء بما يحمل من روعة ليبني المجتمع الإسلامي، ولا يزال مصدر عزّتنا وأحكامنا وحضارتنا، ولا يزال شعارنا ومجدنا، (نسأل الله تعالى أن يجعلنا دائماً ممّن يحمل كتابه الكريم فكراً ومضموناً، وممّن يعيشه في حياته وسلوكه ولسانه).

---

(١) الأعراف: ١٧٦.

المعجزة الثالثة: خلقه الكريم ونفسه الرحيمة

فهاتان المعجزتان واضحتان للنبيﷺ، ومن بعد ذلك فكلّ جانب من جوانب حياة النبيﷺ معجزة، فقد حمل هذا الرجل نفساً وسعت الدنيا بأجمعها، فهو كما يقول عنه أنس بن زنيم:

وما حملتْ من ناقةٍ فوقَ كُورِها ... أبَرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمدِ

فهذا الرجل وسع الدنيا بتلك النفس، والآن ـ ونحن إذ نعيش في القرن العشرين ـ لو ذهب أحدنا إلى الصحراء وجلس إلى جنب البدوي المتأصّل في البداوة، فهل يستطيع أن يحتمله خمس دقائق من الزمن؟ وانظر إلى رسول اللهﷺ كيف يصبح عليه الصباح فيجدونه في معاطن الإبل، وحوله الأعراب الجفاة مستلقين على بطونهم ويلعبون بأرجلهم، وهو إلى جانبهم يهديهم ويرشدهم ويبنيهم، إلى أن استطاع أن يخلق من هؤلاء عباقرة يتملّاهم التاريخ بإعجاب. فقد نظر إليهم النبيﷺ على أنهم مرضىً يجب أن يداوَوا، فوسعهم بخلُقه، وهم أُولئك الذين كانوا يدخلون إلى بيته فيستخدمون معه أغلظ وأخشن الأساليب[1].

جاء سهيل بن عمرو في واقعة الحديبية مفاوضاً النبيﷺ من قبل قريش، فلمّا جلس وضع ركبته على صدر النبيﷺ، وأمسك لحيته بيده وراح يهزّه هزّاً، ويقول له: يا محمد. والنبيﷺ ساكت، والصحابة واضعون أيديهم على مقابض سيوفهم يريدون أن يضربوه، وهوﷺ يشير إليهم ألّا يفعلوا. فلما أرادوا أن يكتبوا المعاهدة قال النبيﷺ لعليعليه السلام: «**اكتب: هذا ما تعاهد عليه رسول الله محمد بن عبد الله ...**».

---

(١) كمثال على ذلك انظر: المحاسن ٢: ٣٣١ / ٩٦، الفقيه ٣: ١٠٧ / ٣٤٢٦، شرح الأخبار ١: ٢٣١، المسند (الشافعي): ٢٠، سنن ابن ماجة ٢: ٧٦٧ / ٢٢٨٦.

فقاطعه سهيل قائلاً: مهلاً، لو كنت أعرف أنك رسول الله لأطعتك، ولكن من قال: إنك رسول الله؟ اكتب: (محمد). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فقلت: هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، لا والله لا أمحوها. فقال صلى الله عليه وآله لي: أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ**»[1].

وفعلاً مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بمثلها، وذلك في واقعة صفين، فقد أجبره عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وأشباههم على ذلك[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥ ـ ٣٦٦، سنن النسائي ٥: ١٦٧ / ٨٥٧٦.

(٢) قال ابن حجر مفسّراً رفض الأمير عليه السلام محو كلمة رسول الله مع أمر الرسول صلى الله عليه وآله إيّاه بذلك بقوله: وكأن علياً فهم أن أمره له بذلك ليس متحتّماً، فلذلك امتنع من امتثاله.
وفسّر قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»، بقوله: يشير صلى الله عليه وآله إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين، فكان كذلك. فتح الباري ٧: ٣٨٦.
وقول ابن حجر: «فكان كذلك»، يفسّره ما رواه ابن قتيبة الدينوري في (الإمامة والسياسة) عند ذكر صلح أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان، حيث قال: «فلما جيء بالكتاب ـ يعني كتاب الصلح ـ قال علي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحمن. هذا ما تقاضى عليه علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين، ومعاوية بن أبي سفيان». فقال معاوية: علام قاتلناك إذا كنت أمير المؤمنين؟ اكتب: علي ابن أبي طالب. فقال الأشعث: اطرح هذا الاسم فإنه لا يضرّك. فضحك علي، ثم قال: «دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية حين صدّه المشركون عن مكّة، فقال: يا علي اكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ومشركو قريش، فقال سهيل بن عمرو: لقد ظلمناك إذا يا محمد إن قاتلناك وأنت رسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال صلى الله عليه وآله: اكتب محمد بن عبد الله، وإني رسول الله. وكنت إذا أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله بشيء أسرعت، وإذا قال مشركو قريش أبطأت به، وإذا كتبت نبي الله، قال: امحُها، فتعاظمني ذلك». فدعا بمقراض فقرضه، وكتب: «بسم اللهُ الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان». فقال أبو الأعور: أو معاوية وعلي. فقال الأشعث: لا لعمر الله، ولكن نبدأ بأوّلهما إيماناً وهجرة.
الإمامة والسياسة ١: ١١٤ ـ ١١٥.
والأنكى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أرهص بهذا الأمر لأبي موسى الأشعري حيث قال عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى: مررت مع أبي موسى الأشعري بدومة الجندل فقال:

فهكذا كان سهيل بن عمرو مع النبيﷺ، ومن بعد ذلك وفي يوم الفتح يقول سهيل: انقمعت في بيتي وأرسلت ابني عبد الله وقلت له: اذهب إلى محمد وخذ لي منه الأمان، فأقبل ابنه فقال: سهيل بن عمرو تؤمنه يا محمد؟ قال: **«نعم، له الأمان»**. وسهيل له عقل وله رأي وله حكمة، وما أظنه يكون بعيداً عن الإسلام. والتفت إلى أصحابه قائلاً: **«لا يحدنَّ أحد منكم النظر إلى سهيل»**.

وبقي سهيل ينعم بذلك الأمان، مع أنه كان يقول: ما تركت سوءاً إلّا أسأت به إلى محمد. ثم أسلم يوم الجعرانة وحسن إسلامه وكان من خيار المسلمين.

وكذلك التقاهﷺ أعرابي فأمسكه من تلابيبه، ثم قال له: بعتك فرساً ولم تدفع لي الثمن. فقال النبيﷺ: **«بل اشتريت وأعطيتك الثمن»**. فقال الأعرابي: كلّا، لم تسدّد، هات الشهود. فانفعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي بدفعه أو قتله، فقال النبيﷺ: **«دعوه، إن لصاحب الحقّ مقالاً»**. ثم قال: **«من منكم يشهد لي؟»** فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن ثابت الأنصاري فلمّا رأى الجمع سأل عنه فقيل له: أعرابي يطلب من النبيﷺ ثمن فرس وقد حبسه في الشمس يطالب بحقّه، والنبيﷺ يطلب الشهود فلم يشهد له أحد. فقال خزيمة: أنا أشهد.

فناداه النبيﷺ فقال له: **«كيف تشهد وأنت لم تكن معنا ولم تسمع ولم ترَ؟»**. قال خزيمة: صدقناك على الوحي وأخبار السماء وما تنقل عن الله ولم نصدّقك

☚ حدثني حبيبي ـ يعني: رسول اللهﷺ ـ: «أنه حكم في بني إسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور، وأنه يحكم في أمّتي في هذا المكان حكمان بالجور».

قال: فما ذهبت إلّا أيام حتّى حكم هو وعمرو بن العاص بما حكما، قال: فلقيته فقلت: يا أبا موسى، قد حدثتني عن رسول اللهﷺ بما حدثتني. فقال: والله المستعان. معجم البلدان ٢: ٤٨٩ ـ دومة الجندل.

وهذا يعني أن أمير المؤمنينعليه السلام قد جري عليه كلّ ما جرى على الرسولﷺ.

في هذا؟ فإما أن تكون صادقاً فيكون قولك كلّه صدقاً، وإما أن تكون غير صادق فإن نبوتك كلّها غير صادقة. أي أنه يريد أن يقول له: نحن عندما صدّقناك صدّقناك بكلّ شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنك نبي. فقال النبي ﷺ: «قد أجزت شهادتك وجعلتها بشهادتين». فلقب خزيمة من ذلك اليوم بذي الشهادتين[1].

فهذا الصدر وسع العالم، وهذه الروح الكريمة تعاملت مع ألدّ أعدائها. وممّا يؤسفني أن الكثير من أبنائنا لم يستوعب تاريخ النبي ﷺ، والمفروض أنه بدل أن تذهب مطالعاته إلى أشياء تافهة عليه أن يدرس سيرة النبي ﷺ ليرى كيف أن هذا الرجل العظيم يتفجّر عبقرية. فكل مسلم ملزم أن يأخذ فكرة كاملة عن حياة النبي ﷺ؛ لأنه إن استوعب حياة النبي ومواقفه ﷺ، واطّلع عليها فإنه سيطّلع على عالم كلّه بهجة وإشراق ونور وعطاء. فكلّ شابّ مسلم ملزم أن يمدّ يده إلى هذا النبع الهادر الذي لا يقف عند حد، والذي يقول فيه أحَد الشعراء:

قطعتُ إليك البيدَ شاسعةَ المَدَى ... إذا ما تقضّى سَبسَبٌ جدَّ سبسبُ[2]

تخايلَ فيها الرّملُ أن صارَ مَعبَراً ... إليك ودربٌ للحبيبِ مُحَبَّبُ

ولاحَ عليها رسمُ أخفافِ ناقةٍ ... غزوتَ عليها يومَ لله تغضَبُ

وقافِلةٌ ما زالَ رَجعُ حدائِها ... يُغرِّدُ في بَدرٍ وأُحدٍ ويُطربُ

عليها من الأصحابِ مَحضُ عَزائِمٍ ... إلى الآن بالصحراء منها تَلَهُّبُ

إلى أن يقول:

---

(١) الانتصار: ٤٩١، سنن أبي داود ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧ / ٣٦٠٧.

(٢) السبسب: المغازة. لسان العرب ٦: ١٥٢ ـ سبسب.

وعـفّرتُ خـدّي فـي ثـرىً مسّ عـفرَهُ ... لجـبريلَ مـن جـنحَيه رِيشٌ مُـزَغَّبُ

وفـيـه مـحاريبٌ لآلِ مُـحمَّدٍ ... بِـهِنَّ ضَـراعـاتٌ إلى الله تُـنصبُ

وآثـارُ أقـدامِ صِـغارٍ ومَـهجَعٌ ... إلى الحَسـنين الزّاكـيينِ ومَـلعبُ

وصـوتُ رَحـى الزَّهـراءِ تَـطحنُ قُـوتَها ... إلى جـلدِ كـبشٍ حـيثُ تـجلسُ زَيـنبُ

رُؤىً سوفَ يَـبقى الدَّهـرُ يَـروي جَـلالَها ... وتَـبقى عـلى رَغمِ البَساطةِ تَأشَبُ[1]

المبحث الخامس: فترات حياة النبي ﷺ التبليغيّة

فالنبي ﷺ عاش هذه الفترة على ثلاث مراحل: مرحلة في مكّة، وأُخرى في المدينة بعد هجرته قبل مرضه، والمرحلة الثالثة لما ألمّ به المرض في يوم السبت، الحادي والعشرين من شهر صفر. وقد خرج في ذلك اليوم كما تقول أمّ المؤمنين عائشة يشكو وهو يتكئ بيد علىٰ كتف الفضل بن العباس وبأُخرى علىٰ كتف رجل آخر. فحتىٰ اسم علي ﷺ لا يطاق ذكره، وهو ذلك العبقري الذي هيّأ لها يوم الجمل أربعين خادمة يخدمنها[2]، لكنها لا تطيق أن تقول: إن يده الأُخرى ﷺ على عاتق علي بن أبي طالب ﷺ.

نعم، خرج حتى وصل إلى قبور أهل البقيع فصاح: «**السلام عليكم يا أهل القبور، السلام عليكم يا أهل البقيع، ليهنِكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح فيه الناس، لقد أقبلت الفتن كأنها قطع الليل المظلم يتبع آخرُها أوّلَها**». ثم استغفر لهم وقرأ لهم شيئاً من القرآن ثم رجع فأوى إلى بيته[3].

---

(١) تأشّب: تختلط. لسان العرب ١: ١٤٩ ـ أشب.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(٣) الإرشاد ١: ١٨١، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٣.

يقول المؤرخون: إنه صلى الله عليه وآله قال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت عائشة: ادعوا له أبا بكر. فرفع صلى الله عليه وآله رأسه ثم وضعه وقال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت حفصة: ادعوا له عمر. فرفع صلى الله عليه وآله رأسه ثالثة ووضعه، وقال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت أمّ سلمة: لا تؤذوه، إنكم تعلمون من يريد، ادعوا له عليّاً. فدُعي له علي عليه السلام، فاستدناه إليه فسارّه، تقول أمّ سلمة: وضع صدره على صدره وراح يسارّه طويلاً إلى أن خرج[1].

واستمرّت به الحالة فترة من الزمن، فقال يوماً: «مروا أحدكم فليصلِّ بالناس». إذ لم يستطع أن يصلي بالناس، إلى أن وجد يوماً في نفسه نشاطاً، فخرج وصعد المنبر وقد أسندوه، فقال: «أيها الناس، أي نبيّ كنت لكم؟ ألم أربط على بطني حجر المجاعة؟ ألم أُجاهد الكفار والمنافقين؟ ألم أُقاتل في سبيل الله؟ ألم؟... ألم؟»... ثم قال: «إن ربي أقسم ألّا يفوته ظلم ظالم، فأيّما امرئ منكم له ظلامة عند محمد فليقم إليّ يأخذها، فإن القصاص في دار الدنيا أحبّ إليّ من القصاص يوم القيامة على رؤوس الأشهاد». فقام إليه أحدهم فقال: كنت طالباً منك أن تساعدني في زواج وقد وعدتني بأُوقيّتين. فأشار النبي صلى الله عليه وآله إلى الفضل بن العباس فقال: «نَحّله ما وعدته به». وقام له سوادة بن قارم فقال: يا رسول الله، لي عندك شيء. قال صلى الله عليه وآله: «ما هو؟». قال: كنتَ راجعاً من الطائف، فرفعت السوط لتضرب الناقة فوقعت الضربة على بطني. وأنا أُريد القصاص. فالتفت إلى بلال فقال: «يا بلال، اذهب إلى بيت ابنتي فاطمة وعليّ وائتني بقطعة الخيزران».

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٩٣، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٦٨ / ٤١، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ١: ١٧٥، ينابيع المودّة ٢: ١٦٣ /

فذهب إلى بيت فاطمة. فقال: يا بنت رسول الله، أعطيني هذه القطعة. فقالت: «لماذا؟». قال: إن أباك يريدها. قالت: «وماذا يريد بها؟». قال: أوما علمت أنه يودّع أهل الدين والدنيا. فصاحت: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه!». ثم أخرجت له قطعة الخيزران، فتناولها النبيﷺ بيده فأعطاها له وقال: «خذ يا سوادة». فقال: يا رسول الله اكشف لي عن صدرك. فكشف له النبيﷺ. فقال: يا رسول الله، أتأذن لي أن أقبّله؟ فقال: «افعل». فوضع فمه عليه وقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله.

ثم أُرجع النبيّﷺ إلى البيت وهو مثقل، فلمّا أضجعوه على فراشه أقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه». فأدناها النبي إليه وسارّها طويلاً فبكت، ثم سارّها فضحكت، فلما خرجت سألتها بعض نساء النبي: ما سبب ضحكك وبكائك؟ قالت: «إني إذاً لبَذِرة». ولما سئلت بعد ذلك قالت: «نعى إليّ نفسه فبكيت، ثم أخبرني أنني أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت؛ لأنني فرحت أن ألحق بأبي».

ثم جلست إلى جانبه ورأسه في حجر أمير المؤمنينعليه السلام، يقول أمير المؤمنينعليه السلام مخاطباً إياه: «ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري». فقد كان رأسهﷺ بين صدر أمير المؤمنينعليه السلام ونحره، وبين الآونة والأُخرى كان الإمامعليه السلام يأخذ شيئاً من الماء ويمسح به جبين رسول اللهﷺ وهو يرفع رأسه فيقول: «رفقاً بي ملائكة السماوات، رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون». وكان يقول: «حبيبي جبرئيل، عند الشدائد لا

تخذلني»[١]. حتى إذا اشتدّت الحالة عليه كما يقول أمير المؤمنين؟: أقبل الحسن والحسين؟ فوقعا على صدره، فأراد الإمام؟ أن يبعدهما عنه لئلا يضايقاه، فقال؟: «لا، لا يا علي، دعهما أتزوّد منهما ويتزوّدا مني»[٢].

ثم أخذ يضمّهما إليه وهو في آخر لحظات حياته، ولكن لمّا اشتدّ عليه الأمر سجّاه أمير المؤمنين إلى القبلة... وا رسول الله، وا نبي الله، أغمض عينيه ومدّد يديه ورجليه، وفاضت روحه الشريفة الطاهرة، فأقبلت إليه ابنته فاطمة؟ فألقت بنفسها عليه وهي تصيح: «وا لوعتاه، وا ثكلاه بعدك يا رسول الله». فأقبل إليها أمير المؤمنين؟، وأقامها من على جسد أبيها برفق[٣].

نعم هذه فاطمة لمّا وقعت على جسد أبيها أقامها علي برفق، وجلس تلك الليلة عندها يهدهدها؛ لأن رسول الله؟ لا زال مسجّىً والبيت مظلم، فكان أمير المؤمنين؟ يبعث السلوى والعزاء في نفس الزهراء؟ وهي تنتحب انتحاباً عالياً وتقول:

«نفسي على حسراتِها محبوسةٌ   يا ليتها خرجت مع الحسراتِ

لا خيرَ بعدك بالحياةِ وإنما   أبكي مخافةَ أن تطولَ حياتي»[٤]

هذا وفاطمة الزهراء؟ لا تريد أن تفارق النعش. وجرياً على عادة أهل البيت؟ منذ زمن النبي؟ أنه إذا قضى عندهم أحد كانوا يسرجون ضياء تلك الليلة في المكان الذي يقضي فيه نحبه، فأسرج أمير المؤمنين؟ الضياء في

(١) الأمالي (الصدوق): ٧٣٦/ ١٠٠٤. (٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢/ ١٢٤٤.
(٣) انظر: الأمالي (الصدوق) ٧٣٢ـ ٧٣٦/ ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٧، بيت الأحزان: ١١٨، تنبيه الغافلين: ٤١، وفي الجميع نسب لأمير المؤمنين؟.

المكان الذي توفي فيه رسول اللهﷺ.

وليتك ترى يا أبا الحسن مخيّم ولدك الحسين ليلة الحادي عشر من المحرم، هل كان فيه ضياء؟ لقد باتوا في الظلماء، والأطفال يتصارخون وقد جن عليهم الليل:

يبويه عليّه الليل هـوّذ   وآنه غريبه وما لي احّذ

وممّا ينصّ عليه الفقه الإسلامي[1] أن اليتيم ليلة يتمه يستحبّ مواساته، وألّا يترك وحده يجترّ الآلام؛ لذا راح أمير المؤمنين يواسي الزهراءﷺ، ولكن ليلة الحادي عشر من المحرّم من الذي واسى أيتام الحسينﷺ؟ وما كانت مواستهم؟ كانت السياط تتلوّى على أكتافهم:

وإن يبكِ اليتيمُ أباهُ شَجواً   قَرَعْنَ سِياطُهم رأسَ اليَتيمِ

---

(١) انظر مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٧٤٢ ـ ٤٧٤ / ب ٧٨، ١٥: ١٢٢ ـ ١٢٣ / ب ١٠، الجامع الصغير ١: ٢٠ / ٩٧، ٢٥١ / ١٦٤٥.

﴿٣٨﴾

الحرّيّة الشخصيّة من منظور إسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إلّا مَن أُكرِهَ وقلبُهُ مُطمَئِنٌّ بالإيمان﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: حول مسألة الاختيار عند الإنسان

إن من أثمن ما يمكن أن يتحلّى به المرء حرّيّة الإرادة، فإنسانيّة الإنسان تتحدّد بحرّيّة إرادته، فإن سلبت منه الإرادة تحوّل إلى كيان لا معنى له ولا قيمة. فالله جل وعلا عندما خلق الإنسان في هذا الكون أراد له أن يعيش فيه حرّاً، وإلّا فإن الكون على سعته وكبره سيتحوّل إلى سجن له إذا ما سُلبت منه إرادته. وهذا المعنى نسج على منواله أحد الأُدباء فقال:

أيها البلبلُ المعلّق بالسجـ	ـن سلامٌ فيه شظايا فؤادي
في ظِلال الوادي يرفُّ شقيقٌ	فحنيني إلى ظِلال الوادي
وبحضنِ الربيعِ في قُبةِ الور	د يُناغي الصباحَ شادٍ وشادي
وكلانا نروحُ في قبضةِ الصيّـ	ـادِ أسرى شُلّتْ يدُ الصيادِ

(١) النحل: ١٠٦.

فهو يقول له: أنا وأنت تحت رحمة صيّاد، وسوف نذهب في النهاية إلى قبضته، وسليب الإرادة هو أشبه بالطائر في القفص.

ولهذا نقول: إن تكريم الإنسان الذي نوّهت به الآيات الكريمة[١] لا يجتمع مع كون الإنسان مجبوراً، فنحن[٢] نعتقد أن الإنسان مخيّر لا مجبر، والمعتزلة يعتقدون أن الإنسان مفوض إليه أمره[٣]، أما المذاهب الإسلاميّة الأُخرى فتذهب إلى أن الإنسان مجبور[٤]. ومع كونه مجبراً يحمّلونه المسؤوليّة، فكيف تمّ لهم ذلك؟ إن الله إن كان يخلق عند الإنسان حبّ العمل السيّئ كالزنا، فلمَ يعاقبه عليه إذن إذا ارتكبه؟ إن هذا لون من الظلم. ومن ناحية ثانية فإن الإنسان إذا كان مجبراً على العمل فإنه يكون كالحجارة التي تتحرّك بتحريك لها، فيكون كياناً تافهاً لا قيمة له.

ثم إن القرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٥]، فكيف يجتمع التكريم مع سلب الإرادة؟ لذا فإن أدقّ النظريّات تذهب إلى أن الإنسان يملك الاختيار.

الداعي إلى فعل ليس كافياً في سلب الإرادة

ولا يشتبه أحد في أن الداعي مخلوق عند الإنسان من قبل الله جلّ وعلا، فالانسان عندما يخرج من بيته يستطيع أن يذهب إلى السوق باختياره أو إلى أي مكان آخر، وهذا الباعث الموجود عنده مخلوق من قبل الله. لكن الأمر علىٰ غير ما يُتصوّر، بل إن هذا هو منشأ الاشتباه عندهم، فهم يرون أن الباعث مخلوق من

(١) قال تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يس: ٢٧. وقال عزّ من قائل: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ الصافات: ٤٢. و: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ المعارج: ٣٥، وغيرها.
(٢) انظر: التوحيد: ٢٠٦ / ٩، ٣٦٢ / ٨، الاعتقادات: ١٠، شرح منهاج الكرامة ٩٤.
(٣) فتح الباري ١٣: ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٤) انظر شرح التجريد (القوشجي): ٣٢٩، ٤٤٣ (حجري).
(٥) الإسراء: ٧٠.

قبل الله فيستنتجون كون الفعل من قبله تعالى أيضاً. والصحيح أن خلق الباعث ليس كافياً في سلب الإرادة، فالله تعالىٰ مثلاً يخلق الحركة عند الإنسان، ولكنه لا يتدخّل في توجيهها، وإنما يترك له حرّيّة الاختيار في ذلك. والذي أُريد قوله هنا هو أننا لا يمكن أن نجمع بين تكريم الإنسان وسلب إرادته.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو أن الرواد الأوائل في الإسلام تعرّضوا من قبل قريش إلى تعذيب لا حدود له، فكلّ من أسلم عرضته قريش إلى التعذيب، ومن هؤلاء صهيب وخباب بن الأرت وبلال وياسر وسميّة وعمار بن ياسر. وكان عذاب قريش لا يطاق، فاستشهد ياسر وسميّة بعد أن ضُربا بالحراب، أما عمّار فقد ألحّوا عليه وطلبوا منه الاستجارة بوثن كما طلبوا ذلك من بعض الصحابة، فأعطوا كلمة خلّصوا بها أنفسهم. فلمّا عاد عمار إلى النبيﷺ كانت عيناه تطفحان بالدموع، فقال له: يا رسول الله، لقد انتزع هؤلاء مني كلمة بالإكراه. وقال من معه لرسول الله: قد كفر عمار. فقال: **«لا، لا تقولوا هذا، إن عماراً مُلِئ إيماناً من قرنه إلى قدمه»**. ثم قال له: **«لا تبكِ يا عمار، وإن عادوا فعُد»**. فنزلت الآية[1].

فإذا وصل الأمر بالإنسان المسلم إلى حدّ إتلاف النفس وكان بإمكانه أن يخلّص نفسه بكلمة، فقد أباح له القرآن ذلك.

والذي أُريد قوله هنا: إن هناك نزاعات انطلقت من هنا عند المفسّرين وعند المسلمين، هي أن الإنسان إذا أظهر خلاف ما يبطن في حالات معيّنة فهل يعتبر فعله هذا جريمة أم لا؟ ومن هنا نشأت فكرة التقيّة، فأدلّة التقيّة موجودة في

---

(١) مجمع البيان ٦: ٢٠٣، تفسير القرآن (الصنعاني) ٢: ٣٦٠، ولم يذكر الحديث.

القرآن، وهي أن الإنسان إذا وقع بين كفّار فإنه يستطيع أن يظهر خلاف ما يبطن، وكذلك إذا صار بين فسّاق من المسلمين من فرقة أُخرىٰ[١]. هذه هي فكرة التقيّة، ولكن بنى عليها البعض أهرامات من الادّعاءات، فقالوا: إن الشيعة يقولون بالتقيّة[٢]، والحال أن الفرق الإسلاميّة كلّها تقول بالتقيّة إلّا فئة معيّنة. وكمثال علىٰ ذلك تعال إلى كتب التفسير كلّها في قوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[٣]، فسوف ترى أن كلّ هؤلاء المفسّرين يقولون بالتقيّة. راجع في ذلك الزمخشري[٤] والرازي[٥] والقرطبي[٦] وغيرهم[٧]، فليس الشيعة وحدهم الذين يقولون بالتقيّة، بل حتى أغلب فرق الخوارج تقول بها، ولا كلام لنا بعدُ مع المهرّجين.

فالدين أباح للمسلم التقيّة، ومؤدّاها أن يخلّص الإنسان نفسه بكلمة أو فعل ينجيه من الموت، فما معنى الحملة عليه إذا أباح له الدين ذلك؟ وما معنى أن تنعت التقيّة بالنفاق أو بازدواج الشخصيّة أو غير ذلك؟

فالآية إذن نزلت في هذا المعنى، ونحن نعطي للكلمة معنى، ونرتّب عليها أثراً إذا ازدوجت مع القصد، ولذلك لا يترتّب الأثر على يمين الهازل، أو قول العابث الذي لا قصد له ولا إرادة[٨]، فإذا لم يكن مع الكلمة قصد فلا قيمة لها، وفي الوقت نفسه يكون القصد كافياً لترتيب الأثر عليه.

---

(١) كما مرّ في قصّة رأس المعتزلة واصل بن عطاء مع الخوارج في ج١ ص٢٥٣ من كتابنا هذا.
(٢) نقل الرازي والشهرستاني عن سليمان بن جرير أنه قال: إن أئمة الرافضة وضعوا مقالتين لشيعتهم لا يظفر معهما أحد عليهم: البداء والتقية. المحصل ٢ ١٨٢، الملل والنحل ١: ١٦٠.
(٣) آل عمران: ٢٨.
(٤) الكشّاف ١: ٣٤٦.
(٥) التفسير الكبير ٤: ١٤ ـ ١٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٥٧.
(٧) تفسير القرآن العظيم ١: ٣٦٥.
(٨) انظر شرائع الإسلام ٣: ٧١٢ـ ٧١٣.

المبحث الثالث: الحالات التي يترتّب فيها الأثر على المكرَه

الأصل في المكرَه ألّا يُرتّب عليه أثر، ولكن هناك مستثنيات يُرتّب فيها الأثر عليه، ومن هذه الحالات الاستثنائية:

الأولى: المرتدّ أو الكافر الحربي إذا أكرها على الإسلام

فإننا في هذه الحالة نرتّب عليه آثار الإسلام وإن لم يقصده. وقد يقال: كيف نلغي حرّيّة الفرد ونجبر هذا على الإسلام؟ والجواب هو أن حرّيّة الفرد تنتهي إذا وصلت إلى الإضرار بحرّيّة الآخرين. فالحرّيّة الفرديّة محترمة ما دامت تحفظ حرّيّة الآخرين، أما إذا اصطدمت بحرّيّة المجتمع فيضحّىٰ بحرّيّة الفرد من أجل حرّيّة المجتمع. فلو أنك كنت في محلّة ما، وأنت تعتقد أن القانون أعطاك حرّيّة استخدام المذياع، فتفتح المذياع في وقت نوم الناس بأعلى صوته، فتزعج الطفل والكبير الذي يريد أن ينام، فهل تعتقد أن هذا من موارد حرّيّتك؟ وهل إن هذه الحرّيّة صحيحة؟ بالتأكيد لا، لأن حرّيّتك هنا سوف تضغط على حرّيّة الآخرين؛ فهي إذن تنتهي هنا حيث تبدأ حرّيّتهم هم.

وهذا أشبه بمثل ضربه النبي ﷺ لأصحابه إذ قال لهم: «**مثل القائم على حدود الله والمداهن في حدود الله والراكب حدود الله كمثل نفر ثلاثة كانوا في سفينة، فتوزّعوا منازلها، فصار مكان النزّ ومهراق الماء لأحدهم، فتأذّوا به فأخذ القدّوم فقرع مكانه، فقال أحد الباقين للآخر: ألا ترى هذا الذي يريد أن يخرق سفينتنا فيغرقنا بعد؟ فقال له الآخر: دعه فإنما يخرق مكانه**». قال رسول الله ﷺ: «**فإن منعوه سلم وسلموا، وإن تركوه غرق وغرقوا**»[1].

فحرّيّة الإنسان ترتبط بحرّيّة الآخرين، فهذا الكافر الحربي إذا أُجبر على

---

(١) مسند ابن المبارك: ٤٧ ـ ٤٨، المعجم الأوسط ٩: ١٢٤، أمثال الحديث: ١٠١.

الإسلام فلابد من أن ترتّب عليه آثار الإسلام؛ لأنه إذا لم ترتّب عليه آثار الإسلام تحوّل إلى أداة تهدّد حرّيّة المجتمع. فالحملة على الكفّار في القرآن لا لأن الكافر يغيّر من واقع الدنيا شيئاً، فمهما كفر فلن يغيّر موسماً زراعيّاً، ولا يحرّك كوكباً عن مساره، ولا يضرّ بعظمة الله. لكن كفره يحوّله إلى أداة تخريب في المجتمع؛ لأنه لا إيمان له بقيم ولا بعقيدة، فهو يستحلّ أموال الناس وأعراضهم، ويهدّد أمن الجماعة. فالإنسان إذا لم يلتزم بقيم ما، وأصبح كلّ شيء لديه مباحاً من دماء وأموال وأعراض وكرامات، تحوّل إلى وحش، وصار الحيوان أحسن منه وأكثر أمناً، وأصبحتَ تطمئنّ للحيوان ولا تطمئنّ إليه؛ لأنك لا تخاف من الحيوان أن يؤذي إلّا إذا جاع، أما هذا فيتحوّل إلى أداة خطرة. ولذا تقف الشريعة من الكافرين موقفاً صلباً؛ لعدم إيمانهم بالقيم الصحيحة السليمة.

وقد يقول قائل: هناك كفّار في شعوب راقية ويؤمنون بقيم معيّنة.

فأقول له: لا تصدّق ذلك أبداً؛ لأنك الآن ترى شعوباً أمام عينيك تموت من الجوع من أجل مطامع، وليس عند الاستعمار اليوم مانع من أن يحرق منطقة بأجمعها من أجل أن يشغّل مصنعاً للأسلحة.

فالكافر الحربي يُجبر على الإسلام، ومع هذا الإجبار والإكراه يترتّب الأثر علىٰ إسلامه؛ لأنه إذا لم يترتّب عليه الأثر فلا فائدة من إجباره، فهو يجبر لحماية المجمتع منه.

الثانية: إكراه الأم على الرضاعة

يذكر الفقهاء أن الأمة تُكره علىٰ إرضاع ولدها وغيره[1]، ومع هذا الإكراه يترتّب الأثر، وهو نشر الحرمة.

---

(١) اللمعة الدمشقيّة: ١٧٦، الدرّ المنضود: ٢٠٤، الروضة البهيّة ٥: ٥٩ .

شروط الرضاعة الناشرة للحرمة

فالمرضعة تصبح أمّاً للمرتضع وتحرم عليه هي وولدها، ولكن مع توفّر شروط الرضاعة، وهي:

١ - أن تكون الرضاعة خلال السنتين. فكلّ رضاع بعد السنتين لا ينشر الحرمة؛ لأنه لا يبني لحماً ولا يشدّ عظماً، فإن بناء الطفل حينها يكون قد اكتمل.

٢ - أن تكون الرضعات متوالية لا متقطّعة. فإن تقطّعت وكان بينها أكل فلا تنشر الحرمة.

٣ - أن يكون الرضاع من الثدي بالفم. لا أن تحلب المرأة بإناء وتضعه في فم الطفل.

فإن اكتملت شروط الرضاع فإن الحرمة تنتشر ولو كان الرضاع قهراً، فالمرضعة تصبح له أمّاً من الرضاعة، تأخذ كلّ أحكام الأمّ؛ فإذا كبر الولد جاز له أن يطّلع على جسدها، وحرمت عليه بناتها والعكس صحيح، إلى غير ذلك من الأحكام.

التهريج بين المذاهب ظاهرة مبتذلة

والغريب أنني قرأت رواية يرويها أحد الفقهاء الأحناف وهو السرخسي صاحب كتاب (المبسوط) في باب الرضاع يقول فيها: إن السبب الذي من أجله أُخرج البخاري من بخارىٰ هو أنه أفتى أن لبن البقرة ينشر الحرمة، فلو أن اثنين أو ثلاثة شربوا من حليب بقرة واحدة صاروا إخوة[1]. وأنا أستغرب من هذا الرأي؛ لأن الناس كلّهم يشتركون في شرب حليب البقر، فهل يعني هذا أنهم إخوة بناءً على هذه الفتوى؟

---

(١) المبسوط ٣٠: ٢٩٧.

إن هذه الرواية يصعب تصوّرها أو تصديقها، ولا أتصوّر أن أحداً يمتلك أبسط مقوّمات الفكر الإسلامي فينتهي إلى مثل هذه النظرية. وهنا أودّ أن اُلفت النظر إلى مسألة التهريج الكائن بين بعض المذاهب الإسلامية[1]، فبعضها يهرّج علىٰ الآخر بما ليس فيه. وهي ظاهرة غريبة جداً، فهناك مثلاً قول وهناك لازم هذا القول، فيأتي من يُحمّل قول غيره لازم قوله، فقد تسمع من يتّهم الشافعي بأنه يقول بحلّيّة زواج الأب من ابنته. ومعاذ الله أن يقول الشافعي مثل هذا، فالشافعي رجل متمرّس بكتاب الله وسنّة النبي ﷺ والفقه، فكيف يمكن أن يخالف القرآن صراحة فيحلّ الزواج من البنت؟ والحال أن النزاع في هذه المسألة هو حول البنت المولودة من الزنا، فلو أن أحداً قارف الزنا وولدت له بنت، فهل هي أجنبيّة عنه أو لا[2]؟ هذا هو محل النزاع، فهناك من يقول بجواز الزواج منها حتى عندنا نحن لا عندهم[3] فقط؛ باعتبار أن الولد للفراش، وهذه لم تولد من فراش، وماء الزنا لا حرمة له.

فهناك إذن من يهرّج وينسب لغيره لازم قوله، كما يثار حول مسألة الرجعة مثلاً، والتهريج عنها، وقول الشيعة بها، فقد جاء أحدهم يوماً إلى مؤمن الطاق فقال

---

(١) فمثلاً يقول الحافظ أبو حاتم بن خاموش: كلّ من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم. انظر: تذكرة الحفّاظ ٣: ١١٨٦، سير أعلام النبلاء ١٧: ٦٢٥، ١٨: ٥٠٨، ويقول: عبدالله بن محمد ابن عقيل الباوردي ـ وكان من بقايا الصحابة على رأي الذهبي ـ: من لم يكن معتزليّا فليس بمسلم. ميزان الاعتدال ٢: ٤٩٨ / ٤٥٨٣، لسان الميزان ٣: ٣٥٣ / ١٤٣٠.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، وقد نسبه في كتابيه هذين إلىٰ مالك أيضاً. مواهب الجليل ٥: ١٠٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٦٠، مواهب الجليل ٥: ١٠٩، المغني ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير ٧: ٤٨٣.

له: أنت تقول بالرجعة؟ فقال: نعم، قال: أعطني ألف دينار وسأُعطيكها في الرجعة[1]. فقال: أُعطيك، لكن بشرط أن تضمن لي ألّا تُمسخ قرداً[2]. فهذه ليست لغة فقهاء، وإنما هو تهريج.

مع أننا نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[3]. ولو رجعنا إلى كتب التفسير لوجدنا أن أحد الوجوه في تفسير الآية فيه إشارة إلى العودة في الحياة قبل الموت. فهذا المعنى فهمناه من الآية، فلا يسوغ لأحد أن يهرّج حول هذا بهذا الشكل. إن الأُسلوب العلمي يقتضي أن يقال: إن هذا الفهم للآية خاطىء مثلاً، لا أن يُلجأ إلى التهريج واستخدام الكلام النابي الخشن كما هو الحال بين المذاهب.

وهناك حملة مثلاً على أبي حنيفة من أنه يبيح شراب الخمر، في حين أن الرجل يأتي إلى الآية: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾[4] فيقول: إن الآية في باب الامتنان أن الله أعطى العباد عنباً يتّخدون منه رزقاً حسناً وسَكراً؛ لذا فإن عصير العنب يجوز أن يشرب وإن غلى[5]. فالدليل عنده ضعيف، والاستنتاج ليس ناهضاً، والفقهاء يردّون عليه أن الآية قسّمت ما يُعمل من ثمرات النخيل والأعناب، فوضعت السكر مقابل الرزق الحسن، بمعنى أن هناك رزقاً حسناً ورزقاً غير حسن[6]. والرزق غير الحسن هو الخمر. لكن الرجل عنده وجهة نظر فهمها من الآية، فهو مخطئ في وجهة نظره ولكن لا يسوغ

---

(١) مستهزئاً بهذا الاعتقاد وهذه الفكرة، عابثاً بشأنهما، وهو أبو حنيفة.

(٢) الاحتجاج ٢: ١٤٨، تاريخ بغداد ١٣: ٤١١.

(٣) القصص: ٨٥. (٤) النحل: ٦٧.

(٥) نسبه السرخسي في المبسوط ٢٤: ٣ لشريك بن عبد الله، ونسبه في المحلّى ٧: ٤٩٢ لمقلدي أبي حنيفة. (٦) انظر المحلّى ٧: ٤٩٢.

لنا أن نهرّج عليه[1]. فأُسلوب التهريج المتّبع بين الفرق الإسلاميّة هو أُسلوب مخطوء وهدّام.

والمصيبة الأُخرى الكبرى في المسألة أن هؤلاء يأتون إلى كتب الأخبار فيأخذون منها آراء المذاهب، في حين أن كتب الأخبار غير كتب الفقه؛ لأن كتاب الأخبار فيه رواية تحتمل الصدق والكذب، فالراوي إمّا ثقة أو غير ثقة، والمضمون قد يكون مقبولاً أو لا. صحيح أن في (الكافي) روايات، لكن ليس كلّ ما فيه صحيحاً[2]، ولا كلّ ما في الكتب الأربعة صحيح. إن علماءنا يناقشون كلّ رواية مناقشة خاصّة، فليس كلّ رواية ترد في الأُصول الأربعة نرتّب عليها أثراً. لكن البعض من أمثال إحسان إلهي ظهير وأشباهه يأتون إلى رواية أو روايتين فيكتبون حولها ويهرّجون، لا سيما أن الثمن المقابل لهذه الكتابات مرتفع جداً.

إن هؤلاء يأتون إلى أُمّة كبيرة ثقلها القرآن، ودينها الإسلام وربّها الله فيحاولون أن ينسبوا إليها أنها تريد أن تمسخ القرآن، فليس هذا تفكير من يصدر عن قواعد إسلاميّة أو منطق إسلامي.

الثالثة: إكراه الممتنع عن أداء الحقوق الواجبة

وهي من الموارد التي يرتب الفقهاء عليها الأثر أيضاً فإن الممتنع يجبر على بيع أمواله وتؤخذ منه الحقوق كرهاً، وتترتّب آثار الصحّة على البيع. مع أن البيع كان بالإكراه وهو يشترط فيه أن يكون عن إرادة وقصد، لكن لما كان ممتنعاً عن أداء ما في ذمّته من حقّ واجب أُكره على بيع أمواله.

---

(١) ولعلّ ما ذكره البغدادي عنه خير دليل على ذلك. انظر تاريخ بغداد ١٣: ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

(٢) كما حقّقه المجلسي ﷺ في كتابه (مرآة العقول في شرح أخبار الرسول ﷺ)، وذلك على طبق قواعد علم الدراية.

الرابعة: الإكراه على القتل

فإن آثار القتل تترتّب عليه، ويعتبر المكرَه قاتلاً؛ فالدماء لا إكراه فيها.

الخامسة: الإكراه على الزنا

فإن المكرَه على الزنا تترتّب عليه آثار الزاني من حيث نسب الولد وانتماؤه، وغير ذلك.

وهناك موارد أُخرى للإكراه تترتّب عليها الآثار؛ لأنها تهدّد أمن الجماعة؛ فلذا تترتّب عليها الكثير من الآثار مع وجود الإكراه.

فالآية تقول: إن الذي يُكرَه وقلبه مطمئن بالإيمان فإن الله يرفع عنه المؤاخذة[1]، وعلينا نحن أيضاً أن نرفع عنه المؤاخذة، فنحن لا نتوقع من عمار، ذلك الإنسان المملوء إيماناً من قرنه إلى قدمه بشهادة النبيﷺ له أن ينحرف (والعياذ بالله)، وإنما استخدم عمار رخصة أعطاه الله إياها؛ ولذا كان عمار موضع تمجيد النبيﷺ وتكريمه.

---

(١) وفي رواياتنا الكثير من هذا؛ فمنه ما رويَ من أنّ مسيلمة الكذّاب أخذ رجلين من المسلمين، فقال لأحدهما: ما تقول في محمّد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيَّ؟ قال: وأنت أيضاً. فخلّاه، وقال للآخر: ما تقول في محمّد؟ فقال: رسول الله. فقال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أصمُّ. فأعاد عليه القول ثلاثاً، وهو يقول كذلك، فقتله.
وبلغ ذلك رسول اللهﷺ، فقال: «أمّا الأوّل فقد أخذ برخصة الله، وأمّا الثاني فقد صدع بالحقّ، فهنيئاً له». التفسير الكبير ٢٠: ٩٨، عوالي اللآلي ٢: ١٠٤ / ٢٨٨، بحار الأنوار ٧٢: ٤١٣.
ومنها قول أمير المؤمنينعليه السلام للطبيب اليونانيّ الّذي أسلم على يده: «وقد أذنت لك في تفضيل أعدائنا إن الجأك الخوف إليه، وفي إظهار البراءة منّا إن حملك الوجل عليه... فإنّ تفضيلك أعداءنا علينا عند خوفك لا ينفعهم ولا يضرُّنا، وإنّ إظهارك براءتك منّا عند تقيّتك لا يقدح فينا ولا ينقصنا، ولئن تتبرّأ منّا ساعة بلسانك وأنت موالٍ لنا بجنانك لتبقيَ على نفسك أفضل من أن تتعرَّض للهلاك». التفسير المنسوب للإمام العسكري: ١٧٦ / ٨٤، الاحتجاج ١: ٥٥٦.

وقال له النبي ﷺ يوماً: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن»[١].

وقد جاء عمّار يوم صفين ونزل يقاتل ويرتجز:

نحن ضربناكم على تنزيلهِ	فاليوم نضربكم على تأويلهِ
ضرباً يُزيل الهام عن مَقيلهِ	ويُذهل الخليلَ عن خليلهِ

ونزل يصدّق المقال بالقتال، حتى أثخنته الجراح فاستسقىٰ، فجيء إليه بضياح من اللبن، فقال: صدق حبيبي رسول الله ﷺ. وكان آخر شرابه اللبن، فاستشهد في الواقعة[٢].

ولما استشهد عمار أحسّ الإمام علي ﷺ بوحشة، فالإنسان إذا فقد لِداته وأقرانه ومن كان يأنس بهم فإن الدنيا تصبح عنده تافهة ضيّقة، فهو يتعامل يوميّاً مع الكثير من الناس، ولكن الذين يمتزجون معه نفسيّاً قليلون، وهم القرناء والأصحاب وأتراب الصبا وأصدقاء اللعب والطفولة، فإن ذهب هؤلاء أصبحت الدنيا عند الإنسان سوداء، يقول أحد الأُدباء:

ومن نُوَبِ الدنيا بقاؤك بعد من	إذا ذهبوا أبقوك دون مُشابهِ
فوجهٌ إذا ما غاب تبكيه ساعةً	ووجهٌ تَمَلُّ العمر بعد غيابهِ
وتدفن فيه في الثرى إن دفنتَه	وجودَك إن المرءَ بعضُ صحابهِ

فلما سقط عمار أقبل إليه أمير المؤمنين ﷺ فجلس عنده وقرأ هذه الأبيات:

---

(١) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

(٢) الاختصاص: ١٤، شرح نهج البلاغة ٨: ٢٤، ١٠: ١٠٥.

إلا أيّـها الموت الذي ليس تـاركي	أرحـني فـقد أفـنيت كـلّ خـليلِ
أراك بـصيراً بـالذين أحـبّهم	كأنك تـنحو نـحوهم بـدليلِ[١]

ثم قام متأثّراً منفعلاً وغمامة من الحزن تبدو على جبينه. وهذا الموقف يذكّرنا بموقف ولده الحسين عليه السلام لمّا رجع آخر مرّة إلى الخيمة، فقد قام من أجساد أحبّائه الذين نظر إليهم وهي تضطرب على الأرض، فأطال النظر إليهم ورمق السماء بطرفه فقال: «اللهم اجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلك»[٢].

وباركَ تلك الدماء الطاهرة وتلك الضحايا، ثم كرّ راجعاً إلى الخيمة والحزن يعلو جبينه، ووقف ينادي: «من يقدّم لي جوادي وأنا ابن أمير المؤمنين؟ من يقدّم لي جوادي وأنا ابن فاطمة الزهراء؟». خرجت إليه أُخته وهي تقول: أخـي لمن تنادي، جرحت فؤادي، وليس في مخيمنا سوى النساء والأطفال؟ وأخرجت الجواد وبيدها العنان وبالأُخرى الشكيمة وهي تقول: ما أجلدني وما أقسى قلبي! أي أُخت تقدّم لأخيها فرس المنيّة؟

ولمح الحسين عليه السلام في عينيها دمعة، فأخرج منديله فمسح به دمعة كادت تنزل على خدّها، وقال لها: «أُخيّة تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون ولي ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أسوة حسنة. أُخيّة تمسّكي بحبائل الصبر»[٣]. صاحت: والوعتاه ابن أمّ أراك تـغتصب نفسك اغتصاباً[٤].

---

(١) بحار الأنوار ٣٣: ٢٠، ٧٥: ٨٨.
(٢) مثير الأحزان: ٣١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٧، ينابيع المودّة ٣: ٦٢.
(٣) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.
(٤) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.

انـچان تـريدني أنسـه وابـطل النـوح وونـيني
اخـذ ذكـراك مـن گـلبي واخذ صورتك من عـيني
أيـام الچـنت ويّـاك أنـاغيك وتـناغيني
شـبيدي عـايشه ويّـاي مـن ذيـج الايـام اشـباح

* * *

عـمر مـا فـارگيتك بـيه تـذكر يـوم واحـنه صـغار
مـن حـضن امـي الزهـره الچـوانـح حـيدر الكـرار
عـيني اتـبحّر بـوجهك وروحـي ويـاك ليـل انـهار

* * *

قـوموا إلى التـوديع إن أخـي دعـا بـجواده إن الفـراق طـويلُ
فـبرزن رَبـات الحـجال حـواسراً وغـدا لهـا حـول الحـسين عـويلُ

﴿٣٩﴾

تأمّلات في حياة السجّاد عليه السلام

هـذا الذي تـعرف البـطحاءُ وطأتَـهُ / والبـيت يـعرفه والحـلّ والحـرمُ

هـذا ابـنُ خـيرِ عـبادِ الله كـلِّهِمُ / هـذا التـقيُّ النّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ

وليس قـولُك مَـن هـذا بـضائرِه / العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعـجمُ

فـي كـفه خَـيزُرَانٌ ريـحُهُ عَـبِقٌ / مـن كفِّ أروعَ فـي عِـرنِينِه شَـمَمُ

يُغضي حياءً ويُـغضَىٰ مـن مَـهابَتِهِ / فـلا يُكَـلَّمُ إلّا حـينَ يـبتسمُ

يكـادُ يُـمسِكُهُ عِـرفانُ رَاحَـتِهِ / رُكنَ الحطيمِ إذا مـا جَـاءَ يَسـتَلِمُ[1]

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: حول صفات الإمام عليه السلام

الإمام ليس إماماً بدمه ولا بعظمه، وإنما هو إمام بما يحمل من روح، وبما يقوم به من سلوك. فالإمام السجاد عليه السلام له مجموعة من الخصال اللامعة والملكات العالية التي تصل إلى مستوى ينحسر عنه البيان. ومن حقّنا أن نتساءل: كيف نستفيد من احتفالاتنا بمناسبات أيمّتنا؟ فالناس تأتي إلى الحفل وقد تركت ما لديها من أعمال مهمّة، فما الذي يحصل عليه هؤلاء الناس؟ وعندما نخرج من الاحتفال أو المجلس فهل نكون قد تأثّرنا بشيء من أخلاق أيمّتنا أو لا؟ وإذا كان «الرادود»

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦.

مثلاً يلقي قصيدة في الصحن والآخرون تحت منبره يستمعون ويردّدون معه، فهل سيحملون شيئاً من أخلاق الإمام وسلوكيّاته؟ وهل تبدو عليهم الروح الطيّبة في التعامل أم لا؟

وإذا أراد أحد الآن أن يدرسنا كشيعة، وخصوصاً في النجف الأشرف ـ التي لا تعرف نفسها وقيمتها، وأقول ذلك بملء فمي ـ باعتبارها المركز الروحي لمئة مليون شيعي ولباقي فرق المسلمين كذلك، فمن حقّه أن يتساءل: ما الذي استفاده هؤلاء الشيعة من احتفالهم بذكرى أيمّتهم؟ نحن لا ننكر أنه ليس كلّ من يحتفل بذكرى الإمام يقدّس الإمام، فقد يكون البعض يريد أن يعيش من وراء ذلك، ولكن بوسعه ـ حتى لو أراد أن يعيش ـ أن يحمل رسالة أهل البيت ﷺ.

وحينما تمرّ علينا أحداث وذكريات أهل البيت ﷺ فعلينا أن نضع أيدينا على هذا المنجم الغني لنخرج منه الزاد؛ لأننا بأمسّ الحاجة إلى الزاد؛ فنحن نعيش الآن فراغاً خصوصاً عند الشباب، النبع الجديد، الذي نقرأ في عينيه الامتداد الطبيعي للأُمّة. فهل نحن شاعرون بهذا الفراغ الذي يعيشه الجيل اليوم؟ وهل فكّرنا نحن بهذا الجيل؟ وهل نرى ما يفعل بنفسه كلّ يوم؟ إنه يشرب الخمر والحشيشة ويطيل شعره ويستعمل الرذيلة ويفعل ما يفعل ولم ينفعه كلّ ذلك في ملء الفراغ الذهني الذي عنده؛ فهو يتناول مختلف الأفكار الوجوديّة واليساريّة واليمينيّة، ولكنه لا يزال يعيش في فراغ. فهل فكّرنا في أن نضع إمكاناتنا بين يدي الجيل، وأن نهيّئ له من سيرة أيمّتنا ما ينفعه؟

إن هذا الجيل لا يعرف عن الإمام زين العابدين ﷺ شيئاً سوى أن أباه يبكي على زين العابدين ﷺ، أو أن أُمّه تأتي بخيط تشدّه في مقام زين العابدين في المجلس. فلا المنهج الذي يدرسه يبيّن له شيئاً عن زين العابدين ﷺ، ولا رجل

الدين يعطيه هذا؛ فنحن مقصّرون في حقّ هذا الجيل، إذ لم نقدّم له شيئاً في هذا المجال. وكلّنا يحترق لهذا المآل الذي آل إليه أمر الشباب. فهؤلاء أولادنا وثمرات أكبادنا وقلوبنا، وهم جيلنا الآتي. فأنا أودّ أن يأتي هذا الشاب الذي يحضر المجلس ويحاسبني ويحاسب نظرائي، فيقول لي: إن هناك اليوم من يحمل شهادة الدكتوراه ولا يجد رغيف الخبز، وأنت تتّجه اتجاهاً آخر فتُفتح لك الأبواب وتُقبَّل يدك وتحصل على الكثير من الأموال، فهل في مقابل هذا العطاء شيء؟ اشرحوا لنا سيرة أيمّتنا كما هي، وبيّنوا لنا الواقع كما هو، أو ما يفيدنا منه. كما أن على الشابّ أن يوجد عنده الحسّ الديني، فإن حصل عنده ذلك حصلت له استجابات كثيرة.

إننا نؤمن أن الحوزة العلميّة اليوم هي غير الحوزة العلمية قبل (٥٠) عاماً، ففيها الآن مَن كتب في مواضيع حديثة، وفيها من بدأ يعالج المشاكل الحديثة، وفيها من بدأ بالاستجابة إلى الشباب في كتابة أو مؤسّسة وإن كان ذلك على نطاق ضيّق لا يمكن اعتباره على مستوى المسؤوليّة، لكنه شيء موجود على كلّ حال. فإن وجد الرأي العام هذا الحسّ الديني فإن رجل الدين سيستجيب؛ لأنه نذر نفسه لذلك.

إن عليكم أن تشكروا الله يا أهل النجف على العلم وأهل العلم، وإلّا فالنجف لولا العلم وأهل العلم فهي «أبو صخير»[1] الثانية ليس إلّا. فالنجف وإن كان فيها من البيوت النجيبة ذات التاريخ والمشاركة في الحقل الوطني وحقول أُخرى، لكنها أخذت هذا المركز السامي بالعلم وأهل العلم. فاشكروا الله أن تكونوا مركز العلم وأن يأتي إليكم الباكستاني والخراساني والسوري واللبناني والهندي

---

(١) أحد الأقضية التابعة لمدينة النجف.

والأوربي طلباً للعلم. فعلينا أن نكون بمستوى المسؤوليّة تجاه من يفِد علينا، وأن نحسن الاستفادة منهم.

نحن اليوم أحوج ما نكون لملء الفراغ الذي عندنا بالمثل العليا التي كان عليها أيمّتنا‌ﷺ، ولننطلق من أهم خصلة عند الإنسان، وهي السموّ النفسي والارتفاع عن مستوى الحقد والصغائر؛ فهذا الجانب فيه إيحائية أكثر من كون الإمام‌ؑ كان يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة، فهذا بينه وبين الله، أما الفعل الذي فيه إيحائيّة لنا فهو هذا الجانب.

المبحث الثاني: عوامل السموّ الروحي عند السجّاد‌ؑ

وقد تجلّى السمو النفسي عند الإمام زين العابدين‌ؑ أولاً بالارتفاع عن الحقد، وثانياً بمقابلة الإساءة بالإحسان. ولننظر إلى سيرة الإمام‌ؑ على هذين المستويين:

لقد عاصر الإمام مجموعة من الخلفاء الأمويين، وتعرّض إلى ضغط كبير منهم. وأول ضغط تعرّض له‌ؑ كان من عبد الملك بن مروان. ومع أن عبد الملك كان رجلاً فتّاكاً ـ وهو الذي خطب في أول خطبة له، والمسماة بخطبة العرش فقال: «نحن بنو أُميّة، من قال برأسه هكذا قلنا له بالسيف هكذا»[1] ـ لكنه كان إذا ذكر زين العابدين‌ؑ يهتزّ إجلالاً له؛ لأن الإمامَّ أراه مواقف ملؤها النبل والكرم مع شدّة الضغوط التي تعرّض لها[2].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ٢٠٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨١، البداية والنهاية ٩: ٧١، ١٨٣.

(٢) كما أرشده في مسألة سكّ نقود خاصّة بالدولة الإسلاميّة، مع أن عبد الملك لم يكن يحمل حتى بعض الحب لأهل البيت‌ﷺ. حياة الحيوان ١: ٦٣، عن كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي. وقد مرّت في ج ١ ص ١٣٢ من كتابنا هذا.

السجّادعليه السلام يبسط حمايته على إسماعيل الأموي

فعلى سبيل المثال كان عامل عبد الملك إسماعيل بن هشام المخزومي يسيء لأهل البيتعليهم السلام وخصوصاً للإمام السجادعليه السلام، وبقي عاملاً إلى زمن الوليد الذي عزله، وكانوا إذا أرادوا عزل والٍ وأرادوا أن ينكّلوا به أوقفوه يشهّرون به بين الناس، فيمرّ به الناس ويطالبونه بالسجلّات والأموال، ويتّهمونه بكلّ ما يريدون. فكان أن أُوقف في الشمس عارياً، وأخذ الناس يطالبونه بالأموال، فجمع الإمام كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: «**لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً**». فقال أحد أولاد الإمامعليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمامعليه السلام: «**كِله إلى الله**». وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدِ على وجهه أي امتعاض.

وكان أن مرّ الإمامعليه السلام قربه فهمس في أُذنه قائلاً: «**انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا**». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: ﴿**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[1]، وكان أن ترك النصب لهعليه السلام [2].

فما الذي يدفع زين العابدينعليه السلام إلى هذا؟ هل هو خائف من هذا، أم أنه يرجو منه شيئاً من مصلحة؟ كلا، إنها النفس الكريمة السامية التي ترتفع بها التربية إلى مستوى ترمقها الأبصار بإعجاب وإجلال.

الإمامعليه السلام يحمي عائلة مروان في واقعة الحرّة

وخذ مثلاً ثانياً وهو مروان، فقد كان مروان يتقرّب إلى الله بشتم أمير المؤمنينعليه السلام، وكان يقول للحسين: أنصحك ببيعة يزيد فإنه خير لك في دينك

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧

ودنياك[١]. وكان يضرب ثنايا الحسين ويرتجز:

يـا حبّذا بـردك بـاليدينِ ولونك الأحـمر بـالخدّينِ

شفيت نفسي من بني الحسينِ[٢]

وكان مروان أساس الفتنة والبلاء بين المسلمين، فهو الذي تسبّب في مقتل الخليفة الثالث[٣]، وغير ذلك مما لمروان من خسّة ونذالة ورداءة، بل إن الخسّة والنذالة والرداءة لو تجسّدت لكانت أشرف من مروان. فلما حدثت واقعة الحرة في المدينة أراد الثوّار أن يقضوا على عوائل بني أُميّة بالكامل، فجاء مروان يهرول إلى عبد الله بن عمر يطلب منه إيواء عائلته، فقال له: ليس عندي مكان، ولا أُدخل أحداً إلى بيتي. فراحوا يتسكّعون على البيوت، حتى جاؤوا بأجمعهم إلى دار زين العابدين، وبقوا حتى نهاية الثورة في بيت الإمام ينفق عليهم ويحميهم[٤].

والأكثر من ذلك أن عائشة بنت الخليفة الثالث زوجة مروان أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة، فأخرج الإمام السجّاد معها ابنه عبد الله حتى أوصلها إلى الطائف، وظلّ مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر يحرسها[٥].

الإمام يقضي دين محمد بن أُسامة

وخذ مثلاً ثالثاً وهو محمد بن أُسامة بن زيد ـ وكان أُسامة منحرفاً عن الإمام علي بن أبي طالب وكان يقول له: أعطنا سيفاً يفرق بين الحقّ والباطل حتى

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام الحسين (ابن عساكر): ٣٣٩.

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٣: ٣٩٧، الإمامة والسياسة ١: ٣٥، شرح نهج البلاغة ٢: ١٤٦ ـ ١٤٨، ٩: ٢٦.

(٤) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٥) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

نبايعك[١]. ولم يبايع علياًعليه السلام ـ ففي يوم من الأيّام دخل الإمام السجادعليه السلام على محمد بن أُسامة بن زيد يعوده فسمعه يقول: وا غمّاه. قال: «ما غمك؟». قال: دَيني. قال: «كم هو؟». قال: ستون ألفاً. قال الإمامعليه السلام: «هي عليَّ». وكان الإمام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[٢]. وهذا هو ابن من يقول لأمير المؤمنين: أنا لا أبايعك لأنك تقتل المسلمين والكافرين على حدّ سواء[٣].

فهل تستطيع أن تلتمس مبرّراً لهذا غير سموّ النفس؟ وغير كون الإمام ينتمي إلى معدن يترفّع عن الصغائر ويسمو فوق مستوى الأحقاد؟

وحسبكمُ هذا التـفاوتُ بـينَنا ... وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ[٤]

الإمامعليه السلام يعفو عن قاتل ابنه ويعتقه

ومن هذا المنبع أيضاً تجد عند الإمام الظاهرة الأُخرى وهي العفو مع وجود القدرة، يخرج يوماً من الأيام إلى أصحابه وعلى وجهه لون من الألم، فسألوه: ما الخبر؟ قال: «عندنا ضيوف واستعجلت هذا الغلام بالشواء الذي كان في التنّور ـوهو جدي ـ فأخرج السفود من التنور وهو يلتهب ناراً فوقع على صبي لي فقتله، فاضطرب هذا الغلام، فقلت له: يا هذا على رسلك إنك لم تتعمّد هذا». فسألوه: هل تألّمت لموت الصبي؟ قال: «لا، إن الصبي مضى لأجله، لكنني تألّمت لما أدخلت

---

(١) الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٧٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وفيهما أنها جرت بين الحسينعليه السلام وأُسامة أبيه.

(٣) الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٧٠.

(٤) البيت لابن الصيفي. شرح الأخبار ٣: ١٢٩، جواهر المطالب ٢: ٣١٤، شجرة طوبى ٢: ٣٠٤.

من الرعب على قلب الغلام». ثم صاح للغلام وقال له: «أنت حرّ لوجه الله، أما إنك لم تتعمّده»[١].

الإمام﴿ع﴾ يطلب من غلامه أن يقتصّ منه

ودخل يوماً إلى ضيعة له فوجد فيها فساداً وضَياعاً كثيراً، ورآها بلا زرع ولا عناية، فصاح بغلامه: «لم هكذا؟ إنك تأخذ جلّ وارد هذه الضيعة، لك فلم لا تعتني بها؟». فسكت الغلام، فقرعه الإمام بسوط كان بيده، ثم ندم. فلما رجع إلى الدار ألقى ملابسه وأظهر موضع ضرب السوط من الغلام ثم بعث وراءه، فلما جاء ورأى الإمام بهذه الهيئة اضطرب أكثر وخاف وظن أن الإمام يريد أن يعاقبه. فقال له الإمام: «هوّن عليك، وخذ هذا السوط واضربني كما ضربتك». فقال: معاذ الله. قال: «بل افعل، إني أُريد هذا». قال: معاذ الله، إن يدي لا تطاوعني على ذلك. فقال الإمام: «أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك»[٢].

ويمتدّ عنده هذا المعنى حتى إلى الحيوان فقد حجّ على ناقة (٢٥) حجّة ما قرعها بسوط، وكان يرفع السوط فيقول: «آه، لولا القصاص» ويردّ يده عنها[٣].

فهل في هذا درس لنا في تكريم الآدمي كما كرّمه الله؟ بل حتى الحيوان كان الإمام﴿ع﴾ يأبى أن تمتدّ يده إليه ليضربه سوطاً. إن في هذا درساً لنا في أن نرتفع عن مستوى الشعور بالكراهية والحقد للغير. فمتى ما صفت النفس امتلأت بالرحمة والخير؛ لأن الله تعالى يريد منا أن نتخلّق بأخلاقه، وهو الرحيم، وهو العطوف وهو الودود.

---

(١) مسكن الفوائد: ٦١، بحار الأنوار ٤٦: ٩٩، ٧٩: ١٤٢، مطالب السؤول ٢: ٤٨، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٩٦.

(٢) شرح الأخبار ٣: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ / ١١٦٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٧.

(٣) روضة الواعظين: ١٩٩، الإرشاد ٢: ١٤٤.

ملاقاة الزهري للإمام ﷺ

ومن هذا المنطلق بالذات ـ وهو منطلق الرحمة ـ نرى رحمة الإمام ﷺ تمتدّ لتصل إلى القلوب الخائفة والأكباد الجائعة ليؤمن هذا ويشبع هذا. يقول الزهري: كنت في إحدى الليالي أتمشّى في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين يحمل على ظهره دقيقاً وحطباً وهو يمشي، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: «أريد سفراً أُعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز». فقلت: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: «لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني»، فانصرفت عنه، وبعد أيام رأيته فقلت له: يابن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ قال: «يا زهري ليس ما ظننت، ولكنه الموت، وله كنت استعدّ». فقلت: ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال: «هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة»[1].

لقد كانت عشرات البيوت يصلها طعامها ولا تدري من أين يأتيها، فلمّا مات الإمام السجاد علموا أنه هو الذي كان يوصل إليهم هذا الطعام[2].

جوانب أخرى من أخلاقه ﷺ

يُسأل الإمام الباقر: لماذا كان على ظهر أبيك مجل[3]؟ قال ﷺ: «إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»[4]؛ ذلك أن المدينة المنوّرة ليس فيها أنهار، وإنما كان فيها آبار بعيدة القعر مثل النجف سابقاً. فلذا كان الإمام ﷺ يستقي لهؤلاء الضعفة من

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣.   (٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) المجل: أثر العمل في الكفّ حينما يعالج بها الإنسان الشيء حتى يغلظ جلدها من المشقة. لسان العرب ١١: ٦١٦ ـ مجل.   (٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

جيرانه من كبار السنّ وغيرهم، فيمتح الماء بالدلو ويحمله على ظهره ثم يعود به إلى بيوتهم.

وكان إذا حلّ وقت المغرب يشرف على القدور فيقول: «ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»[١]. ولا يتناول إلا لقيمات يسيرة من طعام يعدّ له. فهو هنا يعمل بقول جدّه رسول الله ﷺ: «إن لجارك عليك حقّاً ومن حقوق جارك عليك أن لا تؤذيه بقتار[٢] قدرك حتى تقتدح له منها»[٣].

ولا تستكثر ذلك على الإمام، فقد كان هذا المعنى موجوداً حتى في حضارة العرب، يقول الشاعر:

ناري ونار الجار واحدةٌ	وإليه قبلي ينزلُ القدرُ
ما ضرَّ جاراً أن يجاورني	ألّا يكون لبابه سترُ
أعمى إذا ما جارتي برزت	حتى يواري جارتي الخدرُ[٤]

ومن هذا المنطلق بالذات كانت صرارُه تصل إلى مختلف البيوت، وأمواله ينالها حتى ألدّ أعدائه[٥]. وقف عليه ابن عمّه يوماً فشتمه وأبلغ في شتمه، فقال الإمام: «قوموا بنا إليه». فشقّ طريقه إلى بيته، وهم يظنّون أنه يريد أن يقابله بالمثل، حتى إذا وقف على باب البيت خرج إليه متوثّباً للشرّ، فقال له الإمام:

---

(١) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

(٢) القتار: رائحة القدر. لسان العرب ٥: ٧١ ـ قتر.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٨٨، كنز العمّال ٩: ٥٨ / ٢٤٩٣٥، ١٨٥ / ٢٥٦١٣.

(٤) الأبيات لمسكين الدارمي. تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٥٩، زاد المسير ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠، السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ١١١.

(٥) كما مرّ قبل قليل من مواقفه مع عامل عبد الملك المخلوع إسماعيل بن هشام المخزومي، ومع مروان وأمثاله.

«إنك وقفت علي آنفاً وقلت الذي قلت؛ فإن كان الذي قلته فيّ فغفر الله لي، وإن لم يكن فيّ فغفر الله لك». قال: سيدي، بل هو فيَّ والله وليس فيك. ثم انحنى على رجليه يقبّلهما وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

فعلي بن الحسينعليه السلام وفق هذا المنطلق هو الروح التي تسمو على الصغائر وتكبر على الحقد، وهو المعدن الذي يفيض بالرحمة لكلّ ما خلق الله. ومن منطلق آخر هو النفس التي تجود وتأخذ في الجود أبواباً وطرقاً، فكان بعض الأشخاص لا يوصل لهم الإمام الأموال مباشرة، وإنما كان يشتري الجبة بخمسمئة دينار والمطرف من الخز بخمسين ديناراً فيلبسهما قليلاً ثم يوصلهما لبعض الناس الذين لا يستطيع أن يوصل لهم الأموال، ويقول لهم: «إن هذا اللباس لامس بدني فخذوه للتبرّك»[2].

وكان بعض أصحابه يقول له: لو بعت هذا الثوب وتصدّقت بثمنه. فيقول: «لا أحب أن أبيع ثوباً صليت فيه لربي»[3].

وكان يتصدّق بثياب الشتاء إذا جاء الصيف وبثياب الصيف إذا جاء الشتاء[4].

وكان يعجبه التصدّق بالسكّر واللوز، فقيل له في ذلك فقال: «إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[5] وأنا أُحبّ هاتين المادّتين. فأُحبّ أن يأكل الناس منهما»[6].

---

(١) تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٧، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٧.

(٢) قريب منه في الكافي ٦: ٤٥١ / ٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٦ / ٩٨، ٧٦: ٢٩٨ / ٢، ٣٠٦ / ٢٢، وغيرها.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٢٦٣ / ١١٦٧، بحار الأنوار ٤٦: ٩٠ / ٧٧.

(٤) قريب منه في الكافي ٦: ٤٥١ / ٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٦ / ٩٨، ٧٦: ٢٩٨ / ٢، ٣٠٦ / ٢٢، وغيرها.

(٥) آل عمران: ٩٢.

(٦) بحار الأنوار ٤٦: ٨٩، مستدرك سفينة البحار ٥: ٨٤.

وكان يخرج والصرار في وعاء له والطعام في وعاء آخر وينطلق في إيصالها للناس، وكان يستر وجهه، وكأن ولده الرضا ﷺ كان يتمثّل له بقول الشاعر:

متى آته يوماً إليه بحاجة ... رجعت إلى أهلي ووجهي بمائه[1]

وكأنه بذلك نسخة طبق الأصل من جدّه أمير المؤمنين علي ﷺ الذي كان يقول: «**السخاء ما كان ابتداء، فأما ما كان عن مسألة فحياء وتذمّم**»[2]. وإلى هذا يشير ابن حيوس فيقول:

ولقد دعوت ندى الكرام فلم يُجب ... فلأشكُرَنَّ نَدىً أجابَ وما دُعي

ومن العجائبِ والعجائبُ جَمَّةٌ ... شكرُ بطيءٌ عن نَدىً مُتسرِّعِ[3]

الجوانب الروحيّة عند الإمام ﷺ وثناء الناس عليه

ثم إن علي بن الحسين ﷺ من منطلق آخر هو المتعلّقة روحه بالملأ الأعلى، والذي إذا جنّ عليه ليله انشغل بذكر الله عزّ وجلّ قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، يشقّ صوته أستار الظلام، ويسقط ولده في البئر ولا يشعر به[4].

يسأل عمر بن عبد العزيز يوماً: من أعظم الناس؟ فيقال له: أنتم. فيقول: لا والله، إنه علي بن الحسين ﷺ الذي يحبّ كلّ أحد أن يكون منه ولا يحب أن يكون من أحد[5].

ويقول أحد القرشيّين: جلست إلى سعيد بن المسيّب يوماً أتدارس معه، فسألني: من أخوالك؟ قلت: إن أُمّي فتاة. أي جارية؛ فالقرآن يقول: ﴿**وَلا تُكْرِهُوا**

---

(١) الكافي ٤: ٢٤ / ٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٠.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٥٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨، بحار الأنوار ٤٦: ٣٤ / ٢٩.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٤، بحار الأنوار ٤٦: ٤ / ٤.

﴿فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾[١]، ويقول رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي»[٢].

يقول هذا القرشي: لمّا قلت له: إن أُمّي فتاة، فكأنما صغرت في عينه. وفي هذه الأثناء دخل زين العابدينعليه السلام فانتفض له سعيد بن المسيّب قائماً وجلس بين يديه وأقبل ينصت إليه ويستمع، فلما قام الإمام زين العابدينعليه السلام قلت لسعيد: من هذا؟ قال: هذا أعظم الناس، الذي لا يسع مسلماً أن يجهله. قلت: من؟ قال: علي بن الحسين. قلت: من أُمّه؟ قال: أُمّه جارية. قلت: رأيتك صغرتُ في عينك لما قلت لك: إن أُمي جارية؟[٣]

ويقول عنه الزهري: علي بن الحسين، ما رأيت أحداً يحبّه في السر ولا رأيت أحداً يبغضه في العلانية. فهو لكثرة مداراته للناس لم يكن أحد يبغضه علناً، ولكثرة ما عنده من الفضائل لم يكن أحد يحبّه في السر[٤].

ويقول عبد الملك بن مروان: لما دخل عليَّ زين العابدين امتلأ ثوبي هيبة له[٥].

ويدخل هشام بن عبد الملك وليّ العهد إلى الكعبة والشرطة بين يديه، والناس له أرجى ومنه أخوف، لكنه لا يجد طريقاً إلىٰ الحجر، فيضطر إلىٰ أن يجلس في زاوية، ويدخل علي بن الحسينعليه السلام الأعزل من كلّ شيء إلّا من إجلال الله، فينفرج له الناس سماطين فيأتي الحجر ليلمسه، وُيسأل هشام: من هذا؟ فيقول: لا أعرفه. وكان به عارفاً لكنه خشي أن يميل الناس إليه، فوقف الفرزدق ليقول:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ

---

(١) النور: ٣٣. (٢) مسند أحمد ٢: ٣١٦.

(٣) المجدي في أنساب الطالبيّين: ٢٤٩.

(٤) علل الشرائع ١: ٢٣٠، وسائل الشيعة ١٢: ٢٠٣ / ١٦٠٩٠.

(٥) كشف الغمة ٢: ٢٨٩، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٣.

هـذا ابـنُ خـيرِ عبادِ الله كلِّهُمُ ... هذا التقيُّ النَّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
وليس قـولُك مَـن هـذا بضائرِه ... العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ
فـي كـفهِ خَـيزُرَانٌ ريـحُهُ عَـبِقٌ ... من كفِّ أروعَ فـي عِـرنِينِه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغضَى من مَهابتِهِ ... فـلا يُكَـلَّمُ إلّا حـينَ يـبتسمُ
يكـادُ يُـمسِكُهُ عِـرفانُ رَاحـتِهِ ... رُكنَ الحطيمِ إذا ما جَاءَ يَستَلِمُ

تلك هيبة الله التي إذا أضفاها على عبد من عبيده خضع له كلّ شـيء وذلّ له شيء وعنا له كلّ شيء.

كان ابن أُخته الحسن بن الحسن يقول: كانت أُمي تأمرني أن أجلس إلىٰ خالي علي بن الحسين ﷺ، فوالله ما جلست عنده يوماً إلّا وقمت منه بخير؛ إما خشية تحدث في قلبي لله، وإمّا علم أستفيده منه، وإمّا كريمة من كرائم الخلُق آخـذها عنه[1].

إن في حياة هذا الرجل العظيم جوانب ممتعة مشرقة، إلى جانب المأساة التي استأثرت بحياته؛ لأن أشباح واقعة الطفّ كانت تقضّ مضجعه فلا يهدأ ليـلاً ولا نهاراً؛ ذلك أن واقعة الطف لم تكن واقعة عاديّة، وقد عايشها الإمام ﷺ بـقليلها وكثيرها. وأول حادثة مرت به كانت عندما رجع إليه أبوه الحسين ﷺ في آخـر مرّة، يقول أرباب المقاتل: إن الحسين كان بحاجة إلى أن ينفّس عن نفسه بالبكاء قليلاً، ولم يكن يستطيع الذهاب إلى مخيّم النساء لئلا تتهيّج العيال، ولم يسـتطع البكاء أمام الأعداء فذلك خلاف الجَلَد والصبر، فجاء إلى خيمة ولده السجاد ﷺ كي ينفرد فيها هناك فيبكي، ويصادف أُخته عند الإمام السجّاد ﷺ تمرّضه. فلما وقع بصر الإمام السجّاد عليه قال: «عمّة أسنديني إلى صدرك، هذا ابـن رسـول

---

(١) الإرشاد ٢: ١٤٠، بحار الأنوار ٤٦: ٧٣ / ٥٩، وفيها عبد الله بن موسىٰ.

الله صلى الله عليه وآله قد أقبل». قالت: إنك عليل ولا طاقة لك على ذلك. فقال: «أجلسيني». فسأله الحسين عليه السلام: «كيف أصبحت يا بني؟». قال: «بخير ما أبقاك الله لي يا أبه». ثم سأله الإمام السجاد عليه السلام: «يا أبه، كانت لك عادة أنك إذا جئت لعيادتي يأتي معك عمّي العباس فلم جئت وحدك؟».

فاختنق الحسين عليه السلام بعبرته، وقال: «بني عظّم الله لك الأجر بعمّك، لقد خلّفته على المشرعة دامي الوريدين». قال: «وقتل عمّي العباس؟». قال: «بلى». قال: «فما لي لا أرى أخي علياً؟». قال: «قتل». قال: «وأخوتي الباقون؟». قال: «قتلوا». قال: «ما لي لا أرى القاسم؟». قال: «قتل».

فراح يعدّد له الفتية من آل هاشم والحسين عليه السلام يخبره، ثم قال: «بني، اعلم أنه لم يبقَ في المخيّم من الرجال إلّا أنا وأنت». فلمّا سمع ذلك صاح: «عمّة زينب عليَّ بسيف وعصا». قالت: ما تصنع بهما؟ قال: «أما العصا فأتوكّأ عليها، وأما السيف فأذبّ به عن حرائر رسول الله صلى الله عليه وآله». فصاح الحسين عليه السلام: «أُخيّة، امسكيه؛ لكي لا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد»[1]:

صاح بصوت يم چلثوم الزميه   مهو وليدي شعب كلبي دردّيه

والمنظر الثاني الذي لم يبارح مخيّلة الإمام عليه السلام عندما دخل عليه أبو حمزة فقال له: إن آباءك لم يمت منهم أحد حتف أنفه، كلّهم ذهبوا ضرباً بالسيوف والرماح. فقال الإمام عليه السلام: «نعم يا أبا حمزة، ولكن والله ما وقعت عيناي على عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء».

ومرّ يوماً بالمدينة فسمع أحداً يصيح: أنا غريب. فقال له: «من المنادي؟». قال:

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٦.

أنا. قال له: «إذا جعت تُطعم الطعام؟». قال: المسلمون كثيرون وفيهم الغيرة. قال: «إذا عطشت تُسقى الماء؟». قال: الماء مباح للكلاب والخنازير. قال: «فإن متّ تطرح على الأرض أو تُوارى؟». قال: إن المسلمين لا يتركونني دون مواراة. قال: «إذن لست غريباً». قال: فمن الغريب إذن؟ قال: «الغريب أبو عبد الله عليه السلام، بقي ثلاثة أيام بلا غسل ولا كفن».

ومرّ يوماً فسمع أحد القصّابين يقول لغلامه: أسقيت هذا الكبش ماء؟ فلفتت العبارة نظر الإمام، فقال له: «أنتم معاشر القصّابين لا تذبحون الكبش حتى تسقوه الماء؟». قال: بلى سيدي. فأدار وجهه إلى جهة كربلاء وصاح: «أبه يا أبه، الكبش لا يُذبح حتى يُسقى الماء، وقد قتلت إلى جانب الفرات ظمآناً»:

أشـرب لذيـذ المـاي حـاشا ... واهـلي گـظوا كـلّهم عـطاشى

﴿٤٠﴾

من مسائل فقه الصيد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: وجه كون خطابات الحقّ تعالى إلى المؤمنين

أول أبحاث هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فمن الظواهر التي تلفت النظر في القرآن أن الله تعالىٰ في الكثير من الأحكام التي يكلّف بها مختلف الناس يُقصر فيها الخطاب على المؤمنين. ومن المعروف أن الناس كلّهم مكلّفون حتى الكافرون منهم، فلو لم يكن الكافر مكلّفاً لما عصى. والأدلّة قائمة على أن الكافرين مكلّفون بالفروع[2]، إلّا عند الأحناف، فإنهم يقولون: إن الكافرين غير

---

(١) المائدة: ٩٤.

(٢) تذكرة الفقهاء ٤: ٣٩ / المسألة: ٣٩٤، ٥: ٤٠ / المسألة: ٢٦، المهذب البارع ٤: ٢٩٧، جامع المقاصد ١: ٢٦٣، ٢: ٤١٦، مجمع الفائدة والبرهان ٣: ٢٠٢، ٥: ٢٥٣، ٢٥٨، المجموع شرح المهذّب ٣: ٤، ٧: ١٩ ـ ٢٠، حاشية الدسوقي ٢: ١٧٤.

مكلّفين بالفروع؛ لأنهم يعتبرون أن الكافر لا يعرف الأصل وهو الله فكيف نكلّفه بالفرع؟[(١)]، والحال ليس كذلك.

المهم أن الخطاب يُوجّه للمؤمنين، فلمَ لمْ يُوجّه لغيرهم من الناس مع أنهم مكلّفون؟ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[(٢)]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ ويقول: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[(٣)]، فلمَ يوجّه الخطاب للمؤمنين ولا يوجّهه للناس كافّة؟ يقول بعض المفسّرين: إن الهدف من هذا الخطاب هو عدم الاعتناء بغير المؤمنين[(٤)].

وهذا غريب طبعاً، فهذا ليس من خُلق القرآن أبداً، فالقرآن يعتني بكلّ طرف، بل إنه يضع نفسه طرفاً في المعادلة، ويضع المشركين طرفاً آخر فيها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[(٥)]، فهو يفترض في المشركين أنهم أهلٌ للتفاهم، ويتعامل معهم بالأسلوب الحسن الرقيق، وقد قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[(٦)]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٧)].

إلى غير ذلك مما يبيّن أُسلوب القرآن في التعامل، فهو يضع المشركين في موازنة، ويجعلهم طرفاً في التعامل له قيمته وأهمّيته. فلا يمكن القول: إن القرآن خصّ النداء بالمؤمنين؛ لأنه يحتقر غيرهم.

وهناك رأي آخر هو أن القرآن إنما خصّ المؤمنين بالنداء تمييزاً لهم عن

---

(١) انظر: البحر الرائق ١: ١٢٠، ٢: ٣٥٤، ٣: ٢٧٠، حاشية ردّ المحتار ٤: ٥.
(٢) البقرة: ١٨٣.
(٣) إبراهيم: ٣١.
(٤) البرهان (الزركشي) ٢: ٢٣١.
(٥) سبأ: ٢٤.
(٦) النحل: ١٢٥.
(٧) الأنعام: ١٠٨.

غيرهم من الناس[١]. وهو لا يختلف عن الرأي الأول إلّا في اللفظ، فإذا أراد أن يميّزهم فلازم ذلك أنه يزدري الآخرين ويحتقرهم.

والرأي الذي عليه الأغلب ـ وهو الأصحّ ـ أن الله إنما خصّ المؤمنين؛ لأنهم أكثر انتفاعاً من غيرهم[٢]. وهذا الأمر مشاهَد في كلّ الأحوال، فأنت تلاحظ حال دخولك إلى صفّ ما أن الأُستاذ يقبل على التلميذ الذي يستفيد من الدرس، ويصغي إلى أُستاذه ويستفيد منه. ومن هنا فالمؤمنون أكثر انتفاعاً وأكثر الناس إصغاء للوحي واستفادة من أمر الله؛ ولذا خصّهم الله بالنداء، بل هو تعالىٰ يخصّهم به دائماً.

المبحث الثاني: في معنىٰ الصيد والأثر في ذلك

ثم قالت الآية: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾، والصيد تارة يطلق ويراد به الفعل، ويطلق أُخرى ويراد به الحيوان. فلفظة الصيد تارة يراد بها الفعل، كأن يأخذ أحد شباكاً إلى النهر أو بندقية إلى البر فيصيد السمك أو الطيور، وتارة أُخرى يطلَق ويراد به الحيوان الذي يصيده الصيّاد أو الطير أو السمك نفسه. ولكلّ من هاتين الناحيتين حكم، مع أن الصيد ـ سواء كان بمعنى الفعل أو بمعنى الحيوان ـ منه المحلّل فعله أو أكله، ومنه محرّمهما؛ فكلاهما يخضع لحكمي الحلّ والحرمة.

أن الصيد يراد به الفعل

أما الصيد بمعنى الفعل فكأن يخرج الإنسان الجائع المحتاج للصيد، فيصيد سمكاً أو حيواناً له ولعياله، أو هو يصيد لأن شغله الذي يعتاش عليه هو الصيد، فيصطاد ويبيع ليعيش؛ فهذا الصيد مباح. وتارة يكون الصيد ترفاً ولهواً فهذا حرام؛

---

(١) البرهان (الزركشي) ٢: ٢٢٨.
(٢) التبيان ٥: ٩٦.

لأنه اعتداء على الرصيد الذي وضعه الله للبشر. وأنا لا أُريد أن أقول: إن العلة في التحريم هي هذه، لكن الظاهر من الحكمة هو هذا، فالله لما وضع هذه الحيوانات البرّيّة والبحريّة جعلها رصيداً للإنسانية تلجأ إليه عند الحاجة.

ومن ناحية ثانية إن الضرورة تقدّر بقدرها، فصحيح أن الله أباح لنا لحوم الحيوان، لكن يجب أن نعرف أن الحيوان يحسّ بألم الذبح ويتأثّر، ومنظره يبعث على الألم؛ ولذا راعى الشارع المقدّس ذلك، فهو يوصي أن تكون الشفرة حادّة، وأن يذبح الحيوان بسرعة. فالله تعالى لما أباح لنا ذبحه وحلّل لحمه، فإنما فعل ذلك لوجود مزاحمة بين المهم والأهم، فالأهم حياة الإنسان، والمهم الحفاظ على روح الحيوان المحترمة، فلما وجدت المزاحمة أباح لنا الله لحوم الحيوان ومنتجاته لتوقّف حياتنا عليها[1]. ومع ذلك فإنه تعالى لا يترك هذه الحيوانات هكذا، وإنما سيعوضها، فالروايات التي عندنا تقول: إن سبباً من الأسباب التي من أجلها تحشر الحيوانات هو هذا[2]. قال تعالى: **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾**[3]، فلماذا تحشر الحيوانات؟ تقول الروايات: إن أحد أسباب الحشر أن الله تعالى يحشر الحيوانات مأكولة اللحم ليعوّضها عمّا أصابها من الآلام، فيعطيها لذائذ بقدر ما أصابها من الألم أو أضعافاً مضاعفة.

وقد ذكرتُ أكثر من مرّة أن جذور القوانين التي وضعت لحماية الحيوان هي أساساً موجودة في الشريعة الإسلامية، فقبل الشريعة كان الإنسان يهان، أما في

---

(١) فإن قتلت لأجل اللهو أو العبث كان ذلك خارج قاعدة تزاحم الأهمّ والمهمّ: إذ أن الأهمّ غير موجود والباقي هو المهمّ؛ فيكون قتلها لذلك خرقاً واعتداء على المهمّ، المحترم الروح.
(٢) انظر بحار الأنوار ٧: ٢٧٦، عن الرازي ناسباً إيّاه للمعتزلة.
(٣) الأنعام: ٣٨.

الشريعة الإسلاميّة فقد وُضعت أُسس لحماية حتىٰ الحيوان.

فالحيوان يحسّ بالألم، وهو كائن محترم الروح؛ ولذا يضع الله تعالى أحكاماً للحيوان لا بدّ أن تلاحظ، فمثلاً لو أن أحداً عنده أغنام، وحدث مَحلٌ فلم تـجد الأغنام شيئاً تأكله، فعند ذاك لا بد أن يشتري لها العلف، فإن امتنع ولم يشترِ فعلىٰ الحاكم أن يجبره على بيع قسم منها ليشتري بثمنه العلف لها.

فالله تعالى أباح لنا الحيوان لوضع معين وفي ظروف معينة: «**لا تجعلوا بطونكم مقابر للحيوانات**»[1]، أي اقتصروا من اللحوم على الحاجة فقط، فإن كان الصياد يتلهّى بقتل الحيوانات فهذا محرّم شرعاً. فليس هناك ضرورة ولا حاجة يتحقّق معها شرط الإباحة لقتل هذا الحيوان.

أن الصيد يراد به الحيوان

هذا هو الصيد بمعنى الفعل، أما الصيد بمعنى الحـيوان، أي مـا يُـصطاد مـنه، كالأسماك والطيور والإسفنج، فقد وضع الله تعالى ضوابـط لصـيده. وقـد يسأل سائل: لماذا يحلّ أكل سمكة فيها فلس ولا يحلّ أكل مثيلتها التي تعيش معها في بحر واحد وماء واحد إذا لم يكن فيها فلس؟ ونحن أيضاً نسأل مثل هذا فنقول: هل من المعقول أن يحلّ الله تعالى هذه ويحرّم تلك اعتباطاً ودون سبب؟ فلابد أن يكون من وراء ذلك حكمة، ولابد أن يكون لكلّ من السمكتين خصائص تختلف عن خصائص الأُخرىٰ. فالإنسان مثلاً عنده خصائص مختلف بعضها عن بعض، مع أن الناس يعيشون في بيئة واحدة ومحيط واحد. أما ماهية الخصائص التي من أجلها حرّم الله تلك وأحلّ هذه، فهذا ما لا نهتدي له نحن ولا نعرفه. فـإلى الآن توجد الكثير من الخصائص عند الحيوان محجوبة عن الفكر الإنساني ولا يعرفها،

---

(١) كشف الغطاء ١: ١٦، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٩١ / ٣٩٢٢.

وكذلك الكثير من خصائص النبات، فعمليّة التركيب الضوئي عند النبات مثلاً لا يزال الإنسان يجهلها، صحيح أنه يعرف الآلية التي تتمّ فيها من حيث إن النبتة تأخذ الأملاح والماء فتحوّلها بمساعدة الهواء والضوء إلى مواد كربوهيدراتية أو غيرها، لكن مقدار ما تأخذ النبتة من الضوء وتختزنه، وكيف تتمّ العمليّة بهذا الشكل، فهذا ما لم يتوصّل إليه العلم، ولا زال يقف حائراً إزاءها.

وعلى هذا القياس فإن تحريم «الجرّي»[1] مثلاً لا نعرف علته، فقد تكون فيه خصائص معينة ذات تأثير معيّن، لا نعرفه نحن، وربما هي خصائص نفسيّة أو جسديّة. وبالتالي ربما يكون لها تأثير نفسي أو جسدي على الإنسان الذي يأكلها. فهذا كلّه لا نعرفه، ولكن الذي نعرفه أن الذي منع من أكلها وحرّمها حكيم لا يفعل العبث قط.

كيف يكون الابتلاء بالصيد

فالصيد هنا بمعنى الحيوان الذي يُصطاد سواء كان برّياً أو بحرياً. قال تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾، وقد بعّض[2] هنا؛ لأن المقصود به الصيد البرّي لا البحري؛ لأن المورد في الحرم صيد البر وليس صيد البحر فصيد البرّ بعض الصيد. والصيد هنا بمعنى الحيوان، ومعنى ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾: يختبرنّكم. أي يعرّضكم إلى وضعيّة فيها إغراء فيختبركم. فالحاجّ خارج من أهله إلى الحجّ، ولم يكن الحجّ يومذاك كما نراه اليوم من وسائل الراحة كالتبريد والأكل واللحوم والفواكه الكثيرة وإنما كانت مكّة بلداً يفتقر لأبسط أسباب العيش، فعندما يصل الحاجّ إلى مكّة يجد الصيد الوفير من الحيوان؛ لأنه آمنٌ في الحرم. وقد كانت العرب تحترم الحرم قبل

(١) الجرّي: ضرب من السمك. لسان العرب ٢: ٢٦٧ ـ جرا.

(٢) بـ«من» التبعيضية في قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّيْدِ﴾.

الإسلام، فيوجد الحيوان كثيراً في الحرم، والحاجّ غريب وجائع، وإلى جانبه طعام، وقد يشتهي نوعاً معيّناً من الصيد، فيتعرّض للإغراء. فهذا الصيد تناله يده أو رمحه؛ فصغار الحيوان وبيضه تناله يده، أمّا الكبير منه فيناله بالرمح. وقد يتساءل الحاجّ: لماذا أُمنع من ذلك؟ فيتعرّض للاختبار، وهو الابتلاء.

وهناك خلاف بين الشوافع والإماميّة حول الصيد في الحرم، فالشوافع يقولون: إن المراد بالصيد هنا مباح اللحم[1]، أما الإماميّة والأحناف فيقولون: إنه يعني الصيد كلّه من مأكول اللحم وغيره؛ فغير المأكول اللحم أخذ حكم الحرمة أيضاً لأنه في الحرم[2]. ويستدلّ الأحناف على عموميّة الصيد بالبيت المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام:

صيدُ الملوك أرانبٌ وثعالبٌ ... فإذا ركبت فصيدي الأبطالُ[3]

فهذا الابتلاء الذي يتعرّض له الحاجّ هو أنه يحتاج للأكل ويتعرّض للإغراء، ولكن يأتيه المنع فيقول له: لا تصطد.

الأحكام بعضها معلّل وبعضها تعبّدي

وهنا نقطة لا بد من توضيحها هي أن من الأحكام ما هو معلّل تقريباً، ومنها ما هو تعبّدي. فالمعلّل تقريباً مثل فرض الزكاة، فأنا أعرف أن في الزكاة منفعة تعود على المجتمع وعليّ أنا أيضاً؛ فأنا أُخرج زكاة أموالي فأُعطيها للفقير، وفي هذا تنمية للروح الإنسانيّة عندي، ثم إنني أُشبع مواطناً يعيش معي، وأُحسن إلى أخٍ لي

---

(١) انظر: الأم ٢: ٢١٤، فتح العزيز ٧: ٤٨٥، المجموع شرح المهذب ٧: ٢٩٦.

(٢) انظر مدارك الأحكام ٨: ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) انظر: المبسوط ٤: ٩٠، بدائع الصنائع ٢: ١٩٨، البحر الرائق ٨: ٤٢٦، وموضع الشاهد في البيت أنه حتى الرجال حينما تصاب في الحروب تسمى صيداً، فأن يسمى غيرها من الحيوانات صيداً من باب أولى.

في الخلق والدين. وفوق ذلك كلّه فإنني حينما أُعطي الزكاة فإن الأقوال سوف تتوزّع بين الأفراد وتصبح لديهم قوّة شرائيّة عالية؛ وبالتالي فإن السوق سيتحرّك. وبهذا تعود الزكاة عليّ بالنفع بشكل غير مباشر. فأنا عندما أُعطي الزكاة أعرف تقريباً أن فيها مصلحة لي وللمجتمع؛ وقد تكون هذه المصلحة اجتماعيّة بأن أكسب ودّ واحترام الآخرين فيشيع الحبّ بين الناس، أو غير ذلك من الفوائد التي تعود عليّ.

فهذا الحكم معلّل تقريباً، أمّا أن يأتي الحاجّ إلى المزدلفة في الليل ويأخذ بضع حصيّات فيرمي بها هيكلاً من الحجر، فهذا الحكم تعبدّي لا تُعرف علّته. ومثله أن الحاج يُحرم في الحجّ بملابس معيّنة، فلماذا لا يكون الإحرام بملابسه الخاصّة مثلاً؟ ولماذا لا يلبس المخيط؟ هذا كلّه وأمثاله لا نهتدي إلى علّته، فنتعبد به كما جاءت به الشريعة. فنحن نؤمن بحكمة الخالق وأنه لا يأمر بما هو عبث، فنتعبد بذلك. أما ماهيّة أثر هذه الأفعال، وهل إنها تعوّدني على الطاعة مثلاً أو غير ذلك؟ فهذا ما لا نعرفه.

فالباري تعالى أحياناً يتعبّد عباده بأشياء يريد منها أن يعوّدهم على الطاعة، وألّا يتعدّوا حدودهم[1]. والإنسان إذا لم يعرف حدوده لم يعد إنساناً. فالإنسان اليوم يجهل حتى أبسط الأُمور في جسده، فعليه أن يذعن لحكمة الخالق عندما

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها». سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً. فلا تتكلّفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

يتعبّده بشيء، لكنه ببالغ الأسف متمرّد وكنود[1] دائماً.

حكمة تحريم سفك الدم في مكّة

وقد يقال: إن المسألة في هذه الآية ليست مسألة تعبّد، وإنما حكمتها واضحة، وهي نشر جوّ من السلام والطمأنينة في المركز المقدّس الذي يكون محلّ اجتماع المسلمين في مكّة، وهذه الأيّام لابدّ أن ينتشر فيها لواء السلام، ولكي يعرف العرب أن هذا مركز ديني، والدين ينهى عن سفك الدم، فلابدّ أن تتنزّه هذه المنطقة عن سفك الدم، ويسود فيها السلام، وتبقى حرماً آمناً يلجأ إليه الخائف، ويستظلّ به المطلوب.

وهذا هدف صحيح واضح، وقد يكون مقصوداً، لكننا لا نستطيع أن نقول: إنه هو المقصود تماماً، فممّا نستفيده من هذه الفقرة أن الكعبة مركز ديني يأتي إليه المسلم الأوربي والأمريكي والروسي والصيني وغيرهم من شرق الأرض وغربها، وهناك عداوات بين الشعوب والأفراد. فإذا لم يكن في مكّة أمان فستتحوّل إلى مجزرة، ولا يتحقّق الجوّ الذي يريد الباري جلّ وعلا أن يطبع عليه الناس بأن يجعلهم في فترة راحة وأمان وسلام، وأن يشعروا بذلك عند عودتهم؛ ولذا حرم كلّ ما يضرّ بالسلام، وكلّ دم يسفك هناك. ولو أخذنا بالقياس في هذه المسألة باعتبار وحدة الملاك لقلنا: إن العتبات المقدّسة كالنجف وكربلاء كلّها لابد أن تكون هكذا، وأن ينزع بها سلاح كلّ الأفراد. وأقول قولي هذا وأُطالب به المسؤولين باسم الجماهير؛ لأن القضيّة ستتحوّل إلى فوضى، فهناك من يحمل معه السكاكين أو «القامات»[2] وهو ذاهب إلى الزيارة، فلماذا كلّ هذا؟ وهل إن هؤلاء

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ العاديات: ٦.

(٢) قطع حديدية حادة النصل تشبه السيف الأوروبي. ولعل اسمها مشتق من كونها تبلغ نصف قامة الرجل.

ذاهبون إلى ساحة حرب؟ إن الأمر بعكس ذلك، فهؤلاء أمام أعدائهم جبناء.

فعلينا أن نعطي النجف وغيرها أهمّيّة وقداسة بأن نوفّر فيها أجواء الأمان للزائرين وطلبة العلوم، وأن نكرّم أمير المؤمنين﵇. إن السلاح يستخدم في الدفاع عن النفس والوطن والخلق والدين والكيان، لا أن يستعمل لأتفه الأسباب. فهذه العلّة التي من أجلها حرّم حمل السلاح وسفك الدم في مكّة لابد أن تكون في العتبات الأُخرى؛ لأن الملاك واحد باعتبار مكّة مركزاً يحجّ إليه الناس، وهذه مراكز دينية يقصدها الناس من مختلف بقاع الأرض.

ثم هل إننا أبناء النجف الآن بمستوى النجف؟ لا بد أن يكون ابن النجف بمستوى من الإدراك والذوق والخلق؛ لأنه يسمى «ابن علي»، وهذه هي المصيبة. إن قلوبنا تحترق لذلك، نحن نسمع أن النجف تُسبّ «سبّ الذين كفروا» في مختلف بقاع الأرض، فمن المسؤول عن ذلك؟ ألا تكونون غيورين على بلدكم؟ إن على كلّ إنسان أن يكون غيوراً على بلده.

لماذا أحلّ الله سفك دم الهدي؟

والفائدة الثانية التي نستفيدها من هذه الفقرة أن الله حرّم سفك كلّ دم في مكّة إلّا دماً واحداً وهو دم الهدي الذي يساق، ولابدّ أنه تعالىٰ أباح ذلك لحكمة. وقد يسأل سائل: أهذه حكمة بأن تذبح ملايين الذبائح ثم توضع في حفرة وتحرق، في حين أن الكثير من الناس يبحث عن لقمة الخبز أو اللحم فلا يجدها؟

وهذا إشكال وارد ومعقول، ففي كلّ سنة يذبح ما لا يقلّ عن ثلاثة ملايين رأس من الغنم، وقد رأيت أحد الأمراء هذه السنة في القاهرة وقد تزوّج امرأة لشهر واحد ثم طلّقها، وكانت كلفة زواجها وطلاقها مئة ألف دينار. فهذه المئة ألف يمكن أن يُنشَأ بها مصنع لتعليب هذه الملايين من الأغنام، فلو ذبحت هذه الأغنام

ووضعت في سيارات مبرّدة وحملت إلى جدّة التي لا تبعد عن مكّة سوى سبعين كيلو متراً، ثم تؤخذ إلى معمل تعليب وتنظّف منتجاتها لأمكن أن يُنتفع بأصوافها وجلودها وأمعائها، حيث تباع وينتفع بأثمانها لأجل هؤلاء اللاجئين الذين يملؤون الدنيا وهم جياع، وهذه الشعوب العربيّة جائعة، فلماذا تذهب كلّ هذه الثروة بلا فائدة؟

كانت هناك بادرة لطيفة في هذه السنة وهي أن المحطّات العربيّة رُبطت جميعها يوم التاسع في منى، وصادف ذلك يوم جمعة، فصعد الخطيب، وكان الناس ينتظرون منه أن يوجّه أو يعالج المشاكل من أمثال هذه المشكلة، لكنه أوّل ما بدأ راح يعربد: عبّاد القبور ... الكفرة! إلىٰ آخره فمن هم عبّاد القبور؟ وهل عندنا مسلم يعبد قبراً؟ المسلمون اليوم يدخلون إلى قبر أبي حنيفة وقبر الإمام الكاظم عليه السلام في بغداد، وإلى القبور في الموصل والنجف والقاهرة والشام[1]، بل وحتى الحنابل ـ وهم أساس الوهّابية ـ يجيزون زيارة القبور والدفن حولها ويعتبرونه مستحباً، انظر «كشاف القناع»[2] للبهوتي وغيره من كتب

(١) فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة» سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩، المعجم الصغير ٢: ٤٣ وغيرهما. وفي تلخيص الجيّد ٥: ٢٤٧ ما نصّه: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة: فزوروها».
وقال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨ ـ بعد أن نقل قوله صلى الله عليه وآله: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة» ـ ما نصه: «فزيارتها مندوبة للرجال بهذا القصد، والنهي منسوخ».
و قال صلى الله عليه وآله: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها» الموطّأ ٢: ٤٨٥، المجموع شرح المهذب ٥: ٣١٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، وغيرها.

(٢) كشف القناع ٢: ١٧٤، حيث نقل الأحاديث الواردة في الهامش السابق بعد أن أورد عبارة الماتن: «يسنّ للذكور زيارة قبر مسلم». وبعدها نقل قول الماتن: «ولا يمنع كافر من زيارة قريبه المسلم»، ثمّ علّق قائلاً: حيّاً كان أو ميّتاً. ثمّ نقل كراهتها للنساء دون حرمتها. كشف

الحنابل[1]. لكن هؤلاء يظهرون وكأنْ لا مشكلة في الإسلام إلّا عبّاد القبور، فلماذا لا يعالجون الإلحاد، ومشاكلنا الكثيرة، وبلاءنا وما نحن عليه من حال؟ إن الدنيا اليوم تتفرّج على مشاكلنا، وهذه أوطاننا تسلب منا، وتستباح دماؤنا، ونحن مشرّدون في البلدان. أليس الأجدر بهؤلاء أن يعالجوا مشكلة فقر أو أخلاق؟

إن الله تعالى يريد أن يسفك دم الضحايا في ذلك اليوم وذلك المكان، ولكن الشارع لا يمنع من أن يُستفاد من هذه اللحوم، بأن تعلّب وتوزّع مثلاً على الفقراء وتسدّ حاجاتهم.

☚ القناع ٤: ٣٠١، حيث قال: فإن زيارة القبور للرجال سنّة.

(١) المغني ٢: ٤٢٤، الشرح الكبير ٢: ٤٢٦، قال في (المغني): «لا نعلم بين أهل العلم خلافاً في إباحة الرجال القبور، وقال علي بن سعيد: سألت أحمد عن زيارة القبور: تركها أفضل عندك أو زيارتها؟ قال: زيارتها». ثمّ نقل حديث: «فزوروها» المارّ. وقال مثله في (الشرح الكبير). ومعنىٰ قوله: «بين أهل العلم» أن من يمنع ذلك ليس من أهل العلم، إلّا أن يقال: إن ما حملهم علىٰ المنع هو مخالفة شيعة الرسول ﷺ، كما حصل من كثير من أيمّتهم:

قال النووي: «قال أبو علي الطبري ﷺ: الأولى في زماننا أن يسنّم ـ يعني القبر ـ لأن التسطيح من شعار الرافضة. وهذا لا يصحّ لأن السنة قد صحّت فيه، فلا يضرّ موافقة الرافضة فيه». المجموع ٥: ٢٩٥، ٢٩٧.

وقال ابن تيمية: «ولهذا يوجد في كلام أئمّة السنّة من الكوفيّين كسفيان الثوري أنهم يذكرون من السنّة ترك الجهر بالبسملة؛ لأن هذا من شعار الرافضة ولهذا ذهب أبوعلي بن أبي هريرة أحد الأئمّة من أصحاب الشافعي إلى ترك الجهر بها، قال: لأن الجهر بها صار من شعار المخالفين، كما ذهب جمع من أصحاب الشافعي إلى تسنمة القبور؛ لأن التسطيح صار من شعار أهل البدع». كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ٢٢: ٤٢٣، وانظر ٢٦: ٥٤.

وقال الغزالي: «إن تسطيح القبور هو المشروع، لكن لما اتّخذه الرافضة شعاراً لهم عدلنا عنه إلى التسنيم». الصراط المستقيم ٣: ٢٠٦، وانظر المجموع شرح المهذب ٥: ٢٩٥، حلية العلماء ٢: ٣٠٧، نهاية المحتاج ٣: ١٠، المبدع ٢: ٢٧٣.

وقال مصنّف (الهداية): «المشروع التختّم باليمين، لكن لمّا اتّخذه الرافضة عادة جعلنا التختّم باليسار». انظر المهذب ٤: ٣٤٠. والملاحظ هنا قولهما: «المشروع»، أي أنهما بهذا يكونان قد خالفا السنّة والمشروع، وهو ما أمر الله تعالى به وبحفظه.

المبحث الثالث: الهدف من تحريم الصيد وعقوبة تكراره

ثم قالت الآية: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالغَيْبِ﴾، فالإنسان وحده في ذلك المكان لا يطلّع عليه إلّا الله، فالله سبق في علمه أن هذا سوف يطيع أو لا يطيع لكنه أراد أن يُظهر مكامن النفوس، أي ليظهر ما يَحدث من هذا. والآية تريد أن تبيّن أن الإنسان إذا كان وحده فإن إقباله على الله أو عدم إقباله سوف يتّضح في تلك الساعة، فإذا أطاع الله في السرّ كما يطيعه في العلن فهو إنسان مخلص.

خرج جماعة أيّام الربيع ليتنزّهوا، فوجدوا راعياً معه مجموعة من الأغنام، فقالوا له: أتبيعنا من هذه الأغنام؟ قال: إنها ليست لي، وإنما هي لسيدي. فقالوا له: بعنا واحدة. قال: لا أستطيع. قالوا: أين العلل؟ إن بوسعك أن تقول: إن هذه أكلها الذئب. فقال: إذن أين الله؟ فالباري تعالى يمتحن الناس ليريهم إطاعتهم.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تكرّر الاعتداء منه يعرّض صاحبه إلى عذاب أليم، ولا تكفي الكفّارة حينها لوحدها.

إن الله تعالى أعطى الحرم هذه الميزة بألّا يسفك فيه الدم وأن يحترم، فهل احترم الأُمويون هذا البيت؟ إن الأعراب الذين عاشوا في الجاهلية احترموا البيت، أمّا الأُمويّون فلم يحترموه، كان عمرو بن سعيد الأشدق جبّاراً، وكان إذا مشى لا يلتفت ولو وقعت السماء على الأرض تجبّراً وتكبّراً وإن كان الله تعالى قد صرعه بعد ذلك شرّ مصرع، فقد استغلّ ذهاب عبد الملك بن مروان لقتال ابن الزبير، فأحدث انقلاباً بالشام، وخلع عبد الملك ودعا الناس إلى بيعته. فلما رجع عبد الملك أقنعه واستطاع أن يؤثّر عليه وجعله يتنازل على أن يعطيه ولاية العهد، لكنهما بقيا يخافان بعضهما. وقد خرج عمرو بن سعيد يوماً ليذهب إلى عبد الملك، فعثر بطرف البساط ووقع، فخرج منه دم، فقالت له زوجته: إني أخاف عليك من

حمرة الدم. فقال: أتخافين علي من السلطان؟ قالت: يا هذا اتّقِ الله.

وكان عبد الملك قد أوعز إلى الحرّاس أنه إذا دخل عمرو بن سعيد يغلقون الباب بينه وبين جماعته، ويمنعونهم من الدخول. ففعلوا، وألقوا لمن معه بدر الدنانير والدراهم، فدخل عمرو، فتناوشته السيوف حتى قطّعته إرباً إرباً، فراحت زوجته تقول:

غدرتم بعمرٍو يا بني خيطِ باطلٍ ... وكلّكُمُ يبني البيوتَ على غدرِ
كأن بني مروانَ إذ يقتلونه ... خشاشٌ من الطيرِ اجتمعن على صقرِ[1]

وقد كان عمرو هذا والياً على مكّة أيام نهضة الحسين﷣، فكان يقول لهم: اركبوا كلّ بعير بين السماء والأرض واطلبوا الحسين، اقتلوه ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة[2]. وقد فعلها الأُمويّون مع ابن الزبير حتّى سال دمه في المسجد، وكان يتمثّل:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[3]

ولذا اضطرّ الحسين﷣ إلىٰ أن يخرج من الكعبة؛ لئلا تنتهك حرمتها، فلمّا خرج سأله عبد الله بن مطيع: لِمَ تخرج وبينك وبين الحجّ سويعات؟ قال﷣: «لو لم أُعجّل لأخذت»[4]، وقال: «إن أبي حدّثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أُحبّ أن أكون ذلك الكبش»[5].

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٦: ٤٠ ـ ٤١.
(٢) الإمامة والسياسة ٢: ٣، جواهر المطالب ٢: ٢٦٤.
(٣) البيت للحسين بن الحمام، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٢٧ / ٢٢٨، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٨٣، ٢٠: ١٢٢.
(٤) مثير الأحزان: ٢٨.
(٥) شجرة طوبى ١: ١٢٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٩، مقتل الحسين﷣ (أبو مخنف): ٦٦.

وقد جعل الله قبره كعبة للمؤمنين ومهوى لأفئدتهم؛ جزاء له من الله على رعايته حرمة الكعبة، فتعال إلى الضريح المقدّس أيام الجُمعات وغيرها وسترى كيف أن الله جعله كعبة يطوف فيه الإنسان بين المشاعر، يطوف الزائر بين هذا القبر وقبر أبي الفضل العباس فيقرأ في تلك التربة ما جرى عليها. وهو الأُسلوب نفسه الذي اتبعته الحوراء زينبﷺ لمّا رجعت ولاحت لها أعلام كربلاء، فأقبلت مهرولة، ألقت بنفسها على قبر أبي عبد اللهﷺ، وأخذت قبضات من تراب القبر تشمّه ودموعها جارية:

لونّك يخويه اتشوف حالي — حال الغريبة بغير والي

تونّي اذكرت عزّي ودلالي — من گوّضت ذيج الليالي

لم تُبقِ قبراً إلّا جالت حوله، ولسان حال الإمام السجادﷺ: أنا أعرف عن أي قبر تبحثين. قالت: بلى، دلّني على قبر ابن والدي. فأخذ بيدها إلى نهر العلقمي، عند قبر أبي الفضلﷺ. فأقبلت إليه:

لونّه اللحد ينكشف بابه — لجيمن عليه وانگل اترابه

أصِل للولي واسمع جوابه — أعاتبه واكثر اعتابه

قيل للإمام السجادﷺ وقد استعدّ للرحيل: لم لا تترك عيالك يتزوّدون من أهليهم؟ قال: «يا قوم، إنكم لا ترون كما أرى». قيل: ما الخبر؟ قال: «إني أخشى على عمّتي زينب أن تموت، إنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر». أقبل إليها قال: «عمه قومي». قالت: إلى أين؟ قال: «إلى المدينة». قالت: ومن ذا بقي لي في المدينة:

يناعي اشبعد تدري شبگالي — وشخلّفت عندي الليالي

بيت وبگه من الزلم خالي

﴿٤١﴾

مشاكل الزواج على ضوء الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معنى النسب في الآية

من العبادات التي كانت في الجزيرة قبل الإسلام أنهم كانوا يعبدون البشر أو الحيوانات، وحتىٰ أصنامهم التي صنعوها كان فيها الذكر والأُنثىٰ مثل أساف ونائلة[2]. فكانت عبادتهم إمّا لأشخاص أو كائنات حيّة حيوانيّة أو نباتيّة، وهم يرون أمام أعينهم أن الإنسان أو الحيوان يحتاج إلىٰ التزاوج، فهو صنفان ذكر وانثىٰ. وقد أدركوا قانون الزوجية العامّ بالفطرة دون أن يدركوا تفاصيله، أما

---

(١) الصافات: ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن أساف ونائلة وعبادة قريش لهما، فقال: كانا شابّين صبيحين، وكان بأحدهما تأنيث، وكانا يطوفان بالبيت، فصادفا من البيت خلوة، فأراد أحدهما صاحبه ففعل، فمسخهما الله، فقالت قريش: لولا أن الله رضي أن يعبد هذان معه لما حوّلهما عن حالهما». الكافي ٤: ٥٢٦ / ٢٩، وسائل الشيعة ١٣: ٢٤ / ١٧٦٤٥.

القانون بتفاصيله الدقيقة فلم يتنبّه له العلم إلّا مؤخّراً، لكن القرآن يضع لنا هذه المعلومة ويؤشر لها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

والقرآن تتّضح فيه مرونة القاعدة التي يضعها، بحيث تتّسع لكلّ اكتشاف في المستقبل.

ولما أدرك العرب ذلك بالفطرة تصوّروا أن الله عزّ وجل مثلهم، فقاسوه بأنفسهم، فهو يحتاج إلىٰ الشريك وهذا ما يعبر عنه في الوقت الحاضر بـ«الإسقاط»، أي أن يسقط ما في نفسه علىٰ الموجودات الخارجية، أو ما يسميه علماء الاجتماع بـ«الاستبطان الذاتي»، أي أنه يستبطن ما في نفسه ويطبّقه علىٰ الآخرين.

ولتقريب المعنىٰ نضرب هذا المثل: لو أن أحداً يرىٰ طفلاً مؤذياً مشاغباً، ويحاول أن يضربه فإنه قد يمتنع، ويخطر في باله ساعتها ابنه، ويقول في نفسه: لو كان هذا ابني، فهل أرضىٰ لأحد أن يضربه؟ فيخلع ما في نفسه علىٰ هذا. وهذا هو معنىٰ الاستبطان، فكان أولئك الجاهليّون يخلعون ما في أنفسهم علىٰ معبودهم.

تقول الآية: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾، فما المقصود بهذا المعنىٰ؟ هنا ثلاثة آراء:

الأول: أن إبليس شريك الله في الخلق، فهو أخوه

فهؤلاء كانوا يقولون: إن ابليس اشترك مع الله في خلق العالم؛ فهو أخ له. وهذا كلام الزنادقة؛ فقد قالوا: إن المخلوقات صنفان: صنف منها مميّز ومنه غير مميّز،

---

(١) يس: ٣٦.

كالإنسان مثلاً فمنه جميل الصورة والشكل قويّ البدن، ومنه من هو ليس كذلك، وكذلك الحيوان ففيه مثل الطاووس وهو مميّز، وفيه مثل القرد. فالخلق ليس علىٰ وتيرة واحدة وإنما فيه تنويع، فالأشياء الجميلة حسب زعمهم هي من خلق الله، والقبيحة من خلق الشيطان؛ فإبليس شريك لله[1]. وهذه النظرية تلتقي مع نظرية المجوس بأن العالم يحكمه اثنان: يزدان وأهرمن، أحدهما للخير والآخر للشر، أو أحدهما للظلام والآخر للنور[2]. فمن كان وجهه جميلاً مشرقاً فهو من خلق الله وإلا فهو من خلق الجن أو الشيطان.

ومن الطريف ذكره أننا حتىٰ مع غير هذه النظرية نئنُّ من وطأة التفرقة العنصرية، فهذا ينتمي إلىٰ حام وهذا إلىٰ سام، فكيف بنا لو أخذنا بهذه النظرية؟ إنها نظريات لا تصمد أمام العلم والنقد، وهي آتية من الفراغ ولا تستند إلىٰ قاعدة، ولا ترتكز علىٰ علم أبداً. لكن هؤلاء جعلوا بين الله والشيطان نسباً، فكان هؤلاء الزنادقة يرون أن في العالم إلهين: أحدهما للخير والآخر للشر.. أحدهما للجمال والآخر للقبح.. أحدهما للظلمة والآخر للنور.

الثاني: أن الملائكة بنات الله

فالآية تشير إلىٰ ما يقول به العرب من أن الملائكة بنات الله. وقد تناولهم الله بالنقد في القرآن: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[3]، فهم كانوا إذا جاءت أحدهم البنت حزن وتغيّرت كلّ أوضاعه[4]، أما إذا جاءه ولد فإنه يفرح، فكيف ينسبون البنات اللواتي يحزنون منهن إلىٰ الله؟ أليس هذا يعني أنهم أكمل

(١) شرح المواقف: ٤٣ (حجري). (٢) شرح المواقف: ٤٤، ٦٣ (حجري).
(٣) النجم: ٢١ - ٢٢.
(٤) قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ النحل: ٥٨.

حالاً من الله؟ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾[١]. فهذا المعنىٰ نقدهم به القرآن ونبّههم عليه، فهم يعتبرون الملائكة بنات الله، والملائكة مستجنّون عن الأنظار ولا يمكن رؤيتهم، وكل مستجنّ يسمىٰ جناً[٢].

والمشكلة أنك إن ترجع إلىٰ تاريخنا فستجد فيه محاولات لإظهار غير الواقع، وتعليقه علىٰ عاتق غير المنظور، فمثلاً، إذا أردت أن أداوي مريضاً وأنا لا أعرف ما هو مرضه فأقول: إن هذا أصابته الجن، ولا يمكن أن يشفىٰ إلّا إذا أخرجنا منه الجن. وكيف يخرج؟ نعم يخرج ـ حسب زعم الدجّالين ـ إذا أُعطي الدجّال مالاً كثيراً. وهذا المعنىٰ موجود في الحقل السياسي والاجتماعي وكلّ الحقول، فسعد ابن عبادة كان قد امتنع عن مبايعة الخليفة الأول وذهب إلىٰ الشام، وبعد أيام قتل، وظهر في الساحة السياسية شعر:

قَدْ قَتلنا سيّدَ الخزْ ... رجِ سعدَ بنَ عبادَهْ

ورَميناهُ بسَهمَيـ ... ـنِ فَلَمْ نُخطِ فؤادَهْ[٣]

فقيل: إن الجن قتلته في الليل؛ لأنهم وجدوه يبول واقفاً، ونسبوا هذا للجن. ويقف أحد الشعراء وقفة ساخرة فيقول:

يقولون سعد شكّت الجن قلبه ... ألا ربما صحّحت دينك بالغدرِ

وما ذنبُ سعدٍ أنه بال قائماً ... ولكنّ سعداً لم يبايع أبا بكرِ

وقد صبرت عن لذةِ العيشِ أنفسٌ ... وما صبرت عن لذة النهي والأمرِ[٤]

وحتىٰ في عهد المتوكّل ظهر هذا الاتّهام للجن، فكان يقال: إن هؤلاء الذين

---

(١) النحل: ٥٧.

(٢) الصحاح ٥: ٢٠٩٣ ـ جن.

(٣) الطبقات الكبرىٰ ٣: ٤٦٣ / ٢٦٠.

(٤) الأبيات لحسان بن ثابت الأنصاري. انظر شرح نهج البلاغة ١٠: ١١١.

يأتون لتخريب قبر الحسينﷺ ترميهم الجن. والحقيقة أن الشيعة كانوا يتصدّون لهم ويرمونهم[1].

فعلىٰ هذا الرأي إن الملائكة بنات الله وقد استترت واستجنّت فهي جن، وبينها وبين الله نسب.

الثالث: أن الله تعالىٰ صاهر الجن

وهو رأي يذهب إليه كنانة وخزاعة، حيث كانوا يعتقدون أن الله خطب إلىٰ الجن من سراتهم، أي من البيوت المحترمة منهم، فالسري هو الشريف المحترم[2]، فالله خطب إلىٰ سراة الجن، ومنهم صار له أولاد وبنات.

وموضوع إمكانيّة زواج البشر من الجن موضوع بحاجة إلىٰ وقفة، وهناك فتاوىٰ في هذا الموضوع حول من يتزوّج من الجن، وهي فتاوىٰ لا سبيل إلىٰ الأخذ بها؛ فهي فتاوىٰ غير معتبرة لا تصمد أمام النقد؛ فالله تعالىٰ يقول: ﴿**جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً**﴾[3] فالإنسان يتزوّج من جنسه. ونحن ليس عندنا نقص في جانب النساء حتىٰ نسعىٰ وراء الجنّيّات. وليتنا نضع مشاريع للزواج لحلّ هذه المشكلة، ونهيب بأهل الخير أن يقوموا بواجبهم في هذا المجال، كأن يهيّئوا بيوتاً أو مساعدات للمتزوّجين بقدر الإمكان، فنستر هذه العوائل. وليكن عندنا تفكير شامل بأن بنت فلان هي مثل ابنتي، وبنت الآخر هي مثل ابنتي، فكما أني أُحب أن يستر الله عرضي فلابد أن أُحب أن يستر عرض الآخرين. «**من أصبح لا يهتمّ بأُمور المسلمين فليس بمسلم**»[4].

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيّين: ٣٩٥.

(٢) لسان العرب ١٤: ٣٧٧، ٣٧٨ ـ سرو. (٣) النحل: ٧٢، الشورىٰ: ١١.

(٤) الكافي ٢: ١٦٣ / ١، ٤ ـ ٥، وسائل الشيعة ١٥: ٤١١ / ٢٠١٦٩، ١٦: ٣٣٦ / ٢١٧٠٠ ـ ٢١٧٠١.

فنظريّة التزوّج من الجن هي نظريّة خرافيّة لا تُقبل بأي حال من الأحوال، سواء فيما هو متعلّق بالله أو بالإنسان.

المبحث الثاني: امتيازات الأنسباء عند الخلفاء

ثم قالت الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، فالجنّ لو كانوا أنسباء الله عز وجل، لكان لهم امتياز في المعاملة حسب القاعدة التي درج عليها الناس؛ لأن الأنسباء مميّزون في الدنيا. فالقرآن يريد أن يبين لنا أن هؤلاء ليس لهم امتياز خاصّ، وإنما سوف يُحضرون ويحاسبون مثل باقي الخلق، وليس كما هو عندكم في الدنيا من وجود امتياز خاصّ للنسيب.

من مساوئ مروان

لقد كان مروان بن الحكم متزوّجاً من بنت الخليفة الثالث، فأخذ نمطاً من الامتيازات أوغرت صدور المسلمين، ولم يتحمّلها الصحابة؛ لأن مروان وأباه طريدا رسول الله ﷺ[1]، وقد خلق للمسلمين ألف مشكلة، فعلىٰ أية قاعدة يبنىٰ له بيت في البقيع مثلاً، يكلّف بيت المال خمسين ألف دينار؟ وقد كانت الخمسين ألف دينار من الذهب ميزانيّة دولة. ولماذا يعطىٰ خمس أفريقيا له، يُخرج من بيت المال إلىٰ بيت مروان[2]؟ ووقف الشاعر ابن حنبل يخاطب الخليفة الثالث قائلاً:

وأقسم بالله رب العبا ... د ما خلق الله شيئاً سدى

---

(١) حيث كان ﷺ قد طرد الحكم أبا مروان إلىٰ الطائف، انظر: الإحكام في أُصول الأحكام (ابن حزم) ٢: ٢٠٣، مجمع الزوائد ٨: ٤٣، قال الهيثمي فيه: وفيه ـ سند الحديث ـ عبد الملك ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات، المعجم الكبير ١٢: ١١٥، شرح نهج البلاغة ١: ٣٣٥، ٣: ٣٠، ٦: ١٤٩.

(٢) انظر: مناقب أهل البيت ﷺ: ٣٦٢، الإمامة والسياسة ١: ٣٥، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣، ٣٧.

ولكـن خـلقت لنـا فـتنة　　　لكي نـبتلي بك أو نُـبتلىٰ

إلىٰ أن يقول:

وأعـطيت مـروان نـصف البـلا　　　دِ خـمساً له ومـنعت الحـمىٰ[١]

فهذا اللون من المعاملة أوجد عند الناس مشكلة كبيرة، خصوصاً أنـهم عـلىٰ تماس مع مروان، ويعرفون ماذا يصنع، فهو المدير الفعلي للوضع، فكـان يأخـذ خاتم الخلافة ويوقع الرسائل دون علم الخليفة. وهذا ما حدث مـع المـصريّين الذين قدم وفد منهم لمفاوضة الخليفة الثالث، وقالوا: إن هناك مخالفات صريحة للإسلام، فنطلب منك أن تصحّحها. فوعدهم خيراً، وأمرهم بالرجوع إلىٰ بلادهم. فلمّا خرجوا أمسكوا رجلاً في الطريق يحمل رسالة من عثمان إلىٰ الوالي عـلى مصر أن إذا جاءك فلان وفلان فاضرب أعـناقهم. فأمسكـوا الرسـالة والرجـل ورجعوا بهما إلىٰ المدينة، فأخبروا عثمان. فقال: لا أدري. فلما بحثوا عن الكاتب وجدوه مروان[٢].

وأُسرة مروان جميعاً بمن فيهم أبوه لهم مواقف من الرسول ﷺ غير مشـرّفة؛ ولذا لعنهم النبيّ ﷺ. ولمّا حدثت مشادّة بين مروان وبـين عـائشة بسـبب عـبد

---

(١) الإصابة ٤: ٢٥٢ / ٥١٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٤: ٣٢١ / ٣٧٩٧، ما روته العامة مـن مناقب أهل البيت: ٣٥٩.

(٢) وفيها قال عثمان لمروان: أنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: نعم. قال: ومن كان معك؟ قال: كان معي نفر تفرّقوا فَرقاً منك. قال: من هم؟ قال: لا أُخبرك بهم. قال: فلم اجترأت عـليّ مـن بينهم؟ فما كان من مروان إلّا أن قال: يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسـود ـ يعني عماراً ـ قد جرّأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكّلت به مَن وراءه. فقال عثمان: اضربوه. فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه، فغشي عليه. الإمامة والسياسة ١: ٣٥. وهكذا حوّل مـروان الجرم والعقوبة ـ ولم يكن بالذي يعاقب ـ عنه إلى غيره.

الرحمن بن أبي بكر أخي عائشة، حيث قال له مروان: أنت الذي قال الله فيك: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾[1]، قالت عائشة: ليس كذلك، إنما أنا أشهد أن رسول الله ﷺ لعنك وأنت في صلب أبيك[2].

المأمون ومظاهر بذخه

ومما يستدلّ منه تاريخياً علىٰ هذا الموضوع أن بوران بنت الحسن بن سهل كانت زوجة المأمون، وكان الحسن وزير المأمون، وكانت ابنته هذه معروفة بالجمال والثقافة، فتزوّجها المأمون. لكن ما الذي فعله ليلة العرس؟ أمر بغرفة الدخول، فأخذوا أبعادها من العرض والطول، ونسجوا عليها حصيراً من الذهب، وبعثوا إلىٰ أُمّهات المدن الإسلامية فجمعوا كلّ حبّة لؤلؤ كبيرة أو حجر كريم كبير، إلىٰ أن جمعوا منه سلاسلَ، فلما دخل المأمون وقف علىٰ حصير الذهب، وأُلقيت سلال اللؤلؤ والأحجار الكريمة علىٰ رأسه، فأخذت تتساقط علىٰ الحصير، فتذكّر قصيدة لأبي نؤاس يقول فيها:

كأن صغرىٰ وكبرىٰ من فواقعها ... حصباء درّ علىٰ أرض من الذهبِ

ومن بعد أن خرج من غرفة الدخول رأىٰ والد البنت، فقال له: حاجتك؟ قال: حاجتي أن تحفظ لي قلبك من السرقة؛ لأن صاحب السلطان كراكب الأسد. قال: لا، بل لك خمس أفريقيا[3]. ودفع له ذلك، وليس ذلك إلّا لأنه صهره.

---

(١) الأحقاف: ١٧.

(٢) السنن الكبرىٰ (النسائي) ٦: ٤٥٩ / ١١٤٩١، الفائق في غريب الحديث ٣: ٣٩٨ ـ هرقل، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ١٩٧، تفسير القرآن العظيم ٤: ١٧١ ـ ١٧٢، أُسد الغابة ٣: ٣٠٦، الإصابة ٤: ٢٧٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٤٣، تاريخ بغداد ٧: ٣٣١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٠٩.

خطبة علي لفاطمةعليها السلام

وفي مقابل ذلك نجد صورة أُخرىٰ وهي صورة إسلاميّة، لا كتلك التي عليها اسم الإسلام فقط دون سماته، يقول السيد ابن طاوس: كان أمير المؤمنينعليه السلام في بستان له ـ فقد كان ولعاً بإحياء الأرض وزرع النخيل واستنباط الماء، وكان يبيع ذلك فيشتري بثمنه عبيداً يعتقهم لوجه الله، حتىٰ أعتق ألف مملوك من كدّ يده[1] ـ

(١) الكافي ٥: ٧٤ / ٤، الأمالي (الصدوق): ٣٥٦ / ٤٣٧، مجمع البيان ٩: ١٤٧، شرح نهج البلاغة ٤: ١١٠، ينابيع المودّة ١: ٤٤٦. وقد وقفعليه السلام على الحجّاج مئة عين استنبطها في ينبع كما في مناقب آل أبي طالب ٢: ١٢٣، ومع أن أموالهعليه السلام قد بلغت في السنة أربعين ألف دينار كما في مسند أحمد ١: ١٥٩، أُسد الغابة ٤: ٢٣، تاريخ الإسلام ٢: ١٩٩، ينابيع المودّة: ٣٧٢، وغيرها فإنهعليه السلام لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتّخذ ضيعة، ولم يعقد على مال إلّا ما كان بينبع والبغيبغة ممّا يتصدّق به. كما أنه لم يترك حين وفاته سوى سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله كما في الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر بردّ هذا المبلغ إلى بيت المال بعد وفاته كما ذكره الإمام الحسنعليه السلام في خطبته. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦.
وقد عاشعليه السلام ومات وما بنى لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، كما في تهذيب الأسماء ٢: ٣٤٦، أُسد الغابة ٤: ٢٤، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٧٠، البداية والنهاية ٨: ٥٥. وقد باععليه السلام سيفه وقال: «لو كان عندي ثمن عشاء ما بعته». كشف المحجّة: ١٢٤.
وحينما قال محقن الضبي لمعاوية: جئتك من عند أبخل الناس ـ يعني أمير المؤمنينعليه السلام ـ قال له معاوية: والله، لو كان له بيتان: بيت تبن وبيت تبر لأنفد تبره قبل تبنه. ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٥٨، ٦٠.
وكان مصير كلّ تلك الأملاك أن تصدّقعليه السلام بها ووقفها على المسلمين، ولم يُبقِ منها شيئاً حين وفاته كما هو صريح خطبة ولده السبطعليه السلام حين توفي والده. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٥٨، ٦٠.
وقد قالعليه السلام: «أنا الذي أهنت الدنيا». ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٢٠٢، البداية والنهاية ٨: ٥.
وقصّته مع أخيه عقيل أشهر من نار على علم، فلم يعطه زيادة على عطائه مع أنه أخوه، كما فعل غيره ومرّت الإشارة إليه في محاضرة (أُمية الرسولصلى الله عليه وآله) عن تاريخ ابن خلدون ١:

يتركّل علىٰ مسحاة له ويقرأ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[1]، ودموعه جارية، فدخل عليه الخليفتان أبو بكر وعمر، فسلّما ثم قالا: يا علي، ما يمنعك من ذكر فاطمة؟ نحن خطبناها إلىٰ النبيﷺ فلم يعطِنا، وخطب إليه عبد الرحمن بن عوف وجماعة فلم يعطِهم، وصار إذا جاءه الخاطب يدير وجهه عنه. حتىٰ قال: «إن جاءني أحدهم خاطباً فاطمة أشكُه إلىٰ الله». فما يمنعك من خطبتها؟ قال: «يمنعني قلّة ذات اليد». فقالوا له: إنك تعلم أن الدنيا لا تساوي عند الله ورسوله جناح بعوضة، ولا عليك. فوضع رداءه علىٰ ظهره وأقبل معهما، يقول أمير المؤمنين: «لما دخلت علىٰ النبيﷺ وصرت أمامه أحسست أن رجليّ لا تحملانني حياء منه، فجلست بين يديه ورحت أذكر له مواقفي وجهادي في سبيل الله ودفاعي عن حمىٰ المسلمين. فقال لي: يا علي، أنت في نظري أكبر من ذلك، ارفع رأسك وقل لي عما جئت به. قلت: الحياء يمنعني. قال: لعلك جئت خاطباً فاطمة؟ قلت: إي والله. فقال: الله أكبر، الآن خرج من عندي جبرئيل، وقد أمرني أن أزوّج النور من النور، فقلت: مَن ممّن؟ قال: زوج علياً من فاطمة. وأنا زوّجتك ابنتي».

☚ ٢٠٤ ـ ٢٠٥، وكذلك بشهادة عثمان نفسه كما في جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ١٧٥ حيث قال له عبد الرحمن بن عوف: إني إنما قدّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فقد خالفتهما. قال عثمان: كان عمر يقطع قرابته وأنا أصل قرابتي في الله. فقال له: إني لا أكلمك أبداً. فمات وهو لا يكلمه. مع أن عمر نفسه لم يسلم من هذا، فقد أصدق إحدى زوجاته أربعين ألف دينار أو درهم كما في الفتوحات الإسلامية ٢: ٥٥، البحر الزخّار ٤: ١٠٠، وأعطى صهراً له قدم عليه من مكّة عشرة آلاف درهم من صلب ماله كما في الطبقات الكبرى ٣: ٢١٩، كنز العمال ٢: ٣١٧. كما أن ابناً لعمر باع ميراثه بمئة ألف درهم كما في جامع بيان العلم (ابن عبد البرّ) ٢: ١٧، وفي نصّ آخر أن ثلث مال عمر أربعون ألفاً كان قد أوصى بها. المصدر نفسه.

(١) الحاقة: ١٨.

وهذا يسمىٰ بلغة الفقهاء[١] «تفويض البضع» وهو ما لا يسمىٰ فيه المهر، فالمهر ليس ركناً حتىٰ يذكر في صلب العقد، فينصرف إلىٰ مهر المثل.

ثم قال: «**يا علي ما عندك تسوقه لأهلك؟ فقلت: الله ورسوله أعلم بحالي، ليس لي نقد، وليس عندي إلّا الدرع والناضح**».

والناضح البعير المخصّص للسقي[٢]، والعرب تسمي البعير بأسماء مختلفة بحسب وظائفه وعمله، فما كان منه في البستان يسمىٰ ناضحاً، وما كان منه هدياً للكعبة يسمىٰ بدنة[٣] وإذا كان للركوب يسمىٰ راحلة[٤].

وعادة يكون الناضح عند الفلاّحين، ولهذا لمّا جاء معاوية إلىٰ الحجّ، أخرج الوالي الناس لاستقباله، وانتهىٰ الأمر إلىٰ قيس بن سعد بن عبادة، فأبىٰ أن يخرج، فأُجبر علىٰ ذلك فخرج، فاستقبله معاوية، وكان عمرو بن العاص واقفاً إلىٰ جنب معاوية، فرأى معاوية قيساً وقد أتىٰ وحده، فقال له: ما لي لا أرىٰ الأنصار؟ قال: ما عندهم رواحل، قال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟ (يعني أنهم فلاحون)، قال: أفنيناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك علىٰ الإسلام حتىٰ أدخلناك فيه كرهاً. فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: علىٰ رسلك، إن أجبته بواحدة أجابك بأربعة. فسكت[٥].

فعلي عليه السلام لم يكن عنده سوىٰ الناضح ودرعه وسيفه. وفي سيرة هذا الرجل نفحات تهزّك من الأعماق، فهو يتحدث عن سيرته الذاتية فيقول: «**ولقد رقعت**

---

(١) شرائع الإسلام ٢: ٥٤٧، قواعد الأحكام ٣: ٧٩، المجموع شرح المهذب ١٦: ٣٧١ ـ ٣٧٢.

(٢) لسان العرب ١٤: ١٧٤ ـ نضح.

(٣) لسان العرب ١: ٣٤٦ ـ بدن، وإنما سميت بدنة؛ لأنها تبدن، أي تسمن.

(٤) لسان العرب ٥: ١٧٠ ـ رحل.

(٥) قريب منه في مناقب آل أبي طالب ١: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٢٣ ـ نضح، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٥.

مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»[1].

وكان﵇ يقول: «ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟»[2].

ولئن كنت يا علي لا تملك إلّا المدرعة، فقد كساك الدهر حمداً وثناء لا ينقطع إلىٰ أن تقوم الساعة.

إذا الملأ الأعلىٰ تحدّر بالثنا   عليك فما شأني وشأن ثنائيا

ثم قال﵇: «فقال لي رسول الله ﷺ: اذهب فقد زوّجتك ابنتي بالدرع».

فرسول الله ﷺ يطالبه بالمهر، لا كأولئك الذين يميّزون أنسباءهم.

نعم، فيبيع علي﵇ الدرع بأربعمئة وثمانين درهماً، ويأتي بها فيسكبها بين يدي النبي ﷺ، يقول: «فلا هو سألني عن عددها ولا أنا أخبرته بالعدد، فأخذ قبضة بكلتا يديه دفعها إلىٰ بلال، قال: ابتع بها لابنتي طيباً. وقبض قبضات دفعها إلىٰ أبي بكر وقال له: اذهب أنت وعمار وجمع من الصحابة فاشتروا لابنتي أثاث البيت وما يصلحها. ففعلوا».

نعم، اشتروا قميصاً بأربعة دراهم، وخماراً بأربعة دراهم، وسريراً مزمّلاً بشرائط النخل وحصيراً، وقعباً للبن، وفخاراً للماء، وآنية نحاسية، فوضعوه بين يدي النبي فراح يقلّبه ويقول: «بأبي وأمي قوم جل إنائهم الخزف»[3].

هذه هي الصورة الإسلاميّة الناصعة، وإلّا فإن النبي ﷺ كان بإمكانه أن يسوق لها أعظم المهور.

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

(٣) لم تتوفّر لدينا كتب السيد، قريب منه في دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣ عن مسند فاطمة.

فالقرآن يريد تبيين هذه اللمحة النفسيّة ـ معاملة الأصهار معاملة خاصّة ـ بأنه لو كان الجنّ أصهاره لكان تعالى على نمطكم في المعاملة، فادّعاؤكم هذا باطل.

المبحث الثالث: تكريم الزوجة في الإسلام

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي لا تسقطوا ما في أنفسكم على الآخرين، ولا تتصوّروا أن الله مثلكم يحتاج إلى الشريكة، إن الله فرد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له صاحبة ولا ولد، بعكس ما أنتم عليه. فالإنسان بأمسّ الحاجة إلى شريكة الحياة، فجعل الله المرأة سكناً للرجل والرجل غطاء وستراً لها. ولذلك نلاحظ أن الإسلام ذلّل كلّ العقبات كيلا تكون عائقاً أمام الزواج، فجاء إلى أهم العقبات وهي المهر، فلم يعتبره إلّا نحلة وعطيّة للمرأة كي يطيب قلبها، وليس هو ثمناً.

وأستغرب من عبارة بعض الفقهاء حيث يقول: المهر عوض البضع[1]. والحال أن المهر ليس كذلك؛ فما تعطيه المرأة من الحنان لا يقيّم أو يثمّن بالنقد، وما يعطيه الرجل كذلك. والعلاقة التي يريدها الإسلام ليست مادّيّة غليظة فيها بداوة، وإنما يريدها علاقة تقوم على الروح: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[2]، ويقول النبي ﷺ: «النساء شقائق الرجال»[3]. ومعنى ذلك أن المرأة كالأخ الشقيق، فهناك شراكة تقوم على مواجهة مشاكل الحياة، وعلى السرّاء والضراء، فلا يكون المهر ثمناً للبضع، وإنما هو وسيلة لقضاء وإنجاز ما يحتاجه الإنسان من حاجات تتوقّف عليها أمور معاشه.

وهذه الأعراف من البذخ عندنا لا علاقة لها بالحياة الزوجيّة إطلاقاً كالإطعام

---

(١) إيضاح الفوائد ٣: ١٩٠، جامع المقاصد ١٣: ١٤٣، البحر الرائق ٤: ٣١٦، حاشية ردّ المحتار ٣: ١١٦.
(٢) الروم: ٢١.
(٣) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

في مكان معيّن، والحفلات في مكان معيّن، والنفقات التي لا موجب لها، بل هي مظاهر تعقّد الحياة وتضع عقبات بين الرجل والمرأة. ولا تتصوّر أن هذه الحفلة الضخمة أو الأثاث الضخم يستطيع أن يخلق سعادة إذا لم تكن السعادة داخل النفس، فقد تجد كوخاً يطفح بالسعادة، وقد تجد قصراً فخماً هو أشبه بالمقبرة.

نعم، يقول النبي ﷺ: «النساء شقائق الرجال»، فالرجل إذا فقد شقّه لا يمكنه أن يحتمل ذلك، والمرأة الصالحة لا يمكن أن يعدلها شيء، دخل أحد الصحابة علىٰ النبي ﷺ يسأله عن قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ﴾[1]، فقال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء؟». قال: ما هو؟ قال: «المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته»[2].

نعم، تحتاج الحياة إلىٰ ما يحرّك نبض الإنسان، ولا يحرّكه شيء أكثر من الحبّ وتبادل المودّة والعطف. والمرأة كنز لا يعدله كنز، يقول أحد الشعراء راثياً شقيقة روحه:

شقيقةَ روحي كيف يـغمرك الثرىٰ ... وشخصُك في أعماقِ روحيَ يُـرسمُ

مشيتِ معي والعيشُ بؤسٌ وكـلحةٌ ... ووجـه اللـيالي عـابسٌ مـتجهّمُ

فلما استراشَ الفرخُ وامتدَّ عـودُهُ ... وراحَ القبيحُ الجدبُ وانـزاحَ عـلقمُ

ضحكتِ وفي الحالينِ كـنتِ رضـيّةً ... وثــغرك بــالشكران لله مـفعمُ

فالمرأة تسير معه في السراء والضراء، يقول النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر»[3].

---

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧٠، وقريب منه في جوامع الجامع ١: ٣٩٦، مسند أبي داود الطيالسي: ٣٠٦.

(٣) مسند أحمد ٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨.

والفرك: البغض والكره[1]. والعرب يقسمون النساء قسمين: الفَروك والعَروب؛ فالعروب المتودّدة لزوجها المقبلة عليه[2]، والفروك المعرضة عنه. فالنبيﷺ يقول: المؤمن لا يكره زوجته، خصوصاً إذا توطّدت العلاقة بوجود طفل بينهما، فهذا الطفل له حقّ وعليهما ألّا يضيّعاه. فلا ينبغي لهما أن يتشاجرا أمامه فيدمراه. وقد ثبت بالإحصاءات أن البيوت المحطّمة تأتي من الشجار بين الأبوين.

وقد كانت فاطمة الزهراءعليها السلام، عزيزة رسول اللهﷺ، النموذج المثالي في العلاقة بين الزوجين، هذه النسمة التي كان رسول اللهﷺ يتنشّقها، فكان إذا مرّ على باب دارها يقف ويصيح: «يا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة»[3] وكانﷺ يقول: «أتأذنون لمحمد بالدخول». فتقول له: «البيت بيتك، والحرّة ابنتك»[4]. فيضع رأسه على رأسها، ويشبع رأسها لثماً وتقبيلاً، ويقول: «أشمّ منها رائحة الجنّة»[5].

هذه المرأة عاشت مع أمير المؤمنينعليه السلام تلك الفترة، وكان البيت ينبض بالسعادة مع ما مرّ به من آلام وضيق ومشقّة، لكن المهم أن هناك نهرين من المودّة يجريان معاً ضمن هذا البيت الذي كان يحوي هذين الزوجين وهما يريان الحسن والحسينعليهما السلام، وزينب وأُم كلثوم يدرجون فيه. وكانعليه السلام إذا دخل البيت امتلأت روحه عطفاً ورضاً وأُنساً وحناناً من هذه النسمة التي تعكس له روح النبوّة.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠: ٥٨، وفيه ذكر أن المقصود بالمؤمنة: الزوجة، لسان العرب ١٠: ٤٧٤ ـ فرك.

(٢) لسان العرب ١: ٥٩١ ـ عرب.

(٣) تفسير فرات الكوفي: ٣٣٩ / ٤٦٣، بحار الأنوار ٣٥: ٢١٥ ـ ٢١٦ / ٢٠.

(٤) ورد أن الزهراءعليها السلام لمّا مرضت أراد أبو بكر وعمر أن يزوراها، فاستأذن لهما الإمام عليعليه السلام منها فقالت له: «البيت بيتك والحرة زوجتك». كتاب سليم بن قيس: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٣، ٤٣: ١٩٨.

(٥) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

بالإضافة إلىٰ ما كانت تغدقه من حنان علىٰ بيته وعلى أولادها.

لقد مرت علىٰ علي لحظات وهو يودّعها في لحظاتها الأخيرة، وهي تقول له: «في صدري وصايا تختلج، وأريد أن أوصيك بها». قال: «بلىٰ، عزّ والله عليَّ فراقك يا بنت رسول الله». قالت: «يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسّلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أختي أمامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أمّهما». إلىٰ آخر وصيّتها. ثم قالت: «فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»[1].

فكان أمير المؤمنين إلىٰ جانبها وقد وضع رأسها في حجره وهي ترفع وصاياها إليه. إلىٰ أن فاضت روحها الطاهرة. فسجّاها وأسبل عليها الإزار والتفت إلىٰ أبي ذرّ قائلاً: «يا أبا ذر، أعنّي علىٰ حملها»[2].

هذا علي الذي اقتلع باب خيبر، تلك الباب الضخمة بيد واحدة، يعجز عن نقل فاطمة وهي برعم صغير؟ نعم، لقد هدّه المصاب فلم يمكنه أن يتحرّك. حمل طرفاً من الفراش، وحمل أبو ذر الطرف الآخر، واستقبل أمير المؤمنين قبر النبي فقال: «السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة بجوارك والمختار لها الله سرعة اللحاق بك»[3]، ثم أخّر إخراج الجنازة إلىٰ ما بعد منتصف الليل، فأخرجها مع المشيّعين فوضعها علىٰ حافة القبر:

شيعها الكبرها بليل   حنىٰ عليها وبچه بهداي

---

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.
(٢) انظر: معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٩٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٩.
(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٢.

يگـلها يـا وليـف الروح	عگـبج مـن يـظل ويـاي
چـنتي صـحوة ايـامي	وعگـبج غـيّمت دنـياي
وشريـج الروح لو سـافر	ما نـدري الوجـه لا ويـن

أوصلها إلىٰ القبر ثم التفت إلىٰ المشيّعين وكانوا ثمانية هـم: أبـو ذر وعـمار والمقداد وآخرون، فقال لهم: «ارجعوا لا حاجة لي ببقائكم». ثم التفت إلىٰ أبي ذر وقال: «خذ بيد الحسنين إلىٰ البيت». ثم جلس هو علىٰ شفير القبر يخطّ الأرض بأنامله:

ما لي وقفت علىٰ القبورِ مسلماً	قبرَ الحبيبِ فلم يـردَّ جـوابـي
أحـبيبُ مـالك لا تـردّ جـوابَنا	أنسيت بعدي خـلّة الأحـبابِ[1]

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

﴿٤٢﴾

الإنفاق في الحرب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: مورد القرض فيها والنظم بينها وبين سابقتها

هذه الآية الكريمة تسبقها آية أخرىٰ هي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]؛ لذلك وبناء علىٰ سبْق هذه الآية، وحجّية السياق؛ فإن الكثير من المفسّرين يقولون: إن هذه الآية جاءت حول الإنفاق بالحرب[3].

ونحن الشيعة نعتقد أن الآيات لم تُرَتَّب وفق التسلسل الزمني حسب النزول، وإنما كان الجمع وِفقاً للتسلسل الموضوعي، كأنْ تشترك مجموعة من الآيات في موضوع واحد، كالآيات التي تشترك في موضوع الطهارة أو الحرب وغيرها. لكن الذي نريد قوله هنا: إن هذه الآية جاءت في الإنفاق في الحرب، بمعنىٰ أنْ يهيّئ

(١) البقرة: ٢٤٥. (٢) البقرة: ٢٤٤.

(٣) التبيان ٢: ٢٨٥، مجمع البيان ٢: ١٣٧، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٣٧، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٠٦.

كلّ مكلف نفقات وأموالاً لتغطية الحاجات الحربيّة للمسلمين. فالجهاد يحتاج أوّلاً للمجاهدين، ثم للسلاح، ثم للنفقات، وهذه النفقات للحِلّ والترحال، ولإطعامِ وكفالةِ عيال المجاهدين، وغيرها من الموارد التي تحتاج إلىٰ إنفاق.

ولذا يميل الكثير من المفسّرين كما قلنا إلىٰ أن الإنفاق أو القرض المندوب إليه من الله عز وجل في هذه الآية هو المال الذي ينفَق لتغطية حاجات المسلمين للقتال، فالمسلمون يخرجون للقتال أحياناً وليس لديهم المال الكافي؛ ولذا يتعيّن هذا المال وهو ما نسميه اليوم بـ«المال الوطني».

وقد قرأت رأياً لأحد المفسّرين المحدثين يقول فيه: إن أساس موضوع القرض في الشريعة الإسلاميّة غير وارد، أي أنه من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع. والذي يريد هذا الكاتب قوله هو أنه لو طُبّق الإسلام فإن التوزيع في الاقتصاد الإسلامي سيغطّي حاجات الناس ولا يضطرّ الفرد فيه إلىٰ الاقتراض؛ لأن الإنسان يقترض إذا كان محتاجاً، وذلك لسدّ حاجات السكن والطعام واللباس، وإذا كان الإسلام يتكفّل بهذه الحاجات الأساسية، والتوزيع الإسلامي يغطّي هذه الأبعاد، فلن يضطرّ الإنسان للاقتراض.

القرض قرضان: استهلاكي وانتاجي

وهذا الرأي في جانب منه صحيح، ولكن هناك قروض طارئة، فالإسلام وإن كان يغطي الحاجات الأساسيّة، لكن القروض ليست جميعها استهلاكيّة وإنما هناك قروض إنتاجيّة، بمعنىٰ أنني أقترض لا لأسدّ حاجتي إلى الطعام لأنني جائع، وإنما أُريد أن أُوظّف مصنعاً للإنتاج مثلاً. وهناك بعض الحالات الطارئة كأن يمرض الإنسان ويحتاج إلىٰ العلاج الذي يتطلّب منه أموالاً فيضطرّ أن يقترض ويسدّد بالتدريج، وهناك حالات كثيرة أُخرىٰ في المجتمع تستوجب القرض. فالآية

الكريمة إذا أخرجناها من نطاق الحرب واعتبرناها أعمّ فسوف تردّ علىٰ تلك الآراء التي سوف أذكرها لاحقاً.

فالأموال إذن هي لتغطية الجانب الحربي، فمن كان من المسلمين ذا قدرة بدنية مع توفّر الشروط فعليه أن يخرج للقتال، أما من لا يمتلك هذه القدرة ولكن يمتلك القدرة الماليّة ويستطيع أن يسهم بهذه القدرة فعليه أن يسهم في هذا الجانب؛ لأن الجهاد هو لإعلاء كلمة الله، وكلمة الله هي إنشاء المجتمع المطلوب الذي يشيع فيه العدل والأمان والاستقرار وإشباع الناس ودفع الضرر عنهم. وهذه هي كلمة الله، وهي حاجة الإنسانية جميعاً. ونحن نعرف اليوم أن الكثير من الدول تعتمد علىٰ الضرائب سواء من الناتج الداخلي أو الضرائب المحلّيّة.

ففي مثل هذه الحالة إذن لو أن عدوّاً دهم المسلمين فعليهم أن يقدّموا شيئاً، والله تعالىٰ ربط الأسباب بمسبّباتها، فأراد من المسلمين أن يعدّوا العدّة ويشتروا السلاح. ولا معنىٰ لقول من يقول: لماذا لا ينصر الله المسلمين؟ ولِمَ يكلّفهم أن يشتروا السلاح ويبذلوا الأموال وهو قادر علىٰ نصرهم؟ لأن الله تعالىٰ لم يخلقهم ليكونوا متوانين متكاسلين. يُذكر أن أحد الأعراب حمل عليه رجل فطعنه، فردّ عليه هو وطعنه فقتله، فقيل له: ألا صبرت عليه لتلقىٰ الله وأنت مظلوم؟ قال: لا، لأن الله تعالىٰ سوف يحتجّ علي، ويقول لي: خلقتك مثل البعير، فلم لم تدافع عن نفسك؟

فعلىٰ المسلم أن يدافع عن وطنه وأهله ومقدّساته، وألّا يتّكل علىٰ الدعاء فقط، ولو كان الأمر بالدعاء وكفىٰ، لجلس النبيﷺ في مكانه واشتغل بالدعاء، ولم يخرج بنفسه وهو يحمل السيف والرمح والقوس، ولم يخرج أصحابه ويتعرّضوا للقتل والإبادة وتقطيع الأوصال دفاعاً عن الدين والمقدّسات.

فالله سبحانه وتعالىٰ يريد منا أوّلاً إشباع الحاجات ذات العلاقة بالذود عن مقدّساتنا وكراماتنا وأوطاننا؛ لأن الدنيا لا تسير كلّها علىٰ القانون الخلقي أو تنظّمها الأبعاد الخلقيّة، وإنما هي إلىٰ الآن غابة، فنحن الآن في القرن العشرين، وفي ظلّ القوانين الدوليّة ومنظّمة الأُمم المتّحدة والمؤسّسات الإنسانيّة ومع ذلك نرىٰ أن الكثير من هذه العناوين كذب وادّعاءات وليس لها شيء من الواقع، فلا زال القويّ يعدو علىٰ الضعيف فيأكله. وانظر إلىٰ بعض من يعتدي صباحَ مساءَ علىٰ الشعوب والأُمم ولا يجد من يردعه ويقول: إن هذا معتدٍ؛ لأن هذا المعتدي قوي، أمّا الضعيف فلا، ورحم الله من قال:

النّاسُ مَنْ يَلقَ خَيراً قائِلُونَ لَهُ   مَايَشتَهِي وَلأُمِّ المُخطِئِ الهَبَلُ[1]

فالدين إذن يريد أن يُعِدَّنا إعداداً واقعيّاً، فيقول لنا: لا تعيشوا في أوهام، ففي الحياة قوانين طبيعية يجب أن تتّبعوها، إذ أن الله سينصركم بذلك. فالمرحلة الأُولىٰ هي إعداد القوانين، ثم يأتي دور التوجّه إلىٰ الله تعالىٰ وطلب النصر ليكتمل العمل.

هذا كلّه إذا اعتبرنا أن القرض المقصود في الآية هو تغطية الحاجات الحربيّة دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، أما إذا قلنا: إن معنىٰ القرض هنا معنىٰ عام؛ فإنه يكون إذن لسدّ الحاجات والحالات الطارئة التي تحصل في المجتمع الإسلامي.

معنىٰ القرض وبيان بعض أحكامه

ودعنا الآن نبيّن معنىٰ القرض وبعض أحكامه في الشريعة فنقول: القرض في اللغة هو القطع[2]، فنقول: الفأر يقرض أي يقطع. أمّا في الاصطلاح فهو اقتطاع

---

(١) البيت للطامي، أمالي المرتضىٰ ٢: ٣٢، الفائق في غريب الحديث ١: ٢٨٦. والهبل: الثكل. المعجم الوسيط ٢: ٩٧٠ ـ هبل.

(٢) لسان العرب ٧: ٢١٦ ـ قرض، وانظر ٧: ٦٥ ـ فرض.

جزء من المال وإعطاؤه للغير بضمان المثل أو القيمة، أو هو جزء مقطوع من المال بضمان الإرجاع المِثلي أو القيمي، فلو أقرضت أحداً كمّيّة من الحنطة أو الشعير فهو ضامن لإرجاع ما يساوي تلك الكمّيّة، أما إذا أقرضته نقداً فعليه ضمان قيمة النقد في زمن الاقتراض.

أمّا حكم القرض في الشريعة فهو الإباحة والحلّيّة في العنوان الأوّلي، أما إذا طرأ عليه عنوان ثانوي فإن حكمه ينقلب، فمثلاً إذا اقترض المقترِض من غير حاجة للقرض فإن القرض هنا يصبح مكروهاً؛ لأنه يسبّب للمقترض الضيق والحرج. يقول النبي ﷺ: **«إياكم والدَّين؛ فإنه ذلّ بالنهار، ومهمّة بالليل»**[1].

فأنت في النهار يدٌ آخذة، واليد الآخذة غير اليد المعطية، فصاحب اليد المعطية ينظر إليك في أقلّ الأحوال أنك آخذ، ويريد منك أن تسدّد دينه. وهذا أحد مساوئ الحاجة فإنها تذلّ الإنسان والعياذ بالله، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«اللهم صُن وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار؛ فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، فأفتتن بحمد من أعطاني وأبتلي بذمّ من منعني، وأنت من وراء ذلك كلّه ولي الإعطاء والمنع»**[2]. فكلّ سؤال لغير الله يستوجب الذل، ورحم الله بعض أدبائنا:

ربُّ روحي طليقةٌ في مُناجا	**تِكَ والجسمُ مُصفَدٌ مَكبُولُ**
بَعُدَ الفرقُ بينَ رُوحي وَجِسمي	**جَسدي آثِمٌ وَرُوحي بَتُولُ**

---

(١) الكافي ٥: ٩٥ / ١١، وتمامه فيه: وقضاء في الدنيا وقضاء في الآخرة. مسند الشهاب ٢: ٩٦ / ٩٥٨.

(٢) نهج البلاغة / الدعاء: ٢٢٥، ومثله في الصحيفة السجادية الكاملة: ١١٠ / ٢٠ ـ دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق، إلّا في قوله: من وراء ذلك كلّه، فإن فيها بدله: وأنت من دونهم.

وَأَنَا السَّائِلُ المُلِحُّ وَيجلُو ... وَحشَةَ الذُّلِّ أَنَّكَ المَسؤولُ

أما الهمّ في الليل فهو أن المقترض إذا كان من أصحاب الضمائر الحيّة فهو يخاف أن يدركه الموت قبل أداء الدين، فيبقىٰ الليل كلّه ساهراً مهموماً. يذكر أن النبي ﷺ وُضعت أمامه جنازة ليصلّي عليها، فسأل: «هل علىٰ صاحبكم دَين؟». قالوا: نعم، عليه ديناران. فتنحّىٰ عنه وقال: «صلّوا علىٰ صاحبكم». فقال أحد الأصحاب: أنا أقضيها عنه يا رسول الله. فقال ﷺ: «أمّا الآن فنعم»[1].

وهذه الرواية لا يعنينا فيها أنها مناقَشة أو مخدوشة من ناحية السند، وإنما الذي يهمّنا منها أنها تتناسب تماماً مع حرص الإسلام علىٰ أداء الحقوق[2].

هذا كلّه إذا لم يكن المقترض محتاجاً وإن كان عازماً علىٰ ردّ المال إلىٰ صاحبه، أما إذا كان ينوي منذ البداية ألّا يؤدي ما سيكون بذمّته من القرض، فإن ذلك يكون حراماً.

معنىٰ إقراض الله والاقتراض منه

وهنا يرد هذا السؤال: هل يمكن حمل الآية علىٰ حقيقتها؟ الجواب بالتأكيد هو(لا)؛ لأن الله تعالىٰ ليس محتاجاً. ومن هنا يستدلّ الفقهاء علىٰ استحباب

---

(١) الكافي ٥: ٩٢ / ٢، مسند أحمد ٣: ٢٩٦، وفيه بعد ذكر الحديث: فلما فتح الله تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ قال: «أنا أولىٰ بكل مؤمن من نفسه؛ فمن ترك ديناً فعليّ، ومن ترك مالاً فلورثته».

(٢) يلاحظ أن أهل الفن حينما يأتون إلىٰ الأحاديث يقسمونها إلىٰ أقسام؛ فالأحاديث المختصّة بالعقائد والأخلاق يؤخذ بها وإن كانت ضعيفة السند مادامت علىٰ مذاق عقائد الإسلام الحقّة، وكذلك أحاديث السير والتواريخ يؤخذ بها مادام فيها عبرة وعظة، ولا يستثنىٰ من ذلك إلّا أحاديث الأحكام فلا يؤسس حكم إلّا علىٰ ما كان غير الضعيفة لما يترتب علىٰ ذلك من المفاسد إن خولفت القاعدة.

الصدقة وقضاء حاجة المؤمن[١]، وإقراضه إذا أراد الاستدانة وهو معروف بحاجته إليها[٢].

يقول المفسّرون: إن هذه الآية لمّا نزلت انقسم المسلمون ثلاثة أقسام: قسم قال: إن الله فقير ويريد أن يسترفد ويستغني فيطلب أن يعطىٰ القرض، وهؤلاء هم اليهود والمنافقون[٣]، والقسم الثاني سمعوا هذا فأعرضوا ولم يستجيبوا لنداء القرآن ولم يعطوا من أموالهم شيئاً، أما القسم الآخر وهم المؤمنون فسمعوا واستجابوا.

وأذكر هنا حادثة تكشف أن لدينا شريحة من الصحابة متميّزة بشكل تهتزّ لها من الأعماق، وهي أن هذه الآية لما نزلت دخل أبو الدحداح علىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الله يطلب منا القرض؟ قال: «نعم، يطلبه منكم ليدخلكم به الجنة». قال أبو الدحداح: يا رسول الله، إذا أقرضت الله أتضمن لي ولأولادي ولابنتي الدحداحة من الله العطاء؟ قال النبي ﷺ: «نعم». قال: يا رسول الله اشهد عليَّ وأعطني يدك.

فوضع يده بيد النبي ﷺ وقال: اشهد عليَّ يا رسول الله أن عندي حديقتين لا أملك غيرهما وقد وضعتهما في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك واحدة لك ولأطفالك، وضع الثانية في سبيل الله». فقال: أُشهدك يا رسول الله، أني أُعطي أفضلهما وهي حديقة بها ستمئة نخلة. فقال النبي ﷺ: «جزاك الله خيراً».

فرجع أبو الدحداح إلىٰ الحديقة، فوجد فيها امرأته أمّ الدحداح وأولادها وقد وضعوا في جيوبهم تمراً جمعوه ليأخذوه معهم، فقال لها: يا أمّ الدحداح، أنا

---

(١) تذكرة الفقهاء ٢: ٤٢٥ (حجري)، مدارك الأحكام ٥: ٩، زبدة البيان: ٤٥٢، مغني المحتاج ٣: ١٢٠، فتح المعين ٢: ٢٣٥.

(٢) مجمع الفائدة والبرهان ٩: ٥٦.

(٣) مجمع البيان ٢: ٤٦٠، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٩٤، ٣٠٣.

وهبت هذه الحديقة لله. فقالت: شكر الله سعيك، ونعم البيع بيعك، وانتظرْ عطاء الله. ثم أخذت تستخرج التمر من جيوب الأطفال وتضعه في الحديقة إلىٰ جانب التمر الذي كانوا جمعوه، وأخذت أولادها وذهبت إلىٰ الحديقة الثانية[١].

نعم، لقد أخذ هذا الدين من المسلمين مأخذاً عظيماً، ولك أن تتصوّر كيف أن هناك من يُوقِف جانباً من أمواله للمملوك الذي يكسر حاجة من حاجات أسياده، كيلا يتعرّض للعقاب، فيعوّض سيّد ذلك المملوك عنه. فهؤلاء المسلمون غطّوا الجوانب المتنوّعة من الحياة الإسلامية، فهناك من يوقف من أمواله للجانب الصحي كالمستشفيات، أو للجانب العبادي كالمساجد، أو للجانب العلمي، أو للجانب الاجتماعي، فلم يتركوا مجالاً من المجالات إلّا وأوقفوا فيه جانباً من أموالهم.

والآية الكريمة جعلت الإقراض تشريفاً للمؤمن، يقول الحديث القدسي: **«عبدي، استطعمتك فلم تطعمني، واستقرضتك فلم تُقرضني، واستسقيتك فلم تَسقني. فيقول: يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟ فيقول: لو سقيت عبدي المؤمن الذي استسقاك لوجدت ذلك عندي»**[٢].

فجعل الله تعالى ذلك تشريفاً لعبده بأن جعل الإحسان إلى ذلك العبد إحساناً إلى الله.

---

(١) مجمع البيان ٢: ١٣٧، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٣٧، ٢٣٨، وفي هذه الواقعة قال النبي‏ﷺ: «كم من عذق رداح ـ أي ثقيل ـ ودار فياح ـ أي واسعة ـ لأبي الدحداح».

(٢) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٣٢٣، مستدرك وسائل الشيعة ٧: ٢٠٣ ـ ٢٠٤ / ٨٠٣٨، الأدب المفرد: ١١٤، صحيح مسلم ٨: ١٣.

معنىٰ القرض الحسن

ثم تنتقل الآية فتصف القرض بأنه حسن، فما معنىٰ القرض الحسن هنا؟ يميل بعض الفقهاء إلىٰ أن المراد بالحسن هنا: الحلال، أي مما يصحّ أن يُملك، فلا يصحّ إقراض الخنزير أو الخمر مثلاً. فالمحرّم لا يصحّ إقراضه أو التصدّق به. يسأل بعض الناس فيقول: هل يجوز أن أتصدّق بما حصلت عليه من الربا علىٰ الفقراء والمحتاجين؟ لا، لا يجوز التصدّق بل مطلق التصرّف بالمال الحرام؛ لأن الله طيّب ولا يقبل إلّا الطيّب.

وهناك تفسير آخر للحسن، وهو الذي لا يكدّره المنّ، فمن الناس من يحسن إلىٰ غيره ثم يمنّ عليه، بأن يذكّره كلّ يوم بما أسدىٰ إليه من خير وفضل، وكأنه لم يعمل ذلك لوجه الله، فيكدر هذا العطاء، ويذهب إحسانه بالمنّ[1].

وهناك رأي ثالث في معنىٰ القرض الحسن، وهو العطاء في الرضا والغضب. وهذه الخصلة تحتاج إلىٰ نفس كبيرة، فقد كان بعض الناس مثلاً تحت ظل أمير المؤمنين عليه السلام في أيام حكومته، ومن ألدّ أعدائه ويتقرّبون إلىٰ الله بشتمه، ولكنه عليه السلام كان يأخذ العطاء بيده ويذهب به إلىٰ بيوت هؤلاء فيطرقها ليلاً ويعطيهم إيّاه. وهذا هو الإنفاق الذي ينمّ عن نفس كبيرة عظيمة، وأخلاق عالية لا تجدها إلا عند الإمام علي عليه السلام والعظماء من أمثاله.

دخل على الإمام الصادق عليه السلام يوماً أحد أبناء عمّ له وبيده سكين يريد قتله، لكن الإمام لم يؤذِه، بل ومع كلّ ذلك كان يصله، وأمر عليه السلام وهو في لحظاته الأخيرة أن يعطوه سبعين ديناراً، فقالت له جاريته: هذا بالأمس أراد قتلك! فقال عليه السلام:

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾. البقرة: ٢٦٤.

«هكذا أدّبنا الله»[1]. وهذا هو خلق آل البيت عليهم السلام.

فالقرض الحسن هو الذي يكون حلالاً ولا يكدّره المنّ، والذي لا يعطيه الإنسان إلّا عن طيب قلب، وفي الوقت نفسه يكون من الشيء الحسن، فلو كان لدى أحد نوعان من التمر؛ أحدهما حشف رديء والآخر تمر جيّد فعليه ألّا يُخرج الرديء ويُعطيه لله.

المبحث الثاني: معنىٰ مضاعفة القرض وقبض الرزق وبسطه

ثم قالت الآية: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾، والمضاعفة هنا تشجيع علىٰ البِرّ، فالإنسان هنا في الدنيا يضارب بأمواله ليحصل علىٰ نسبة معيّنة من الربح، ولكن الله تعالىٰ يضاعفه أضعافاً كثيرة بما لا تقاس معها به هذه النسبة الدنيويّة البسيطة.

ثم قالت: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ وفي هذا المقطع ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أن توزيع الرزق علىٰ العباد تابع للحكمة

فالملاحظ أن بعض الناس إذا حصل علىٰ شيء من المال فإنه يطغىٰ ويتجبّر؛ لأنه لا يحتمل ذلك، في حين أن البعض الآخر لو أمطرت عليه الدنيا ذهباً لا يعتني بها ولا يهتم لها، بل يبقىٰ علىٰ تواضعه وأخلاقه الحميدة. يقول الحديث القدسي: **«إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر ... وإن من عبادي من لا يصلحه إلّا الغنىٰ»**[2]. مع التنبيه إلى أن الحدّ الأدنىٰ من المعيشة مكفول، فلا يتركه الله تعالىٰ يجوع ويعرىٰ. فالكلام في الزيادة؛ فمن الناس من يحتمل الزيادة، ويزداد تواضعاً كلّما زادت أمواله، ومنهم من تطغيه الزيادة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٩٤، عمدة الطالب: ٣٤٠، وفيه: يا سالمة تريدين أن أكون ممن قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ البقرة: ٢٧، بدل «هكذا أدبنا الله».

(٢) مشكاة الأنوار: ٥٣٨، التفسير الصافي ٣: ١٨٩ / ٣٠، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٨.

أو أن الله تعالىٰ يريد أن يربي عبده بأن يخلق عنده القابليّة علىٰ التحمّل بتقدير الرزق، وكمثال علىٰ ذلك يروىٰ أن أحد الصحابة من الطبقة الفقيرة كان ثقيل السمع، وكان يجلس إلىٰ جانب النبي ﷺ كيلا يفوته شيء من كلامه، وكان قيس ابن ثابت من وجهاء الأنصار وأصمّ أيضاً، فدخل يوماً علىٰ النبي ﷺ وشقّ طريقه إليه كي يجلس إلىٰ جانبه ويستمع إليه أيضاً، وهو يظن أن هذا الجالس الأوّل سوف يتنحّىٰ عن مكانه ويتركه له باعتباره من عائلة فقيرة، وقيس من الأغنياء والوجهاء. لكنه لم يفعل، وكان معتزّاً بمكانه من النبي ﷺ، فقال له قيس: يابن فلانة، أقف عليك ولا تقوم؟ فصكت هذه الكلمة سمع النبي ﷺ، فلما فرغ ناداه فأقبل، فقال له النبي ﷺ: «انظر، ماذا ترىٰ في المجلس؟». قال: أرىٰ الأحمر والأبيض والأسود. قال النبي ﷺ: «**إنك لا تفضل علىٰ أحد منهم إلّا بالتقوىٰ والعمل الصالح**». فقال قيس: يا رسول الله أخطأت، وأنا مستعدّ أن أُعطيه نصف أموالي علىٰ أن يرضىٰ عني.

فنادىٰ النبي ﷺ الرجل الأوّل وقال له: «**سمعت ما قال أخوك، هل ترضىٰ عنه ويعطيك نصف أمواله؟**». قال: روحي فداك، بل أرضىٰ عنه بدون هذا. قال النبي ﷺ: «**لماذا؟**». قال: أخشىٰ أن يدخلني ما دخله[1].

فالله تعالىٰ يريد من العبد أن يبقى علىٰ مستوىً من الخلق الرفيع، أمّا المال فهو غادٍ ورائح.

الرأي الثاني: أنه في الزكاة

فإن معنىٰ القبض والبسط هنا هو في العطاء، فهو تعالىٰ يقبض الزكاة في الدنيا ويجازي المزكّي عليها ويكافئه في الآخرة.

---

(١) الكافي ٢: ٢٦٢ / ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ / ١٠٨، ولم يسميا قيساً.

الرأي الثالث: أنه قبض رزق العبد بموته وبسطه لورثته

وهذه هي الحقيقة المرّة التي نراها أمام أعيننا، والتي ينبغي على الإنسان أن يتنبّه لها دائماً، فالعبد له في الدنيا حصّة معيّنة من الرزق ثم يعطي مكانه لغيره ويخرج من الدنيا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[1]. فيدخل الإنسان قبره فرداً ليس معه شيء لا من الأهل ولا من الأصدقاء ولا من الألقاب؛ فلا زعيم ولا علّامة ولا أُستاذ ولا غيرها؛ فرادى مادّيّاً ومعنويّاً، وكلّ ما كان بيده من الرزق إنما هو تخويل[2]، فالله يقبض هذا الرزق من العبد ليعطيه للورثة، ورحم الله أبا العتاهية؛ إذ يقول:

ستباشرُ التُّرباءَ خدَّكْ	وسيضحكُ الباكونَ بَعدكْ
وليَنزلن بك البِلى	وليُخلِقنّ الموت عهدكْ
وليُفنينّك مثلما	أفنى أباك بلى وجدّكْ
لو قد رحلتَ عنِ القُصو	ر وطيبِها وسَكنتَ لحدَكْ
لم تَنتفعْ إلا بِفعـ	ـلٍ صالحٍ قد كانَ عِندَكْ
وتَرى الذينَ قَسمتَ ما	لَكَ بَينَهُم حصصاً وكدَّكْ
يَتَلَذَّذُونَ بِمَا جَمَعـ	ـتَ لَهُم وَلا يَجِدُون فقدَكْ[3]

نعم إن الإنسان في الدنيا يجمع لأهله وولده ولكن عليه أن يعطي لله من ذلك، فكما إن للأهل والولد حصّة، فلله حصة أيضاً.

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فما مناسبة هذا المقطع هنا؟ إن الله

---

(١) الأنعام: ٩٤.

(٢) أي إنها ملكيّة تخويليّة اعتباريّة، وليست ملكيّة حقيقيّة؛ فالمالك الحقيقي هو الله تعالى.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٦: ٩٢ ـ ٩٣.

تعالىٰ يريد أن يبين لهم أنهم سوف يرجعون إليه بما لديهم من أموال وألقاب وغيرها، وهذا هو المصير النهائي والغاية التي ينتهي الإنسان إليها. فإذا كان ذلك كذلك فيتعين التنبّه إلىٰ نداء الله عز وجل في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾. فالقرض الحسن يكون بالدم بأن يضع الدم في طريق الله، ويكون بالمال فيضعه في طريق الله، وكلّ ذلك وجدناه في قدوتنا من الأيمّة عليهم السلام الذين وضعوا كلّ شيء في طريق الله، يصف الإمام زين العابدين جدّه عليّاً عليه السلام بأنه «ما عُرض له أمران أحدهما لله والآخر لنفسه إلّا اختار الذي هو لله علىٰ الذي هو لنفسه»[1].

كان يعمل عمل رجل وجهه بين الدنيا والآخرة والجنة والنار، أعتق ألف مملوك من كدّ يده، فقد سكب عرقه علىٰ الرمل واستخرج به النخل ثم تصدّق به في سبيل الله، ورجع إلىٰ عائلته يحمل بيده تُميرات، وإذا أكل مسح علىٰ بطنه وقال عليه السلام: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»[2]. فأعطىٰ عليه السلام هذا الجسد كلّه لله بما به من جراح:

عَشِقَتْكَ الجِراحُ حَيّاً وَمَيْتاً ... فَرَأَيناكَ مُثخَناً بالجِراحِ

أما ابنه أبو الشهداء فقد أخرج كلّ ما عنده من أموال وأعطاها في سبيل الله، حتىٰ الملابس والبرود وغيرها أنفقها أو سُلِبَها بعد استشهاده، أما الأنفس فقد أعطىٰ الأهل والأُسرة والعشيرة، حتىٰ وصل الأمر أنه في آخر رجعة رجع بها إلىٰ الخيمة، استدعىٰ أُخته فقالت: لبيك يابن أُمي. قال: «لا يذهبن بحلمك الشيطان،

---

(١) ورد بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة، انظر الكافي ٨: ١٦٣ / ١٧٣، الإرشاد ٢: ١٤١، بحار الأنوار ٤١: ١٢٩ ـ ١٣٠ / ٤٠، وغيرها كثير.

(٢) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

جنّبيني الدموع، تعزّي بعزاء الله»(1). فصاحت والوعتاه يابن أُم، أراك تغتصب نفسك اغتصاباً إن ذلك أقرح لقلبي وأجرىٰ لدمعتي! فمدّ يده إلىٰ منديله فمسح ما علىٰ عينيها من الدمع، ثم نزل إلىٰ المعركة، فانفجرت بدموعها:

عمر ما فارگيتك بيه ... تذكر يوم وحنه اصغاز

من حضن امي الزهره ... لجوانح حيدر الكراز

عيني تبجّر بوجهك ... وروحي وياك ليل انهاز

وبعد أن سار سمع الصوت وراءه: أخي حسين عد إلىٰ المخيم. فرجع، قالت له: انزل عن ظهر جوادك. فنزل، قالت: حُلّ لي أزرار درعك. فحلها، فشمّته في صدره، وقبّلته في نحره، ثم حوّلت وجهها نحو المدينة وهي تقول: أُمّاه، لقد ردّت الوديعة واستُرجِعت الأمانة. ثم عاد الحسين ﷺ إلىٰ الميدان وهي تلاحقه بعينيها:

انچان تريدني أنسه ... أبطّل النوح وونيني

اخذ ذكراك من گلبي ... واخذ صورتك من عيني

أيام الچنت ويّاك ... أناغيك وتناغيني

* * *

ألخيّ من يحمي بنات محمدٍ ... إن صرن يسترحمن من لا يرحمُ

---

1) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

﴿٤٣﴾

دار السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معنى السلام وأقسامه

شُميت الدار بهذا الاسم لأن سورها يدور على الإنسان، وهي تعني المكان الذي يسكنه متّخذه. والقرآن الكريم يعبّر عن الجنّة بأنها دار السلام؛ للتفرقة بينها وبين الدنيا، فلماذا ينعتها الله تعالى بهذا الوصف؟

لا شك أن هناك سلاماً في داخل النفس، وآخر في محيط الأُسرة، وثالثاً في المجتمع، وهذه الثلاثة مهدّدة في دار الدنيا، ولكنها في الآخرة موجودة.

سلام النفس

فالسلام في داخل النفس مهدّد في الدنيا بالصراعات الداخلية، ومن النادر أن تجد في الدنيا نفساً ليس فيها صراع داخلي، فهناك مثلاً صراع بين الغرائز والعقل، فالعقل يريد شيئاً والغرائز تريد أشياء أُخرى، فتجد الإنسان ممزّقاً بين عقله

---

(١) الأنعام: ١٢٧.

وغرائزه، وتائهاً بين غلبة العقل وغلبة الغريزة، وهو بالتالي سيعيش معذّباً في هذا الجوّ من الصراع.

وقد يكون الصراع أحياناً صراعاً وهمياً كالصراع الناشب عن الحسد، فالإنسان يحسد أخاه لأنه موهوب مثلاً، أو أن الله أنعم عليه بنعمة، فهناك من النفوس من تتمنّىٰ لو أن هذا الإنسان يحترق، وإن كان هناك من النفوس الكبيرة من يقول: إن الله أنعم علىٰ هذا بنعمة وعسىٰ الله أن يزيده ويعطيني مثله. فهذه نفس سليمة تحبّ الخير للدنيا كلّها، وتلك سقيمة عليلة موبوءة. فهناك بعض الناس من يتمنّىٰ أن يحرق غيره لا لشيء إلّا لأنه محروم ممّا حبا الله ذلك الشخص إياه.

كان النبي ﷺ جالساً بين أصحابه يوماً فقال لهم ﷺ: **«سيدخل عليكم رجل من أهل الجنّة»**. فدخل أحد الأنصار يحمل نعله بيديه ووضوؤه ينطف، وفي اليوم التالي كرر النبي ﷺ الفعل ذاته، فدخل الرجل نفسه، وفي اليوم الثالث تكرر الفعل أيضاً. فلما خرج الرجل تبعه عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال له: لي إليك حاجة. قال: هات. قال: إن بيني وبين أبي برودة، وأُريد أن أحلّ عليك ضيفاً. قال: علىٰ الرحب والسعة. فذهب معه إلىٰ البيت، وراح يراقب هذا الأنصاري ليرىٰ نوع العمل الذي استحقّ به هذه المنقبة؟ فرآه يؤدّي الواجبات فقط، وعند الليل ينام علىٰ وضوء، وإذا تقلّب في نومه ذكر الله.

فلمّا أصبح الصباح سأله عبد الله عن السبب الذي استحقّ به هذه المنقبة وهو علىٰ هذه الحال الاعتياديّة من العبادة، فقال الرجل: ما هو إلّا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشّاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إيّاه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لانطيق فتمسّك بها[1]. فهو يقول له: ما

---

(١) مجمع الزوائد ٨: ٧٨.

حملت لعبد أعطاه الله خيراً إلّا خيراً في نفسي، فلا أحمل حقداً عليه، فإذا رأيت أحداً أعطاه الله خيراً قلت: زاده الله خيراً.

نعم، هناك من الناس من يحمل في نفسه ناراً تلتهب، خصوصاً إذا كان فاشلاً أو دجّالاً، فهو يتمنّىٰ أن يحرق الدنيا علىٰ أهلها، لا لشيء إلّا لأنه فاشل والآخرون ناجحون، أو أن الآخرين صادقون وهو دجّال لم يستطع أن يصل بطريق دَجَلِه إلى ما وصلوا إليه. وهؤلاء بلاء ونكسة علىٰ الإنسانية، أما النفس الكبيرة فهي مطمئنّة إلىٰ ما عند الله، راضية بما حكم الله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[1]. وهي النفس التي تعيش بسلام دائماً، أما النفس التي تعيش في حرب مستمرّة فهي النفس التي تحمل الحقد والحسد ولا تحبّ الخير لأحد، فهي في حرب داخلية دائمة. وهذه النفس يعالجها القرآن عند دخولها إلىٰ الجنة بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[2]. فهذه النفوس تدخل الجنة بعد عملية غسيل من نوع خاصّ، فهي تدخل الجنة خالية من الحقد والحسد.. تدخل وهي صافية تحمل الخير للناس.

سلام الأسرة

ولدينا في الدنيا أيضاً موضوع السلام في محيط الأُسرة، وهو قليل خصوصاً عند بعض الآباء الجهّال، فتجد الأب يفضّل ولداً علىٰ آخر دون سبب للتفضيل، فتارة يكون أحد الأولاد مستقيماً والآخر منحرفاً؛ فيكون التفضيل هنا قائماً على أساس أن المستقيم مقدّم علىٰ المنحرف، فيشعر هذا المنحرف في قرارة نفسه أن أخاه إنما فُضل عليه لاستقامته، فيدرك المبرّر ولا ينشأ عنده الحقد. أمّا إذا كان الأمر علىٰ خلاف هذا، وكان هناك من يعامل أحد الأولاد معاملة جيّدة لأن أُمّه

---

(١) الفجر: ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) الأعراف: ٤٣.

محبوبة، ويعامل الآخر بعكسه؛ لأن أُمّه ليست كذلك. وهذا يخلق جوّاً من الحرب داخل الأُسرة، ولا يكون التفاعل داخلها تفاعلاً سليماً، في حين أنه يُفترض أن يكون التفاعل سليماً. نقل عن النعمان بن بشير أنه قال: سألت أمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبيﷺ. فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبيﷺ، فقال: إن أمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قالﷺ **«ألك ولد سواه؟»**. قال: نعم. قال: **«لا تشهدني على جور»**.

وفي رواية: **«ألك بنون سواه؟»**. قال: نعم. قالﷺ: **«فكلّهم أعطيت مثل هذا؟»**. قال: لا. قال: **«فلا أشهد على جور»**.[1]

فالحرب داخل الأُسرة موجودة بين الزوج وزوجه، فمثلاً قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ ألا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[2] فإن كان لدىٰ الإنسان من الإمكانيّة الماليّة ما يمكن أن يوفّر بها العدل بين النساء ويسدّ الحاجة، وكان عنده الموجِب للتعدّد، فبها ونعمت، وإلّا فإن أظافر الحرب سوف تنشب داخل الأُسرة لا محالة.

وهناك البعض ممّن تحدث له خارج بيته مشاكل تجاريّة أو وظيفيّة، فيدخل البيت ويصبّ جمّ غضبه علىٰ أولاده وعياله، وقد ورد في المأثور أن أكثر عذاب القبر من سوء الخلق مع العيال[3]. فالإنسان عندما يدخل علىٰ عياله فعليه أن يحمل لهم الثغر الباسم، والروح الكريمة. فهؤلاء أشبه بالأسرىٰ عنده، وهو في نظرهم عمد البيت، فينبغي أن يحمل الطمأنينة والروح الطيّبة إليهم وهو يدخل إلىٰ البيت. ولذلك كان النبيﷺ يقول: **«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم؛ لأني خيركم لأهلي»**[4]. والثابت أنهﷺ كان في منتهىٰ الخلق الكريم مع عياله.

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١.
(٢) النساء: ٣.
(٣) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.
(٤) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٧٧.

إذن هذا السلام في محيط الأُسرة متوفّر في الجنّة، فليس في الجنة ما يوجب سوء الخلق، إذ ليس فيها موجبات خطأ أو مسبّبات للصراع والألم، ولذا فهي مؤسّسة للسلام.

سلام المجتمع

ولدينا في الدنيا حروب علىٰ مستوىً أوسع، تأكل الأخضر واليابس، وهي الحرب بين الإنسان والإنسان، وتترتّب علىٰ هذه الحروب مشاكل كبرىٰ. حدث يوماً أنَّ قبيلة أغارت علىٰ قبيلة قيس بن عاصم المنقري فأخذت منها سبايا، وبعد مدّة تصالحت القبيلتان واتّفقتا علىٰ رد السبايا، فأرجعت السبايا جميعها، إلّا امرأة واحدة هي ابنة قيس بن عاصم المنقري، فقد تزوّجت بالرجل الذي سباها، فحلف قيس ألّا تأتيه بنت إلّا ويئدَها، فقلّدته قبيلته في هذا الفعل، ثم قلّدتهم قبائل أُخرىٰ في هذا الفعل. فكان الرجل ينتظر امرأته ساعة المخاض، فإن كان المولود أُنثىٰ ألقاها في التراب وأهاله عليها[1]. فالقرآن يسألهم: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾[2].

ثم تطوّر القتل إلىٰ قتل كلّ حقّ للمرأة، فهي تُقتل بمختلف الوسائل، وحتّى أوروبا التي تتشدّق بالدفاع عن حقوق المرأة فإن كلّ حقوق المرأة تقتل فيها. فنحن عندما ندرس أن هناك حوالي خمسة وعشرين فَرقاً نفسيّاً وجسديّاً بين الرجل والمرأة نفهم أن هذا يعني أن المرأة تصلح لأعمال معيّنة تتناسب مع فطرتها وأُنوثتها. فلو كنّا حريصين حقّاً علىٰ حقوقها لأعطيناها العمل الذي يتناسب مع فطرتها مع الإبقاء علىٰ الأُجور كما هي، ولكن انظر الآن إلىٰ أوربا الغربيّة والشرقيّة فهل تجد أن المرأة تأخذ ذات الحقوق التي يأخذها الرجل؟ كلا، وإنما

---

(١) مجمع البيان ٤: ١٧١.

(٢) التكوير: ٨ ـ ٩.

تعطىٰ فقط إجازة معيّنة في أيّام النفاس. وهذا في العمل ذي الأُجور اليوميّة، أمّا إذا كان العمل عمل «القطعة» ـ أي العمل الذي تعطىٰ أُجوره علىٰ ما ينتج الإنسان من القطع الصناعيّة ـ فهذا العمل إذا قصّرت به المرأة فهي تعطىٰ حسب عملها.

فلو كانت هناك رحمة وشفقة لأُعطيت المرأة الحقوق والأُجور نفسها التي يأخذها الرجل، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها امرأة تتعرّض إلىٰ أُمور قهريّة خارجة عن إرادتها من حمل ونفاس وولادة.

وإلىٰ حد قريب لم يكن في أوربا للمرأة ذمّة مالية مستقلّة، بمعنىٰ أنها ليس لها حساب مالي خاص بها، ولو أنها تزوّجت فليس لها الحقّ حتىٰ أن تتسمّىٰ باسم أبيها، وإنما تصبح كالظلّ للرجل. أما في الشريعة الإسلامية فهي تحمل حقوق المرأة كاملة مذ تولد[1].

إذن لدينا في الدنيا حرب علىٰ مستوىٰ النفس، وحرب علىٰ مستوىٰ الأُسرة، وحرب علىٰ مستوىٰ الخارج أو المجتمع، فالدنيا دار حرب وليست بدار سلام. وهناك حرب أيضاً مع النفس والجسد، فالجراثيم تطارد الإنسان وتريد أن تفترسه، والجسد بهذا معرّض للمرض والآفات. فعلىٰ الإنسان دوماً أن يتوقّىٰ من الحرّ ومن البرد، والجراثيم والعدوىٰ. فالمستشفيات مثلاً تمثّل دار الحرب بين الجسد من جهة وبين الجراثيم والأمراض من جهة أخرىٰ.

أما الحرب مع النفس فهي أن النفس المطمئنة تنهىٰ الجسد عن ارتكاب الخطيئة، وهو يجنح نحو ارتكابها. وهذه الظاهرة يسجّلها بعض الأُدباء حيث يقول:

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا انظر المحاضرات: (الإسلام والمرأة) و(حقوق المرأة) و(المرأة بين الحقوق والواجبات)، و(وراثة النساء)، في الجزء الأوّل من موسوعتنا هذه.

ربي روحي طليقةٌ في مُناجا ... تِكَ والجسمُ مُصفَدٌ مَكبُولُ
بَعُدَ الفرقُ بَينَ رُوحي وَجِسمي ... جَسدي آثِمٌ وَرُوحي بَتُولُ
وَأنَا السَّائِلُ المُلِحُّ وَيجلُو ... وَحشَةَ الذُّلِّ أنَّكَ المَسؤولُ

فهذا صراع بين الروح والجسد. وقد تستغرب هذه الثنائيّة التي تراها في القرآن الكريم، فهو يقول مثلاً: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾[1]، فتقول: ما معنىً أن يقي الإنسان نفسه؟ فهل هما اثنان؛ هو واحد ونفسه ثانية؟ هذا هو الصراع بين الضمير والغرائز.

المبحث الثاني: الشعور بالفوت

وفي الدنيا أيضاً هناك الشعور بالفوت، وهو ألعن شيء فيها، فلو أنني بنيت قصراً جميلاً فيها، وأنفقت عليه الكثير، فأنا لا أدري هل يهبط عليَّ ملك الموت وأنا داخل إليه أو يلقاني وأنا خارج منه؟ وهذا الشعور بالفوت من ألعن آلام الدنيا. وكذلك مع الذهب والأموال، فأنا أجمعها ولا أدري هل يصبح عليّ الصباح وهي بيدي أو بيد غيري، وهل أنها ستقع بيد من يُعِيرُني بعض الأهمية أو بيد من يهملني:

كأنّي بأحبابي على حافَتي قبرِ ... يُهيلونه فَوقي وأدمُعُهُم تُذري
ألا أيُّها المُذرِي عَلَيَّ دُمُوعَه ... ستُعرِضُ في يَومين عنِّي وعن ذِكري
عفا الله عنِّي يَومَ أترُكُ ثَاوياً ... أُزارُ فَلا أدري وأُجفَى فَلا أدري

وكل هذه الحرب لا تجدها في الجنة أبداً، ولذا يقول القرآن: ﴿**لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ**﴾ فهي دار خالية من الحقد والحسد والآلام والآفات، لا تجد فيها إلّا الإنسان الكريم الذي تفرح بصحبته.

---

(١) التحريم: ٦.

ماهية العنديّة في قوله تعالىٰ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وهذه العنديّة لا يمكن حملها علىٰ العنديّة المكانيّة، كما نقول: جاء فلان من عند فلان. فهذه العنديّة المكانيّة لا تصحّ علىٰ الله هنا؛ لأن الناس في الدنيا والآخرة هم عند الله، فهو تعالى لا يخلو منه مكان، بل المقصود بالعنديّة هنا: الالتزام، كمن يطلب من أحد دَيناً، ويطالبه بشخص ضامن، فيقول الضامن: دَين فلان عندي. بمعنىٰ أنه ضامن له، وملتزم بما عليه من دين.

وهذا الوعد هو المعنيُّ هنا، أي بضمان الله تعالىٰ، وهو إذا وعد وفىٰ، ولكن يا للأسف! يعدنا الله وليس لنا ثقة بما عنده، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[1]، ولكننا لا نشعر أنها لهو ولعب، ويقول: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾[2]، لكننا نترك للغَرور أنفسنا. فهو تعالى يعد، ونحن نعلم صدق وعوده لكننا يا للأسف لا نرتّب عليها أثراً.

والسبب في ذلك أن عندنا ظِلالاً باهتة من الإيمان، وليس عندنا الإيمان الذي يأخذ العمق الكافي، ذلك العمق الذي كان في زمن النبي ﷺ حينما نزل قوله تعالىٰ: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3] فقام له رجل من الأنصار يدعىٰ أبا طلحة فقال له: يا رسول الله روحي فداك، لدي أحسن ضيعة، وهي بيرحاء[4]

---

(١) محمد: ٣٦، الحديد: ٢٠.
(٢) لقمان: ٣٣، فاطر: ٥.
(٣) آل عمران: ٩٢.
(٤) بيرحا ـ بفتح أوله والراء، على وزن خَيزَلىٰ ـ ويقال: بئرحاء ـ مضاف إليه ممدود ـ ويقال: بيرحاء، وفي رواية مسلم: بريحا، وفي رواية أبي داود: باريحا. وهذا كله يدل على أنها ليست ببئر، وقيل: هي أرض لأبي طلحة، وقيل : هي موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بني جديلة. معجم البلدان ١: ٥٢٤ ـ بيرحا.

كنت ادّخرتها لنفسي، وأنا أُشهدك أنها صدقة في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «بخ بخ ذلك مال رابح»[١].

في حين أن بعض الصحابة كان عندما يريد أن يُخرج الزكاة من تمره فإنه يُخرج التمر الرديء والحشف، وقد رأىٰ النبي ﷺ ذلك بعينه يوماً، فأخذ بيده حفنة من التمر والتفت إلىٰ المجتمع فقال ﷺ: «هل يقدم هذا الرجل مثل هذا التمر لأُمه وأبيه لو أرادا أن يأكلا؟». قالوا: لا يا رسول الله. فقال ﷺ: «فلم يقدّم هذا للمسلمين؟ أوليس المسلم أخو المسلم؟»[٢].

انظر إلينا الآن، فستجد بيننا من يأكل ويتنعّم ويلبس، وعنده أب أو أُمّ لا يجدون حتّىٰ رغيف الخبز، ففي هذه السنة دعاني أحد الأصدقاء في دُبي لزيارة والده ـ فقد كان أبوه كبير السنّ لا يستطيع أن يأتي إليّ وفي نفسه الرغبة في أن يراني ـ فلبّيت الدعوة وذهبت، فوجدت أباه يسكن في بيت متواضع خالٍ من التبريد وكأنه في فرن، وعندما خرجت وبّخت هذا الصديق علىٰ تقصيره مع أبيه. فالابن يسكن في بيت فاخر، والأب في بيت بسيط خالٍ من التبريد!

المبحث الثالث: مناسبة ﴿دَارُ السَّلامِ﴾ و ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

وفي القرآن من الالتفاتات والأسرار ما لا يعرفها إلّا صاحب الخلفيّة القرآنية، ومن هذه قوله تعالىٰ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ولم يقل: «عند الله» فهناك فرق بين التعبيرين، واللغة العربيّة ليس فيها مترادفات بالمعنى الدقّي أبداً، فالسيف يسمىٰ البتّار والصمصام والقاطع وهي أسماء تطلق علىٰ السيف ولكنها تختلف بعضها عن

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٤١، صحيح ابن حبّان ٨: ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٦: ١٤٩ ـ ١٥١، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٨٩.

(٢) قريب منه في جامع البيان، المجلد ٢، ج٣: ١١٧، الدر المنثور ١: ٣٤٦، ولم ينسباه إلىٰ الرسول ﷺ.

البعض الآخر فالقاطع صفة للسيف، والبتّار أمضىٰ من القاطع، وهكذا. وكذلك في أسماء الله، فهي ليست مترادفة وإنما يوجد فيها نوع تفاوت، فالربّ غير الخالق مثلاً، والربّ في هذه الآية يعطي معنىٰ التربية، أي أن دار السلام هي للمتربّي الذي نزع من قلبه الحقد، ولمن يحمل الخير في نفسه.

ثم قالت الآية: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ والولي هو الذي يدفع الشرّ ويأتي بالخير، كولي اليتيم الذي يسدّد الطفل ويوجّهه، ويدفع عنه الشرّ ويجلب له الخير، ويقرّبه إلىٰ البرّ والصلاح. والإنسان كلّه ضعف وقصور، وهو قاصر وتافه وإن كان مليئاً بالغرور، وقد يتحوّل في لحظة ما إلىٰ تافه، وقد يبيع كلّ مقدّساته وكرامته بشيء من الذهب. فهو ضعيف يعصي الله من أجل رغيف، ولا تجد إلّا القليل ممّن يحمل الروح السامية والكرامة والخلق الرفيعين، فأنت تجد من يقول:

وأظماً إن أبدى لي الماءُ مِنَّةً ... ولو كان لي نَهرُ المَجَرَّة مَورِداً
ولو مَدَّ نحوي حادثُ الدهرِ كَفَّهُ ... لَحَدَّثتُ نَفسي أنْ أمُدَّ له يَداً

ولكنك تأتي إليه فلا تجده حقّاً هكذا، فهو في وادٍ والواقع في وادٍ. فالإنسان مِلاكه الضعف، ولا يدفع عنه الضعف إلّا الله، وهو المتفضّل علىٰ عباده. ولو تضافر العلم علىٰ إعادة ضوء إلىٰ عين فقدت البصر مثلاً لما استطاع إلّا بإذنه؛ ولذا تجد النفوس الكبيرة تتّجه إلىٰ الله تعالىٰ في كلّ حال:

وما ثَمَّ إلا اللهُ في كُلِّ حَالَةٍ ... فلا تَتَّكِلْ يَومَاً علىٰ غَيرِ لُطفِهِ

وأُشير هنا إلىٰ أن التصوّف يمثّل قمّة الثقة غير المحدودة بالله، والتي تمثّل روح الإنسانيّة لولا وجود بعض الجوانب السلبيّة فيه. والنفوس الكبيرة لا تعرف الشكوىٰ أبداً، وأية مصيبة تحلّ فيها تراها يتّسع صدرها لها وتقابلها بمنتهىٰ رحابة الصدر، وفي طليعة هؤلاء أهل البيت الذين جُبلوا علىٰ الصبر عند المصائب.

ويا لها من ليلة تلك التي مرّت على الحوراء زينب عليها السلام ومجموعة السبايا معها، فقد كانت الأجساد على الرمال ولمّا تدفن بعد، وهي تسأل الإمام السجاد عليه السلام: لا يزال أبوك على الرمضاء؟ والإمام السجاد عليه السلام يغالب دمعة تريد أنّ تنحدر من بين عينيه.

نعم كانت هي والسبايا في مثل هذه الليلة في خربة الكوفة، وقد نادت إحدى جواريها فقالت لها: قفي على باب الخربة ولا تسمحي لأية امرأة أن تدخل عليَّ إلى الخربة. فهي كانت ابنة الحاكم العام في هذه المدينة، فكيف تُدخل إليها وهي في هذه الحالة؟ ولسان حالها: ليست بي طاقة على الشماتة. وكانت تفرغ كلّ ألمها في الليل عند رأس الحسين عليه السلام.. تبثّ ألمها لمن عاشت معه دهراً.. إلى الخدّ الذي أشبعه رسول الله لثماً وتقبيلاً:

مـا يـرضه القـلب ينسه	ولا تـرضه العـيون تـنامْ
ولا طـيفك يـفارگني	ولا تـنسّيني الأيّـامْ
واللـي زوّده النـوحي	نـوح اطـفالك الأيـتامْ

تقوم إلى الرأس وتسكب ما يعتمل في صدرها من عواطف عنده، وتـذكّره بزمن مضى لها معه:

يـا ثـدي الرضـعت ويـاه	الخـوّه مـن ثـدايـه أمّـي
ويـا وجـه العـلى مـلكاه	يـزول ويـنجلي هـمّي
ويـا جسـم الذي بـرداه	ريـحة والدي وعـمّي

﴿٤٤﴾

السنن الإلهيّة في الكون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الإنسان والعمليّة التراكميّة في التأثّر والتأثير

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يؤثّر ويتأثّر، يعني أننا نحتاج مثلاً إلىٰ أن نتعرّف علىٰ أحوال وتجارب الأجيال التي سبقتنا، وفي الوقت نفسه نحتاج إلىٰ أن ننقل تجاربنا إلىٰ الأجيال التي ستأتي من بعدنا. وهذه العمليّة التراكميّة هي التي تولّد التأريخ. وهذه الآية كما سنرىٰ تقود إلىٰ أحد أقسام التأريخ.

وموضوع التأريخ موضوع حيوي جداً؛ لأنه لا يموت في جوانحنا بل هو يعيش حيّاً بينها، ونحن نتأثّر به تأثّراً كاملاً، فأنت عندما تسمع الآن حادثة حدثت أيام النبي ﷺ أو الأئمة عليهم السلام فإنك تنفعل بها وتأخذ أثرها من نفسك. والتأريخ هو الذي يوحّد الأجيال بهذه السلسلة التي بدأت منذ الإنسان الأوّل والىٰ أن تقوم الساعة.

---

(١) آل عمران: ١٣٧.

المبحث الثاني: تاريخ الكتاب وتاريخ التراب

والأقسام التأريخية الرئيسة اثنان: الأول في الكتاب، والثاني في التراب. فدعنا نأخذ القسمين لنرىٰ ما إيجابيّات كلّ قسم وما سلبياته.

تاريخ الكتاب

ولنبدأ بتأريخ الكتاب، فنحن عندما نحتاج إلىٰ أن نعرف حادثة تأريخية ما فإننا نذهب إلىٰ الكتاب ونقرأ تلك الحادثة. وهذا التأريخ يبدأ من حين الكتابة، أمّا قبل الكتابة فلا نستطيع أن نعرف أحوال الأُمم السابقة. وكتابة التأريخ خلقت لنا مشكلة تتلخّص في معرفة من هو كاتب التأريخ، فالمؤرّخون أقسام؛ منهم من هو حسن النيّة، كمن صعد المنبر منهم وقال: إن عمرو بن معديكرب كان يأكل في اليوم جملين، وامرأته كذلك، فإذا أراد الاقتراب منها قال لها: كيف أصل إليك وبيني وبينك أربعة من الإبل؟ فقام إليه رجل فقال له: كيف تصدّق ذلك؟ فقال: كان رجال ذلك الزمان غير رجالنا. فقال الرجل: وجمالهم غير جمالنا أيضاً. فهل نستطيع أن نأخذ التأريخ من مثل هذا الذي يصدّق كلّ ما يقرؤه من الروايات وإن كانت من الأساطير؟

دور بعض المؤرّخين في التشويه المتعمّد للتاريخ

ومن أقسام المؤرّخين من ليس كذلك فهو عاقل متّزن لكن هواه لا يجعله يكتب الحقائق كما هي، فهو يسقط ما في نفسه علىٰ الآخرين، وذلك مثل ابن خلّكان مثلاً الذي ذكر الصحابة والتابعين ولم يذكر الحسين﴿ فقيل له في ذلك فقال: ذكرت من اهتمّ بهم التأريخ.

وهذا ليس غريباً في مثل مجتمعاتنا وبلداننا، فقد طفت في أحد البلدان فلم أرَ مسجداً باسم الحسن أو الحسين أو علي﴿ وكأن هؤلاء غرباء عن الإسلام، أو

كأنهم جاؤوا إلىٰ الجزيرة العربية من بلاد بعيدة. وهذا يبعث علىٰ الألم في النفوس، وإن كان لا يضرّ أهل هذا البيتﷺ شيئاً، فالذي لا يشرب من نبع أهل البيت هو المحروم.

وهناك قسم من المؤرّخين تتحكّم به المطامع وتمنعه من إثبات الحقائق، بالاضافةإلىٰ عوامل كثيرة أُخرىٰ. يقول أحد الأدباء مخاطباً مؤرّخاً بقوله:

أيا موسع التأريخ نقداً وخبرةً ... ومبتدعاً في نهجه ليس يجترُّ
تجلّىٰ له التأريخُ بحراً فخاضه ... وغاص إلىٰ الأعماقِ فانكشف القعرُ
فأبصر زيفاً يستطيل وواقعاً ... يُذاد ومِقياساً إلىٰ الخلِط ينجرُّ
وأنباءَ يرويها الهوىٰ وصحائفاً ... تحكّم فيها الحبّ والبغض والتبرُ
ومرّت به الأقلام منهن قانعٌ ... بفضل فُتات الظالمين ومعترُّ

فالتأريخ هكذا، يتحكّم فيه الحبّ والبغض، فهناك من يحبّ شخصاً أو يكرهه فيروي فيه الروايات، وهناك من يأخذ علىٰ الروايات أموالاً طائلة، وهكذا.

الدور الحقيقي للمؤرّخ ودور فيلسوف التاريخ

فالتأريخ لابد أن يؤخذ من الثقة، ودور المؤرّخ في التأريخ يجب أن يكون كدور المصوّر الفوتوغرافي الذي ينقل الصورة كما هي دون تزييف أو تحريف، فعليه أن يكون أميناً موضوعيّاً في كلّ ما يروي ويكتب، ويترك ما رواه لمن يدرس التأريخ وأصحاب الفلسفة التأريخيّة. ولتقريب المعنىٰ نقول: يروىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1] أن الملكين سمعا من المكلّف صفيراً، فتحيّرا ماذا يكتبان فقال أحدهما للآخر: اكتب «صفير»، وعلىٰ الله التفسير. وكذلك المؤرّخ عليه أن يسجّل الواقعة فقط، ثم يأتي المحلّل أو

---

(١) ق: ١٨.

الفيلسوف التأريخي فيبيّن أسرار التأريخ بعد دراستها.

ولذلك فإننا لا نمنع من الاحتجاج برواية الثقة وإن كان من مذهب أو نِحلة غير الشيعة، فالمقياس عندنا في الراوي هو الموضوعية فيما يروي[1]، في حين أن غيرنا لا يصحّح الرواية عمن يُتّهم بالتشيّع[2]، وكأن حبّ الحسن والحسين﵉ جريمة لا تغتفر. وهذا الأمر حصل في زمن متأخّر، وإلّا ففي البخاري ومسلم الكثير من الشيوخ من الشيعة. ومن أحبّ معرفة المزيد فليراجع (الفصول المهمّة) و(المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين﵀ وغيرهما من الكتب. وهذه المسألة حدثت في وقت متأخّر وعلىٰ وجه التحديد من أيام ابن تيمية:

وعند الله تجتمع الخصوم

---

(١) كقول الإمام العسكري﵇ عن الفطحية: «خذوا ما رووا، ودعوا ما رأوا». الفقه المنسوب للإمام الرضا﵇: ٤٩، وسائل الشيعة ٢٧: ١٠١ / ٣٣٣٢٤. وقد حفلت كتب أحاديثنا برواة من أبناء العامّة، بل إن علماءنا وثّقوهم، وهو دليل واضح وبرهان ساطع على موضوعية علمائنا في هذا المجال؛ فمثلاً يقول النجاشي: «إسحاق بن بشر، أبو حذيفة الكاهلي الخراساني، ثقة روى عن أبي عبد الله﵇، من العامّة». رجال النجاشي: ٧٢ / ١٧١.
وقال: «الحسين بن علوان الكلبي، عامي، وأخوه الحسن ثقة». رجال النجاشي: ٥٢ / ١١٦.
وقال: «عبّاد بن صهيب... بصري ثقة». رجال النجاشي: ٢٩٣ / ٧١٩. وهو عامّي كما أثبته صاحب (المعالم) بقوله: «من رجال العامّة». التحرير الطاووسي: ٣٩٧ / ٢٧٩.
وقال شيخ الطائفة: «أبو نصر بن يحيى الفقيه، من أهل سمرقند، ثقة خيّر فاضل»، مع أنه﵀ ذكر أنه ممّن لم يروِ عن الأيمّة﵈. رجال الطوسي: ٤٥١ / ٦٤٠٢.
وقال في (العدّة): «عملت الطائفة بما رواه حفص بن غياث وغياث بن كلوب ونوح بن دراج والسكوني وغيرهم من العامّة عن أيمّتنا﵈». عدّة الأُصول ١: ١٤٩ ـ ١٥٠.
وعدّ ابن داود منهم في رجاله (٣٩) رجلاً. انظر رجال ابن داود: ٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٢) تفاوتت عبارات القوم بين «شيعي متروك الحديث» و«شيعي متروك» و«شيعي بغيض» و«شيعي كذّاب» و«شيعي واهٍ» وأمثالها. انظر: لسان الميزان ٤: ٧٦، ٧: ٤٨٧، مجمع الزوائد ١: ١٤٦، كنز العمّال ٢: ٤٤٩، ١٢: ١٢٤، تذكرة الموضوعات: ٩٦، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ١٧٨، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٤٨، تقريب التهذيب ١: ٧٠٩، ٢: ٣١٩.

وهذه عقبة وضعوها في طريق وحدة المسلمين، وإلّا فنحن نريد الرواية الصحيحة، ولا يمنع أن تكون كذلك وراويها من مذهب آخر.

يذكر مصطفىٰ السباعي أنه بحث عن دعوىٰ أن الخوارج يكذبون فوجدها غير صحيحة، وعليه فلا مانع عنده من الرواية عنهم مع أنهم يكفّرون اثنين من الخلفاء، فلماذا لا تستساغ الرواية عمّن يحبّون محمداً ﷺ وآله ﷺ؟ وهذا لا يسبّب لنا في الواقع أيّة مشكلة سواء روىٰ عنا أحدٌ أم لم يروِ طالما أن أيدينا علىٰ المنبع الصافي الذي يتمثل بأهل البيت ﷺ، وطالما أننا سنقف بين يدي الله وقد أخذنا الرواية عنهم ﷺ، وليرضَ من يرضىٰ وليغضبْ من يغضب:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضباناً علَيَّ لئامها[1]

وهذا ما ندين به ونلاقي الله تعالىٰ به ذلك اليوم، وهو ذخرنا الذي ندّخره:

لكم ذُخركُم إن النبيّ وأهلَهُ ... وأشياعَهُ ذُخري إذا اتُّبِع الذخرُ[2]

إيجابيّات تاريخ الكتاب

إذن لو أردنا أخذ التأريخ فلابدّ أن نأخذه من مصادره الصحيحة. ولابدّ أن نعرف أن الكتاب الذي ينقل الأحداث التأريخيّة له محاسنه ومساوئه.

فمن إيجابيّاته أننا نستفيد منه التعرفَ علىٰ سمات الأُمم، من العادات والتقاليد وغيرها. فلو أردتَ التعرّف علىٰ العادات التي درجتُ عليها أنا ومن هم من أبناء جيلي، وهل هي صالحة لهذه الأجيال أم لا، فإنه يجب عليك أن ترجع إلىٰ التأريخ لترىٰ هل إن الأُمم السابقة لديها مثل هذه العادات؟ فتجد في التأريخ ما يدعم أو يدحض ما تحمله من هذه العادات والتقاليد. كما تعرف المستحدَث منها من غير

---

(١) البيت لأبي العيناء، أمالي المرتضىٰ: ٢١٨، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٣.

(٢) أجوبة مسائل جار الله: ٧٣، النص والاجتهاد: ٥٤٠.

المستحدَث، والمبتدَع من غير المبتدَع. ومن هذا نعرف السمات التي تلتقي بها أو تختلف عنها كلّ حلقة من حلقات التأريخ وكلّ جيل من أجياله.

من السنن أن الحقّ وحده لا يكفي لتحقيق النصر

ومن إيجابيّاته أيضاً أننا نأخذ منه العظة والعبرة علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿**يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[١]، فحينما ندرس التأريخ فإننا نستفيد من تجارب الأُمم السابقة، فنأخذ من حَسَنها ونتجنّب سيّئها. فنحن نعرف مثلاً أن سنن التأريخ ليس لها علاقة بمؤمن أو كافر، فلو أن أُمة اتّحدت ودعت إلىٰ الوحدة والوئام، ونبذت الفرقة والتمزّق فإنها تنتصر لا محالة. وهذه سُنّة من سنن الكون، قال تعالىٰ: ﴿**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[٢]. وقد كان أمير المؤمنين؟ يعرف أنه وأصحابه علىٰ الحقّ ومعاوية وأشياعه علىٰ الباطل، ولكنه كان يقول لأصحابه: «**لا أرىٰ هؤلاء القوم إلّا ظاهرين عليكم؛ لاجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم**»[٣].

وتعال الآن إلىٰ ما نراه في مجتمعاتنا من تفرّق وصل إلىٰ حدّ التساؤل فيما بين

(١) الزمر: ١٨.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١. وتمامه: «وطاعتهم لإمامهم ومعصيتكم لإمامكم، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم إياي. إني ولّيت فلاناً فخان وغدر، واحتمل فيء المسلمين إلى معاوية، وولّيت فلاناً فخان وغدر وفعل مثله. فصرت لا آتمنكم على علاقة سوط. وإن ندبتكم إلى عدوّكم في الصيف قلتم: أمهلنا ينسلخ الحرّ عنّا. وإن ندبتكم في الشتاء قلتم: أمهلنا ينسلخ القرّ عنا. اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني. فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء». ثم نزل، وهي خطبة تمخّضُ عن كثير ألم ومعاناة ممّا كان يستشعره أمير المؤمنين؟ ويعتمل في صدره ممّن يجب أن يكونوا أصحابه لا أعداءه، وسيأتي ذكر القصّة في الهامش التالي.

الناس عن المجتهد الذي يقلّده بعضهم، في حين أن المجتهد الجامع للشرائط من العدالة وغيرها إنما نقلّده باعتباره طريقاً للإسلام فقط ولا داعي إلى البحوث التي لا طائل من ورائها. فالله تعالىٰ لا يسألك في اليوم الآخر مثلاً: هل إن الحسين‌عليه السلام بيده أزمّة السماوات والأرض؟ نعم إنه يسألك عمّا هو أساسي من نحو أن الحسين‌عليه السلام إمام معصوم، وهو سيّد شباب أهل الجنّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، أمّا غير ذلك من اليمين أو الشمال فلا يُسأل عنها المكلّف.

وعليه فإن هناك قضايا ينبغي علىٰ المكلّف أن يتركها للفقهاء؛ فهم أصحاب القول الفصل فيها، كما لو أن أحد الفقهاء أفتىٰ بإعطاء الحقّ الشرعي من الزكاة للمسلم المؤمن، وليس لمطلق المسلم فهذا ليس من شأن المكلّف واختصاصه، إنما الذي من اختصاصه أن يعرف أصل الوجوب؛ لأن الاختلافات هذه ستؤدي إلىٰ التمزّق والتناحر فيما لو شغلنا أنفسنا بها.

فمسألة الحقّ وحدها لا تكفي لتحقيق النصر، وإنما هناك سنن تأريخية وضعها الله تعالىٰ في الكون منها أن الاتّحاد قوّة والتناحر والتفرّق والتمزّق ضعف.

يروي المؤرخ ابن ديزيل أن أمير المؤمنين‌عليه السلام بعث أحد الأشخاص إلىٰ الشام قبل وقعة صفين، وأمره أن يلبس لباس الكوفيّين، حيث ان أهل الشام سيلتفّون حوله يسألونه عن الكوفة، وأمره أنهم إذا سألوه أن يجيبهم أن علياًعليه السلام نهد إليهم بجيش قوامه تسعون ألفاً ولينظر ما يصنعون ثم يعود إلىٰ الكوفة بلباس أهل الشام فيفعل الشيء ذاته.

فذهب هذا الرجل، فسأله أهل الشام فقال: الخبر في مجلس الأمير، فلما وصل المسجد الذي تجمّع فيه الناس يوم الجمعة وفيهم معاوية سأله معاوية عن حال الكوفة فقال: تركت علياً نهد إليكم بجيش قوامه تسعون ألفاً. فالتفت معاوية إلىٰ أصحابه فقال: ما رأيكم؟ فقام إليه ذو الكلاع الحميري فقال له: الرأي رأيك، عليك

أن تقول وعلينا أن نطيع. فقال معاوية: انهدوا إلىٰ قتال عدوكم.

قال الراوي: فلما أصبح الصباح رأيت الكتائب متجمّعة متهيئة للقتال، ثم رجع مبعوث أمير المؤمنين ﷺ بلباس أهل الشام ووصل الكوفة يوم الجمعة أيضاً، فسأله أمير المؤمنين ﷺ: «ما الخبر؟». قال: تركت معاوية نهد إليكم بمئة وعشرين ألفاً. فالتفت علي ﷺ إلىٰ من معه فقال: «ما رأيكم؟». فقال أحدهم: هذا وقت الحرّ وليس الوقت وقت قتال. وقال آخر: لمَ لم تخبرنا قبل هذا؟ وقال ثالث: أنا أرىٰ أن نفعل كذا. وقال رابع: أنا أرىٰ أن نفعل كذا. وكان أن التفت ﷺ إليهم قائلاً: **«لا أرىٰ هؤلاء القوم إلّا ظاهرين عليكم؛ لاجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم»**[1].

واليوم نعيد الفعلة نفسها، فهؤلاء من أتباع الشيخ فلان، وأولئك من أتباع السيد فلان، والحال أن علينا أن نبقىٰ مع المنبع الرئيس في ديننا وإسلامنا وهو النبي ﷺ وآل بيته الطاهرون ﷺ، وكفانا فرقة وتمزّقاً واختلافاً.

ومن إيجابيات تاريخ الكتاب أننا نأخذ منه موضع الفخر، فنحن نجد في التأريخ آباء وأجداداً لنا يستحقّون أن نفخر بهم، يقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ[2]

نعم، إن في تأريخنا من يستحقّ الفخر به. وإليك واحداً من هذه النماذج، فعندما نزل قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾**[3]، أمر النبي ﷺ بعرضها علىٰ مسلمي مكّة ممّن لم يتمكّن من الهجرة مع النبي ﷺ، فلمّا

(١) عنه في شرح نهج البلاغة ٣: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٩: ١٣٦ – ١٣٧، ولم ينقله عن المؤرّخ ابن ديزيل، وانظر سير أعلام النبلاء ٢: ١٤١.

(٢) ديوان الفرزدق: ٤١٨.

(٣) النساء: ٩٧.

قُرِئت هذه الآية علىٰ أحد الصحابة من بني ليث قال: والله لا أبيت ليلة واحدة في مكّة بعد الذي سمعته من هذه الآية. وكان هذا الرجل مُسنّاً فطلب من أولاده أن يحملوه ويذهبوا به، فحملوه حتىٰ وصلوا به إلىٰ «التنعيم» فأدركته علائم الموت، فبسط إحدىٰ يديه وضرب بالأُخرىٰ عليها وقال: اللهم بيعة لك ومثلها لنبيك، أُبايعك علىٰ ما بايعك عليه رسولك. ثم أطبق جفنيه ولحقت روحه بربه.

فلما بلغ الخبر النبيﷺ ترحّم عليه[1]، ثم نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ﴾[2].

فنحن نعتزّ تمام الاعتزاز عندما نجد في التأريخ مثل هذه النماذج الرائعة، وهناك في تأريخ الكتاب إيجابيات كثيرة كالإيجابيّات المعرفيّة وغيرها.

سلبيّات تاريخ الكتاب

أما سلبيّات تأريخ الكتاب فأوّلها نبش الدفائن، وهذه الظاهرة استغلّها اليهود، فممّا يذكر في هذا الباب أن فنحاص بن عازورا أحد رؤساء اليهود مرّ يوماً فوجد الأوس والخزرج جالسين متصافين متسالمين وبينهم البسمات المتبادلة، فلم يرُق له ذلك، فجلس عندهم فقال لأحد رجال الأوس: أتذكر لمّا حدثت بينكم وبين الخزرج معركة فقام شاعر الخزرج وشتمكم فقال فيكم كذا وكذا؟ ثم التفت إلىٰ الخزرج وقال: أتذكرون ما حدث بينكم وبين الأوس فقام شاعر الأوس فشتمكم وقال فيكم كذا وكذا؟ وأخذ يُذكّر كلاً من الطرفين بما يثير الحميّة في

---

(١) الدرّ المنثور ٢: ٢٠٨، الإصابة ١: ٦١٨ / ١٢٣٥، أُسد الغابة ١: ٣٠٣، والروايات مختلفة في تسمية هذا الذي أدركه الموت؛ ففي بعضها ضمرة بن جندب، وفي بعضها أكثم بن صيفي، وفي بعضها أبو ضمرة بن العيص، وفي بعضها ضمرة بن العيص من بني ليث، وفي بعضها جندع بن ضمرة الجندعي، وفي بعضها خالد بن حزام.

(٢) النساء: ١٠٠.

نفسه حتىٰ صاح أحدهم: يا للأوس، وصاح الآخر: يا للخزرج. فتداعوا إلىٰ السلاح حتىٰ أوشكوا أن يتقاتلوا. فبلغ الخبر النبي ﷺ فخرج إليهم وقال: **«أبدعوىٰ الجاهليّة وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها جاهليّة منتنة»**[1].

فهذه أوّل السلبيّات التي يمكن أن تكون في التأريخ، ونحن نستطيع أن نتجاوز مثل هذه السلبيّة بأن نضع أيدينا علىٰ ما هو إيجابي في التأريخ وندع ما يؤدي إلى التفرّق. وهذا في غير الأُمور المتعلّقة بالدين والعقيدة، فما كان منها متعلّقاً بالدين والعقيدة فنحن ملزمون بأخذه وليحدث ما يحدث: **«أخوك دينك فاحتط لدينك»**[2]. فلو كانت هناك رواية لها علاقة بحكم شرعي ولا يأخذ بها غيري فلا علاقة لي به لأنني معذور أمام الله، أما ما يؤدّي إلىٰ الأحقاد من شواهد وأحداث التأريخ فيمكن تركه إذا لم يضرّ شيئاً بالدين والعقيدة.

ومن سلبيّات التأريخ أيضاً قلب الحقّ باطلاً والباطل حقّاً لغفلة، فمثلاً يروي أحد الصحابة أن النبي ﷺ قال: **«إن الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه»**. فالميت تجبذه الملائكة جبذاً أو تلكزه لو ندبته زوجته فقالت: وازوجاه أو واعزيزاه. فوصل خبر الرواية إلىٰ السيدة عائشة فقالت: غلط الراوي إنما هذه الرواية كانت في يهودي مات ومرّ أهله يحملونه ويبكون عليه، فقال ﷺ: **«إن هؤلاء يبكون عليه وهو يعذّب»**[3].

وروىٰ أبو هريرة مثلاً أن الله عذب امرأة في هرّة حبستها فلا هي سقتها وأطعمتها ولا هي تركتها، فلما دخل على عائشة قالت له: يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عُذّبت في هرّة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقِها؟ فقال: سمعته منه،

---

(١) أسباب نزول الآيات: ٧٧، الدر المنثور ٢: ٥٨.

(٢) الأمالي (المفيد): ٢٨٣، الأمالي (الطوسي): ١١٠ / ١٦٨، بحار الأنوار ٢: ٢٥٨ / ٤.

(٣) منتهىٰ الطلب ١: ٤٦٧ (حجري)، مسند أحمد ١: ٤٢، ٤٣، ٦: ٥٧، ١٠٧.

يعني النبي ﷺ. فقالت عائشة: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم علىٰ الله من أن يعذّبه في هرّة، فإذا حدّثت عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدّث[1].

وهذه الوقائع وغيرها هي في الحقيقة كانت متعلّقة بقرينة، فلما ذهبت القرينة وغابت عن الخبر بقيت الواقعة فقط، فلم يعد هناك من القرائن ما يحدّد المعنىٰ، فأخذ الراوي الواقعة وأغفل القرينة. فعلينا أن نبذل الجهد لمعرفة خلفيّات الأخبار والروايات، وقد بذل العلماء من الجهد والكدّ ما لا يعلمه إلّا الله لغرض دراسة التأريخ وتمحيص الروايات والأخبار، وليس هذا من الأُمور السهلة كما قد يتصوّرها البعض.

ومن سلبيّات التأريخ أنه أحياناً ينقل ما ليس بحقّ، فمن الأمثلة علىٰ ذلك أن أحد الأشخاص قال لي مرة: لماذا تحلّون الزواج بتسع نساء؟ فقلت له: من أين عرفت ذلك؟ قال: أنتم تفسّرون معنىٰ الآية الكريمة: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[2] بالجمع، أي بمجموع اثنين وثلاثة وأربعة، فيكون الحاصل تسعة.

والغريب أن هذه المسألة من أقوالهم هم[3] وليست من أقوالنا، وقد استعرضت

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٩٩، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذي ١: ٢٦١.

(٢) النساء: ٣.

(٣) قال الزيلعي: «وقال القاسم وشيعته القاسميّة: يجوز أن يجمع بين تسع، ولا يجوز له أكثر من ذلك». ثم نسبه إلى إبراهيم بن يزيد النخعي فقيه الكوفة، وعبد الرحمن بن أبي ليلى التابعي. تبيين الحقائق ٢: ١١٢، وهما ممّن مدحهما النووي، انظر المجموع شرح المهذب ١٢: ٩، صحيح مسلم بشرح النووي ١: ٦٤، وغيرهما.
ونقل العيني عبارة الزيلعي عينها، ثم قال: «لأن الواو للجمع». رمز الحقائق ١: ١٤٣.
وقال الشوكاني: «وذهبت الظاهرية إلى أنه يحلّ للرجل أن يتزوّج تسعاً، ولعلّ وجهه قوله تعالى: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾، ومجموع ذلك باعتبار ما فيه من العدل تسع. وحكي ذلك عن ابن الصباغ والعمراني». نيل الأوطار ٦: ٢٨٩. وابن الصباغ والعمراني عبّر عنهما النووي

هذا الموضوع مفصلاً في كتاب فقه الجنس في الإسلام، فلم أجد له أثراً. وكلّ ما عندنا أن المرء إذا خاف الوقوع في المحرّم فإن الزواج يكون واجباً عليه، أما إذا كان يتوق إلىٰ الزواج لكنه لا يخاف الوقوع في المحرّم فيكون الزواج مستحبّاً له. أما إذا لم يكن يتوق للزواج ولم تكن عنده كفاية فيصبح الزواج مكروهاً؛ لأنه لا يستطيع الوفاء بحقوق المرأة والأسرة. وأحياناً يكون الزواج محرّماً، وذلك في حالات منها:

☚ بقوله: بعض أصحابنا من الفحول. انظر المصدر التالي.
وقال النووي: «وذهبت الظاهرية إلى أنه يحلّ للرجل أن يتزوّج تسعاً، ووجههم قوله تعالى: ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾، ومجموع ذلك لا باعتبار ما فيه من العدل تسع». ثم خطّأ الشوكاني في نسبته ذلك إلى ابن الصبّاغ والعمراني. المجموع شرح المهذب ١٦: ٢٤٤.
وقال بعضهم بجواز التزوّج بأي عدد شاء، فقد قال نظام الدين الأعرج المفسّر النيسابوري في تفسير الآية المذكورة: ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوّج بأي عدد أريد؛ لأن قوله: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ إطلاق في جميع الأعداد، لصحّة استثناء كلّ عدد منه، وقوله: ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ لا يصلح مخصّصاً لذلك العموم؛ لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلّ على نفي الحرج والحجر مطلقا؛ فإن من قال لولده: افعل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذّر، فذكر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها. ولئن سلّمنا لكن الواو للجمع المطلق، فيفيد الإذن في جميع؛ تسعة بل ثماني عشرة؛ لتضعيف كلّ منها، أي إن معنى ﴿ مثنى ﴾ اثنان اثنان، وهكذا. وأما السنة فلما ثبت بالتواتر أنه ﷺ مات عن تسع، وقد أمرنا باتّباعه في قوله: ﴿ فاتّبعوه ﴾[1]، وأقلّ مراتب الأمر الإباحة، وقد قال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». غرائب القرآن ٤: ١٧٢.
وقال القرطبي: «وذهب بعض أهل الظاهر أيضا إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمع بين ثماني عشرة؛ تمسّكاً منهم بأن العدل في تلك الصيغ يفيد التكرار والواو للجمع». الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧.

---

(1) الأنعام: ١٥٣، وهي هنا حول الشريعة، ١٥٥، وهي هنا حول القرآن الكريم.

كنت ادّخرتها لنفسي، وأنا أُشهدك أنها صدقة في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «بخ بخ ذلك مال رابح»[1].

في حين أن بعض الصحابة كان عندما يريد أن يُخرج الزكاة من تمره فإنه يُخرج التمر الرديء والحشف، وقد رأىٰ النبي ﷺ ذلك بعينه يوماً، فأخذ بيده حفنة من التمر والتفت إلىٰ المجتمع فقال ﷺ: «هل يقدم هذا الرجل مثل هذا التمر لأمه وأبيه لو أرادا أن يأكلا؟». قالوا: لا يا رسول الله. فقال ﷺ: «فلم يقدّم هذا للمسلمين؟ أوليس المسلم أخو المسلم؟»[2].

انظر إلينا الآن، فستجد بيننا من يأكل ويتنعّم ويلبس، وعنده أب أو أمّ لا يجدون حتّىٰ رغيف الخبز، ففي هذه السنة دعاني أحد الأصدقاء في دُبي لزيارة والده ـ فقد كان أبوه كبير السنّ لا يستطيع أن يأتي إليّ وفي نفسه الرغبة في أن يراني ـ فلبّيت الدعوة وذهبت، فوجدت أباه يسكن في بيت متواضع خالٍ من التبريد وكأنه في فرن، وعندما خرجت وبّخت هذا الصديق علىٰ تقصيره مع أبيه. فالابن يسكن في بيت فاخر، والأب في بيت بسيط خالٍ من التبريد!

المبحث الثالث: مناسبة ﴿دَارُ السَّلامِ﴾ و﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

وفي القرآن من الالتفاتات والأسرار ما لا يعرفها إلّا صاحب الخلفيّة القرآنية، ومن هذه قوله تعالىٰ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ولم يقل: «عند الله» فهناك فرق بين التعبيرين، واللغة العربيّة ليس فيها مترادفات بالمعنى الدقّي أبداً، فالسيف يسمىٰ البتّار والصمصام والقاطع وهي أسماء تطلق علىٰ السيف ولكنها تختلف بعضها عن

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٤١، صحيح ابن حبّان ٨: ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٦: ١٤٩ ـ ١٥١، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٨٩.

(٢) قريب منه في جامع البيان، المجلد ٢، ج٣: ١١٧، الدر المنثور ١: ٣٤٦، ولم ينسباه إلىٰ الرسول ﷺ.

البعض الآخر فالقاطع صفة للسيف، والبتّار أمضىٰ من القاطع، وهكذا. وكذلك في أسماء الله، فهي ليست مترادفة وإنما يوجد فيها نوع تفاوت، فالربّ غير الخالق مثلاً، والربّ في هذه الآية يعطي معنىٰ التربية، أي أن دار السلام هي للمتربّي الذي نزع من قلبه الحقد، ولمن يحمل الخير في نفسه.

ثم قالت الآية: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾، والولي هو الذي يدفع الشرّ ويأتي بالخير، كولي اليتيم الذي يسدّد الطفل ويوجّهه، ويدفع عنه الشرّ ويجلب له الخير، ويقرّبه إلىٰ البرّ والصلاح. والإنسان كلّه ضعف وقصور، وهو قاصر وتافه وإن كان مليئاً بالغرور، وقد يتحوّل في لحظة ما إلىٰ تافه، وقد يبيع كلّ مقدّساته وكرامته بشيء من الذهب. فهو ضعيف يعصي الله من أجل رغيف، ولا تجد إلّا القليل ممّن يحمل الروح السامية والكرامة والخلق الرفيعين، فأنت تجد من يقول:

وأظمأ إن أبدىٰ لي الماءُ مِنَّةً ... ولو كان لي نَهرُ المَجَرَّة مَورِداً
ولَو مَدّ نحوي حادثُ الدَّهرِ كَفَّهُ ... لَحَدَّثتُ نَفسي أنْ أمُدَّ له يَداً

ولكنك تأتي إليه فلا تجده حقّاً هكذا، فهو في وادٍ والواقع في وادٍ. فالإنسان مِلاكه الضعف، ولا يدفع عنه الضعف إلّا الله، وهو المتفضّل علىٰ عباده. ولو تضافر العلم علىٰ إعادة ضوء إلىٰ عين فقدت البصر مثلاً لما استطاع إلّا بإذنه؛ ولذا تجد النفوس الكبيرة تتّجه إلىٰ الله تعالىٰ في كلّ حال:

وما ثَمَّ إلا اللهُ في كُلِّ حَالَةٍ ... فَلا تَتَّكِلْ يَوماً عَلىٰ غَيرِ لُطْفِهِ

وأُشير هنا إلىٰ أن التصوّف يمثّل قمّة الثقة غير المحدودة بالله، والتي تمثّل روح الإنسانيّة لولا وجود بعض الجوانب السلبيّة فيه. والنفوس الكبيرة لا تعرف الشكوىٰ أبداً، وأية مصيبة تحلّ فيها تراها يتّسع صدرها لها وتقابلها بمنتهىٰ رحابة الصدر، وفي طليعة هؤلاء أهل البيت الذين جُبلوا علىٰ الصبر عند المصائب.

ويا لها من ليلة تلك التي مرّت علىٰ الحوراء زينب﴿؏﴾ ومجموعة السبايا معها، ‍
كانت الأجساد علىٰ الرمال ولمّا تدفن بعد، وهي تسأل الإمام السجاد﴿؏﴾: لا يـ
أبوك علىٰ الرمضاء؟ والإمام السجاد﴿؏﴾ يغالب دمعة تريد أنْ تنحدر من بين عيـ

نعم كانت هي والسبايا في مثل هذه الليلة في خربة الكوفة، وقد نادت إحد
جواريها فقالت لها: قفي علىٰ باب الخربة ولا تسمحي لأية امرأة أن تدخل ع
إلىٰ الخربة. فهي كانت ابنة الحاكم العام في هذه المدينة، فكيف تُدخل إليها و
في هذه الحالة؟ ولسان حالها: ليست بي طاقة علىٰ الشماتة. وكانت تفرغ كلّ أل
في الليل عند رأس الحسين﴿؏﴾.. تبثّ ألمها لمن عاشت معه دهراً.. إلىٰ الخدّ الذ
أشبعه رسول الله لثماً وتقبيلاً:

مـا يـرضه الـگـلب يـنسه	ولا تـرضه الـعيون تـنامْ
ولا طـيفك يـفارگني	ولا تـنسّيني الأيّـامْ
واللـي زوّده النـوحي	نـوح اطـفالك الأيـتامْ

تقوم إلىٰ الرأس وتسكب ما يعتمل في صدرها من عواطف عنده، وتـذ
بزمن مضىٰ لها معه:

يـا ثـدي الرضـعت ويـاه	الخـوه مـن ثـدايـه أمّـي
ويـا وجـه الـعلىٰ مـلگاه	يـزول ويـنجلي هـمّي
ويـا جسـم الذي بـرداه	ريـحة والدي وعـمّي

﴿ ٤٤ ﴾

السنن الإلهيّة في الكون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الإنسان والعمليّة التراكميّة في التأثّر والتأثير

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يؤثّر ويتأثّر، يعني أننا نحتاج مثلاً إلىٰ أن نتعرّف علىٰ أحوال وتجارب الأجيال التي سبقتنا، وفي الوقت نفسه نحتاج إلىٰ أن ننقل تجاربنا إلىٰ الأجيال التي ستأتي من بعدنا. وهذه العمليّة التراكميّة هي التي تولّد التأريخ. وهذه الآية كما سنرىٰ تقود إلىٰ أحد أقسام التأريخ.

وموضوع التأريخ موضوع حيوي جداً؛ لأنه لا يموت في جوانحنا بل هو يعيش حيّاً بينها، ونحن نتأثّر به تأثّراً كاملاً. فأنت عندما تسمع الآن حادثة حدثت أيام النبي ﷺ أو الأئمة عليهم السلام فإنك تنفعل بها وتأخذ أثرها من نفسك. والتأريخ هو الذي يوحّد الأجيال بهذه السلسلة التي بدأت منذ الإنسان الأوّل والىٰ أن تقوم الساعة.

---

(١) آل عمران: ١٣٧.

المبحث الثاني: تاريخ الكتاب وتاريخ التراب

والأقسام التأريخية الرئيسة اثنان: الأول في الكتاب، والثاني في التراب. فدعنا نأخذ القسمين لنرىٰ ما إيجابيّات كلّ قسم وما سلبياته.

تاريخ الكتاب

ولنبدأ بتأريخ الكتاب، فنحن عندما نحتاج إلىٰ أن نعرف حادثة تأريخية ما فإننا نذهب إلىٰ الكتاب ونقرأ تلك الحادثة. وهذا التأريخ يبدأ من حين الكتابة، أمّا قبل الكتابة فلا نستطيع أن نعرف أحوال الأُمم السابقة. وكتابة التأريخ خلقت لنا مشكلة تتلخّص في معرفة من هو كاتب التأريخ، فالمؤرّخون أقسام؛ منهم من هو حسن النيّة، كمن صعد المنبر منهم وقال: إن عمرو بن معديكرب كان يأكل في اليوم جملين، وامرأته كذلك، فإذا أراد الاقتراب منها قال لها: كيف أصل إليك وبيني وبينك أربعة من الإبل؟ فقام إليه رجل فقال له: كيف تصدّق ذلك؟ فقال: كان رجال ذلك الزمان غير رجالنا. فقال الرجل: وجمالهم غير جمالنا أيضاً. فهل نستطيع أن نأخذ التأريخ من مثل هذا الذي يصدّق كلّ ما يقرؤه من الروايات وإن كانت من الأساطير؟

دور بعض المؤرّخين في التشويه المتعمّد للتاريخ

ومن أقسام المؤرّخين من ليس كذلك فهو عاقل متّزن لكن هواه لا يجعله يكتب الحقائق كما هي، فهو يسقط ما في نفسه علىٰ الآخرين، وذلك مثل ابن خلّكان مثلاً الذي ذكر الصحابة والتابعين ولم يذكر الحسين عليه السلام فقيل له في ذلك فقال: ذكرت من اهتمّ بهم التأريخ.

وهذا ليس غريباً في مثل مجتمعاتنا وبلداننا، فقد طفت في أحد البلدان فلم أرَ مسجداً باسم الحسن أو الحسين أو علي عليهم السلام وكأن هؤلاء غرباء عن الإسلام، أو

كأنهم جاؤوا إلىٰ الجزيرة العربية من بلاد بعيدة. وهذا يبعث علىٰ الألم في النفوس، وإن كان لا يضرّ أهل هذا البيتﷺ شيئاً، فالذي لا يشرب من نبع أهل البيت هو المحروم.

وهناك قسم من المؤرّخين تتحكّم به المطامع وتمنعه من إثبات الحقائق، بالاضافةإلىٰ عوامل كثيرة أُخرىٰ. يقول أحد الأُدباء مخاطباً مؤرّخاً بقوله:

أيا موسع التأريخ نقداً وخبرةً	**ومبتدعاً في نهجه ليس يجترُّ**
تجلّىٰ له التأريخُ بحراً فخاضه	**وغاص إلىٰ الأعماقِ فانكشف القعرُ**
فأبصر زيفاً يستطيل وواقعاً	**يُذاد ومِقياساً إلىٰ الخلِط ينجرُّ**
وأنباءَ يرويها الهوىٰ وصحائفاً	**تحكّم فيها الحبّ والبغض والتبرُ**
ومرّت به الأقلام منهن قانعٌ	**بفضل فُتات الظالمين ومعترُّ**

فالتأريخ هكذا، يتحكّم فيه الحبّ والبغض، فهناك من يحبّ شخصاً أو يكرهه فيروي فيه الروايات، وهناك من يأخذ علىٰ الروايات أموالاً طائلة، وهكذا.

الدور الحقيقي للمؤرّخ ودور فيلسوف التاريخ

فالتأريخ لابد أن يؤخذ من الثقة، ودور المؤرّخ في التأريخ يجب أن يكون كدور المصوّر الفوتوغرافي الذي ينقل الصورة كما هي دون تزييف أو تحريف، فعليه أن يكون أميناً موضوعيّاً في كلّ ما يروي ويكتب، ويترك ما رواه لمن يدرس التأريخ وأصحاب الفلسفة التأريخيّة. ولتقريب المعنىٰ نقول: يروى في قوله تعالىٰ: **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾**[1] أن الملكين سمعا من المكلّف صفيراً، فتحيّرا ماذا يكتبان فقال أحدهما للآخر: اكتب «صفير»، وعلىٰ الله التفسير. وكذلك المؤرّخ عليه أن يسجّل الواقعة فقط، ثم يأتي المحلّل أو

(١) ق: ١٨.

الفيلسوف التأريخي فيبيّن أسرار التأريخ بعد دراستها.

ولذلك فإننا لا نمنع من الاحتجاج برواية الثقة وإن كان من مذهب أو نِحلة غير الشيعة. فالمقياس عندنا في الراوي هو الموضوعية فيما يروي[1]، في حين أن غيرنا لا يصحّح الرواية عمن يُتّهم بالتشيّع[2]، وكأن حبّ الحسن والحسين﴿﴾ جريمة لا تغتفر. وهذا الأمر حصل في زمن متأخّر، وإلّا ففي البخاري ومسلم الكثير من الشيوخ من الشيعة. ومن أحبّ معرفة المزيد فليراجع (الفصول المهمّة) و(المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين﴿﴾ وغيرهما من الكتب. وهذه المسألة حدثت في وقت متأخّر وعلىٰ وجه التحديد من أيام ابن تيمية:

وعند الله تجتمع الخصوم

---

(١) كقول الإمام العسكري﴿﴾ عن الفطحية: «خذوا ما رووا، ودعوا ما رأوا». الفقه المنسوب للإمام الرضا﴿﴾: ٤٩، وسائل الشيعة ٢٧: ١٠١ / ٣٣٣٢٤. وقد حفلت كتب أحاديثنا برواة من أبناء العامّة، بل إن علماءنا وثّقوهم، وهو دليل واضح وبرهان ساطع على موضوعية علمائنا في هذا المجال؛ فمثلاً يقول النجاشي: «إسحاق بن بشر، أبو حذيفة الكاهلي الخراساني، ثقة روى عن أبي عبد الله﴿﴾، من العامّة». رجال النجاشي: ٧٢ / ١٧١.
وقال: «الحسين بن علوان الكلبي، عامي، وأخوه الحسن ثقة». رجال النجاشي: ٥٢ / ١١٦.
وقال: «عبّاد بن صهيب ... بصري ثقة». رجال النجاشي: ٢٩٣ / ٧١٩. وهو عامّي كما أثبته صاحب (المعالم) بقوله: «من رجال العامّة». التحرير الطاووسي: ٣٩٧ / ٢٧٩.
وقال شيخ الطائفة: «أبو نصر بن يحيى الفقيه، من أهل سمرقند، ثقة خيّر فاضل»، مع أنه﴿﴾ ذكر أنه ممّن لم يروِ عن الأيمّة﴿﴾. رجال الطوسي: ٤٥١ / ٦٤٠٢.
وقال في (العدّة): «عملت الطائفة بما رواه حفص بن غياث وغياث بن كلوب ونوح بن دراج والسكوني وغيرهم من العامّة عن أيمّتنا﴿﴾». عدّة الأصول ١: ١٤٩ ـ ١٥٠.
وعدّ ابن داود منهم في رجاله (٣٩) رجلاً. انظر رجال ابن داود: ٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٢) تفاوتت عبارات القوم بين «شيعي متروك الحديث» و«شيعي متروك» و«شيعي بغيض» و«شيعي كذّاب» و«شيعي واهٍ» وأمثالها. انظر: لسان الميزان ٤: ٧٦، ٧: ٤٨٧، مجمع الزوائد ١: ١٤٦، كنز العمّال ٢: ٤٤٩، ١٢: ١٢٤، تذكرة الموضوعات: ٩٦، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ١٧٨، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٤٨، تقريب التهذيب ١: ٧٠٩، ٢: ٣١٩.

وهذه عقبة وضعوها في طريق وحدة المسلمين، وإلّا فنحن نريد الرواية الصحيحة، ولا يمنع أن تكون كذلك وراويها من مذهب آخر.

يذكر مصطفىٰ السباعي أنه بحث عن دعوىٰ أن الخوارج يكذبون فوجدها غير صحيحة، وعليه فلا مانع عنده من الرواية عنهم مع أنهم يكفّرون اثنين من الخلفاء، فلماذا لا تستساغ الرواية عمّن يحبّون محمداً ﷺ وآله ﷺ؟ وهذا لا يسبّب لنا في الواقع أيّة مشكلة سواء روىٰ عنا أحدٌ أم لم يروِ طالما أن أيدينا علىٰ المنبع الصافي الذي يتمثل بأهل البيت ﷺ، وطالما أننا سنقف بين يدي الله وقد أخذنا الرواية عنهم ﷺ، وليرضَ من يرضىٰ وليغضبْ من يغضب:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضباناً علـيَّ لئامها[1]

وهذا ما ندين به ونلاقي الله تعالىٰ به ذلك اليوم، وهو ذخرنا الذي ندّخره:

لكـم ذُخـركُم إن النّـبيَّ وأهـلَهُ ... وأشياعَهُ ذُخري إذا اتُّبِع الذخرُ[2]

إيجابيّات تاريخ الكتاب

إذن لو أردنا أخذ التأريخ فلابدّ أن نأخذه من مصادره الصحيحة. ولابدّ أن نعرف أن الكتاب الذي ينقل الأحداث التأريخيّة له محاسنه ومساوئه.

فمن إيجابيّاته أننا نستفيد منه التعرفَ علىٰ سمات الأُمم، من العادات والتقاليد وغيرها. فلو أردتَ التعرّف علىٰ العادات التي درجتُ عليها أنا ومن هم من أبناء جيلي، وهل هي صالحة لهذه الأجيال أم لا، فإنه يجب عليك أن ترجع إلىٰ التأريخ لترىٰ هل إن الأُمم السابقة لديها مثل هذه العادات؟ فتجد في التأريخ ما يدعم أو يدحض ما تحمله من هذه العادات والتقاليد، كما تعرف المستحدَث منها من غير

(١) البيت لأبي العيناء، أمالي المرتضىٰ: ٢١٨، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٣.
(٢) أجوبة مسائل جار الله: ٧٣، النص والاجتهاد: ٥٤٠.

المستحدَث، والمبتدَع من غير المبتدَع. ومن هذا نعرف السمات التي تلتقي بها أو تختلف عنها كلّ حلقة من حلقات التأريخ وكلّ جيل من أجياله.

من السنن أن الحقّ وحده لا يكفي لتحقيق النصر

ومن إيجابيّاته أيضاً أننا نأخذ منه العظة والعبرة علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿**يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[1]، فحينما ندرس التأريخ فإننا نستفيد من تجارب الأُمم السابقة، فنأخذ من حَسَنها ونتجنّب سيّئها. فنحن نعرف مثلاً أن سنن التأريخ ليس لها علاقة بمؤمن أو كافر، فلو أن أُمة اتّحدت ودعت إلىٰ الوحدة والوئام، ونبذت الفرقة والتمزّق فإنها تنتصر لا محالة. وهذه سُنّة من سنن الكون، قال تعالىٰ: ﴿**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[2]. وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يعرف أنه وأصحابه علىٰ الحقّ ومعاوية وأشياعه علىٰ الباطل، ولكنه كان يقول لأصحابه: «**لا أرىٰ هؤلاء القوم إلّا ظاهرين عليكم؛ لاجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم**»[3].

وتعال الآن إلىٰ ما نراه في مجتمعاتنا من تفرّق وصل إلىٰ حدّ التساؤل فيما بين

---

(١) الزمر: ١٨. (٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١. وتمامه: «وطاعتهم لإمامهم ومعصيتكم لإمامكم، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم إياي. إني ولّيت فلاناً فخان وغدر، واحتمل فيء المسلمين إلى معاوية، وولّيت فلاناً فخان وغدر وفعل مثله، فصرت لا آتمنكم على علاقة سوط. وإن ندبتكم إلى عدوّكم في الصيف قلتم: أمهلنا ينسلخ الحرّ عنّا، وإن ندبتكم في الشتاء قلتم: أمهلنا ينسلخ القرّ عنا. اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء». ثم نزل، وهي خطبة تمخّضُ عن كثير ألم ومعاناة ممّا كان يستشعره أمير المؤمنين عليه السلام ويعتمل في صدره ممّن يجب أن يكونوا أصحابه لا أعداءه، وسيأتي ذكر القصّة في الهامش التالي.

الناس عن المجتهد الذي يقلّده بعضهم، في حين أن المجتهد الجامع للشرائط من العدالة وغيرها إنما نقلّده باعتباره طريقاً للإسلام فقط ولا داعي إلى البحوث التي لا طائل من ورائها. فالله تعالىٰ لا يسألك في اليوم الآخر مثلاً: هل إن الحسين عليه السلام بيده أزمّة السماوات والأرض؟ نعم إنه يسألك عمّا هو أساسي من نحو أن الحسين عليه السلام إمام معصوم، وهو سيّد شباب أهل الجنّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، أمّا غير ذلك من اليمين أو الشمال فلا يُسأل عنها المكلّف.

وعليه فإن هناك قضايا ينبغي علىٰ المكلّف أن يتركها للفقهاء؛ فهم أصحاب القول الفصل فيها، كما لو أن أحد الفقهاء أفتىٰ بإعطاء الحقّ الشرعي من الزكاة للمسلم المؤمن، وليس لمطلق المسلم فهذا ليس من شأن المكلّف واختصاصه، إنما الذي من اختصاصه أن يعرف أصل الوجوب؛ لأن الاختلافات هذه ستؤدي إلىٰ التمزّق والتناحر فيما لو شغلنا أنفسنا بها.

فمسألة الحقّ وحدها لا تكفي لتحقيق النصر، وإنما هناك سنن تأريخية وضعها الله تعالىٰ في الكون منها أن الاتّحاد قوّة والتناحر والتفرّق والتمزّق ضعف.

يروي المؤرخ ابن ديزيل أن أمير المؤمنين عليه السلام بعث أحد الأشخاص إلىٰ الشام قبل وقعة صفين، وأمره أن يلبس لباس الكوفيّين، حيث ان أهل الشام سيلتفّون حوله يسألونه عن الكوفة، وأمره أنهم إذا سألوه أن يجيبهم أن علياً عليه السلام نهد إليهم بجيش قوامه تسعون ألفاً ولينظر ما يصنعون ثم يعود إلىٰ الكوفة بلباس أهل الشام فيفعل الشيء ذاته.

فذهب هذا الرجل، فسأله أهل الشام فقال: الخبر في مجلس الأمير، فلما وصل المسجد الذي تجمّع فيه الناس يوم الجمعة وفيهم معاوية سأله معاوية عن حال الكوفة فقال: تركت علياً نهد إليكم بجيش قوامه تسعون ألفاً. فالتفت معاوية إلىٰ أصحابه فقال: ما رأيكم؟ فقام إليه ذو الكلاع الحميري فقال له: الرأي رأيك، عليك

أن تقول وعلينا أن نطيع. فقال معاوية: انهدوا إلىٰ قتال عدوكم.

قال الراوي: فلما أصبح الصباح رأيت الكتائب متجمّعة متهيئة للقتال، ثم رجع مبعوث أمير المؤمنين عليه السلام بلباس أهل الشام ووصل الكوفة يوم الجمعة أيضاً، فسأله أمير المؤمنين عليه السلام: «ما الخبر؟». قال: تركت معاوية نهد إليكم بمئة وعشرين ألفاً. فالتفت علي عليه السلام إلىٰ من معه فقال: «ما رأيكم؟». فقال أحدهم: هذا وقت الحرّ وليس الوقت وقت قتال. وقال آخر: لمَ لم تخبرنا قبل هذا؟ وقال ثالث: أنا أرىٰ أن نفعل كذا. وقال رابع: أنا أرىٰ أن نفعل كذا. وكان أن التفت عليه السلام إليهم قائلاً: **«لا أرىٰ هؤلاء القوم إلّا ظاهرين عليكم؛ لاجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم»**[1].

واليوم نعيد الفعلة نفسها، فهؤلاء من أتباع الشيخ فلان، وأولئك من أتباع السيد فلان، والحال أن علينا أن نبقىٰ مع المنبع الرئيس في ديننا وإسلامنا وهو النبي صلى الله عليه وآله وآل بيته الطاهرون عليهم السلام، وكفانا فرقة وتمزّقاً واختلافاً.

ومن إيجابيات تاريخ الكتاب أننا نأخذ منه موضع الفخر، فنحن نجد في التأريخ آباء وأجداداً لنا يستحقّون أن نفخر بهم، يقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ[2]

نعم، إن في تأريخنا من يستحقّ الفخر به. وإليك واحداً من هذه النماذج، فعندما نزل قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾**[3]، أمر النبي صلى الله عليه وآله بعرضها علىٰ مسلمي مكّة ممّن لم يتمكّن من الهجرة مع النبي صلى الله عليه وآله، فلمّا

---

(١) عنه في شرح نهج البلاغة ٣: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٩: ١٣٦ – ١٣٧، ولم ينقله عن المؤرّخ ابن ديزيل، وانظر سير أعلام النبلاء ٢: ١٤١.

(٢) ديوان الفرزدق: ٤١٨.

(٣) النساء: ٩٧.

قُرئت هذه الآية علىٰ أحد الصحابة من بني ليث قال: والله لا أبيت ليلة واحدة في مكّة بعد الذي سمعته من هذه الآية. وكان هذا الرجل مُسنّاً فطلب من أولاده أن يحملوه ويذهبوا به، فحملوه حتىٰ وصلوا به إلىٰ «التنعيم» فأدركته علائم الموت، فبسط إحدىٰ يديه وضرب بالأُخرىٰ عليها وقال: اللهم بيعة لك ومثلها لنبيك، أُبايعك علىٰ ما بايعك عليه رسولك. ثم أطبق جفنيه ولحقت روحه بربه.

فلما بلغ الخبر النبيﷺ ترحّم عليه[1]، ثم نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[2].

فنحن نعتزّ تمام الاعتزاز عندما نجد في التأريخ مثل هذه النماذج الرائعة، وهناك في تأريخ الكتاب إيجابيات كثيرة كالإيجابيّات المعرفيّة وغيرها.

سلبيّات تاريخ الكتاب

أما سلبيّات تأريخ الكتاب فأوّلها نبش الدفائن، وهذه الظاهرة استغلّها اليهود، فممّا يذكر في هذا الباب أن فنحاص بن عازورا أحد رؤساء اليهود مرّ يوماً فوجد الأوس والخزرج جالسين متصافين متسالمين وبينهم البسمات المتبادلة، فلم يرُق له ذلك، فجلس عندهم فقال لأحد رجال الأوس: أتذكر لمّا حدثت بينكم وبين الخزرج معركة فقام شاعر الخزرج وشتمكم فقال فيكم كذا وكذا؟ ثم التفت إلىٰ الخزرج وقال: أتذكرون ما حدث بينكم وبين الأوس فقام شاعر الأوس فشتمكم وقال فيكم كذا وكذا؟ وأخذ يُذكّر كلاً من الطرفين بما يثير الحميّة في

---

(١) الدرّ المنثور ٢: ٢٠٨، الإصابة ١: ٦١٨ / ١٢٣٥، أُسد الغابة ١: ٣٠٣، والروايات مختلفة في تسمية هذا الذي أدركه الموت: ففي بعضها ضمرة بن جندب، وفي بعضها أكثم بن صيفي، وفي بعضها أبو ضمرة بن العيص، وفي بعضها ضمرة بن العيص من بني ليث، وفي بعضها جندع بن ضمرة الجندعي، وفي بعضها خالد بن حزام.

(٢) النساء: ١٠٠.

نفسه حتىٰ صاح أحدهم: يا للأوس، وصاح الآخر: يا للخزرج. فتداعوا إلىٰ السلاح حتىٰ أوشكوا أن يتقاتلوا. فبلغ الخبر النبي ﷺ فخرج إليهم وقال: **«أبدعوىٰ الجاهليّة وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها جاهليّة منتنة»**[1].

فهذه أوّل السلبيّات التي يمكن أن تكون في التأريخ، ونحن نستطيع أن نتجاوز مثل هذه السلبيّة بأن نضع أيدينا علىٰ ما هو إيجابي في التأريخ وندع ما يؤدي إلى التفرّق. وهذا في غير الأُمور المتعلّقة بالدين والعقيدة، فما كان منها متعلّقاً بالدين والعقيدة فنحن ملزمون بأخذه وليحدث ما يحدث: **«أخوك دينك فاحتط لدينك»**[2]. فلو كانت هناك رواية لها علاقة بحكم شرعي ولا يأخذ بها غيري فلا علاقة لي به لأنني معذور أمام الله، أما ما يؤدّي إلىٰ الأحقاد من شواهد وأحداث التأريخ فيمكن تركه إذا لم يضرّ شيئاً بالدين والعقيدة.

ومن سلبيّات التأريخ أيضاً قلب الحقّ باطلاً والباطل حقّاً لغفلة، فمثلاً يروي أحد الصحابة أن النبي ﷺ قال: **«إن الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه»**. فالميت تجبذه الملائكة جبذاً أو تلكزه لو ندبته زوجته فقالت: وازوجاه أو واعزيزاه. فوصل خبر الرواية إلىٰ السيدة عائشة فقالت: غلط الراوي إنما هذه الرواية كانت في يهودي مات ومرّ أهله يحملونه ويبكون عليه، فقال ﷺ: **«إن هؤلاء يبكون عليه وهو يعذّب»**[3].

ورویٰ أبو هريرة مثلاً أن الله عذب امرأة في هرّة حبستها فلا هي سقتها وأطعمتها ولا هي تركتها، فلما دخل على عائشة قالت له: يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عُذّبت في هرّة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقِها؟ فقال: سمعته منه.

---

(١) أسباب نزول الآيات: ٧٧، الدر المنثور ٢: ٥٨.

(٢) الأمالي (المفيد): ٢٨٣، الأمالي (الطوسي): ١١٠ / ١٦٨، بحار الأنوار ٢: ٢٥٨ / ٤.

(٣) منتهىٰ الطلب ١: ٤٦٧ (حجري)، مسند أحمد ١: ٤٢، ٤٣، ٦: ٥٧، ١٠٧.

يعني النبيﷺ. فقالت عائشة: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم علىٰ الله من أن يعذّبه في هرّة، فإذا حدّثت عن رسول اللهﷺ فانظر كيف تحدّث[1].

وهذه الوقائع وغيرها هي في الحقيقة كانت متعلّقة بقرينة، فلما ذهبت القرينة وغابت عن الخبر بقيت الواقعة فقط، فلم يعد هناك من القرائن ما يحدّد المعنىٰ، فأخذ الراوي الواقعة وأغفل القرينة. فعلينا أن نبذل الجهد لمعرفة خلفيّات الأخبار والروايات، وقد بذل العلماء من الجهد والكدّ ما لا يعلمه إلّا الله لغرض دراسة التأريخ وتمحيص الروايات والأخبار، وليس هذا من الأُمور السهلة كما قد يتصوّرها البعض.

ومن سلبيّات التأريخ أنه أحياناً ينقل ما ليس بحقّ، فمن الأمثلة علىٰ ذلك أن أحد الأشخاص قال لي مرة: لماذا تحلّون الزواج بتسع نساء؟ فقلت له: من أين عرفت ذلك؟ قال: أنتم تفسّرون معنىٰ الآية الكريمة: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[2] بالجمع، أي بمجموع اثنين وثلاثة وأربعة، فيكون الحاصل تسعة.

والغريب أن هذه المسألة من أقوالهم هم[3] وليست من أقوالنا، وقد استعرضت

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٩٩، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذي ١: ٢٦١.

(٢) النساء: ٣.

(٣) قال الزيلعي: «وقال القاسم وشيعته القاسميّة: يجوز أن يجمع بين تسع، ولا يجوز له أكثر من ذلك». ثم نسبه إلى إبراهيم بن يزيد النخعي فقيه الكوفة، وعبد الرحمن بن أبي ليلى التابعي. تبيين الحقائق ٢: ١١٢، وهما ممّن مدحهما النووي، انظر المجموع شرح المهذب ١٢: ٩، صحيح مسلم بشرح النووي ١: ٦٤، وغيرهما.
ونقل العيني عبارة الزيلعي عينها، ثم قال: «لأن الواو للجمع». رمز الحقائق ١: ١٤٣.
وقال الشوكاني: «وذهبت الظاهرية إلى أنه يحلّ للرجل أن يتزوّج تسعاً، ولعلّ وجهه قوله تعالى: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾، ومجموع ذلك باعتبار ما فيه من العدل تسع. وحكي ذلك عن ابن الصباغ والعمراني». نيل الأوطار ٦: ٢٨٩. وابن الصباغ والعمراني عبّر عنهما النووي

هذا الموضوع مفصلاً في كتاب فقه الجنس في الإسلام، فلم أجد له أثراً. وكلّ ما عندنا أن المرء إذا خاف الوقوع في المحرّم فإن الزواج يكون واجباً عليه، أما إذا كان يتوق إلى الزواج لكنه لا يخاف الوقوع في المحرّم فيكون الزواج مستحبّاً له. أما إذا لم يكن يتوق للزواج ولم تكن عنده كفاية فيصبح الزواج مكروهاً؛ لأنه لا يستطيع الوفاء بحقوق المرأة والأُسرة. وأحياناً يكون الزواج محرّماً، وذلك في حالات منها:

☚ بقوله: بعض أصحابنا من الفحول. انظر المصدر التالي.
وقال النووي: «وذهبت الظاهرية إلى أنه يحلّ للرجل أن يتزوّج تسعاً، ووجههم قوله تعالى: ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾، ومجموع ذلك لا باعتبار ما فيه من العدل تسع». ثم خطّأ الشوكاني في نسبته ذلك إلى ابن الصبّاغ والعمراني. المجموع شرح المهذب ١٦: ٢٤٤.
وقال بعضهم بجواز التزوّج بأي عدد شاء، فقد قال نظام الدين الأعرج المفسّر النيسابوري في تفسير الآية المذكورة: ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوّج بأي عدد أُريد؛ لأن قوله: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ إطلاق في جميع الأعداد، لصحّة استثناء كلّ عدد منه، وقوله: ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ لا يصلح مخصّصاً لذلك العموم؛ لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلّ على نفي الحرج والحجر مطلقا؛ فإن من قال لولده: افعل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذّر، فذكر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها. ولئن سلّمنا لكن الواو للجمع المطلق، فيفيد الإذن في جميع؛ تسعة بل ثماني عشرة؛ لتضعيف كلّ منها، أي إن معنى ﴿ مثنى ﴾ اثنان اثنان، وهكذا. وأما السنة فلِما ثبت بالتواتر أنه ﷺ مات عن تسع، وقد أُمرنا باتّباعه في قوله: ﴿ فاتّبعوه ﴾[1]، وأقلّ مراتب الأمر الإباحة، وقد قال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». غرائب القرآن ٤: ١٧٢.
وقال القرطبي: «وذهب بعض أهل الظاهر أيضا إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمع بين ثماني عشرة؛ تمسّكاً منهم بأن العدل في تلك الصيغ يفيد التكرار والواو للجمع». الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧.

(1) الأنعام: ١٥٣، وهي هنا حول الشريعة، ١٥٥، وهي هنا حول القرآن الكريم.

صورتان لطول الأمل وقصره

ولدينا هنا صورتان: واحدة لطول الأمل والحرص، والأُخرىٰ على الضدّ منها، فالأُولىٰ تقول:

يقولون إنّ الله خالقُ جنّةٍ ونارٍ وتعذيبٍ وغلّ يدينِ
فإنْ صَدَقُوا فيما يقولون إنّني أتوب إلىٰ الرحمنِ من سنتينِ[1]

وهناك قصر الأمل في الجانب الآخر يقول:

فإنْ تكنِ الأبدانُ للموتِ أُنشِئت فَقَتلُ امرئٍ بالسّيفِ في اللهِ أفضلُ[2]

ولم يصل طالب الريّ[3] إليها، وإنما أخذها منه الحسين عليه السلام بعد زمن، بل أخذ الدنيا كلّها. فإذا مرّ اليوم العاشر من المحرّم رأيت الدنيا تلتهب بذكره؛ لأنه أعطىٰ لا لأهداف قصيرة إنما أعطىٰ إرضاءً لله، فهو الذي رفع رأسه ليقول:

تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني بالحبّ إرباً لما مال الفؤاد إلىٰ سواكا[4]

فضحّىٰ بالعيال والأولاد والأموال، وبقي هكذا علىٰ هذه الحالة ثلاث ساعات

---

(١) البيتان لعمر بن سعد. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٩٣، الفصول المهمة: ١٩١ – ١٩٢ مقتل الحسين للخوارزمي ١: ٣٥١، مطالب السؤول ٢: ٧٨ الفتوح ٥: ٩٦.

(٢) بيت للإمام الحسين عليه السلام من ضمن أربعة أبيات، وهناك من رواها ثمانية أبيات. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٤، البداية والنهاية ٨: ٢٢٨، مختصر تاريخ مدينة دمشق ٧: ١٣٣، حماسة الظرفاء ١: ١٨١، الفتوح ٥: ٧٢، ينابيع المودّة ٣: ٨١.

(٣) حيث إن أحد الأبيات السابقة للبيتين الآنفين هو:

أأترك ملك الريّ والريّ منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسينِ

(٤) التحفة السنية: ٢٦٢ (مخطوط).

لا يستطيع أحد أن يقترب منه، وكلّما اقترب إليه أحد رمقه ﷺ بطرفه فيولي هارباً، إلىٰ أن صاح ابن سعد: ما وقوفكم؟ وما تنتظرون بالرجل؟ فأقبل إليه شمر بن ذي الجوشن وجثا علىٰ صدره[1] بعد أن أخذته الجراحات:

تَريبَ المُحَيّا تظن السَّماء ... بأنَّ علىٰ الأرض كيوانَها
غريباً أرىٰ يا غَريبَ الدِّيار ... توسّد خَدّاه كُثبانَها[2]

وفي تلك اللحظات وصل إلىٰ سمعه صوت من أعماق المخيم: «يابن أُمي يا حسين، نور عيني يا حسين، إن كنت حياً فأدركنا؛ فهذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلىٰ الله». ولم يكن يقدر علىٰ تلبية ندائها، فقام وسقط:

نايم يخو زينب يواعي ... ما هيّجنك هالنواعي

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٥٦، مقاتل الطالبيّين: ٧٩، تاريخ خليفة بن خياط: ١٧٩، تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ١٩٠.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.

﴿٤٦﴾

سجدة في محراب علي عليه السلام

خَصَّكَ اللهُ في مَنَاقِبَ شَتَّىٰ	هِيَ مِثْلُ الأعدَادِ لا تَتَنَاهَىٰ
لَيتَ عَيناً بِغَيرِ رَوضِكَ تَرعَىٰ	قَذِيَت واستَمَرَّ فِيهَا قَذَاهَا
أنتَ بَعدَ النَّبِيّ خَيرُ البَرَايَا	والسَّمَا خَيرُ مَا بِهَا قَمَرَاهَا
لكَ ذَاتٌ كَذَاتِهِ حَيثُ لَولا	أنَّهَا مِثلُهُ لَمَا آخَاهَا[1]

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: الإمام عليه السلام معجزة في كلّ أبعاده

أشار الشاعر الأزري إلىٰ موطن من مواطن الإبداع، وإلىٰ مورد من الموارد التي تحيّر الألباب في الإمام عليّ عليه السلام، ولابدّ من الالتفات إلىٰ جوانب تفرض نفسها في ترجمة هذا الرجل العظيم إذا ما أردنا المرور علىٰ ترجمته. وأوّل هذه الجوانب ـ وهو ما يبعث العَجب في النفوس، وما يلفت الأذهان إلىٰ مقدار عناية الله به عليه السلام ـ هو كيف وصل لنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عبر هذا التأريخ الطويل شخصيّة متكاملة؟ فنحن لم نواجهْه (سلام الله عليه) وجهاً لوجه، بل نحن إنما نواجه شخصاً بيننا وبينه من التأريخ آماد طويلة، فنأخذه عن طريق القنوات التي تعكسه لنا.

ولدينا من القنوات نوعان: تأريخيّة وتقييميّة، فالقناة الأُولى تروي لنا

---

(١) تخميس الأزريّة (المتن): ٨٥.

ملابسات حياة الإنسان؛ كيف ولد، وكيف مات، وما هي صفاته وميزاته، لكن القناة الأُخرىٰ هي قناة تقييم، فعندما يمرّ إنسان ما بآخر فإنه يكوّن عنه انطباعاً معيّناً من خلال معايشته له عبر هذه القناة. وهذا الانطباع قد يرسم ذلك الإنسان بصورة موضوعيّة وقد يرسمه بصورة متحيّزة.

ونحن نعجب أشدّ العجب كيف وصل إلينا علي بن أبي طالب﵇ بما يحمل من مزايا وما له من شخصيّة متكاملة عن طريق هاتين القناتين، فالدنيا ـ إلّا ما شذّ ـ مرّ بها علي﵇، فأوصلته لنا على الرغم منها؛ لأن التأريخ كُتب بيد أعداء علي﵇، والتقييم مرّ علىٰ قوم لا ينظرون إلىٰ علي﵇ نظرة المستريح، وقد تلقّت علياً﵇ يوم تلقّته وقد وتر الدنيا، وتلقّاه التأريخ بصورة متشنّجة، فتلقّاه الحقد والأضغان والكراهة، وتلقّاه التقييم االمتضارب المتناقض.

دخل إلىٰ الدنيا وكلّه حسنات، ولكنْ حرص التأريخ علىٰ أن يقلب كلّ حسنة من حسناته إلىٰ سيّئة، وحاول الحقد أن يقلبها إلىٰ منقصة، ولكنه تراجع خاسئاً وهو حسير أمام صموده﵇.

المبحث الثاني: نماذج من حياة علي﵇ وظلم التاريخ له

والتأريخ لم يروِ عليّاً﵇ بصورة موضوعيّة، ولم يقيّم موقفه تقييماً صحيحاً. ودعني أضرب لك بعض الأمثلة. جاء علي﵇ إلىٰ الحياة وخرج، ثم أتت الأقلام لتكتب عنه، وسنلاحظ الآن مجموعة من الظواهر في حياة هذا الرجل:

النموذج الأوّل: الأقلام المأجورة والأمويون

لقد كانت تلك الأقلام تحت سمع معاوية خاصّة وبصره، وتحت أسماع الأُمويّين وأعداء علي وأبصارهم عامّة، فكانوا ينظرون إليه نظرة الحقد؛ لأنك لا تستطيع أن تنظر إلىٰ قاتل أبيك ولو قتله بحقّ. وعلي﵇ قتل الأقرب والأبعد،

وشاء الله له أن يحمل الألوية في اثنتين وثمانين غزوة، ولم يترك بطلاً من أبطال قريش إلّا وأشبع منه سيفه، وروّىٰ منه رمحه، وأخذ من علق دمائه. أفترىٰ علياً عليه السلام بعد تلك المواقف سيكتب عنه المقتول أبوه والمقتول أخوه كتابة موضوعيّة؟ كلا وألف كلا:

بـدرٌ وأحـدٌ والهِراسُ وخـيبرٌ	والنَّـهرَوانُ وقـبلَها صِـفِّينُ
كَـفٌّ تُـطيحُ بِـهَا وَيَـنذُرُ كَـاهِلٌ	وَيَـدٌ تُـجَذُّ وَيُـجدَعُ العِـرنِينُ
هَذا رَصِيدُكَ بالنُّفُوسِ فَمَا تَرىٰ	أَيُـحِبُّكَ المَـذبُوحُ والمَطعُونُ
ومِنَ البَـدَاهَـةِ والبَـدَاهَـةُ حَـيَّةٌ	فِـي أنْ يُـقَاضَى دَائِـنٌ وَمَـدِينُ

فهؤلاء الذين كتبوا عن علي عليه السلام هم بين موتور منه، وبين طامع أنه إذا شتمه فسيأخذ جزاء شتمه له، وبين من أعمته التربية الفاسدة، وبين مضلّل أحسن الظنّ بالتأريخ. وكل أولئك حاولوا أن يهشّموه، فراعهم أنه خرج عملاقاً من تلك الأقلام، وأنه لمّا استهدفته الأقلام كرّت منهزمة، وظل في ألقه وبهائه وعظمته، وانحسر عنه التأريخ، وهو أُعجوبة الدنيا ومفخرتها.

مرّ معاوية علىٰ الصفا والمروة وكان فيهما عبد الله بن عباس، فقال له: يابن عباس. قال: نعم، قال: أوما بلغك ما أمرنا به؟ قال: وبم أمرت؟ قال: ألّا يذكر علي بن أبي طالب. قال: أوتمنعنا من قراءة القرآن؟ قال: لا، قال: أوتمنعنا من تأويله؟ قال: لا، ولكن أمنعكم من تأويله بألسنتكم أنتم، قال: أفتريد أن نأخذ القرآن من غيرنا وقد نزل في بيوتنا؟ فقال معاوية: قد أنبأتك فافعل ما تريد[1].

وأخذ ذلك الموقف أثره، فكان الناس إذا أراد أحدهم التحدّث عن علي عليه السلام لا يقوىٰ أن يأتي باسمه، وكان المؤرّخ يقف ويقول: حدّثني فلان عن فلان عن

---

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣١٥، مناقب آل أبي طالب ٢: ١٧٤، بحار الأنوار ٤٢: ٣٨.

رجل من أصحاب النبي ﷺ، أو عن أبي زينب.

ويقف أحد العلماء فيصف لنا هذه الحالة بقوله: ما نصنع بعلي؟ إن أحببناه قتلنا، وإن أبغضناه كفرنا[1]. وهي عبارة تعكس الواقع المرّ بأدقّ صوَره.

ويدخل رجل علىٰ إبراهيم بن سلمة بن هرمة كان له أبيات في مدح الإمام علي وولده ﵈، فيسأله الرجل: لمن هذان البيتان:

وَمَـهمَا ألامُ عَـلىٰ حُـبِّهِم ... فـإنِّي أُحِبُّ بَـني فَـاطِمَةْ
بَـنِي البِـنتِ مَن جَاءَ بالبَيِّنَا ... ت والهَـدْي والسُّـنَنِ القَـائِمَةْ

قال: قالهما من عضّ ببظر أُمّه. فلما خرج الرجل سأل إبراهيم من يثق به: أولست قائل هذين البيتين؟ قال: نعم. قال: فلم نفيتهما عن نفسك وأنكرتهما؟ قال: ويحك، أيهما أهون، أن أُنكر بيتين من الشعر أم أُشنق علىٰ باب بيتي[2]؟

وهذا يعكس الواقع المرّ الذي مرّ به تأريخ هذا الرجل، والفترة العصيبة التي مرّت بمن يذكر الإمام علياً ﵇ بخير.

وقد وهم الأُمويّون أن جعلوا شتم علي ﵇ فاتحة الخطباء علىٰ المنابر؛ ظنّاً منهم أنهم إذا نعتوه بأبي تراب فإنما يشتمونه بذلك[3]. يقول له شاعر:

أأبَـا تُـرَاب للـتُّرَابِ تَـفَاخُرُ ... أنْ كَانَ مِنْ أمشَاجِهِ لَكَ طِينُ

---

(١) نسب قريب من هذا القول في مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٤٨١ للشعبي، وهو: «ما ندري ما نصنع بعلي بن أبي طالب ﵇؛ إن أحببناه افتقرنا، وإن أبغضناه كفرنا!».

(٢) بيتان ثالثهما:

فـلست أُبالي بـحبي لهـم ... سواهم من النـعم السـائمةْ

تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٦، جواهر المطالب ٢: ٣١١، وقد ذكر هذين البيتين فقط.

(٣) انظر: الإرشاد ١: ٣٠٩ ـ ٣١٠، كشف الغمّة ٢: ٣٧، بحار الأنوار ٤٢: ١٩، تنبيه الغافلين: ١٠٤، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ: ٤٠، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩.

النَّاسُ من هذا التُّرابِ وكُلُّهم ... في أصلِهِ حَمأٌ بِهِ مَسنُونُ
لكنْ مِن هَذا التُّرابِ خَوافِرٌ ... ومن التُّرابِ حواجبٌ وعيونُ
فإذا استطَالَ بك التُّرابُ فعاذِرٌ ... فلأنتَ من وجهِ التُّرابِ جَبينُ
وإذا رجعتَ إلىٰ التُّرابِ فَلَمْ تَمُتْ ... كَالجَذرِ ليس يموتُ وهوَ دَفينُ
لكنَّهُ يَنمو ويَفتَرِعُ الثَّرىٰ ... وتَرفُّ منهُ بَراعِمٌ وغُصُونُ

أراد الأُمويّون أن يسيطروا علىٰ وسائل الإعلام ويضعوها في قناة الذمّ لعلي عليه السلام فيمسخوا سيرته في نفوس الناس، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص فسمعت رجلاً يشتم أبا تراب، ويسأله رجل إلىٰ جانبه: ويحك، من أبو تراب هذا؟ فيقول له: أحسبه لصّاً من لصوص الفتن[1]. فهذا هو مبلغ علمهم عن علي عليه السلام وهذا مبلغ تربيتهم في شتمه.

وقد أراد الزخم الأُموي في وسائل الدعاية والعطاء الأُمويّ في الأموال والرهبة الأُمويّة بالسيوف أن تغلق النوافذ، فلا ينفذ منها أريج لعلي عليه السلام، ولا يخرج منها اسم له. ولكن هلم معي لنستقرئ التأريخ، ونسأل معاوية: لقد حرصت أن تشتم علياً عليه السلام علىٰ المنابر، وأن تدفنه في التراب، وأن تبرزه بصورة تشمئزّ منها النفوس، ولكن بيني وبينك التأريخ والواقع وأقلام الأحرار، فسل الأقلام بم صوّرت علياً عليه السلام وبم صوّرت معاوية، وسل التأريخ كيف يروي لنا من صفحات عن علي عليه السلام، وماذا يبعث لنا من عطره، وسله ماذا يبعث في أُنوفنا من رائحة الأُمويين التي تزكم الأُنوف:

أأَبا يزيدَ وتلكَ حِكمةُ خالقٍ ... ماذا أقولُ وبابُ سَمعِكَ مُوصَدُ

---

(١) مروج الذهب ٣: ٤٢.

حَرِصَ الحِقدُ أن يُسمي قبيحاً ... مَن بمعناك من مزايا ملاحِ

وسيبقىٰ القمر بعيداً عن النباح مهما كان النباح قوياً، وستبقىٰ الشمس تهزأ بالشتم والشاتمين، وسيبقىٰ النور لا يعبأ بالظلام، وكل ذلك لأن علياً‏ من معاجز الإسلام، ومعاجز الإسلام ممتدّة. ولعل هذا المعنىٰ هو الذي أراد الحديث الشريف أن يرسمه: «**إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض**»[1].

استمع معي إلىٰ أحد أفراد عائلة اشتهرت ببغضها الشديد لأمير المؤمنين‏، وهو عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، وكان يستمع إلىٰ خطيب وهو يشبع أمير المؤمنين علياً‏ شتماً، ويحاول مدح الأُمويّين. ويلتفت عبد العزيز لمن معه فيقول: انظروا إلىٰ هؤلاء، إنهم إذا مدحوا أسلافهم فكأنما يكشفون عن الجيف، وإذا شتموا علياً‏ فكأنما يأخذون بضبعه[2] فيرفعونه إلىٰ السماء[3]. ذلك أن الدين ما بنىٰ شيئاً واستطاعت الدنيا أن تهدمه[4].

---

(١) ورد هذا الحديث بصيغ كثيرة وطرق أكثر، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٢) الضبع ـ بسكون الباء ـ: وسط العضد بلحمه يكون للإنسان وغيره، والجمع أضباع مثل (فرخ وأفراخ). وقيل: العضد كلّها. لسان العرب ٨: ٢١٦ ـ ضبع.

(٣) الإرشاد ١: ٣٠٩ ـ ٣١٠، كشف الغمّة ٢: ٣٧، بحار الأنوار ٤٢: ١٩، وقد نقله عن الوليد بن عبد الملك، تنبيه الغافلين: ١٠٤، وقد نقله عن الشعبي، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، وقد نسبه لعبد الله بن عروة بن الزبير.

(٤) قول منسوب لعبد الله بن عروة بن الزبير في حقّ أمير المؤمنين‏، انظر شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ (البيهقي): ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، ونسبه في بحار الأنوار ٤٢: ١٩ للوليد بن عبد الملك.

النموذج الثاني: الأقلام المأجورة وعطاء الإمام‌عليه السلام

وسنبيّن هنا ظاهرة إيجابيّة أُخرىٰ في حياة هذا الرجل مع سلبيّة هذا النموذج، فنحن نعرف أن الأقلام إذا انصبّت علىٰ شيء فإن مضمونه ينفد، فلو تناول العلماء أو البلغاء أو الأُدباء موضوعاً وكتبوا فيه مرّة أو مرّتين أو أكثر فإن مضمونه سينفد وسيصبح عتيقاً. ولكن تأمّل هذا الرجل، وسل التاريخ: كم مرّ بعلي‌عليه السلام من الأقلام والعصور؟ لكن كلّما أخذت القرائح منه أعطىٰ عوض ذلك وتضاعف، فكلّما أرادت الأقلام أن تستنفد مضمونه وجدته خالداً متجدّداً، يقول أحد الأُدباء:

دنيا علي وهي خِصبٌ ماتعٌ	يَمتارُ منها ما استطاع المنطقُ
فوّارة الينبوع إن تَمتحْ لها	كأساً تَدافع ضعفُه يتدفّقُ
تختار منها رونقاً وتظنه الـ	أسمىٰ فيلمع فوق ظنّك رونقُ
أبديّة الأبعاد لا قدمٌ لها	يدنو ولا رجلٌ تسيرُ فتلحقُ

جاء جماعة فقيّموا علياًعليه السلام في وقته، ثم جاء آخرون بعدهم فقيّموه بتقييم آخر، وهكذا وكلّما مدّ الأديب يده إلىٰ ذات علي‌عليه السلام ومائدته رفدته بكل ما هو جديد، فكأن ذاته تتوالد ولا ينفد عطاؤها. ومهما أردت أن تأخذ منها أعطتك:

يزيدك وجهه حسناً	إذا ما زدته نظراً[1]

وكم جال من الأقلام في حياة علي‌عليه السلام! يدخل ضرار الفهري علىٰ معاوية، فيقول له: صف لي عليّاً. فيقول: اعفني. فيقول معاوية: لابدّ من وصفه. فقال: إذا أبيت فاستمع: كان والله بعيد المدىٰ، شديد القوىٰ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجّر

---

(١) البيت للعبّاس بن الأحنف. ديوان العبّاس بن الأحنف: ١٢٩، شفاء السقام: ٣٧٧، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٠٨، تاريخ بغداد ١٢: ١٢٩.

العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستأنس بالليل ووحشته، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، غزيرَ العبرة طويلَ الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب. وكان كأحدنا فينا؛ يجيبنا إذا دعوناه، ويأتينا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منّا لا نكاد نرفع رؤوسنا إجلالاً له. لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، يقرّب المساكين، ويعظّم أهل الدين.

ولقد رأيته ليلة من الليالي وقد أرخىٰ الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً علىٰ لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، يقول: «إليك عني يا دنيا، غرّي غيري، أإليَّ تعرضت؟ أم إليَّ تشوّفت[1]؟ هيهات هيهات، قد أبنتك ثلاثاً. فأمدك قصير، وزادك حقير، وخطرك كبير. آهٍ آهٍ من قلّة الزاد ووحشة الطريق».

فبكىٰ معاوية حتىٰ وكفت دموعه علىٰ لحيته، وقال: رحم الله أبا حسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه؟ قال: حزن من ذبح رضيعها علىٰ صدرها، فلا تهدأ دمعتها ولا ترقأ عبرتها[2].

هذا هو علي ﷺ في رأي معاصر له، وستسمع كذلك في أحد الجوامع من يقول: لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهماً من مرامي الله عزّ وجلّ على عدوّه، ربّاني هذه الأُمّة، ذا شرفها وفضلها، وذا قرابة من النبي ﷺ قريبة، لم يكن بالنؤومة عن أمر الله، ولا بالغافل عن حقّ الله، ولا بالسروقة من مال الله. أعطى القرآن عزائمه فيما له وعليه، فأشرف منها على رياض مؤنقة، وأعلام بيّنة ذلك ابن أبي طالب[3].

---

(١) تشوّفتِ: تزيّنتِ. لسان العرب ٧: ٢٣٨ ـ شوف.

(٢) مناقب أمير المؤمنين ﷺ (محمد بن سليمان) ٢: ٥٢، شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٢٦، ينابيع المودّة ٢: ١٨٩.

(٣) أمالي المرتضى ١: ١١٢، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ١: ٢٣٦، ذخائر العقبىٰ: ٧٩،

وهذا هو تقييم الحسن البصري له.

ثم انحدر مع التأريخ، وانظر ما كتبت عنه الأقلام، وتأمّل هل أخذت هذه الأقلام شيئاً مكرّراً عن علي عليه السلام؟ كلّا، فهي كلّما بحثت عن ذاته وجدت جديداً في شخصه. فما سرّ هذا العطاء الذي لا ينقطع؟ وما سرّ هذا التوالد؟ سرّ ذلك أن الإنسان يأخذ منه بقدر ما يستوعب، وهو عطاء لا ينضب. وتلك خاصّة من خواصّه أخذها من القرآن، فهو تلميذ القرآن، والقرآن لا تفنىٰ عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، وهو أحد الأشباح الخمسة الذين يقول فيهم أبو العلاء:

يابنَ مستعرضِ الصُفوفِ ببدرٍ والقَنَا المُر من بني غطفانِ

أحدُ الخمسةِ الذين هُمُ الأشـ ـباح في كلّ منطق والمعاني[1]

فعلي عليه السلام أحد العترة الذين هم عِدل الكتاب الذي لا تفنىٰ عجائبه، ولذا فإن علياً عليه السلام لا تفنىٰ عجائبه. وكلّما بحثت في ذوات هذه العترة وجدتها غنيّة بالعطاء، وسيبقىٰ علي عليه السلام منبعاً ضخماً، كلّما امتدّت العصور وجدت في ذاته جديداً.

وقد وصل الأمر بحجم علي عليه السلام الذي لم تستوعبه الدنيا أن كان الناس فيه صنفين: كافراً به، ومؤلّهاً له[2]. يقول له أحدهم وهو علىٰ المنبر يخطب: لله أبوك! ما أفصحك كاذباً. ويقول له آخر: أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلّا هو![3].

وابحث في ذوات من عاصر علياً عليه السلام، فهل ترىٰ له أبعاداً في الفكر الاجتماعي أو الفلسفي أو الاقتصادي أو الأخلاقي كما تجد لعلي عليه السلام؟ أفتعجب بعد ذلك أن

☚ شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥، فتح الملك العلي (المغربي): ٧٨، البداية والنهاية ٨: ٦.

(١) ديوان سقط الزند: ٩٤.

(٢) قال له النبي صلى الله عليه وآله: «يهلك فيك اثنان: محبّ غالٍ، ومبغض قالٍ». منهاج الكرامة: ١١١، الملل والنحل ١: ١٢ – ١٣.

(٣) انظر بحار الأنوار ٢٥: ٢٦١ ـ ٢٣٧ / ب ١٠ في نفي الغلوّ في النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ....

يقف بعض الناس لينفي عنه (نهج البلاغة)؟ لا شكّ أن في (نهج البلاغة) عطاء يضيق به ذلك العصر، وفات هؤلاء أن العبقرية ليست من الجنس العادي وإنما هي ندرة، والعبقري يختلف عن جنس زمنه، ولو كان من جنسهم لما كان عبقريّاً. فالعبقري يسبق الزمن بما عنده من عطاء.

يمرّ بعض الكتّاب الذين ينفون عنه (نهج البلاغة) فيقول: من أين جاء علي؈ بهذه العلوم التي نجدها في (نهج البلاغة)؟ ولكنه يمرّ بابن خلدون فيقول عن ريادته لعلم الاجتماع: ذلك تفاعل داخلي واختمار ذاتي نبغ فيه ابن خلدون!

فليت شعري، هل هذا التفاعل الداخلي والاختمار الذاتي وقفٌ علىٰ ابن خلدون؟ ولم لا يكون لعلي بن أبي طالب؈؟ أوتستكثر علىٰ علي؈ أن يكون رائداً في علم الفلسفة أو الأخلاق ولا تستكثر ذلك علىٰ ابن خلدون؟ لكنه الحقد يعمي ويصمّ، وكذلك هي الأقلام التافهة، والنظر القاصر، ولكن، هيهات أن تُحجب الشمس بالغربال[1].

النموذج الثالث: اجتماع الأضداد في حياته؈

ومن الظواهر النادرة في حياته؈ ـ وهي تستحقّ أن يلفت إليها النظر ـ أننا تعوّدنا ألّا نرىٰ إنساناً يجمع بين الشيء وضدّه، فمن العسير ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن يُجمع بين الشيء وضده. لكن دعني أضرب لك مثلاً، تأمل تأريخ الزهد والتصوّف، وادرس ملامح الزاهد كيف هي، ستجد أن التأريخ يصوّر

---

(١) قال المتنبي:

وإذا استطال الشيء قام بنفسه ... وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

وقال عبد الله بن معاوية:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

شرح نهج البلاغة ٧: ٢٠٧، ١٦: ١١٨، ١٩: ٣٣٩، أنساب الأشراف (ترجمة أمير المؤمنين؈): ٦٣.

الزاهدين بأنهم منعزلون عن الناس، وتغلب علىٰ وجوههم الكآبة والانقباض، وعدم البشاشة والاندماج بالمجتمع. ادرس تأريخ الاجتماعيّين الذين عاشوا واندمجوا بالمجتمع فستجد عندهم صفات علىٰ النقيض من ذلك، فالشخص الاجتماعي منطلق الطلعة بشوش الوجه، ضاحك الثغر، لا يحب العزلة. ويندر أن تجد هاتين الخصلتين المتناقضتين مجتمعتين في شخص واحد. ولكن هلُمّ معي إلىٰ علي عليه السلام، فسترىٰ أنه جمع بين الاتّجاهين المتضادّين؛ فقد كان عليه السلام إذا جنّ عليه ليله تجده في محرابه كما وصفه ضرار، وتسمعه يقول: «إلهي إن طال في عصيانك عمري وكثر بالصحف ذنبي، فما أنا مؤمّل غير رضوانك ولا راجٍ غير غفرانك، أُفكّر في ذنبي فتعظم علي بليّتي، وأُفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي. آهٍ آه إن أنا قرأت بالصحف سيّئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه. فياله من مأخوذ لا تنفعه عشيرته ولا تنجيه قبيلته! آهٍ آه من نار نزّاعة للشوىٰ، آهٍ آه من غمرة من ملهبات لظىٰ، آهٍ آه من نار تنضج الأكباد والكلىٰ»[1].

ثم يتكوّم علىٰ الرمل جسداً لا حراك فيه وقد أُغمي عليه، فلا يفيق إلّا بعد فترة طويلة، أو حتىٰ ينضح الماء علىٰ وجهه.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «صلّىٰ علي بن أبي طالب الفجر، ثمّ لم يزل في موضعه حتىٰ صارت الشمس علىٰ قيد رمح، وأقبل علىٰ الناس بوجهه فقال: والله لقد أدركت أقواماً يبيتون لربّهم سجداً وقياماً، يخالفون بين جباههم وركبهم كأن زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما يميد الشجر، كأنما القوم باتوا غافلين».

يقول: «فوالله ما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتىٰ قبض»[2].

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٣٨ / ١٣٦، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩.

(٢) الكافي ٢: ٢٣٦ / ٢٢، بحار الأنوار ٤١: ٢٣ / ١٧، ٤٢: ٢٤٧ / ٤٩، ٦٤: ٣٦٠ / ٦٣.

أما إذا أصبح الصباح فإنك تجده في السوق يتفقّد أحوال الرعيّة، أو تجده في مسجد الكوفة علىٰ دكّة القضاء يقضي بين الناس، أو تجده في حاجة أهله مارّاً في السوق يحمل بردائه شيئاً من التمر ويأوي إلىٰ البيت، وهو يرتجز:

أفلحَ من كانت له قوصرّة ... يأكل منها كلّ يوم مرّة[١]

ولا يكاد يضع الطعام عند أهله حتىٰ يخرج، فتجده عند جارية كانت قد اشترت سلعة لأهلها وأبوا قبولها، فأعادوها إلىٰ بائع السلعة الذي رفض إرجاعها، فوقفت تبكي، فيسأل علي البائع: «لم لا تُرجع لها السلعة؟». فيدفعه قائلاً: وما أنت وذاك؟ ويأتي الناس ليسلّموا علىٰ الإمام علي بإمرة المؤمنين، فيرتعد هذا الرجل ويقول: سيدي، ارضَ عني. فيجيبه بقوله: **«ما أرضاني عنك إذا وفيت الناس حقوقهم»**[٢]. ولم يكلّمه بشيء.

ومع كلّ تلك الأماكن التي تجده فيها تجد ثغراً لا تفارقه البسمة، حتىٰ قال قائلهم: إن فيه دعابة[٣]. ولعمري ما كانت دعابة، ولكنها البشر الذي يطفح علىٰ وجوه المؤمنين، والانطلاقة التي يحتّمها الخلق العالي:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ ـ قرر، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

(٢) الغارات ٢: ٧١٤، الأمالي (الطوسي): ٥٦٥ / ١١٧٤، منتخب مسند عبد بن حميد: ٦٢، كنز العمال ١٣: ١٨٣ / ٣٦٥٤٧. أي أنه لم يجعل اعتذار الرجل إليه سبباً لرضاه عنه، بل جعل أداء حقوق الناس هو السبب في ذلك؛ لأنه يرى نفسه كأي أحد من المسلمين في المعاملة، وأن لا أثر لتولّيه الخلافة في ذلك. ولعلّنا لا ننسى قول ابن حنبل حينما ذكروا عنده الإمام عليّاً: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإن عليّاً قد زان الخلافة». الهداية الكبرى: ١٢، شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، تاريخ بغداد ١: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٤٦. أي أنه لم يتّخذ الخلافة وسيلة للتعالي على الناس.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

فـإذا مـا رقـقت أو بشّ وجـهٌ	قــيل تــلعابة كـثير المـزاحِ
واستَزادوا فقيل لا رأي في الحـر	ب له رغــم أنـــه ابــنُ كـفاحِ
وعــجيبٌ أن يُـغوِزَ الرأي قـرماً	عاش بين القَنا وبيض الصِّفاحِ
عركته الزحوفُ وهو ابـن عشـر	وتـــفرّىٰ أديـــمُه بـــالسلاحِ
الوجـــوهُ المُشَـــوَّهات بـديهٌ	لصقُها العيبَ بالوجوهِ الصباحِ

فعلي‌عليه السلام جمع بين الأضداد، فهو الزاهد الذي يذوب في قلب المحراب، وهو الاجتماعي الضاحك.

وكمثل آخر على جمعه بين الأضداد جمعه بين الصلابة والصرامة وبين الرقّة، فكلّنا يعرف مثلاً أن الذي يعيش بين الدماء والسيوف والأعضاء المقطّعة يحمل ملامح شرسة، ووجهاً شديد الصلابة والصرامة، ولا يوجد في نفسه شيء من الرقّة، ولكن حينما نمرّ في سيرة هذا الرجل نجد أخلاقه غاية في اللطف والرقّة. طلب يوماً من أحد غلمانه ماء، فلم يجبه، حتىٰ كـرّر الطـلب ثـلاثاً. فـقال له: «لمَ لم تجبني؟». قال: أمنت عقوبتك. قال: «الحمد لله الذي جعل عبدي يأمن عقوبتي، اذهب فأنت حرّ لوجه الله».

ومرّ ما بين أجساد تتراقص بدمائها بعد وقعة البصرة التي طارت فيها الرؤوس، حتىٰ دخل دار المرأة ـ وقد أفرد لها داراً خاصّة ـ وما كاد يضع قدمه في باب الدار حتىٰ انبرت له امرأة تقول: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم الله ولدك. فما حمله ذلك علىٰ الغضب، ولا فارق بشاشته، ولا عكر طبعه المليء بالرقة، وإنما أجابها والبسمة تعلو شفتيه: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة». وكان في الغرفة عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم والوليد[1]، وأنماط من هذا النوع الذي

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بـن شـدقم): ١٤٧،

لا تلتقي عن ذمّه الشفتان. هذا هو هدوء علي وتلك هي رقّته، وهو الذي يأخذ السيف ويغوص في لهوات الحرب وهو يرتجز ويقول:

«ما تنقم الحرب العوان منّي بازل عامين حديث سنّي[1]

سنحنح الليل كأني جنّي لمثل هذا ولدتني أمّي»[2]

لقد جمع علي الأضداد في صفاته، ورحم الله الصفي الحلّي:

جُمِعتْ فِي صِفاتِك الأضدادُ فلهذا عزّت لك الأندادُ

خُلُق يُخجِلُ النسيمَ من اللُّطـ ـف وبأسٌ يَذوب منه الجَمادُ[3]

وهلمّ معي هذه الليلة لنقف على علي.. على جبين معصوب بعصابة صفراء، والدم تحت العصابة ما يزال آنذاك طريّاً، وهلمّ معي لنسبر أغوار روحه، هذه الليلة جيء إليه بقاتله في حالٍ كان السم قد أخذ من رأسه مأخذاً، ورأسه في حجر ابنه الحسن، وعائلته تنشج من وراء الستار نشيجاً خفياً، وما كاد بصره يقع على قاتله ابن ملجم حتى قال: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله، والله لقد شربت اللبن ونسيت أن أترك لأسيركم منه، بالله عليكم اسقوه من شرابي، وأطعموه من طعامي. فإن عشت فأنا وليّ دمي، وان متّ فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثّلوا

☚ تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥. والمرأة التي قالت له ذلك هي صفيّة بنت الحرث الثقفيّة امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي.

(١) البازل من الإبل: الذي تمّ له ثماني سنين ودخل في التاسعة، وحينئذ يطلع نابه وتكمل قوّته، ثم يقال له بعد ذلك بازل عام وبازل عامين. يقول: أنا مستجمع الشباب مستكمل القوّة. النهاية في غريب الحديث ١: ١٢٤. أو هو الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بزل. يريد أنه عرك الحروب وهو صغير السن.

(٢) مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان) ٢: ٥٦٩، مناقب علي بن أبي طالب (الخوارزمي): ١٥٨ / ١٨٧.

(٣) ديوان صفي الدين الحلي: ٨٨.

بالرجل؛ فإن المثلة حرام ولو بالكلب العقور، وأن تعفوا فذلك أحبّ إليَّ»[١]. ثم أطبق جفنه وهمهمت شفتاه بذكر الله، وأخذت حبّات من العرق تترقرق علىٰ جبينه.

ومدّ الإمام الحسن عليه السلام يده إلىٰ جيبه واستخرج منديلاً وراح يمسح به العرق عن وجه أبيه، وهو يقول: «أبة، أراك وقد تكلّل جبينك عرقاً؟». قال: «بني إن المؤمن إذا نزل به الموت عطف عِرنينُه، وسكن حنينُه، وعرق جبينه»[٢].

يقول سويد بن غفلة: غدوت أنا وجماعة إلىٰ دار أمير المؤمنين عليه السلام، فسمعنا النحيب من داخل الدار، فما استطعنا أن نسكت، وعلا نحيبنا، فخرج الحسن عليه السلام فقال: «إن أمير المؤمنين يقول لكم: ارجعوا».

يقول الأصبغ: فرجع الناس إلّا أنا لم تطاوعني قدماي، فرجع الإمام الحسن عليه السلام وقال: «ألم أقل لكم: ارجعوا؟». فقلت: سيدي، والله لا تطاوعني قدماي. قال: «ادخل». فدخلت، ولمّا وقع بصري علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء، والله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكيت عند ذلك فالتفت إليَّ أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «يا أصبغ لا تبكِ، إنها والله الجنّة». قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنّة ولكني أبكي لفراقك. عند ذلك سمعت النساء قد علا ضجيجهن بالبكاء[٣]:

الليله مسه المحراب خالي	يـعماد خـيمتنا يـغالي
مـا چـنت اظـن لنّ الـليالي	بيك اتـغدر وتـخيّب آمـالي

---

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

(٢) قطعة منسوب ذيلها لأمير المؤمنين عليه السلام من خطبته خالية من الألف، انظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمّال ١٦: ٢١١ / ٤٤٢٣٤، وعليه فليس فيها: إن المؤمن إذا نزل به الموت.

(٣) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

كان أولاده إلىٰ جانبه إلّا بنتاً واحدة ذهبت إلىٰ مسجد الكوفة.. إلىٰ محراب خلا من أمير المؤمنين عليه السلام فجلست تمطره بدموع عينيها:

يا محراب ابوي اجيت اناجيك اصبّن ادموع العين وارويك
من طاح ابويه وانطبر بيك صدگ شيبته من ادماه تسگيك

* * *

هذي المحاريبُ أينَ القائمون بها والليلُ مُرخٍ من الظلماء أستارا

﴿٤٧﴾

بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام

أأبـا الحُسـينِ وتِـلكَ أروعُ كـنيةٍ وكِـلاكُـما بـالرائـعات قَـمينُ
لكَ فـي خَـيال الدهـرِ أيُّ مَـلامحٍ تَـروي السَّـنا ويُـتَرجِـمُ النَّسـرينُ
في الصـبح أنت المُسـتَجِمُّ منَ الـظَّما واللَّـيل فـي المـحرابِ أنتَ أنـينُ
تكسـو وأنتَ قـطيفةٌ مَـرقوعةٌ وتَـموتُ مِـن جـوعٍ وأنت بَـطينُ
آلاؤك البـيضاءُ طـوَّقتِ الدُّنـا فَـلها عـلىٰ ذِمـمِ الأنـامِ دُيـونُ

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: شعاع من حياته عليه السلام

وأنت تواجه علي بن أبي طالب عليه السلام يأخذ الشعاع ببصرك، فلا تدري من أية ناحية تلج إلىٰ مضمونه ومعناه. وهناك نافذة فتحها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله نريد أن ندخل إلىٰ علي عليه السلام من خلالها، تلك هي التي حددها يوم الخندق لمّا نزل علي عليه السلام لقتال عمرو بن عبد ودّ، فقد رفع رأسه وقال كلمته التي كانت وما تزال ترنّ في سمع الدهر: «برز الإيمان كله إلىٰ الشرك كلّه». وهذه الرواية يرويها المسلمون، مفسّروهم ومؤرّخوهم[1] كافة. فما معنىٰ هذه النافذة التي يفتحها النبي صلى الله عليه وآله لنلج منها إلىٰ مضمون علي عليه السلام؟

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ١٩: ٦١، ينابيع المودّة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

المبحث الثاني: محطّات مضيئة

المحطّة الأولىٰ: ولادته ﷺ في الكعبة

عند التأمّل في سيرة هذا الرجل منذ أن دخل الحياة إلىٰ أن خرج منها ـ وان كان في الواقع لم يخرج منها بسوىٰ الجسم ـ نجد أن في حياته لحظات حاسمة في تأريخ الإسلام، فقد دخل الحياة عن طريق أقدس بقعة في نفوس المسلمين وهي الكعبة مهوىٰ أفئدة الناس. وهذه منقبة لا يشكّ بها المسلمون، وقد تغنّىٰ بها الأُدباء، ورعفت بها الأقلام، واهتزّ لها التأريخ، وتبنّتها العواطف. وفي اعتقادي أن تلك المنقبة وإن كانت عظيمة كبيرة له، لكنها لا تزيد في شخصيّته شيئاً؛ لأنه ﷺ لو كان عنده في حياته نقص أو كان يُعْوِزه سبب من أسباب العظمة لالتمسنا له العظمة من خارج ذاته، لكن ذاته مليئة بالعظمة، فولادته في الكعبة المقدّسة ما طهّرت له قلباً مرّ به الشرك أو الكفر فهو لم يشرك طرفة عين، ولا أضافت مجداً إلىٰ جبهة ما عفّرت بالسجود للأصنام فهو قد كرّم الله وجهه عن السجود للصنم. فعلي ﷺ ولد وكان الله يملأ قلبه، ونور الإيمان يعمر حياته، والوحدانيّة تأخذ عليه أبعاده، فلم يسجد لصنم قط. ولكن الله تعالىٰ أراد بهذه المنقبة لعلي ﷺ أن يردّ الجميل لهذه البقعة المقدّسة التي انطلقت منها كلمة التوحيد بقلب الكعبة بأن يكون ﷺ المدافعَ عن هذه الكلمة بتحطيم الأصنام والقضاء علىٰ آلهة تعبد من دون الله، وله ﷺ أيضاً ـ كونه المدافعَ عن دينه ـ بأن جعل ولادته في بطن الكعبة. يقول السيّد الهندي:

لما دعاك الله قدماً لأن ... تولد في البيت فلبيتة

جزيته بين قريش بأن ... طهرت من أصنامهم بيتة[1]

---

(١) ديوان السيد رضا الهندي: ٢٥، الغدير ٦: ٢٢.

ماذا أقول لمن حطت له قدم

فعندما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة الشريفة عام الفتح جلس وقال: «يا علي، إن الله أمرني أن أُحطمّ هذه الأصنام، اجلس حتى أرقى على منكبك». يقول علي عليه السلام: «قلت بلى يا رسول الله. فجلست ووضع رسول الله صلى الله عليه وآله رجله على عاتقي، فأردت أن أقوم فما استطعت، وحاولت أن أنهض فلم أتمكن، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لي: تَنَحَّ، ثم جلس وقال لي: ضع رجلك على عاتقي. فأحجمت وقلت له: يا رسول الله رجلي لا تطاوعني. فقال لي: ضع رجلك على عاتقي، إن الله أمرني بذلك. فوضعت رجلي على عاتقه فنهض بي، فوالله لو شئت أن أطال السماء لطلتها»[1].

ثم صعد علي عليه السلام إلى أعلى الكعبة وجعل يأخذ الصنم ويضرب به الآخر ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[2]، وعمد إلى الأصنام وجميع آثار الشرك فأزالها عن بيت الله[3].

وإذا كان في هذا البعد قد حطم الأصنام المادّية فقد حطّم فيما بعد الأصنام المعنويّة في نفوس الناس، فقد حطّم الأصنام التي قامت في النفوس على العصبيّة والطمع والإلحاد، فجاء ليملأ النفوس بأنوار الإيمان، وليهذّب السلوك من شوائب الشرك، وليلعلع أُنشودة على فم الدهر، مهمّتها أن تزيح الإلحاد والشرك من كلّ بعد من أبعاد الحياة، فنادى بأعلى صوته بأن الناس «صنفان: إما أخ لك في الدين،

---

(١) وفي ذلك يقول أبو نوّاس:

وعلي واضع رجلاً له ... بمكان وضع الله يدهْ

وقال آخر:

ماذا أقول لمن حطّت له قدم ... في موضع وضع الرحمن يمناهُ

انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٩ ـ ٤٠٠، نهج الإيمان: ٦١١.

(٢) الإسراء: ٨١.

(٣) قريب منه في نهج الإيمان: ٦٠٧.

وإما نظير لك في الخلق»[1].

وقد ترىٰ بعضهم يعبد رباً ولكنه يعبد ربّاً مجسّماً، ولذا يقول القرآن: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[2]، ووقف علي عليه السلام ليقول: «**من قرنه فقد ثنّاه ... ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه**»[3]. وقد وضع بهذا دستوراً للوحدانية؛ ليزيل من نفوس الناس الأوهام العالقة، وليحقّق التوحيد في المضمون، وفي السلوك الاجتماعي. فـ«**ما عرض له أمران أحدهما لله والآخر لنفسه إلّا اختار الذي هو لله علىٰ الذي هو لنفسه**»[4]؛ إيماناً منه بأن الله هو خالق العباد، وهو المتفرّد بالعبادة، فيجب أن يلحظ وحده.

المحطّة الثانية: ياعلي أنت أخي في الدنيا والآخرة

ومن بعد هذا المنزل الذي تفرّد به في ولادته في الكعبة والذي لم يتأتَّ لأحد قبله ولا بعده، تفرّد بشيء آخر ألا وهو المهد الذي نشأ فيه، فهل تجد مهداً منذ أن خلق الله الدنيا مثل المهد الذي نشأ فيه علي عليه السلام؟ كلّا وألف كلّا، فمهده صدر رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد تلقّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بين ساعديه، واحتضنه وأحنىٰ عليه يقبّله ويضمّه إلىٰ صدره، ويوجره[5] اللبن ساعة شربه، ويهزّ مهده وينام قربه ويطوف به شعاب مكّة:

لقد تَرعرَعتَ في حِجرِ عليه لذي	**حِجرِ براهينُ تعظيمٍ بها قُطِعَا**

---

(١) نهج البلاغة / عهده عليه السلام إلىٰ مالك الأشتر، الرقم: ٥٣.

(٢) يوسف: ١٠٦.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١.

(٤) من حديث للإمام زين العابدين عليه السلام وقد ورد بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة. انظر الكافي ٨: ١٦٣ / ١٧٣، الإرشاد ٢: ١٤١، بحار الأنوار ٤١: ١٢٩ ـ ١٣٠ / ٤٠، وغيرها كثير.

(٥) الوجر: أن يوضع الدواء أو الماء أو غيره في حلق الصبي. لسان العرب ١٥: ٢٢٠ ـ وجر.

ربيبُ طه حبيبِ اللهِ أنتَ ومَن　　　كانَ المُرَبّي لهُ طَه فقد بَرَعَا[1]

فكان هذا المهد صدراً نقل إلىٰ الدنيا الخير والنور والوحي والقرآن. لقد حصل علي عليه السلام علىٰ مهد لم يتسنَّ لأحد أن يحصل عليه، لقد رفعه ذلك الصدر وأحنىٰ عليه وغذّاه وربّاه وترك بصماته عليه، فكانت آداب رسول الله صلى الله عليه وآله وأخلاقه وسيرته الطابع المميز لعلي عليه السلام في مسيرته في هذه الحياة، وذلك هو الذي يفسّر لنا مؤاخاة رسول الله صلى الله عليه وآله له، عندما آخىٰ بين كلّ اثنين من أصحابه وترك علياً عليه السلام وحده، فجاءه وعيناه تطفحان دموعاً، يقول عليه السلام: «قلت: يا رسول الله أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟». قال: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»[2]:

لو رأىٰ مثله النبيّ لآخا　　　ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ[3]

يقول عبد الباقي العمري:

يا أبا الأوصياء أنت لطه　　　صهره وابنُ عمّه وأخوهُ

إن لله في معانيك سرّاً　　　أكثر العالمين ما عرفوهُ

أنت ثاني الآباء في منتهىٰ الدو　　　ر وآباؤه تُعدّ بنوهُ

خلق الله آدماً من تراب　　　فهُوَ ابنٌ له وأنت أبوهُ[4]

(١) البيتان لعبد الباقي العمري. الأنوار العلوية: ٣٩، ٣٤٥.

(٢) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مثلها، انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

(٣) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠.

(٤) الغدير ٦: ٣٣٨.

وهكذا ولج ﷺ الحياة من أقدس بيت، وترعرع في أقدس مهد، واحتلّ أعظم مكانة في نفوس المسلمين.

المحطة الثالثة: دفاعه عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ

ثم جاء المنزل الثالث، فقد هبط جبرئيل يحمل أول سورة من السماء ليقرع بها سمع النبي محمد ﷺ، فولج الإسلام إلىٰ الدنيا عن طريق سمعه ﷺ؛ فهو المبلغ الأوّل لرسالة السماء، فكان أوّل سمع ولجته كلمة الوحي هو سمع ابن أبي طالب ﷺ عندما هبط جبرئيل ﷺ يحمل قوله تعالىٰ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾[1]، فراحت تلك السورة تقرع سمع ابن أبي طالب[2] الذي احتضن القرآن ورعاه فكراً ومضموناً، وحمله شعاراً، وذاد عنه بسيفه، ووقف يتّخذ منه دستوراً للحياة في كلّ ما قال وما فعل وما بلّغ.

خرج الرسول ﷺ يحمل القرآن علىٰ يديه، فشرعت له الرماح وسلّت له السيوف، وازبأرّ الشرك يريد القضاء عليه.. برز ﷺ وحيداً تكاد السيوف والرماح تشتجر فيه والأحقاد تأكله، ويكاد المشركون يزلقونه بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر[3]، ووقف علي ﷺ ويده علىٰ قائم سيفه يذود عنه ﷺ ويدأب علىٰ حمايته

---

(١) العلق: ١ ـ ٢.

(٢) الذي نزل فيه قول تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الحاقة: ١٢. انظر: جامع البيان، المجلّد: ١٤، ج٢٩: ٦٩ / ٢٦٩٥٤، شواهد التنزيل ٢: ٣٦١ ـ ٣٧٨ / ١٠٠٧، ١٠٠٩، ١٠١١ ـ ١٠١٣، ١٠١٦ ـ ١٠٢١، ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥، ١٠٢٧ ـ ١٠٢٩، كنز العمّال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٥ ـ ٣٦٥٢٦، فيض القدير ٣: ٦٠، وقد قال بعد نقل جملة من الأحاديث في فضله ﷺ: والأخبار في هذا الباب لا تكاد تحصىٰ. أو هو ما يروىٰ من أنه ﷺ كان إلى جنب رسول الله ﷺ في غار حراء لمّا نزل عليه الوحي، وسمعه، وقد مرّ في الصفحة: ٢٧ من هذا المجلّد.

(٣) تضمين لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ القلم: ٥١.

في الليل وهو نائم، وفي النهار وهو يبلّغ رسالات ربّه، فكان ألزم له من ظلّه. فكان للرسول ﷺ من علي عليه السلام سيف، ومن أبي طالب عليه السلام حماية، ومن فاطمة بنت أسد رعاية، وهكذا ترعرع من قبلُ نبينا محمد ﷺ في بيت علي عليه السلام. وإذ الناس ترمي الرسول ﷺ بالحجارة والجنون، وتتّهمه بكلّ تهمة يقف عليه السلام ومن ورائه بيته، وينتفض سيفٌ له وحمايةٌ لأبي طالب لتحدب على النبي ﷺ حتى يؤدّي رسالته:

ولولا أبــو طــالب وابــنه	لما مثُل الدينُ شخصاً فقاما
فــهذا بــمكّة آوى وحــامى	وذاك بيثرب شام الحسـاما
تكــفّل عــبد مــناف بأمر	وأودى فكــان عــلي تــماما
فلله ذا فـــاتحاً للـــهدى	ولله ذا للــمعالي خــتاما[1]

هذا أخي ووزيري

ثم كانت مرحلة التبليغ، وأمرت السماء النبي محمّداً ﷺ أن يبلّغ الأدنى فالأدنى؛ لأن الأقربين أولى بالمعروف[2]، وحمل الرسالة، فلابدّ من قرع أسماعهم أولاً بالرسالة، وأمر النبي ﷺ علياً عليه السلام أن يجمع بني عبد المطلب، فجمعهم، ووقف رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم بعد أن صنع لهم علي عليه السلام طعاماً وكان فخذ جزور وعسّاً من اللبن، وكان عددهم أربعين فأصدرهم شباعاً، ولم ينقص من الطعام شيء، ثم قال لهم رسول الله: «لو قلت لكم وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، هل

---

(١) الأبيات لابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤، وانظر الصراط المستقيم ١: ٣٣٤، الدرجات الرفيعة: ٦٠.

(٢) تضمين لقوله تعالى: ﴿وَالأَقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُتَّقِينَ﴾ البقرة: ١٨٠.
قال العجلوني: «(الأقربون أولى بالمعروف) قال السخاوي: ما علمته بهذا اللفظ، ولكن قال النبي ﷺ لأبي طلحة: «أرى أن تجعلها في الأقربين»... وفي أسنى المطالب: اشتهر على الألسنة: «الأقربون أولى بالمعروف»، وليس بحديث خلافاً لمن زعمه، لكن يشهد له قصّة أبي طلحة، وقوله تعالى ...». ثم ذكر الآية الكريمة أعلاه. كشف الخفاء ١: ١٦١ / ٤٨٦.

كنتم تصدقونني؟». قالوا: بلىٰ، لأننا ما عرفنا منك كذبة وأنت الصادق الأمين. قال: **«والله لقد جئتكم بخير ما جاء به وافد إلىٰ قومه، قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا»**.

فقام إليه عمّه أبو لهب وقال له: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك. فهبط القرآن الكريم ليقول: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[1].

ولم تؤثّر تلك الواقعة في نفس النبي ﷺ أبداً، فكرّر الدعوة وأمر علياً عليه السلام بصنع الطعام ففعل، ووقف رسول الله ﷺ ليقول لهم: **«من منكم يتبعني علىٰ هذا ليكون أخي ووزيري وخليفتي من بعدي؟»**. فلم يقم إلّا علي عليه السلام، وهو أصغر القوم سنّاً، يقول عليه السلام: **«قلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس. وفي الثانية قمت فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس»**. وفي الثالثة أمسكه من رقبته فقال: **«هذا أخي ووزيري وخليفتي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا»**.

فخرج القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: إنه يأمرك بطاعة ولدك[2].

الله تعالىٰ يباهي الملائكة بعلي عليه السلام

ومرّت الدعوة تأخذ طريقها بين الشدّة والعسر والامتحان، وأحياناً بين الحراب والسيوف إلىٰ أن قُدّر لها أن تمرّ بأمر حاسم؛ فإما أن تموت بموت حاملها وإما أن تنتعش. واجتمعت قريش في دار الندوة، وقررت ألّا يفلت منهم النبي محمد ﷺ، وتوقّفوا فيمن يقدم ويقوىٰ علىٰ قتله، حتىٰ انبرىٰ لهم أبو سفيان فقال: نأخذ من كلّ قبيلة رجلاً ونعطيه سيفاً، ونأمرهم أن يدخلوا عليه دفعة واحدة ويضعوا السيوف فيه فيذهب دمه هدراً بين القبائل، فيصعب علىٰ بني هاشم أن يطلبوا بدمه. فقرّ رأيهم علىٰ ذلك، ووُضعت السيوف بأيدي الرجال المنتدبين لذلك فحاصروا البيت.

---

(١) المسد: ١، مناقب آل أبي طالب ١: ٤٣. (٢) شرح الأخبار ١: ١٠٧.

وبات رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قرع الوحي سمعه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]، فأمره جبرئيل عليه السلام أن يهاجر في تلك الليلة، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وتبعه أبو بكر والثالث، لكنّه لم يصل معهما، وكان قبل خروجه استدعىٰ الإمام علياً عليه السلام فقال له: «ياعلي». قال: «بلىٰ يا رسول الله». قال: «إن الله أمرني أن أُضجعك مكاني هذه الليلة وأن تعتجر بردائي وتنام مكاني». فالتفت إليه الإمام عليه السلام قائلاً وفي نفسه الإذعان الكامل: «يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلم؟». قال: «بلىٰ». قال: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا».

وبات علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله، فلما أصبح الصباح هجموا عليه فانبرىٰ لهم بسيفه قائلاً: «ما وراءكم؟». قالوا: أين محمد؟ قال: «أوتركتموني عليه حارساً؟». وشهر السيف في وجوههم، فكرّوا عنه راجعين. وقد خلدت السماء هذه اللحظة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾[2]، وهبط جبرئيل وميكائيل كلّ منهما يقول: «بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب، من مثلك وقد باهىٰ الله بك ملائكة السماوات»[3]:

ومناقبٌ لك دون أحمدَ جاوزت	بمقامك التوصيفَ والتّحديدا
فعلىٰ الفراش مبيتُ ليلك والعِدا	تُهدي إليك بوارقاً ورُعودا
فرقدتَ مثلوجَ الفؤادِ كأنّما	يُهدي القِراعُ لسمعكَ التّغريدا
ووقيتَ ليلتهُ وبِتَّ مُواسِياً	بالنّفسِ لا فَشِلاً ولا رِعديدا
رصدوا الصّباحَ ليُنفِقُوا كنزَ الهُدىٰ	أوَما دروا كنزَ الهُدىٰ مَرصودا

---

(١) الأنفال: ٣٠. (٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ ـ ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ٢٠٤.

يـا مُـنشِئ الأفـلاكِ والأمـلاكِ بـل   لولاكَ ما عَرفَ الوجـودُ وجـودا[١]

وتلك الليلة لم تكن الأُولىٰ التي نام فيها الإمام علي ﷺ في فراش رسول الله ﷺ، فقد أَلِف فراشه ثلاث سنين متتالية يوم حوصر بنو هاشم في الشعب، ويوم وقف أبو طالب ﵁ وبنوه الأربعة، فكان يضجع رسولَ الله ﷺ ساعة ثم ينقله ليضع علياً ﷺ مكانه ثم ينقله ليضع أحد ولده مكانه وهكذا[٢].

حامي ظعينة الرسول ﷺ

وهاجر النبي ﷺ، وقالت قريش: إذا كان محمد قد أفلت منّا بشخصه فلن يفلت منا أهله وعياله. وبعث النبي ﷺ إلىٰ علي ﷺ «أن احمل إليّ الفواطم». وحمل علي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، ومرّ بقريش وهي في أوج كبريائها وغطرستها، فتحدّىٰ تلك الكبرياء، ووقف ليقول: «هذه ظعينة محمد ﷺ، وأنا خارج بها، ومن أحبّ منكم أن يتبعني فليفعل».

وخرج، وعزّ علىٰ قريش أن يتحدّاها صبي لم يجاوز العشرين إلّا بقليل، فتبعه ثمانية من أبطال قريش ومعهم عبد لأُميّة بن حرب يقال له جناح، حتىٰ إذا بلغوا محلاً فيه راعٍ يرعىٰ الغنم سألوه: هل مرّت بك ظعينة لمحمد؟ قال: نعم، مرّ بي ابن أبي طالب، وقد سلك هذا الطريق. فتبعوه، فلمّا أحسّ بهم علي ﷺ قال لأبي واقد الليثي وأيمن ـ وكانا يقودان النياق ـ: «انزلا». فنزلا، فقال: «اعقلا النياق وأنزلا الفواطم». ففعلا، وأخذ علي ﷺ سيفه وأقبل عليهم، فقالوا له: أتخرج بظعينة محمد من بين ظهرانينا؟ عُد. قال: «وإن أبيت؟». قالوا: لابدّ من عودتك، قال: «لا والله».

---

(١) الأبيات للكعبي، وقد مرّت في ج١ ص٧٨ من كتابنا هذا.

(٢) روضة الواعظين: ٥٣.

فبدره العبد بضربة راغ علي عليه السلام، عنها ثم ضربه ضربة قدّته ووصلت إلىٰ سرج الفرس. فتراجع الثمانية وقالوا: كُفّ سيفك عنّا يابن أبي طالب. ثم كرّوا راجعين، وكرّ لظعينته يحميها وهو ماشٍ علىٰ قدميه، حتىٰ مجلتا، وظهرت فيهما القروح، فتلّقاه رسول الله صلى الله عليه وآله يبارك قدمين سعتا في سبيل الله، ويداً ذادت عن عيال رسول الله صلى الله عليه وآله، فاحتضنه ومسح علىٰ رجليه واعتنقه وأبىٰ أن يدخل إلىٰ دار هجرته إلّا وساعده بساعد علي عليه السلام، وحطّ علي عليه السلام رحله بالمدينة[1].

سجدت رؤوسهم لديك

وفي المدينة واجه النبي صلى الله عليه وآله الحرب بكلّ ضراوتها وقد أطبقت العرب علىٰ قتاله، ووقف علي عليه السلام في هذا المنزل سيفاً لا تثلمه الحوادث، ورمحاً لا تكسره النوازل، وعزيمة لا تهزم. ودونك تأريخ الغزوات، فهذه غزوة بدر التي يسميها التأريخ أُم الوقائع؛ لأن وجود الإسلام كان متوقّفاً علىٰ نصر المسلمين في تلك الواقعة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: **«يا رب، لئن هلكت هذه العصابة فلن تعبد علىٰ وجه الأرض»**[2]. ووقف ثلاثمئة وثلاثة عشر مجاهداً من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله في مقابل جموع قريش بكبريائها وعنجهيّتها وسلاحها، وكان فيها علي عليه السلام الوجه الأوّل. فكان عدد القتلىٰ آنذاك سبعين قتيلاً، منهم خمسة وثلاثون بيد عليّ عليه السلام، والنصف الآخر اشترك به الجيش بأجمعه. وكانَ في طليعة القتلىٰ عتبة وشيبة والوليد الذين قالوا لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله: أخرج إلينا أكفاءنا من قريش. فأخرج لهم ثلاثة من الأنصار فقالوا لهم: ارجعوا فلستم لنا بأكفاء.

فلما رجعوا نادوا النبي صلى الله عليه وآله ثانية: أخرج لنا أكفاءنا من قريش. فقال صلى الله عليه وآله: **«قم يا علي، وقم يا حمزة، وقم يا عبيدة»**. فقاموا، والتقىٰ عبيدة بشيبة، وحمزة بعتبة،

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٦٤ ـ ٦٦.

(٢) جامع البيان، المجلّد: ٦، ج ٩: ٢٥١.

وعلي﵇ بالوليد، فقتل علي﵇ الوليد ورجع ليرىٰ عمّه حمزة يصاول عتبة، فقال له: «طأطىء رأسك يا عمّ»، فضرب رأس عتبة فأرداه، وشدّا معاً علىٰ شيبة فقتلاه وحملا عبيدة ومخّ ساقه ينتثر علىٰ الأرض[1]:

وغـداةَ بـدرٍ وهـي أمّ وقـائعٍ	كـبُرت ومـا زالت لهُـنَّ وَلودا
قـابلتَهُنَّ فـلم تَـدعْ لعـقودها	نَـظماً ولا لنِـظامِهِنَّ عـقيدا
فالتاحَ عتبةُ ثـاوياً بـيمين مَـن	يُـمناه أردت شـيبةً ووليـدا
سـجَدت رؤوسـهمُ لديك وإنّـما	كان الذي ضُربت عليه سُجودا

نداء السماء: لا فتىٰ إلّا علي

ثم جاءت محطّة أُخرىٰ في طريق الإسلام وهي واقعة أُحد، يوم وقفت قريش وهي موتورة وزغاريد النساء وراءها تملأ الأُفق:

نـحنُ بـناتُ طـارقْ	نمشي علىٰ النـمارقْ
الدُّرُّ بـالمخانقْ	والمِسكُ بـالمَفارقْ
إن تُـقبِلوا نُـعانقْ	أو تُـدبِروا نـفارقْ

فِـراق غـيرِ وامِـقْ[2]

وكتيبة أُخرىٰ تسمع منها:

إيـهاً بـني عـبد الدارْ	إيـهاً حُـماةَ الأدبـارْ[3]

وحامل اللواء يرتجز:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣١١، مجمع البيان ٤: ٤٤١، بحار الأنوار ١٩: ٢٢٥، ٢٥٤، ٢٩٠.

(٢) شرح الأخبار ١: ٢٧٣، تاريخ الطبري ٢: ١٩٥، ولم ينقلها بتمامها.

(٣) شرح الأخبار ١: ٢٧٣، تاريخ الطبري ٢: ١٩٦، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٧، البداية والنهاية ٤: ١٨ باختلاف في لفظ «إيهاً».

إنَّ عـــلىٰ ربّ اللـــواء حــقاً   أن يخضبَ الصَّعدَةَ أو تَندقَّا(١)

فكان ذلك المنظر قد بعث الرعب في النفوس وزلزل الأقدام، ووقف علي‌عليه السلام وبيده سيفه وبين أضلاعه النفس المطمئنّة والقلب الذي لا تهزّه الهزائز، ونزل إلىٰ حامل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري وأرداه بضربة من ضرباته، فخفّ أخوه للّواء فأرداه علي‌عليه السلام قتيلاً، وخفّ أخوه الثاني فأرداه بسيفه، وهكذا حتىٰ أرداهم علي‌عليه السلام بأجمعهم، وكانوا سبعة من ولد عبد الدار. فجاء غلام لهم فحمل اللواء فأرداه علي‌عليه السلام قتيلاً.

وسقط اللواء وانهزم الجيش، ولكن المسلمين خذلوا النبي‌صلى الله عليه وآله ولم يأخذوا بقوله، فترك الرماة مكانهم ونزلوا ليغنموا، فدارت الدائرة علىٰ المسلمين، وفرّ الناس عن رسول الله‌صلى الله عليه وآله، وصاح إبليس: قتل محمد. ولم يبقَ مع النبي إلّا أربعة عشر، سبعة من المهاجرين ومثلهم من الأنصار، ووقف بعض كبار الصحابة علىٰ الجبل يقول أحدهم للآخر: دعوا عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان.

ووقف علي‌عليه السلام يدافع عن رسول الله‌صلى الله عليه وآله في ذلك الموقف، يقول له النبي‌صلى الله عليه وآله: **«ذُد عني هذه الكتيبة»**، فيذودها، ويقول له: **«ادفع عني هذا الخصم»**. وهو يقاتل، والعبّاس بن عبد المطلب ينادي: يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، هذا رسول الله، ويحكم ثوبوا إليه.

ووقف علي‌عليه السلام حتىٰ انتهت المعركة ووقف جبرئيل يهزّه الإعجاب لينادي بين السماء والأرض: **«لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتىٰ إلّا علي»**(٢).

---

(١) هو عثمان بن أبي طلحة، أخو طلحة الذي قتله أمير المؤمنين‌عليه السلام في المعركة عينها. شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٦.

(٢) انظر القصّة كاملة في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٤ ـ ٢٥٠، وانظر: الكافي ٨: ١١٠ / ٩٠، الإرشاد ١: ٨٧، علل الشرائع ١: ٨ / ٣، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٢. كما أن بعض المصادر قد

برز الإيمان كلّه إلىٰ الشرك كلّه

ومرّت معارك ومعارك، ولعلّ من أبرزها الخندق، يوم وقف المسلمون والرعب يملأ قلوبهم. ورسول الله ﷺ ينادي: «من لعمرو، وأنا ضامن له علىٰ الله الجنّة؟». فلم يفزع سوىٰ ذلك الفتىٰ الذي نزل إلىٰ المعركة، فضرب عمراً ضربة راغ عنها فقطعت فخذه وسقط إلىٰ الأرض. فجثا علي عليه السلام علىٰ صدره، وبصق عمرو في وجهه، فمسح علي عليه السلام وجهه وانتظر حتىٰ هدأت عنه حدّة الغضب ليقتله قتلة خالصة لله، فاحتز رأسه[1] ورجع وهو يقول:

نصرَ الحجارةَ من سَفاهَةِ رأيِهِ ... ونصرتُ ربَّ محمدٍ بصوابي

فضربتُه فتركتُه متجَدّلاً ... كالجذعِ بينَ دكَادِكٍ وروابي

وعففْتُ عن أثوابِه ولوَ انني ... كُنتُ المُجَدَّل بَزَّني أثوابي

لا تَحسبُنَّ اللهَ خاذلَ دينِه ... ونبيِّه يا معشرَ الأحزابِ[2]

وكانت قولة النبي ﷺ آنذاك: «برز الإيمان كله إلىٰ الشرك كله»[3].

ويكفينا عن يوم خيبر ما يقوله الأزري:

وله يوم خيبر فتكاتٌ ... كبرت منظراً علىٰ من رآها

يومَ قال النبيّ إني لأعطي ... رايتي ليثَها وحامي حماها

☚ نقلت أن نداء جبريل عليه السلام هذا كان في وقعة الأحزاب، انظر: رسائل المرتضىٰ ٤: ١١٩، ١٢٣، ونقل بعضهم أنها يوم بدر، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٧١. وقد صاغ الحديث حسان بن ثابت شعراً، انظر الغدير ٢: ٥٩.

(١) الإرشاد ١: ٩٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ١٣٢.

(٢) شرح الأخبار ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٦، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٣٣ ـ ١٣٤، البداية والنهاية ٤: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ١٩: ٦١، ينابيع المودّة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

فـاشرأبّت أعـناقُ كـلّ فـريقٍ ... ليـروا أيّ مـاجد يُـعطاها
فـدعا أيـن وارثُ العلم والحلـ ... ـم مجيرُ الأنـام من بأساها
أيـن ذو النـجدة الذي لو دعـته ... بـالثريا مَـرُوعةٌ لـبّاها
فأتـاهُ الوصـيُّ أرمـدَ عـينٍ ... فَسـقاها مـن ريـقِهِ فشـفاها
وبـرىٰ مَـرحَـباً بكـفّ اقـتدار ... أقـوياءُ الأمـلاكِ مـن ضُـعَفَاها[1]

ورجعت أُخت عمرو[2] وأهله يفتخرون بقتله علىٰ يـد عـلي عليه السلام، ذلك البـطل الذي كانت العرب تعتبر الفرار عيباً إلّا من سيفه.

أما إذا رجعنا إلىٰ تأريخ الفكر عند علي عليه السلام فسنجده اللسان المدافع والفكـر المكافح والثروة العقليّة التي تتجنّد لرفع لواء «لا إله إلّا الله»، وعـنوان الفـصاحة والبلاغة التي تتدفّق سيلاً عرماً، ونجده رمزاً من رموز العدل الذي قلّ أن تحظىٰ الدنيا بنظير له.

أفبعد ذلك لا نعرف معنىٰ كلمة النبي صلى الله عليه وآله: «برز الإيمان كله إلىٰ الشرك كله»؟ لقد كان الإسلام في لسان علي عليه السلام وسيفه وسلوكه وخلقه:

أخو الذكرِ والمحرابِ إنْ جنّ ليـلُهُ ... وصِنوُ القَنا والسّيفِ إن طلّع الفجرُ
وفـارسُ مِـضمارِ البَـيانِ بـنَهجِهِ ... تَلاقىٰ البيانُ الجَـزلُ والفِكَـرُ الغُـرُّ
تزوّدَ مـنهُ كُـلُّ عـصر كـما اشـتهىٰ ... ومـا زالَ للـدُّنيا بـمزوده ذخـرُ

---

(١) من قصيدة الشيخ كاظم الأزري المعروفة بالأزرية. انظر: تخميس الأزريّـة: ٦١، شـجرة طوبىٰ ٢: ٢٩٠.

(٢) وهي أُم كلثوم، وكان أن ارتجزت قائلة:

لو كـان قـاتل عـمرو غـير قـاتله ... لكـنت أبكـي عـليه آخـر الأبـدِ
لكـن قـاتله مـن لا يـعاب بـه ... وكـان يـدعى أبـوه بـيضةَ البـلدِ

شرح نهج البلاغة ١: ٢٠ ـ ٢١، ذيل تاريخ بغداد ٢: ١٩٨.

فسلام عليك أبا الحقّ يوم ضمّتك الكعبة وليداً، ويوم حملك محمدﷺ طفلاً، ويوم تلقّيت الوحي صبيّاً[1] من فم حامل الرسالة، وسلام عليك بطلاً دافع عن الحقّ، وبياناً يطرب الدهر بتغريده، وعدلاً يتمنّاه كلّ مستضعف في الأرض، وسلام عليك في مثل هذه الليلة جريحاً يضمّك محراب مسجد الكوفة، ودماؤك تسيل، وأهل بيتك يسمعون النداء بين السماء والأرض: **«تهدّمت والله أركان الهدىٰ، انفصمت والله العروة الوثقىٰ، قتل أتقىٰ الأتقياء، قتله أشقى الأشقياء»**[2].

وهنا أقبل الناس يُهرعون من كلّ جانب وهم ينادون: واسيداه، وأقبلت عائلته إلىٰ المحراب فوجدته قد أخذه نزف الدم وهو ملقىً علىٰ محرابه:

أسمع علىٰ المحراب ونّه حامي الحمه مجروح اظنّه

بادر إليه الحسن والحسين﴿عليهما السلام﴾ فحملاه من المحراب، وعياله من ورائه:

بعيد البله يا حارس الدين يثمال اليتامىٰ والمساكين

مخضب بدم راسك يبو حسين

أبو حسين ما تمّم صيامه لفه العيد واولاده يتامه

---

(١) المعلوم أنه﴿عليه السلام﴾ وإن أسلم صبيّاً لكن إسلامه مقبول صحيح، فهو السابق في الإسلام كما نصّ عليه العلماء من الفريقين. وكدليل على هذا انظر احتجاج المأمون على يحيى بن أكثم وغيره من العلماء، والذي أورده ابن عبد ربّه في الجزء الخامس من (العقد الفريد)، وكذلك انظر ردود أبي جعفر الاسكافي ـ أحد المتكلّمين من معتزلة البغداديّين، وله تصانيف معروفة، مات سنة(٢٤٠)هـ ـ على شُبه الجاحظ الواهية في شرح نهج البلاغة ١٣: ٢١٥ ـ ٣٠٦، باب: القول في إسلام أبي بكر وعلي﴿عليه السلام﴾ وخصائص كلّ منهما.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦.

﴿٤٨﴾

الرياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِيْنَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: حمل فعل المؤمن علىٰ الصحّة

من الأوّليات في العقيدة الإسلاميّة حمل فعل المؤمن علىٰ الصحّة، فعندما أرىٰ مسلماً يقوم بلون من ألوان التصرّفات فإني أحمله علىٰ الصحّة؛ لأنه مسلم تربّىٰ ضمن بيئة إسلاميّة، وعقائد إسلاميّة؛ ولذا فإنني أستبعد أن يصدر منه ما ينافي الإسلام، فإذا لم يُحمل الفعل علىٰ الصحّة فإن ذلك يكون إهانة، وهي ضدّ التكريم الذي حباه الله به. والإنسان مكرم فضلاً عن كونه مسلماً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٢].

المبحث الثاني: آثار الرياء ومضاعفاته

فالمسلم يُفترض فيه النقاء والوضوح والواقعيّة، فيحمل كلّ فعل له علىٰ الصحّة، فإن تحوّل المسلم إلىٰ مُراءٍ فإنه يكون قد أساء من ثلاث جهات:

---

(١) الماعون: ٦ ـ ٧.

(٢) الإسراء: ٧٠.

١- أنه يكون قد قدّم معدناً سيّئاً ونموذجاً غير إسلامي.

٢- أنه يكون قد ارتكب ما يخيّب ظنّ الناس به.

٣- أنه بفعله هذا يجعلنا نُسيء الظن بالآخرين أيضاً.

ولذلك يقول الإمام العسكري أو الإمام الهادي أو غيرهما من الأيمّة﵈ ـ علىٰ اختلاف في نسبة هذا القول ـ: «إذا كان زمانٌ العدلُ فيه أغلب من الجور، فحرام أن تظنّ بأحد سوءاً حتى تعلم ذلك منه، وإذا كان زمانٌ الجورُ فيه أغلب من العدل، فليس لأحد أن يظنّنّ بأحد خيراً حتى يبدو ذلك منه»[1].

فإذا كان في المحيط الاجتماعي وضوح وصفاء وفضيلة وتربية طيّبة، فالإنسان لا يمكنه أن يظن بالناس شرّاً، وإذا كان فيه دغْل[2] وغلّ وازدواج في الشخصيّة، فهنا يكون من البله أن تظن بالناس خيراً. وهذا المعنىٰ هو الذي جعل بعض الناس يسجّل تجاربه وهي تجارب أليمة، فتجده يقول:

جـميعُ النّـاسِ خَـدّاعٌ ... إلىٰ جـانبِ خَـدّاعِ

يَـعيثُون مَـعَ الذّئبِ ... ويَـبكونَ مـع الرّاعـي

وهذا الشاعر لا بدّ أن يكون حتماً قد مرّ بتجربة قاسية وسوء ظن بالناس؛ لأنه تعامل مع محيط مُراءٍ مليء بالدجل. وبعكسه من يتعامل مع محيط نظيف فإنه يأخذ عنه صورة وانطباعاً طيّبين.

وبين الرياء والنفاق فرق؛ إذ الرياء طلب الدنيا بالعبادة، فيتّخذ المرائي من العبادة شركاً إلىٰ الدنيا. وهذا أخسّ ما يمكن أن يصل إليه الإنسان؛ لأنه يتاجر

---

(١) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ١٤٢ / ٢٨، بحار الأنوار ٢٧: ١٩٧ / ١٧، مستدرك وسائل الشيعة ٩: ١٤٥ / ١٠٥٠٤.

(٢) الدغل: العيب الذي يفسد الأمر. المعجم الوسيط ٢: ٢٨٨ ـ دغل.

بأقدس شيء في الحياة، وهو عبادة الله جلّ وعلا.

أنواع الرياء

وموضوع العبادة ينبغي أن يكون خالصاً لله عزّ وجل. وللرياء أبعاد؛ فتارة يظهر علىٰ اللسان، وتارة علىٰ التصرّفات والسلوك، وتارة علىٰ المظهر.

فقد تجد من يكون رياؤه بلسانه، فيظهر علىٰ لسانه ما ليس عنده من تلك الدرجة من الصلاح. أو أن يلبس اللباس القصير الخشن؛ ليظهر بمظهر الزهد للناس، وهو خلاف ذلك.

وهناك أقسام وألوان متعدّدة للرياء يستعملها الإنسان ويريد أن يصل عن طريقها إلىٰ قلوب الناس؛ لأنه يدرك أن الناس توقّر المتديّن العابد. ومن هنا أصبح خطر الرياء كبيراً. تقول الرواية: «**يقول الله عز وجل: ثلاثة أنا بريء منهم يوم القيامة: رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقّه**»[1].

فالرجل الأوّل أعطي بالله فجعل من الله سلعة يتاجر بها ويصل بها إلىٰ غرض معيّن، والرجل الثاني إما أن يبيع الإنسان الحرّ قسراً، أو يشتريه من أهله الفقراء فيستعبده في حين أن الإنسان خلقه الله حراً[2]. أما الثالث فهو من يشغّل العامل ويسرق منه حقّه بأساليب مختلفة للسرقة إما بنظريّة من النظريّات كالرأسماليّين الذين يقولون: إنهم يعطون العامل أجور الكفاف، وهي الأُجور التي تكفي للأكل والشرب والمسكن؛ بحجّة أن الزائد الذي يعطىٰ له لو كان ضمن ثمن السلعة فإن ثمن السلعة سيرتفع وعند ذاك لا يمكن المنافسة في الأسواق بسلعة مرتفعة الثمن.

---

(١) المغني ٤: ٣٠٢، الشرح الكبير ٤: ١٤.

(٢) قال الإمام علي عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً». نهج البلاغة / الوصيّة: ٣١.

ومن ناحية إخرىٰ أنه يمكن أن يترفّه العامل فيما لو أُعطي فوق الكفاف، وترفّهه معناه زيادة التوالد عند العاملين، وارتفاع عدد السكان، وبالتالي سوف يزيد عدد العمال ويقل الأجر[1] إلىٰ غير ذلك من المبرّرات التي يضعها الرأسماليّون لعدم زيادة أجر العامل. وهذا في واقعه سرقة مقنّعة.

أمّا وفق النظرية الثانية ـ وهي النظريّة الشيوعيّة ـ فيسرق العامل بطريقة أُخرىٰ هي أنه يقال له: أنت جزء من المجموع، ونحن نأخذ منك قدر استطاعتك، ونعطيك قدر عملك، ولكن بعد أن نأخذ منك الحقّ العام، للمستشفيات والمدارس والشوارع وغيرها. ويبقىٰ العامل يكدّ ويكدح طول عمره وجهوده ضائعة ضمن جهود الآخرين. ولهذا حُرّم في الشريعة الإسلامية شركة الأبدان، كأن يتّفق ثلاثة أن يعملوا سويّة في محلّ، ويكون العائد من الربح بالتساوي؛ لأن الأعمال تختلف من فرد لآخر، فهناك الأضعف والأقوىٰ والأذكىٰ ومتوسّط الذكاء... إلىٰ آخره. ومن هذا قبيل المزارع التعاونيّة، وكل هذا سرقة، لكنها سرقة مقنّعة.

الفرق بين الرياء والنفاق

فالرياء غير النفاق؛ لأن النفاق هو أن يقول الإنسان ما لا يعتقد، كمن يظهر الإيمان وهو كافر، أو يتظاهر بالصلاة وهو لا يعتقد بها، أمّا الرياء فأنْ يظهر من الخشوع ما ليس عنده. وهذا هو الفرق، فالمرائي بالصلاة يصلّي حقيقة لكنه يُظهر للناس من الخشوع ما ليس عنده. دخل رجل علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: إني أُريد أن أقول فيك شيئاً. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم»**[2].

---

(١) أي أنهم يخدعون العامل بأن يقولوا له: إننا إن أعطيناك أكثر زاد نسلك وكثر عددك وبالتالي يقل أجرك أكثر عمّا تأخذه الآن.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٠.

ودخل ابن ميّادة علىٰ جعفر بن أبي سليمان ـ من أعمام المنصور ـ فمدحه بأبيات، فأمر له بمئتي ناقة فأخذ يد جعفر فقبّلها وقال: والله ما قبّلت يد قرشي غيرك إلّا يد هشام بن عبد الملك. فقال له جعفر: تلك يد ما قبّلتها لله. فقال ابن ميّادة: ويدك والله ما قبّلتها لله. فقال له جعفر: والله لا ضرّك الصدق عندي، ادفعوا له مئة ناقة أُخرىٰ[1].

ويختلف العلماء في أي المسارين أفضل في العمل: هل يظهر الإنسان أعمال الخير أو يخفيها؟ فإنَّ اظهارها قد يكون فيه شائبة رياء. وهنا أُمور لابدّ من توضيحها؛ فالواجبات بإجماع المسلمين يستحسن إظهارها كالصلاة الواجبة والصيام مثلاً؛ والسبب أن المكلّف في مثل هذه الأحوال يَجبُّ الغيبة عن نفسه، ويمنع من الشكّ فيه أنه بعيد عن الدين. أما المستحبّات فتكون عرضة للرياء؛ ولذا يكون إخفاؤها أفضل؛ لأنه يكون عرضة للثناء الذي يؤثّر تأثيراً شديداً علىٰ الإنسان. مرّ أحد الصلحاء علىٰ رجل سجد سجدة الشكر فأطالها، فقال له: والله لو كانت في بيتك لكانت أفضل.

حالتان لاستحباب إظهار البرّ

فالعمل المستحبّ يستحسن إخفاؤه إلّا في حالات، منها:

الحالة الأولى: خلق القدوة

وذلك فيما إذا عرف أنه إذا أظهر العمل الصالح فسوف يكون ممّن يقتدي به الآخرون، فمن الناس من يحمله ذلك على الإحسان؛ لأنه يحمل روح التنافس في العمل الصالح. وليس في التنافس بأس، قال تعالىٰ: **﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾**[2].

---

(١) المستطرف من كلّ فنّ مستظرف ٢: ١٥. (٢) المطففين: ٢٦.

الحالة الثانية: حفظ العرض

وذلك فيما إذا كان الهدف من الإنفاق حفظ العرض، فخير المال ما وُقي به العرض.

عصر الأجواد

وكمثال على ذلك أن الإمام الحسن﵇ عاش عصراً يسمّىٰ عصر الأجواد. والسبب في انتشار ظاهرة الجود تلك أن العرب قبل الإسلام كانوا غاية في الفقر، فلمّا جاء الإسلام درّت عليهم الدنيا أموالاً لا حدود لها، فقصدتهم الناس، وكثر العطاء، فنشأ الإمام في مثل هذه الأجواء، وعاصره جماعة من الأجواد. فدخل عليه يوماً شاعر فأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له أحد الجالسين: تعطي شاعراً يقول البهتان ويعصي الرحمن خمسين ألف درهم؟ فقال: **«إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك، وإن من ابتغاءِ الخير اتقاءَ الشرّ»**[1].

فقد يصبح الإنسان عرضة للشر، ويكون عرضه معرضاً للشتم؛ فقد تُنعت بأنك صاحب أموال لكنك لا تعطي، فلست بالجواد الذي يوصل الخير إلىٰ الناس. فعليك في مثل ذلك أن تتقي هذا الشر؛ فخير المال ما وقيت به العرض.

ولا تتصوّر أن الإمام الحسن﵇ يخاف من شتم هذا فليس هو ممّن يخاف الشتم وهو الذي تعرّض للشتم في وجهه فلم يهتمّ لهذا، فقد وقف أحدهم في طريقه فقال له: أنت ابن أبي تراب؟ قال: **«نعم»**. قال له: (بك وبأبيك)، وراح يشتمه، فلم يردّ عليه الإمام وتركه حتىٰ شبع من الشتم، ثم قال له: **«أحسبك غريباً؟»**. قال: نعم. قال: **«هلمّ بنا إلىٰ الدار، فإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت فقيراً أعطيناك، وإن كنت محتاجاً واسيناك»**. فالتفت إلىٰ الإمام﵇ قائلاً: لقد

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٣٥٨ / ٣٥، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠.

دخلت إلىٰ المدينة وليس علىٰ وجه الأرض أحد أبغض إليَّ منك ومن أبيك، وسوف أخرج وليس أحد عليها أحبّ إلي منك ومن أبيك[١].

فلم يكن الإمام الحسن عليه السلام يخشىٰ الشتم وإنما يخشىٰ قالة السوء: إنه يملك أن يعطي للضعيف فلم يعطه، ويملك أن يكرم الأديب فلم يكرمه.

فالعبادات من حيث الإظهار والإخفاء أقسام، فمنها ما يستحبّ إخفاؤه ومنها ما يستحبّ إظهاره. فصدقة السر يستحبّ إخفاؤها لأنك في ذلك تحفظ ماء الوجه لمن تعطي، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٢]، فالمحروم هو الذي يمنعه الحياء وتمنعه الكرامة أن يسأل.

المبحث الثالث: المراد من ﴿الماعون﴾

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، وفي الماعون أكثر من اثني عشر رأياً، أهمها ثلاثة:

الرأي الأوّل: أنه الحقّ الشرعي

والمراد به الزكاة عند المذاهب الإسلاميّة[٣]، وعند الشيعة الزكاة والخمس[٤].

لكن لمَ أسماه القرآن ماعوناً؟ فالماعون في اصطلاحنا هو الإناء الذي نضع فيه شيئاً من طعام وغيره.

والجواب: أن الحقّ الشرعي إنما يسمىٰ ماعوناً؛ لأنه هو الذي يملأ الماعون،

---

(١) الأنساب ٣: ٤٧، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

(٢) الذاريات: ١٩، وقال جلّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ المعارج: ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) الرسالة (الشافعي): ١٨٧ / ٥١٧ ـ ٥١٨، مغني المحتاج ٢: ٢٦٣، ٢٦٤، جواهر العقود ١: ١٦٩.

(٤) تفسير القمي ٢: ٤٤٤، نور الثقلين ٥: ٦٧٨ / ١٥.

فالماعون هو الإناء، وهذا الإناء تارة يكون ماديّاً وأُخرىٰ معنويّاً. فالمادي جسد يحتاج إلىٰ ثوب، ومعدة تحتاج إلىٰ طعام، والإناء المعنوي هو ذهن يحتاج إلىٰ علم، ونفس تحتاج إلىٰ أمان واستقرار واطمئنان وتكريم. فالفقير لا يشعر بكرامة، وإنما يشعر بانسحاق وانحطاط؛ فإن منعت عنه الحقّ الشرعي جعلت من كلّ هذه الأواني فارغة. فالحقّ الشرعي إذن يعود إلىٰ الطبقة المحتاجة.

موارد صرف الخمس

وأود هنا أن أُبيّن مورد صرف الخمس، فكثير من الناس يتصوّر أن الخمس حقّ للعلوي فقط، ولكن الصحيح أن العلوي المحتاج يعطىٰ من الخمس ما يسدّ حاجته، والباقي يرجع إلىٰ بيت المال فيصرف في المصالح العامّة، كالعلاج والتعليم والخدمات الأُخرى.

والخمس من النظريات الضخمة في الاقتصاد، لكن عيبها الوحيد ـ علىٰ رأي البعض ـ أنها جاءت من طريق أهل البيت؈، ولو أنها جاءت من طريق معاوية لكان لها شأن آخر، وإلّا فلا يمكن أن تقوم الدولة علىٰ الزكاة فقط.

والحقوق الشرعيّة تملأ كلّ ماعون؛ لأنها تدعم القوة الشرائيّة للفرد، فتحرّك السوق. والقوّة الشرائيّة تُدعم بتوزيع الثروة بشكلها الصحيح، فالمسلم الضعيف عندما يمتلك النقد يشتري به ما يحتاج من طعام ولباس وغيره فيحرك السوق، وبذا يمتلئ كلّ ماعون.

الرأي الثاني: أنه حاجات البيت

فمنعه يعني منع حاجات البيت عن المحتاج إليها من الأواني والقدور وغيرها، ويقال: إن منها الملح والماء والنار. فلو طلب منك جارك شيئاً من ذلك فلا تمنعه،

فذلك من مكارم الأخلاق. ويستدلّ الفقهاء من هذا المقطع على تشريع الأعارة[١].
والإعارة: هي الإذن بالانتفاع تبرّعاً، أي أنك تسمح لغيرك أن ينتفع بشيء من أدواتك دون عوض. والفقهاء يستدلّون على الاستعارة بهذه الآية، وبقوله تعالى[٢]: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٣].

فموضوع العارية كلّ عين يُنتفع بها مع بقائها. وأنا أستغرب من إدخال الملح والماء والنار في هذا الموضوع، فالملح ومثيلاته لا تبقى بعد الانتفاع بها، فهذه مشتركات عامّة ولا تدخل في موضوع العارية. فالمشتركات العامّة لا تملك، وهي مؤمَّمة تأميماً مطلقاً. فالطاقة بشكل عامّ ـ ومنها النار ـ لا تُملك. وقد وجدت رأياً لأحد الفقهاء المحدثين من غير الإمامية يقول فيه: إن النفط لا يملك إلّا للأمّة باعتباره طاقة عامّة.

يد المستعير يد ضمان أم يد أمانة؟

وقد حدث نزاع بين المذاهب الإسلاميّة في ضمان العارية، فهل إن ما يعار يكون مضموناً أو لا؟ فلو أخذ أحد قِدراً من أحد فتلف هذا القدر، فهل يضمنه أم لا؟ أي هل يد الآخذ يد أمانة أو يد ضمان؟ يقول الشافعي: إن الحاجة تكون مضمونة، ويد الآخذ يد ضمان[٤]. أما باقي المذاهب الإسلاميّة فيقولون: إن يده يد أمانة فلا يضمن إلّا إذا اشترط المعطي الضمان[٥].

---

(١) انظر: تذكرة الفقهاء ٢: ٢٠٩ (حجري)، المجموع شرح المهذب ٦: ٢٤٣.
(٢) تذكرة الفقهاء ٢: ٤٦١ (حجري)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١: ٢٢٢.
(٣) المائدة: ٢.
(٤) انظر الهامش بعد التالي.
(٥) انظر: قواعد الأحكام ٢: ٣٦٢، جامع المقاصد ٦: ٧٨، الشرح الكبير ٥: ٣٦٦، سبل السلام ٣: ١٠٨.

ويستدلّ الشافعي[١] علىٰ ذلك بأن النبي ﷺ لما خرج للقتال في غزوة حنين أو أوطاس رأىٰ أن بعض أصحابه ليس معه سلاح، والنبي ﷺ يعرف أن الله ربط الأسباب بمسبّباتها الطبيعيّة، فلا يمكن تحقيق النصر دون سلاح، وكان المسلمون فقراء لا يستطيعون شراء ما يلزم منه، فبعث إلىٰ صفوان بن أُميّة ـ وكان مشركاً ـ يبيع الأسلحة، فقال له: «أُريد مئة بزّة كاملة من دروع وسيوف وغيرها». فقال: أقهراً يا محمد؟ قال: «لا، عارية مضمونة».

فأعطاه الأسلحة علىٰ هذا الأساس. فقاتل النبي ﷺ وانتصر، وغنم من المشركين غنائم كثيرة. فأتوا إلىٰ النبي ﷺ بسهمه من الغنيمة من بقر وغنم وإبل سدّت ما بين أربع جبال، وكان صفوان واقفاً وقد أعجبته الغنيمة، فرآه النبي ﷺ كذلك، فقال له: «أعجبتك هذه الغنيمة؟». قال: نعم. قال ﷺ: «هي هبة مني إليك». فأطرق صفوان وهو غير مصدق، ثم قال: هذا عطاء من لا يخاف الفقر. مُدَّ يدك، إني أشهد ألّا إله إلّا الله، وأنك رسول الله[٢].

وهكذا هو النبي ﷺ، حيث أدخل بعض الناس إلىٰ الدين من بطونهم لا من عقولهم، كالمؤلّفة قلوبهم مثلاً.

نعم تكون العارية مضمونة في حالات معيّنة، كأن تكون ذهباً أو فضّة، أو صيداً استعاره مُحرم، أو إذا اشترط الضمان عند الإعارة. ويذكر الفقهاء ستّة موارد تكون فيها العارية مضمونة، ومن جملتها الاستعارة للرهن[٣].

---

(١) الأم ٣: ٢٥٠، ٦: ٢٣٥، وانظر: تذكرة الفقهاء ٢: ٢١٤ (حجري)، مختصر المزني): ١١٦، بدائع الصنائع ٦: ٢١٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٥٧.

(٢) انظر تمام القصّة في منتهىٰ المطلب ١: ٥١٩ (حجري)، تذكرة الفقهاء ٥: ٢٥٢، المغني ٧: ٣٢٠، الشرح الكبير ٢: ٦٩٧.

(٣) انظر حاشية ردّ المحتار (ابن عابدين) ١: ٧٣.

الرأي الثالث: أنه الماء

فمنعه يعني منع الماء، والعرب تسمي الماء ماعوناً، يقول شاعرهم:

يمــجّ صبيره الماعـون مجّـاً[1]

فمنع الماعون هنا بأن يكون له بئر فيمنع الناس عن وردها، أو يكون له نـهر فيمنعهم عنه، وهذا لا يجوز. يقول المفسّرون: إن الله خـصّ المـاء بـذلك؛ لأنـه أرخص موجود وأعزّ مفقود[2]. ولذا فإن الاقتصاديّين عندما يـبحثون نـظريّات القيمة وما يؤثّر عليها، يقولون: إن من العوامل التي تؤثّر على القـيمة النـدرة[3]. فالشيء النادر يكون غالياً، أمّا المبذول الكثير فيكون رخيصاً.

ومن العوامل الأُخرىٰ المنفعة، فالمنفعة تحدّد القيمة أيضاً. فبقدر مـا يـحتاج الإنسان إلىٰ الانتفاع بالسلعة تكون قيمتها أكثر، فالإنسان مسـتعدّ لدفـع أغـلىٰ الأثمان مقابل رغيف الخبز لأنه لا يسعه الاستغناء عنه، وكذلك الثـوب وغـيره. ولذلك يقول علماء التفسير: إن أهل النار أوّل ما يطلبون الماء، وأهل الجنة أول ما يسعدون بالماء[4]. فلو وضعت بين يديك آلاف الأنواع من السوائل فهي لا تغنيك عن الماء، يقول تعالىٰ عن أهل النار: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[5]،

---

(١) صدر بيت لم يسمّ قائله، وعجزه:

إذا نسم من الهيف اعتراه

الصحاح ٦: ٢٢٠٥ ـ معن، لسان العرب ١٣: ٤١٠ ـ معن، وفيه أنه المطر.

والصبير: السحاب الأبيض الذي يصير بعضه فوق بعض درجاً. الصحاح ٢: ٧٠٦ ـ صبر.

(٢) فقه القرآن ٢: ٢٨٤، بحار الأنوار ٦٣: ٤٦١.

(٣) وهي قاعدة العرض والطلب.

(٤) كما ورد عن الصادق عليه السلام أن: «سيّد شراب أهل الجنة الماء». مكارم الأخلاق: ١٥٥.

(٥) الأعراف: ٥٠.

ويقول عن أهل الجنة: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾[1]؛ ولذلك سلب الله تعالىٰ ملكيّة الماء وجعلها مشاعة لأهمّيّته.

أجر ساقي الماء وفضله

وقد ورد في الروايات أن «من سقىٰ الماء في موضع يوجد فيه الماء كان كمن أعتق رقبة، ومن سقىٰ الماء في موضع لا يوجد فيه الماء كان كمن أحيا نفساً، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً»[2].

فليس لأحد أن يمنع الماء أبداً. ولو راجعت سير النبلاء في العالم لوجدت أنهم لا يمنعون الماء، فأمير المؤمنين﵇ لمّا ذهب إلىٰ صفين ووجد معاوية قد منع الماء، حاول أن يسترجعه منه بالتي هي أحسن فلم ينفع، وقام شاعر منهم لمّا تظاهر معاوية أنه يستشيرهم في فكّ الحصار عن الماء ليستفيد منه أصحاب علي﵇ فقال له:

اسمعِ اليومَ ما يقولُ سليلُ ... إن قولي قول له تأويلُ

امنع الماء من عُتاة علي ... لا يذوقوه والذليلُ ذليلُ[3]

فالتفت أمير المؤمنين﵇ إلىٰ أصحابه قائلاً: «إن القوم قد استطعموكم القتال». فنزلوا إلىٰ الحرب؛ ومالك الأشتر يرتجز ويقول:

لأوردنَّ خيليَ الفُراتا ... شُعثَ النّواصي أو يقالَ ماتا

حتىٰ أخذوا الفرات عنوة وذادوا عنه أصحاب معاوية. فلما أصبح الصباح علىٰ

---

(١) الدهر: ٢١.

(٢) الكافي ٤: ٥٧ / ٣، الفقيه ٢: ٦٤ / ١٧٢٤، وسائل الشيعة ٩: ٤٧٣ / ١٢٥٢٤ عن الصادق﵇، سنن ابن ماجة ٢: ٨٢٧ / ٢٤٧٤، عن الصادق الأمين ﷺ.

(٣) وقعة صفين: ١٦٢، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٢٠٨، شرح نهج البلاغة ٣: ٣١٩.

أصحاب معاوية نفد ما عندهم من ماء، فبعثوا إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام أن اسمح لنا بالماء، فأرسل الإمام عليه السلام إلىٰ مالك الاشتر أن تخلّ لهم عن صدر الماء. فقال له بعض القادة: هؤلاء بالأمس راموا أن يميتونا عطشاً، فكيف نسمح لهم بوروده؟ فأجابهم عليه السلام: بأن ذلك ليس ذلك من شيم النبلاء. ففسحوا لهم عن صدر الفرات[1]:

وحسبُكُم هذا التفاوتُ بينَنا ... وكلُّ إناء بالذي فيه ينضحُ[2]

يقول الشاعر مخمّساً البيت الذي قبل هذا البيت:

أخذنا عليكم جبهة الأرض والسما ... فلما ملكناكم وسعنا تكرّما

فلما ملكتم لِمْ أبحتم لنا الدما ... (وحللتم قتل الأُسارىٰ وطالما

غدونا عن الأسرىٰ نمنّ ونصفحُ)

معدن بني أُميّة

فأهل البيت عليهم السلام معدن، وأعداؤهم معدن آخر؛ ولذا تجلّت خسّة أعدائهم يوم الطفّ في رضيع له من العمر ستة أشهر، جاء به الحسين عليه السلام تحت ردائه يضطرب كما تضطرب السمكة، فقال لهم: «ويحكم إن كان للكبار ذنب فما ذنب هذا الطفل؟ ويحكم لقد جفّ ثدي أمه من اللبن، خذوه بأيديكم فاسقوه قليلاً من الماء».

ولا زال هؤلاء إلىٰ الآن يعدّون من المسلمين في نظر الكثير من الناس، فماذا كان الجواب؟ كان الجواب أن رموه بسهم ذبحه من الوريد إلىٰ الوريد، فتبسّم الطفل للسهم[3]، يقول أحد الأُدباء:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٣١٧ ـ ٣٢١، وقعة صفين: ١٥٩ ـ ١٦٢، وانظر رجز الأشتر في مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٥١.

(٢) البيت لابن الصيفي. شرح الأخبار ٣: ١٢٩، شجرة طوبى ٢: ٣٠٤.

(٣) وهنا نلاحظ أن التاريخ يعيد نفسه بحذافيره، فالقوم أبناء القوم، وابن اليوم هو ابن الأمس، وهاهم الأُمويّون يكرّرون فعلة معاوية: فلم تكد الأرض تجفّ على من احتضنتهم آنذاك

وكل رضيع يغتذي دَرّ أُمه ... ويرضع من ألبانها ثم يفطمُ
سوىٰ أن عبد الله كان رضاعه ... دماه وغذّته عن الدَّرّ أسهمُ
تبسّم لما جاءه سهمُ حتفه ... وكلُّ رضيع للحَلُوبَةِ يبسِمُ
تَخَيَّلَهُ ماءً ليروي غَليله ... ففاض عليه الغمر لكنه دمُ

فوضع الحسين‏ يده تحت منحره إلىٰ أن امتلأت دماً عبيطاً، فقذف به إلىٰ السماء، وكرّ راجعاً، ثمّ صاح: «رباب، خذي ولدك مذبوحاً»:

كم رضيع لك بالطفّ قضىٰ ... عطشاً يسبق بالراحة راحا

أخذته أُمّه وقد ذهب عنها رشدها، فوضعته إلىٰ جانب المهد تهزّه وهو خالٍ منه، وهي ذاهلة لا تشعر بما تصنع:

خذت سلوتي وظلّيت اسالي ... بـرويحتي والدمـع هـالي
أدورن علىٰ ايميني وشمالي ... أهـز بالمهد والمهد خالي

☚ حتى سارع جيش يزيد إلى منع الماء عن الإمام الحسين‏ وأصحابه، كما فعلها معاوية من قبلُ مع أمير المؤمنين وجيشه في صفّين، بل وكما حاول من قبل أُميّة حينما نازع عبد المطلب زمزماً بعد أن احتفرها، وطلب هو وبعض القرشيّين منه أن يشاركوه فيها أو ينافروه، فأجابهم إلىٰ الثانية، وفي الطريق نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فاستسقوا مَن معهم فأبوا، فأقبل عبد المطلب إلىٰ راحلته فركبها، فانفجر الماء من تحتها، فكبّر هو وأصحابه ونزلوا، فسقى حتّى من منعه. انظر: شرح نهج البلاغة ٧: ٢٧٢، كنز العمّال ١٤: ١٢٢ / ٣٨١١٧.

قال في شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٠٧: «وأُميّة هذا كان صاحب عهار، يدلّ على ذلك قول نفيل ابن عدي جدّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أُميّة وعبد المطلب، فنفّر عبد المطلب، وتعجّب من إقدام حرب عليه وقال له:

أبـوك مـعاهر وأبـوه عـفّ ... وذاد الفـيل عـن بـلد حـرام

وذلك أن أُمية كان قد تعرّض لامرأة من بني زهرة، فضربه رجل منهم بالسيف».

المحتويات

